وسطعنور الحقيقة

مطارحات في الفكر والعقيدة بأسلوب قصصيّ ممتع

تأليف

السيّد فاضل الجابري الموسوي





وسطع نور الحقيقة

مطارحات في الفكر والعقيدة



اسم الكتاب:.............................. وسطع نور الحقيقة

تأليف : .... السيد فاضل الجابري الموسوي

الطبعة : .... الأُولى

تاريخ الطبع: .... ١٤٢٦ هـ

الناشر:.. نصائح

المطبعة : .... قلم

عدد النسخ:.. ٢٠٠٠

القطع: .... وزيري

عدد الصفحات: ٥١٢

تنضيد الحروف والإخراج الفني:......... السيد محسن البطاط

شابك: ٠ ـ ٩٠ ـ ٧٨٨٣ ـ ٩٦٤

وسطعَ نور الحقيقة

مطارحات في الفكر والعقيدة
بأسلوب قصصيّ ممتع

تأليف

السيّد فاضل الجابري الموسوي

الإهــداء

إلى من :

ربّياني صغيراً

ورَعياني كبيراً

وغذياني من العقيدة والولاء وحب المصطفى

وآله النجباء.

إلى أبي الكريم

وأمّي الحنون

أُهدي ثواب هذا الجهد المتواضع.

المقدمة



الحمد لله الذي دل على ذاته بذاته، وتنزه عن مجانسة مخلوقاته، وعلا في أسمائه وصفاته، والصلاة والسلام على أشرف مخلوقاته، الذي اصطفاه من بين عباده، ليكون رسولاً نبياً، وهادياً مهديّا، المحمود الأحمد، المصطفى الأمجد، أبي القاسم محمد، وعترته سفن النجاة والعروة الوثقى ، الذين من تمسك بهم نجا، ومن تخلف عنهم ضل وزل وغوى، لاسيما امام الهدى، وقائد أهل التقوى والأُذن الواعية، الذي هو نفس رسول الله، فكان كما كان، قاب قوسين أو أدنى دنواً واقتراباً من العلي الأعلى وبعد:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي وَ سُبْحَانَ اللهِ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

هناك أسئلة كثيرة شغلت فكر الإنسان من أول وجوده على هذه المعمورة وإلى الآن، وهي التي يعبر عنها بالافكار الفلسفية الأولى، المتمثلة بالسؤال عن مبدأ الإنسان ومعاده ووجوده ما بين المبدأ والمعاد. وهذه الافكار بلاشك أفكار

فطرية ولدت مع الإنسان فهي ليست وليدة ثقافة معينة أو إطار تربوي خاص ولذا نراها مشتركة بين كل أبناء الجنس البشري على اختلاف ثقافاتهم واعتقاداتهم، وهذا ما يفسر لنا سبب صدور الأسئلة من الأطفال الذين لم يستطيعوا بعد تكوين منهج أو نمط آيديولوجي معين.

وفي خضم هذه الأسئلة الحائرة تبلورت الفلسفات والأديان لتحاول الإجابة عنها على قدر ما يتوفر لديها من الآليات المعرفية والأُطروحات الفكرية. ولكنَّ تنوع الاجابات، بل تناقضها وتصادمها جعلت الإنسان يعيش في حيرة أكبر، ومتاهة أوسع، ممّا حدا به إلى تعميق البحث حول هذه الاسئلة وتأصيله من أجل الوصول إلى الحقيقة واشباع تلك الرغبة الفطرية والعقلية في معرفة المبدأ والمعاد.

وعلى هذا الأساس انبثق في الواقع الانساني منهجان لتحديد معالم تلك المعرفة: تمثل الأول بالأديان والآخر بالفلسفات. ولكن الأديان لم تتحدد بإطار واحد وانما تشكلت بأُطر مختلفة وصياغات متعددة وكذلك الفلسفات.

أمّا الاديان فقد انقسمت إلى: أديان إلهية تعتقد بوجود إله حيّ عليم قدير حكيم في العالم العلوي من الوجود، هو الذي خلق هذا العالم والإنسان، وسوف يبعث الإنسان من جديد يوم القيامة ويحاسبه على أعماله في الحياة الدنيا، ولذلك أرسل له الأنبياء والمرسلين، وانزل الكتب التي تبيّن القوانين الالهية المتمثلة بالأوامر والنواهي، والمشتملة على المستحبّات والمكروهات والأخلاق والعقائد وغيرها.

وإلى أديان وثنية لاتعتقد إلّا بآلهةٍ مادية متمثلة بالكواكب أو الأصنام أو بعض مظاهر الطبيعة. وهم بين منكر للمعاد من أصله وبين من يعتقد بالتناسخ

وأنَّ الإنسان إذا كان صالحاً ينتقل بعد وفاته إلى جسد انسان سعيد وإذا كان طالحاً فينتقل إلى جسد انسان معذّب.

واما الفلسفات فقد تشعبت هي الأخرى وتنوعت وانقسمت إلى: فلسفات ميتافيزيقية تعتقد بوجود عالم وراء عالم المادة، وأنَّ في ذلك العالم واجب الوجود الذي يعتبر وجوده أشرف الموجودات وهو خالقها وموجدها.

بينما ذهبت فلسفات أخرى إلى اتجاه آخر وهو الإيمان بعالم المادة والحس فقط، منكرة وجود موجود لا يمكن ان يخضع لقوانين عالم المادة، أو جاعلةً من التجربة والمشاهدة قانوناً لاثبات وجود الشيء أو عدم وجوده.

وأمام هذه المتاهات الكثيرة التي عصفت بالوجود الانساني وفكره وسلوكه، ينبثق الدين الحق كمشعل نور يبدد الظلام ويضيء الطريق امام الحيارى والتائهين ؛ ليحدد الاجابات الشافية لكل أسئلة الإنسان وتأملاته، وليضع منهجاً معرفياً متكاملاً أمامه يستطيع من خلاله أنّ يعتقد ان لوجوده هدفاً وغاية ولم يكن عبثاً ومصادفة. وهذا المنهج مؤسس على قواعد عقلية وفطرية تناغم فكر الإنسان وتطلعاته، وتلبّي كل رغباته وحاجاته، فهي ليست أُحادية متطرفةً أو تنظر له بعين عوراء تفي بجانب على حساب جانب آخر، وإنَّما هي منسجمة مع كل واقع الإنسان وأبعاده المختلفة.

إن العقيدة الدينية هي القادرة على ان تنتشل الإنسان من ضياعه الفكري، وتجعل منه ذا قيمة في الحياة، بل تعطيه أفقاً أوسع وحرية أكبر ليتعدى عالمه المحدود إلى عالم لم تنله الحواس، وتزوده بالطاقة اللازمة للانطلاق إلى هدف عظيم وغاية مهمة هي الله عزوجل، بل وتنعكس العقيدة الدينية على الحياة الاجتماعية والنفسية للانسان، وتجعل له مبرراً منطقياً لعمل الخير

والايثار والعدل وكل الصفات الحميدة التي تخدم المجتمع البشري، وتـخلصه من الأزمات النفسية التي تعصف به، وتزرع الأمل في قلبه وتنتزع منه اليأس الذي قد يؤدي به إلى منعطفات خطرة تتمثل بالجريمة والانتحار وغير ذلك .

ومن هنا كان البحث العقائدي من أهم الابحاث المعرفية على الاطلاق، فهو الذي يزود الإنسان بالمنظومة الفكرية، ويحدد له مـعالم النـظرة الكـونية ويكون هو المستند الاساسي لما ينتهج من ايديولوجية. فالبحث العقائدي ليس ترفاً ذهنياً يقبع في زوايا ضيقه من فكر الإنسـان وسـلوكه، وانـما هـو حـاجة ضرورية جداً ولا يمكن لأيّ انسان عاقل يريد ان يعرف من أين جاء ولماذا جاء وإلى أين ينتهي به المطاف أن يجرد نفسه وان يضرب بـهذا البـحث عـرض الجدار ويعرض عنه بحُجَّة انه لا شأن له بهذه الأفكار ؛ ولذلك تجد هذا التأكيد أمراً مطبقاً عليه بين علماء الإسلام وهو أنه «يجب معرفة اصول الدين بالدليل لا بالتقليد». وهذا في الواقع هو أرقى مستويات الكرامة الانسانية واحترام عقل الإنسان .

وتأتي هذه الحاجة لمعرفة العقيدة في جو مشحون بالتناقضات الفلسفية والآيديولوجية والعقائدية بين مختلف التيارات والأديان والمذاهب، ممّا يجعل الرؤية ضبابية جداً والطريق شائكاً ومليئاً بالمنعطفات، ومن المـؤكد ان الحـق واحد والواقع لا يتعدد فلا بد حينئذ من تحديده والتعرف عليه مـقدمة للأخـذ بتعاليمه والسلوك على ضوء منهجه. وهذا يعني أن يشمر الإنسان عن سواعد الجد، ويبحر في محيط الافكار والفلسفات والاديان والمذاهب بسفينة المعرفة والتحقيق. ومن لطف الله بالإنسان أن زوده بكل ما يحتاجه في رحلته المعرفية والاستكشافية هذه كالعقل والفطرة والهداة من الأنبياء والأئمة بما يحملون من

تعاليم عالية تصلح ان تكون منهجاً معرفياً لمن أراد أن يستفيد منه.

لقد صنَّف العلماء الكثير من الكتب التي تحاول ان تعطي تصوراً للعقيدة الإسلامية وتدافع عن هذا الدين الحنيف بكل ما أُوتيت من معرفة امام اعدائه، سواء أكانوا من الملاحدة والمشركين أو من الاديان السماوية الأخرى. غير ان هذه الكتب الإسلامية اختلفت كلياً أو جزئياً في فهمها للاسلام وعقيدته بمفرداتها الاساسية «التوحيد والنبوة والمعاد»، ولذلك أصبحت كتب العقيدة الإسلامية امام جبهتين: الأولى خارجية متمثلة بالفلسفات والأديان والثانية داخلية متمثلة بالمذاهب والفرق .

وامام هذا الوضع الجديد وجد الباحث عن الحقيقة والراغب في سلوك طريق الهداية نفسه مضطراً لمضاعفة جهوده بشكل اكبر من أجل ان يصل لا إلى الدين الحق فحسب، وإنما للمذهب الحق أيضاً والذي نعني به الفهم الصحيح للدين ؛ لأن المذهب أو العقيدة المذهبية هي في الواقع رؤية معينة لذلك الدين.

ومن هنا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام المصنفات العديدة لعلماء كل مذهب وهم يحاولون اثبات أحقية مذهبهم ورد ما سواه والاجابة عن الشبهات والاشكالات الواردة عليه.

ويأتي مذهب أهل البيت عليهم السلام الذي يتمثّل بالأَمامية الاثني عشرية في طليعة تلك المذاهب، فهو بامتلاكه لفهمٍ خاص للإسلام عقيدة وفقهاً، كتاباً وسنة يختلف في الكثير من الموارد عن فهم الآخرين من المذاهب الكلامية والفقهية؛ لأنّ علماء هذا المذهب يستندون في تصورهم وفهمهم للاسلام إلى منهج صحيح متمثلٍ باتّباع عترة النبي وأهل بيته الذين أوصى هو صلى الله عليه وآله وسلم

باتباعهم في أحاديث كثيرة جداً منها: «إنّي تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما». وقال ﷺ: «مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركب فيها نجا ومن تخلف عنها هلك» وغيرها من الأحاديث التي ستوافيك بالاضافة إلى آيات القرآن الكريم العديدة، هذا ما يخص هذه الفرقة الإسلامية. واما الفرق الأخرى فقد اتبعت غير هؤلاء الذين اوصى النبي باتباعهم، ومن هنا تشتّتوا وتفرقوا فكانوا أحزاباً ومذاهب وشيعاً «كل حزب بما لديهم فرحون».

أمام هذه الضبابية في الرؤية والتعدد في السبل صار حتماً وضرورة ان يتضح سبيل الحق والرشد، فكان هذا الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ بأسلوبه المتميز وبافكاره الشاملة وبسلاسته الممتعة، فقد طرحنا فيه الفهم الصحيح للمنهج المعرفي من خلال مناقشاتنا للماديين والملحدين، وللدين الحق من خلال مناقشتنا للأديان الأخرى، والمذهب الحق من خلال مناقشتنا للمذاهب الأخرى. بالإضافة إلى الجوانب الأخرى أمثال العدل الالهي وحقيقة الموت والمعاد وغيرها، كل ذلك بأسلوب قصصي حواري جميل وممتع خروجاً عن المألوف في طرح الفكر العقائدي، وبسبب الحاجة الماسة لطرح علم الكلام الإسلامي بأسلوب يتناسب مع توجهات المجتمعات الإسلامية في هذا الزمن حيث لم يعد الأعّم الأغلب من الناس يستأنس بالأساليب القديمة المعقدة ولا يتعاطى معها، ممّا سبب فجوة كبيرة وفراغاً واسعاً بين الأمة وبين عقيدتها الأمر الذي سهّل على الفلسفات والتيارات الفكرية والمذاهب والاديان المنحرفة أن تتوغل فيها وتبث سمومها بشكل لا يستهان به، لا سيما ونحن نعيش في

عصر الاتصالات حيث تقاربت الثقافات بشكل هائل، واخذت هذه الثقافات تهاجم المسلمين في عقر ديارهم مستعينة لذلك بوسائل الاتصالات والاعلام الحديثة أمثال القنوات الفضائية والانترنيت وغيرها. الأمر الذي يتطلب أن تُطوَّر وسائلنا وأدواتنا لطرح الفكر الديني والمعرفي والثقافي من جهة، ورد الشبهات والاشكالات التي يطرحها الخصوم للدين والمذهب الحق من جهة أخرى .

منهجية البحث

١ ـ لقد اتبعنا منهج القصة والحوار لطرح أفكارنا حول العقيدة بشكلها الشامل ايماناً منا بأن هذا الاسلوب له تأثير كبير في نفس المتلقي.

٢ ـ كل الشخصيات الواردة في هذه القصص ليست حقيقية وانما هي شخصيات افتراضية فحسب.

٣ ـ لقد استفدنا في هذا البحث من مصادر كثيرة جداً ربت على الثلاثمائة مصدراً من الكتب الإسلامية وغير الإسلامية بشكل مباشر وغير مباشر. ولذا فان جميع الافكار بصياغتها الكلية مستندة إلى المصادر المعتبرة في هذا الفن، ومستنطبة منها.

٤ ـ لقد اضطرنا الاسلوب القصصي ان لا نذكر مصادر الاقتباسات في الهامش ولا أن نضعه بين قوسين رغم كون الامانة العلمية تتطلب منا ذلك ومن هنا أردنا التنبيه على هذه المسألة.

٥ ـ لقد أثبتنا مصادر الروايات من الكتب السنيَّة في مناقشاتنا في موضوع الإمامة في متن الكتاب من أجل الخصوصية التي تكتنف هذا الموضوع ومن

أجل رعاية اسلوب الكتاب .

٦ ـ لقد اكتفينا بما رأيناه مهمّاً من مسائل العقيدة في كل الأصول من التوحيد إلى المعاد وأعرضنا عما لم نرَ أهميته أو عدم الابتلاء به .

ملاحظة :

١ ـ لقد بذلت ما في وسعي من أجل ان يخرج هذا الكتاب بأجمل صورة وحاولت جهد الامكان أن أكون موضوعياً ودقيقاً في طرح الافكار، ولكنّي أُذعنُ رغم ذلك بأنّ النقص والخطأ والغفلة صفات تلازم الإنسان العادي ـ غير المعصوم ـ وان كان هناك أمر حسن فهو بتوفيق من الله عزوجل وان كان هناك نقص وخطأ فهو منّي وأرجو العفو منه عزوجل.

٢ ـ الفضل لله عزوجل في ما منَّ به علينا من نعمة العلم والمعرفة، وكل ذلك ببركة الإسلام العزيز والنبيّ الكريم وأهل البيت الذين اتشرف بالانتساب لهم ولا انسى فضل أساتذتي الكرام الذين تتلمذت على أيديهم في هذه العلوم بشكل مباشر أو غير مباشر.

والحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة والسلام على اشرف الخلق اجمعين محمد وآله الطاهرين .

السيد فاضل الجابري الموسوي

١٥ شوال ١٤٢٣هـ

قم المقدسة



كان سعيد يعشق السفر كثيراً لانه يعتقد بأن السفر ـ اضافة إلى فوائده النفسية حيث يحقق الاستجمام والارتياح النفساني ـ يزوّد صاحبه بخبرة استثنائية؛ لما سوف يتعرف فيه على اشياء لم تكن بالحسبان معرفتها. وكثيراً ما صادف سعيد مثل تلك الامور حين تجواله في اقطار العالم لاسيما في آسيا التي تُعدُّ عند الكثيرين كنزاً من كنوز الأدب والفن، ومنبعاً من منابع الأسرار والعجائب. ولا يقل الحال في الغرب ولكن بشكل وثوب مختلف حيث أشكال المعارف والتقنيات الحديثة ومظاهر البناء المدهشة.

سعيد لم يقرر ان يبدأ مشروعه السياحي كأبن بطوطة إلّا بعد أن نال حظّا من دراسة العلوم الأكاديمية، حيث تخرج من جامعة البصرة بدرجة البكلوريوس في اللغة والآدب. وبعد ذلك قرر ان يتزود من المعرفة الدينية بشكل أكبر ولذا دخل في سلك الدراسات الحوزوية في النجف الاشرف لمدة عشر سنين كاملة. كان نصيبه منها انه نال اعجاب الكثير من العلماء والأساتذة، لما وجدوا فيه من الذكاء الخارق والمواظبة الكثيرة على دروسه. بل راح يوسع معارفه ومعلوماته متزوداً من الكتب الثقافية والفكرية في خارج تخصصاته أيضاً. وبعد ان وصل إلى مرحلة البحث الخارج، واجتاز شوطاً فيه، قرر ان يبدأ مشروعه السياحي، لاسيما وان حالته المادية كانت جيدة للغاية. حيث ان اباه يُعدُّ من تجار البصرة المعروفين ولديه أملاك وأموال كثيرة، وهو الولد الاكبر لأبيه. ولذا كان موضع

اهتمامه وتقديره. واللطيف ان هذا الأب كان من المتديِّنين جداً الذين يريدون بذل كل ما عندهم من أجل الإسلام العزيز ومذهب أهل البيتعليهم السلام، فلذا كان هو المشجع لولده سعيد بان يدخل في الحوزة العلمية حتى يكون من علماء هذه الطائفة المباركة.

قرر سعيد بدء رحلته بعد ان شاور أباه في هذا الموضوع لاسيما وان سعيداً قد شخص بان البشرية تحتاج إلى حركة توعوية تخرجهم من ظلمات الجهل الذي يعيشون فيه إلى روح ونور الايمان الذي يضيء لهم غياهب الظلمات، ويحقق لهم سعادتهم الدنيوية والأُخروية.

كان القرار ان تكون المحطة الاولى في هذه الرحلة هي روسيا ذلك البلد الذي شهد تحولات جذرية غيّرت من مسيرة حركته العالمية من خلال اعتناقه للمذهب الماركسي، وايمانه بالمادية الجدلية، أو جدلية الصراع. ورفض الاعتقاد بالغيب أو الإيمان بالله تعالى وكل ما هو خارج عن الحواس البشرية. وكان ذلك بفضل الثورة البلشفية التي أطاحت بقياصرة ذلك البلد واستيلاء طبقة البروليتاريو. أي الطبقة العاملة على مقاليد السلطة وهم الشيوعيون أو الاشتراكيون كما سموا انفسهم بعد ذلك.

مطارحات

مع

الفكر المادي حول خالق الكون

الرحلة الأُولى:

موسكو

وصل سعيد إلى روسيا وحط رحاله في عاصمتها موسكو وكان الطقس حينها بارداً جداً والثلوج تهطل بغزارة.

جلس هناك في أحد الفنادق إلى ان استقر به المقام، ونال قسطاً من الراحة منتظراً وقت انقطاع ذلك الثلج المتساقط. وفعلاً ـ في صباح اليوم التالي ـ كان الطقس اكثر لطافة واطيب ريحاً. فبادر بالخروج إلى الاماكن التي قرر منذ البدء زيارتها، لاسيما المتاحف وتمثال لينين، والحدائق العامة، والمسارح، والمراكز الفكرية المهمة. وكانت اللغة الانكليزية التي يتقنها عاملاً مساعداً في نجاح مهمته.

وبعد مرور اسبوعين من وجوده في موسكو تعرّف فيها على الكثير من الاشخاص وعلى مختلف المستويات، لاسيما الطبقة المثقفة واساتذة الجامعات. حيث اعُجب به الكثير من الاشخاص نتيجة لأخلاقه الحسنة ولياقته ونقافته. واخذوا يدعونه إلى بيوتهم أو إلى بعض الندوات الفكرية والثقافية خصوصاً بعد ان عرفوا بأنّه مسلم، ولديه ثقافة دينية جيدة. لأنها فرصة لكي يناقشوا معه

بعض المسائل المتعلقة بالله والدين عموماً. وفعلاً كانت هناك نقاشات بسيطة وعلى مستوى مختصر.

وبعد ان مضى على وجوده في موسكو اكثر من شهر وكان قد اخبر أصدقاءه الروس بانه عازم على السفر، دعوه إلى حفلة خاصة على شرفه، ولكنّ بشرط أن تكون هذه الحفلة مؤتمراً فكرياً بين الإسلام والماركسية خصوصاً، والفكر المادي عموماً. يكون هو وشخص اخر محوري هذه الندوة، وبحضور العشرات من الكتّاب والمثقفين والسياسيين. فما كان من سعيد إلا الموافقة ولكن بشرط ان تكون هذه الندوة عبارة عن حوار هادئ وموضوعي يتبع فيه البرهان والعقل والواقع الاجتماعي والنفسي للانسان أي مرتكزاته الفطرية التي يجدها في نفسه .

اللقاء الأول:

دور الدين في الحياة الاجتماعية وضرورة البحث عن الله تعالى

كانت ليلة الجمعة هي تلك الليلة التي قرر فيها انعقاد تلك الندوة. وبعد ان وصل سعيد إلى المكان المخصص وجد الكثير من السادة والسيدات في انتظاره ورحبوا به بحفاوة. وبعد ساعة من المجاملات وتناول بعض الحلويات دخلوا إلى قاعة كبيرة نسبياً، وقد وضع فيها طاولتان إحداهما قريبة من الاخرى قبال الجمهور الذي سوف يحضر هذه الندوة، ويصغي باهتمام إلى ما سوف يدور فيها من نقاش بين الإسلام متمثلاً بسعيد والفكر المادي متمثلاً بجالينوف. وبعد ان استقرا في مكانيهما طلب مدير الندوة من الحاضرين الهدوء ورحّب بالضيفين وطلب من جالينوف أن يبدأ أسئلته لسعيد.

جالينوف: ربما يقال بأن البحث عمّا وراء المادة واثبات خالق للعالم ووجود موجودات عليا مجردة عن المادة واحكامها كالملائكة والعقول والنفوس، بل إنّ البحث عن الدين الألهي وما يلحق به من فروع وموارد ليس له جدوى، ولا يكون نافعاً لحياة الإنسان، حتى وان اقمتم آلاف البراهين على ذلك. وعليه فإنه يعد إتلافاً لوقت الإنسان الذي من الممكن استثماره بالبناء والتطور فتكليف الإنسان بالبحث عن الإله أمر ليس بصحيح في نظرنا.

سعيد: كلا يا صديقي ان الامر ليس كما تذهب فان البحث عن الله والدين وما شاكل ليس من الترف الفكري، ولا هو مضيعة للوقت كما تدّعي . بل ان الإنسان إذا تأمل في واقع الدين سوف يجده ثروة فكرية تقود الإنسان إلى

الكمال والترقي في جميع المجالات المهمة لحياة الإنسان .

جالينوف: مثل ماذا يا سعيد ؟

سعيد: مثل تقويم الافكار والعقائد وتهذيبها عن الأوهام والخرافات.، وكذلك تنمية الأصول الاخلاقية المودعة في نفس الإنسان، وتحسين العلاقات الاجتماعية بين افراد المجتمع، والغاء الفوارق القومية بين الامم والشعوب.

جالينوف: وكيف يستطيع الدين ان يفعل ذلك كما تدّعي يا سعيد ؟

سعيد: ابين لك الامر تفصيلاً يا صديقي العزيز.

إذا جئنا إلى القضية الاولى: اعني تقويم الافكار والعقائد وتهذيبها من الأوهام والخرافات. فسوف نجد أنّ الدين يفسر واقع الكون بأنّه: ابداع موجود عالٍ قائم بخلق المادة، وتصويرها وتحديدها بقوانين وحدود. كما انه يفسر الحياة الانسانية بأنها لم تظهر على صفحة الكون عبثاً، ولم يخلق الإنسان سدى من غير غاية. وانما يجعل الإنسان يعتقد ان لوجوده في هذا العالم غاية مهمة يستطيع الوصول اليها بعد ان يمهد ذلك الخالق له الطريق من خلال تعاليم الأنبياء والهداة المبعوثين من جانبه.

جالينوف: ولكننا لا نؤمن بهذا التفسير ونعتقد بأن الكون خلق صدفة وانه لا يوجد مثل هذا الخالق المزعوم.

سعيد: وهذا هو الفرق بين ما نعتقده نحن الإلهيين وبين ما تعتقدونه انتم الماديين. لأنه على ضوء تفسيركم للكون. أو ما يسمى (النظرة الكونية للواقع والحياة الانسانية)، فنظرتكم للعالم والإنسان تبتني على اساس مادي لأنكم تقولون بان المادة الاولى قديمة بالذات وهي التي قامت واعطت لنفسها هذا النظم العجيب الذي نراه في هذا الكون. وانه لا غاية لها ولا للانسان القاطن

فيها وراء هذه الحياة المادية. اليس كذلك يا صديقي جالينوف ؟

جالينوف: بالتأكيد فهذا ما نعتقده فعلاً .

سعيد: اذن على ضوء معتقدكم هذا وتفسيركم للكون والحياة بهذا الشكل فانكم تقودون الإنسان إلى الجهل والخرافة.

جالينوف: ارجو ان توضح لي كيفية ذلك.

سعيد: لأنه من غير المعقول ان تكون المادة العمياء الصماء التي لا تعقل ولا تدرك هي التي تمنح نفسها هذا النظم البديع. وهل يمكن ان تتحد العلة والمعلول والفاعل والمفعول والجاعل والمجعول ؟ ان هذا ضرب من الوهم والخيال وسقوط للانسانية في بؤرة الجهل والتخلف. وعلى هذا الاساس نصل إلى أن التكامل الفكري انما يتحقق في ظل الدين. لانه يكشف آفاقاً وسيعة امام عقل الإنسان وتفكيره.

[الجمهور، يصفق بحرارة لسعيد. ورئيس الندوة يطلب من الحاضرين الهدوء والأنصات].

جالينوف: لقد ادعيت بان الدين ينمي الاصول الاخلاقية فكيف يكون له ذلك؟

سعيد: لقد ذكرنا قبل قليل بان الدين يمنح الانسانَ تفكيراً عميقاً، وشمولية واسعة. وحينئذ فان الإنسان سوف يصل عن طريق التأمل إلى العقائد الحقّة امثال الايمان بوجود الله الخالق المدبر لهذا العالم، والايمان بالمعاد والخير، وما شابه ذلك. ثم بعد ذلك يؤمن بالانبياء المبعوثين من قبل ذلك الخالق الّذين يرسمون له ـ عن طريق تعاليمهم ـ المنهج الصحيح الكامل، الذي يوصل الإنسان إلى غايته الحقيقية. فتتشكل عند الإنسان منظومة عقائدية

متكاملة. وتلك العقائد هي التي تشكل الرصيد الاكبر للأصول الاخلاقية. لان التقيد بالقيم ورعايتها لا ينفك عن مصاعب وآلام يصعب ـ عادة ـ على الإنسان تحملها. ولكن هناك شيء يمكن له ان يساعد الإنسان في ذلك وهو العامل الروحي الذي يقوم بدور المسهل لكل ذلك. فاذا اخذنا مثلاً التضيحة في سبيل الحق والعدل والامانة وغيرها. فأننا سوف لا نجد لها أي مبرر عقلائي الا ايمان الإنسان بأن هناك خالقاً سوف يعطيه مكافأةً شخصية على هذه التضحية. علماً بأن المجتمع لا يمكنه التخلّي عن مثل هذه المبادىء. فكيف نتصور مجتمعاً ليس فيه حق ولا عدل ولا أمانة ولا أي شيء اخر؟ ولا يمكن ان يتحقق ذلك إلا من خلال اعتقاد الإنسان بان عمله هذا سوف لا يضيع سدى. لأنَّ العقل لا يحكم بوجوب التضحية من اجل الآخرين، بـل يـنظر إلى نـفسهِ ومـصالحها ومقدار استفادتها بل ويطلب من الآخرين ان يضحُّوا من أجله.

جالينوف: هل يعني في نظركم ان الإنسان لا يستطيع تجسيد مثل هذه المبادىء في المجتمع ـ لأنَّ فيها ألاماً وصعوبات ـ إلا من خلال الاعتقاد بالله وما في هذا العمل من الأجر والثواب؟

سعيد: نعم يا صديقي لأنَّ ذلك خير عامل لتشويق الإنسان على القيام بمثل هذه الأعمال وتحمل المصائب والآلام.

جالينوف: وما شأن المجالات الاخرى يا سعيد؟

سـعيد: إذا جـئنا إلى العـقيدة الديـنية فسـوف نـجدها تسـاند الاصـول الاجتماعية لانها تصبح عند الإنسان المتدين تكاليفَ لازمةً. ويكون الإنسان بنفسه منقاداً إلى العمل واجراء التكاليف والقوانين الاجتماعية في شتى الحقول. وكذلك الحال في ازالة الفوارق القومية من فكر الإنسان وسـلوكه، لان الديـن

يعتبر البشر كلهم مخلوقين لمبدءٍ واحد. فالكل بـالنسبة إليـه ـ بـحسب الذات والجوهر ـ كأسنان المشط مـتساوون. ولا يـرى أي مـعنى للـمزيات القـومية والفروقات الظاهرية.

جالينوف: ولكننا نجد اليهود مثلاً يعتقدون خلاف ذلك وعلى الرغم من انهم أهل دين سماوي؟

سعيد: ان هؤلاء انحرفوا عن الدين وهم لا يمثلون الدين الحقيقي. وانما كلامي ـ فعلاً ـ عن الدين الالهي الاسلامي الذي هو الدين الحق وهو خاتم الاديان السماوية.

وبعد ذلك يا صديقي جالينوف أيصحُّ لك بعد ان وقفت على هذه التأثيرات العظيمة للدين والايمان بالله، ان تعتقد بصحة اهمال البحث عنها أو جعلها في زاوية النسيان وانها عبث وترف فكري؟

جالينوف: وهل لك برهان آخر ـ يا سعيد ـ على وجوب تحصيل المعرفة؟

دليل دفع الضرر المحتمل

سعيد: بلاشك يا جالينوف. انه برهان دفع الضرر المحتمل.

جالينوف: وما صيغة هذا البرهان؟

سعيد: انك تعلم جيداً بأنّ هناك مجموعة كبيرة من رجالات الاصـلاح والأخلاق الدينية فدوا أنفسهم في طريق اصلاح المجتمع وتهذيبه، وتوالوا على مدى القرون والاعصار. وكلهم يدعون المجتمعات البشرية إلى الاعتقاد بـالله سبحانه وصفاته الكمالية. وادعوا ان لهذا الخالق تكاليف على عباده ووظـائف فرضها عليهم. وان الحياة لاتنقطع بالموت، وانما ينتقل الإنسان فيها من عالم

إلى عالم اخر وان من قام بتكاليفه فله الجزاء الأوفى ومن خالف واستكبر فله النكاية الكبرى.

جالينوف: هذا صحيح ولكن ماذا تريد ان تستفيد من هذا السرد التأريخي؟

سعيد: أقول : انه من المعروف عن هؤلاء الرجال تاريخياً أنَّهم اناس صادقون غير متهمين بالكذب أو الجنون، بل كانوا في قمة الصدق والعقل والحكمة، وهذا واضح لكلّ من راجع حياتهم وافكارهم. وحينئذ يدفع العقل الإنسان المفكر إلى البحث عن صحة مقالتهم دفعاً للضرر المحتمل الذي قد يقع على الإنسان لو كانوا صادقين بما يقولون. وفي هذا الاطار يروى ان أحد الماديين والمنكرين للواجب تعالى جاء إلى الامام علي بن موسى الرضا ـ سابع أئمةِ أهل البيت عند الشيعة الامامية ـ فقال للامام ما هو دليلكم على وجوب الايمان بالله؟ فقال له الامام: ايها الرجل أرأيت ان كان القول قولكم ـ وليس هو كما تقولون ـ ألسنا وإياكم شرعاً سواء لا يضرنا ما صلينا وصمنا وزكينا وأقررنا؟ فسكت الرجل. ثم قال أبو الحسن ﷺ: وأن كان القول قولنا ـ وهو قولنا ـ فقد هلكتم ونجونا.

جالينوف: لا بد ان نعود إلى اصل الموضوع يا استاذ سعيد لنرى ما هو الدليل العقلي على وجود الله الذي هو محور الدين ومتعلّقاته، واما الأَحاديث السابقة فيمكن الشك فيها أو عدم التسليم بها .

سعيد: على الرغم من ان كلامنا السابق متين وهذا ما يجده كل منصف من نفسه، الّا اللهم ان يريد العناد والمكابرة، ولكن على الرغم من ذلك فسوف نطرح بعض البراهين لاثبات وجود الخالق جلَّ جلاله.

مدير الندوة: تفضل يا سعيد .

برهان النظم

سعيد: اول برهان نطرحه في هذا المقام هو برهان النظم، وهو من البراهين الواضحة التي لا تحتاج إلى اكثر من التفات من الإنسان؛ لأنَّ الإنسان إذا توجه إلى هذا المفهوم فسوف يجد ان من خواصه كونه يتحقق بين امور مختلفة سواء أكانت أجزاء لمُركَّب أم أفراداً من ماهية واحدة أو ماهيات مختلفة. فهناك ترابط وتناسق بين الأجزاء، وتوازن وانسجام بين الأفراد يؤدي إلى هدف وغاية مخصوصة كالتلاؤم الموجود بين أجزاء الشجر، وكالتوازن الحاصل بين حياة الشجر والحيوان.

وعلى هذا الاساس فان برهان النظم يقوم على مقدمتين: الأولى: حسيَّة يراها الإنسان ويعيشها بحسِّه. والأخرى: عقلية يدركها ويؤمن بها عقلاً.

المقدمة الأولى: ان هناك نظاماً سائداً على الظواهر الطبيعية التي يعرفها الإنسان اما بالمشاهدة الحسية الظاهرية، واما بفضل الادوات والطرق العلمية والتجريبية. وهذا واضح لمن تدبَّر في نظام المنظومة الشمسية، وتوابعها الكوكبية، حيث التناسق الكامل بين مسافاتها واحجامها، والجاذبية العامة بينها، وغيرها من الامور الواضحة. وكذا من تدبر في عالم النبات سواء في تركيبه الدقيق أم طريقة غذائه أو ما يأخذه من الهواء، وما يطرحه بشكل يحقق التوازن الكامل في الطبيعة. وهكذا جسم الإنسان وخلاياه وأجهزته المختلفة التي يؤدي كل عضو وجهاز منها دوره بشكل متكامل.

وهذا النظم بهذا الشكل نص عليه القرآن الكريم الكتاب الألهي الذي أُنزل على قلب النبي محمد ﷺ حيث يقول:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

ويقول: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

المقدمة الثانية: إن العقل بعد ما لاحظ النظام وما يقوم عليه من المحاسبة والتقدير والتوازن والانسجام، يحكم بالبداهة بأن أمراً هكذا شأنه يمتنع صدوره إلّا عن فاعل قادر عليم ذي إرادة وقصد. ويستحيل تحقُّقه صدفة وتبعاً لحركات فوضوية للمادة العمياء الصماء. فان تصور مفهوم النظم وانه ملازم للمحاسبةِ والعلم يكفي في التصديق بأن النظم لا ينفك عن وجود ناظم عالم أوجده. وهذا الحكم على نفس الشاكلة التي يحكم بها العقل بأنّ كل ممكن يحتاج إلى علة موجدةٍ وغير ذلك من البديهيات العقلية.

جالينوف: اشكرك يا سعيد على هذا الاسهاب في بيان برهان النظم، ولكن ثمة جملة من الاشكالات التي طرحت على هذا البرهان، ومالم تتوفق للاجابة عنها فسوف لا تكون هناك قيمة علمية لهذا البرهان.

سعيد: انا مستعد للاجابة عن أي اشكال ان شاء الله .

جالينوف: الاشكال الاول: ان برهان النظم لا يتمتع بشرائط البرهان التجريبي لأنّه لم يجرب في شأن عالم آخر غير هذا العالم. ان كلامكم صحيح حيث انا جربنا المصنوعات البشرية فرأينا انها لا توجد الابصانع عاقل كما في البيت والسفينة والساعة وغير ذلك ولكننا لم نجرب ذلك في الكون، فان الكون لم يتكرر وجوده حتى يقف الإنسان على كيفية خلقه وايجاده. ولهذا لا يمكن ان نثبت له علة خالقة على غرار المصنوعات البشرية.

سعيد: لقد اشتبه عليك الأمر يا صديقي، لأنَّ برهان النظم ليس برهاناً تجريبياً، بان يكون الملاك فيه هو تعميم الحكم على اساس المماثلة الكاملة بين الأشياء المُجرَّبة وغير المجربة. وليس هو من مقولة التمثيل الذي يكون الملاك فيها التشابه بين فردين. بل هو برهان عقلي حكم العقل فيه بحكمٍ ما، بعد ملاحظة نفس الشيء وماهيته. وبعد سلسلة من المحاسبات العقلية من دون تمثيل وتسرية حكم كما يتم ذلك في التمثيل والتجربة.

جالينوف: كيف تقول هذا ؛ أو لم تكن احدى مقدمتي هذا البرهان حسّية؟!

سعيد: ان كون احدى مقدمتيه حسّية لا يضرّ بكون البرهان عقلياً. فانّ دورَ الحس فيه ينحصر في إثبات الموضوع أي اثبات النظم في عالم الكون. واما الحكم والاستنتاج فانه يرجع إلى العقل الذي يبتني على المحاسبات العقلية. وهذا نظير ما إذا ثبت بالحس ان هاهنا مربعاً، فان العقل يحكم فوراً بأنّ أضلاعه الأربعة متساوية في الطول. فالعقل يرى ملازمة بين النظم بما يتصف من خصائص أمثال الترابط والتناسق والهدفية وبين دخالة الشعور والعقل.

فعندما يلاحظ ما في جهاز العين مثلاً من النظام، بمعنى تحقيق اجزاء مختلفة كمّا وكيفاً، وتناسقها بشكل يمكّنها من التعاون والتفاعل فيما بينها ويتحقق الهدف الخاص منه، يحكم بأنها من فعل خالق عظيم لاحتياجه إلى دخالة شعور وعقل وهدفية وقصد.

جالينوف: حسناً لقد استطعت الفرار من الاشكال الأول. ولكن ثمة إشكال آخر وهو: ان هناك في عالم الطبيعة ظواهر وحوادث غير متوازنة خارجة عن النظام الذي تذكره فهي لا تتفق مع النظام ولا مع الحكمة التي يوصف بها

خالق الكون كالزلازل والطوفان وغيرها.

سعيد: ان هذا الاشكال لا صلة له بمسألة النظم. فان ما يعد من الحوادث الكونية شروراً كالزلازل والطوفانات لها نظام خاص في صفحة الكون ناشئة عن علل واسباب معينة تتحكم فيها محاسبات ومعادلات خاصة، وقد وفّق الإنسان لاكتشاف بعضها وان بقي بعض آخر منها مجهولاً له .

جالينوف: ولكن هذه الزلازل والفيضانات وغيرها من الشرور ليست ملائمة لمصالح الإنسان وأغراضه الوجودية فكيف يتعلّق بها الخلق إذا كان الخالق حكيماً.

سعيد: ان كون هذه الشرور ملائمة أو غير ملائمة لا صلة له ببرهان النظم، بل يرجع إلى صفات خالق الكون، من انه حكيم عادل لا يصدر عنه ما ينافي العدل والحكمة. وقد عالجه الالهيون قديماً وحديثاً في أسفارهم الفلسفية والكلامية.

جالينوف: طيب يا سعيد ولكن ما المانع من ان نعتقد بأنّ النظام السائد في عالم الطبيعة حاصل من قبل عامل كامن في نفس الطبيعة. أي ان النظام يكون ذاتياً للمادة؟ لأنّنا نعلم بالتجربة أنّ الكون كتلة من المواد، ولكلِّ مادة خاصية معينة لا تنفك عنها، وهذه الخواص هي التي جعلت الكون على ما هو عليه الآن من النظام.

سعيد: أرى أن السيِّد جالينوف اخذ يتنازل عن نظرية الصدفة التي كان يؤمن بها إلى نظرية خاصية المادة التي اخذ الماديون يفسّرون بها النظام الكوني بعد سقوط نظرية الصدفة.

جالينوف: يقطّب حاجبيه متعجباً من ذكاء ونباهة سعيد .

سعيد: يا سيد جالينوف ان غاية ما تعطيه خاصية المادة هي ان تبلغَ بنفسها فقط إلى مرحلة معينة من التكامل الخاص والنظام المعين ـ هذا إذا سلمنا بصحة هذا الكلام جدلاً ـ لا أن تتحسب للمستقبل وتتهيأ للحاجات الطارئة، ولا ان تقيم حالة عجيبة ورائعة من التناسق والانسجام بينها وبين الاشياء المختلفة والعناصر المتنافرة في خواص الانظمة.

مدير الندوة: نرجو من السيد سعيد ان يحاول إيضاح الفكرة عن طريق المثال حتى تعم الفائدة للجمهور.

سعيد: لا بأس بذلك فلنفرض ان خاصية الخليّة البشرية عندماتستقر في رحم المرأة هي التحرك نحو الهيأة الجنينية ثم تصير انساناً ذا أجهزة منظمة، ولكن هناك في الكون في مجال الإنسان تحسباً للمستقبل وتهيؤاً لحاجاته المقبلة لا يمكن ان يستند إلى خاصيةالمادة، وهو انه قبل ان تتواجد الخلية البشرية في رحم الأُم فانها أعدت لأن تكون ذات تركيبة وأجهزة خاصة تتناسب وحياة الطفل. ثم تحدث للأُم تطورات في اجهزتها البدنية والروحية تتناسب وتطورات حياة الطفل .

فهل يمكن يا سيد جالينوف ان نعتبر هذا التحسب من خواص الخلية البشرية وما علاقة هذا بذاك ؟!

جالينوف: ومن اين نثبت ان النظام الموجود فعلاً هو النظام الأكمل، لأنا لم نلاحظ مشابهة حتى نقيس عليه؟ وكذلك من يدري لعل خالق الكون جرّب صنع الكون مراراً حتى اهتدى إلى النظام الفعلي؟ بل حتى لو سلمنا ان برهان النظم قد اثبت الخالق العالم القادر، إلّا أنّه لا يدل على انه يوصف بالصفات الكمالية كالعدالةوالرحمة التي تصفونه بها!!!

سعيد: ان اشكالاتك هذه ناشئة عن عدم وقوفك على فكرة برهان النظم الذي لا يريد اثبات اكثر من ان النظام السائد في الكون ليس ناشئاً من الصدفة، ولا من خاصية ذاتية للمادة العمياء. بل وجد بعقل وشعور ومحاسبة وتخطيط، فله على هذا الاساس خالق عالم قادر.

واما ان هذا الخالق الصانع أهو الله الواجب الوجود الأزلي الأبدي ام لا؟ وان علمه بالنظام الاحسن أهو ذاتي فعلي أم انفعالي تـدريجي؟ وان ا لنـظام الموجود أهو أحسن نظام أم لا؟ فهي امور لا يتكفل بأثباتها هذا البرهان ولا هو في رسالته ومقتضاه. بل لابد في هذا المورد من الاستناد إلى براهين اخـرى، مثل برهان الامكان والوجوب، أو برهان امتناع التسلسل. والاستناد على قواعد عقلية بديهيّة أو مبرهنة مذكورة في كتب الفلسفة والكلام، مثل ان علمه تعالى ذاتي فعلي وليس بأنفعالي تدريجي. وان النظام الكـوني نـاشىء عـن النـظام الرباني ومطلق له، وذلك النظام الرباني العلمي اكمل نظامٍ ممكن إلى غير ذلك من الأُصول الفلسفية.

مدير الندوة: اعتقد ان الوقت تأخّر ايها السادة، وبما ان الحديث لم ينته بعد وان هناك طلبات كثيرة من قبل الحاضرين لأكمال هذه المناظرة فـنحن نرجو من السيد سعيد ان يتفضل علينا بالموافقة على عقد ندوة اخرى في الليلة المقبلة في هذا المكان نفسه.

سعيد: لا يوجد لديّ أي مانع في سبيل ان تكون المسائل واضحة جليّة.

عند الاخوةالحضور.

الجمهور: يصفق ويشكر سعيداً .

اللقاء الثاني

أدلة اثبات وجود الله تعالى

رجع سعيد إلى غرفته في ذلك الفندق وهو متعب نتيجة ليلة كانت زاخرة بنقاشات ساخنة، ولذا سرعان ما أخلد إلى نوم عميق. وبعد نهار جميل قضاه في احدى القرى القريبة من العاصمة حيث دعاه أحد الاشخاص إلى هناك، عاد مساءً إلى مكان الندوة في الليلة السابقة فوجد الكثيرين أمامه سيما السيد جالينوف الذي كانت حججه واهية امام أجوبة سعيد.

مدير الندوة: نرحب بكم ايها الاخوة الاعزاء مرة اخرى في هذا الملتقى الفكري الذي يجمع بين الاستاذين سعيد من العراق وجالينوف من روسيا يمثل الاول الدين الاسلامي والثاني الماركسية. نرجوا من الاخ سعيد طرح الأدلة الاخرى التي وعد بها في الليلة السابقة.

سعيد: شكراً أخي العزيز. البرهان الآخر الذي يتسنى لنا اقامته لاثبات واجب الوجود وهو الله عزوجل هو برهان الامكان والوجوب. ولذا سوف أوجه سؤالاً للسيد جالينوف وهو إلا يمكننا ان نقسم ولو بالافتراض والتصور العقلي الوجود إلى واجب وممكن؟

جالينوف: نعم يمكن ذلك.

مدير الندوة: نرجو من السيد سعيد ان يوضح للجمهور هذين المصطلحين.

سعيد: نعم، لأنّ الموجود اما ان يستدعي من صميم ذاته ضرورة وجوده وتحققه في الخارج فهذا هو الواجب بذاته، واما ان يكون متساوي النسبة إلى الوجود والعدم، ولا يستدعي في حد ذاته احدهما ابداً، وهو الممكن لذاته كأفراد الإنسان وغيره. اذا ثبت هذا الكلام نقول: ان كل ممكن يحتاج إلى العلة في وجوده وهذا من البديهيات الواضحة.

جالينوف: نحن نشك في هذه البديهية التي تدَّعيها. فلماذا يحتاج الممكن إلى العلة ؟

سعيد: لا يتسنى لك ان تنكر مثل هذه البديهية. لان العقل يحكم بالبداهة ـ أي بدون تأمل وتشكيل قياس أو اقامة برهان ـ انّ ما لا يستدعي في حد ذاته الوجود فان وجوده يتوقف جزماً على امر آخر وهو العلة. واما إذا فرضنا ان وجوده ناشىء من ذاته فانه يلزم خلاف الفرض وهو ان ذاته لا تقتضي الوجود.

إذا ثبت هذا ننتقل إلى حقيقة اخرى نحتاجها لكي يتم البرهان، وهي ان الدور ممتنع ولا يمكن تحققه. ومعنى الدور هو عبارة عن كون الشيء موجداً لثانٍ وفي الوقت نفسه يكون الشيء الثاني موجداً لذلك الشيء الاول .

جالينوف: وما هو وجه امتناعه يا سيد سعيد ؟

سعيد: وجه امتناعه ان مقتضى كون الاول علة للثاني تقدمه عليه وتأخر الثاني عنه. ومقتضى كون الثاني علة للأول تقدم الثاني عليه فينتج كون الشيء الواحد في حالة واحدة وبالنسبة إلى شيء واحد متقدماً وغير متقدم ومتأخراً وغير متأخر. وهذا هو الجمع بين النقيضين.

جالينوف: اساساً نحن نرى ان التناقض من الامور الحتمية وان حركة

التاريخ والوجود مبنية على مبدأ الصراع بين المتناقضين. ففي نظرنا إلى التناقض فانه ليس فقط ممكن، وانما هو واجب. وحينئذ فكلامكم لا يكون سديداً على ما نعتقده .

سعيد: ان بطلان نظريتكم لها محلّ آخر في نظرية المعرفة، والمهم هو كيف نثبت ان الدور مستحيل فنقول: ان امتناع تحقق الدور امر وجداني يجده كل انسان من نفسه حتى وان انكره بلسانه. ومن اجل تنبيه الوجدان نأتي بمثال وهو: إذا اتفق صديقان: أنا وانت مثلاً يا سيد جالينوف، على امضاء وثيقة واشترط كل واحد منهما لأمضائها امضاء الاخر فتكون النتيجة توقف امضاء كل واحد منهما على امضاء الآخر. وعند ذلك لن تكون تلك الورقة ممضاة إلى يوم القيامة. وهذا ممّا يدركه الإنسان بالوجدان ولا حاجة لأي برهان. اليس كذلك يا سيد جالينوف.

جالينوف: مقطباً حاجبيه رافعاً كتفيه .

سعيد: إذا كان السيد جالينوف يستطيع ان يخبرنا بكيفية امكان تحقق امضاء تلك الوثيقة مع هذين الشرطين نكون شاكرين له كثيراً.

الجمهور يتكلّم بعضه مع البعض الاخر فتحدث ضوضاء يطلب مدير الندوة منهم السكوت والانصات، طالباً من سعيد مواصلة حديثه.

سعيد: هناك مسألة اخرى أيضاً نحتاجها في هذا البرهان وهي استحالة التسلسل. وهو عبارةعن اجتماع سلسلة من العلل والمعلولات الممكنة. وهي مترتبة وغير متناهية. ويكون الكل متسماً بوصف الامكان بأن يتوقف (أ) على (ب) و (ب) على (ج) و (ج) على (د) وهكذامن دون ان تنتهي إلى علة ليست بممكنة ولا معلولة.

والدليل على استحالة التسلسل ان المعلولية وصف عام لكل جزء من أجزاء السلسلة فعندئذ يطرح هذا السؤال نفسه: إذا كانت السلسلة الهائلة معلولة فما هي العلة التي اخرجتها من العدم إلى عالم الوجود ؟! في حين ان المفروض انه ليس هناك شيء يكون علة ولا يكون معلولاً في هذه السلسلة والّا يلزم انقطاع السلسلة وتوقفها عند نقطة خاصة. وهي الموجود الذي هو قائم بنفسه وغير محتاج إلى غيره وهو الواجب الوجود بالذات.

جالينوف: لم لا نفترض شيئاً آخر بدون حاجة لواجب الوجود. وهو ان كل معلول من السلسلة متقوم بالعلة التي تتقدمه ومتعلق بها فالجزء الاول من آخر السلسة وُجِدِ بالجزء الثاني والثاني بالثالث وهكذا إلى اجزاء وحلقات غير متناهية. وهذا المقدار من التعلق يكفي لرفع الفقر والحاجة.

سعيد: هذا الاحتمال غير ممكن يا صديقي لان المفروض ان كل جزء من اجزاء السلسة متسم بوصف الامكان والمعلولية. وعلى هذا فوصف العلية له ليس بالاصالة والاستقلال فليس لكل حلقة دور الافاضة والايجاد بالاستقلال فلابد ان تكون هناك علة وراء هذه السلسة ترفع فقرها وتكون إسناداً لها.

ولتوضيح الحال نمثل بمثال. وهو: ان كل واحدة من هذه المعلولات بحكم فقرها الذاتي بمنزلة الصفر. فاجتماع هذه المعلولات بمنزلة اجتماع الأصفار. ومن المعلوم ان الصفر بأضافة اصفار متناهية، أو غير متناهية إليه لا يمكن ان ينتج عدداً من الاعداد. بل من اجل ذلك نحتاج إلي وجود عدد صحيح بجانب هذه الاصفار. ولابد ان يكون قائماً بالذات حتى يكون مصححاً لقراءة تلك الأصفار.

ومن هنا ننتهي إلى هذه النتيجة، وهي: ان فرض علل ومعلولات غير

متناهية مستلزم لاحد امرين: الاول: تحقق المعلول بلا علة. والثاني: عدم وجود شيء في الخارج من الاساس (أي انكار الواقعية). واعتقد ان كُلاً من هـذين الافتراضين باطل. فلابد ان توجد معلولات ولكنها تـنتهي إلى واجب الوجـود بالذات.

مدير الندوة: نرجو من السيد سعيد تلخيص البرهان عـلى شكـل نـقاط واضحة.

سعيد: بعد ان اتممنا ذكر جميع مقدمات البرهان نقول: لاشك ان صفحة الوجود مليئةً بالموجودات الامكانية بدليل انها توجد وتـنعدم وتـحدث وتـفنى ويطرأ عليها التبدل والتغير إلى غير ذلك من الحالات التي هي آيات الامكان وسمات الافتقار. وامر وجود هذه الموجودات لا يخلو عن الفروض التالية:

١ ـ لا علة لوجودها. أو ان كلاً منها علة لوجود نفسه .

وهذا باطل بحكم المقدمة الثانية (كل ممكن يحتاج إلى علة).

٢ ـ البعض منها علة لبعض آخر وبالعكس. وهذا أيضاً محال بـمقتضى المقدمة الثالثة. (بطلان الدور).

٣ ـ بعضها معلول لبعض آخر وذلك البعض معلول لآخـر مـن غـير ان ينتهي إلى علة ليست بمعلولة وهو ممتنع بمقتضى المقدمة الرابـعة (اسـتحالة التسلسل).

٤ ـ وراء تلك الموجودات الامكانية علة ليست بمعلولة بل يكون واجب الوجود لذاته. وهو المطلوب .

فاتضح انه لا يصح تفسير النظام الكوني الا بالقول بأنتهاء الممكنات إلى الواجب لذاته القائم بنفسه. فهذه الصورة هي التي يصحِّحها العقل ويعدها خالية عن الاشكال. واما الصور الباقية فكلها تستلزم المحال والمستلزم للمحال لابد

ان يكون محالاً أيضاً .

جالينوف: ان قولكم بأنتهاء الممكنات إلى علة أزلية موجودة بنفسها يستلزم تخصيص القاعدة العقلية، وهي: (ان العقل يحكم بأن الشيء لا يتحقق بلا علة). والمستلزم للمحال محال كما قلت أنت الآن.

سعيد: ان القاعدة العقلية لا يمكن تخصيصها وانما اختلط عليك مضمونها يا عزيزي؛ لأنّ هذه القاعدة انما تختصّ بالموجودات الامكانية التي لا تقتضي في ذاتها وجوداً ولا عدماً؛ لأنَّ الحاجة إلى العلَّة ليست من خصائص الموجود بما هو موجود، بل هي من خصائص الموجود الممكن. فإنَّهُ حيث لا يقتضي في ذاته الوجود ولا العدم فلا بُدَّ له من علَّةٍ توجده ويجب انتهاء امر الايجاد إلى ما يكون الوجود عين ذاته ولا يحتاج إلى غيره، لما تقدَّم من إقامة البرهان على امتناع التسلسل. فالاشتباه نشأ من الغفلة عن وجه الحاجة إلى العلَّة وهو الامكان لا الوجود.

مدير الندورة: إذا كان هناك دليل آخر يمكن ان يقدمه الأخ سعيد فنحن في أشد الشوق إليه .

برهان الحدوث

سعيد: نعم ثمة برهان آخر، وهو برهان الحدوث. ولكن أريد أن أُوجِّه للسيد جالينوف سؤالاً. وهو: ما معنى الحدوث الزماني؟

جالينوف: من المعروف فلسفياً ان الحدوث الزماني معناه مسبوقية وجود الشيء بالعدم الزماني كمسبوقية اليوم بالعدم في أمس ومسبوقية حوادث اليوم بالعدم في أمس.

سعيد: جيد جداً. وما معنى الحدوث الذاتي ؟

جالينوف: الحدوث الذاتي هو مسبوقية وجود الشيء بالعدم في ذاته كجميع الموجودات الممكنة التي لها الوجود بعلة خارجة عن ذاتهاوليس لها في ذاتها إلّا العدم.

سعيد: احسنت يا سيد جالينوف. أقول : لقد اثبت العلم بوضوح ان هناك انتقالاً حرارياً مستمراً من الاجسام الحارة إلى الاجسام الباردة ولا تتحقق في عالم الطبيعة عملية طبيعية عكس ذلك.

ومعنى هذا ان الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها جميع الاجسام وينضب فيها معين الطاقة، وعند ذلك لن تتحقق عمليات كيميائية أو طبيعية. ومن هنا نصل إلى نتيجة مفادها ان الحياة في عالم المادة أمر حادث، ولها بداية لانها لو كانت موجوداً أزلياً وبلا ابتداء للزم استهلاك طاقات المادة ونضوب ظاهرة الحياة منذ زمن بعيد. ولذا اشار إلى ذلك استاذ علم الفيزياء (فرانك ألن) بقوله: «قانون (ترموديناميا) أثبت ان العالم لا يزال يتجه إلى نقطة تتساوى فيها درجة حرارة جميع الاجسام، ولا توجد هناك طاقة مؤثرة لعملية الحياة. فلو لم تكن للعالم بداية، وكان موجوداً من الأزل لزم ان ينتهي أجل الحياة منذ امد بعيد. فالشمس المشرقة والنجوم والارض المليئة بالظواهر الحيوية وعملياتها أصدق شاهد على أنَّ العالم حدث في زمان مُعيَّن فليس العالم إلا مخلوقاً حادثاً».

فضلاً عن ذلك، فان هناك قاعدة فلسفية عقلية تؤكد: أن كلَّ أمر غير ذاتي فهو مُعلَّل (أي يحتاج إلى علة). كما ان كل حادث يحتاج إلى مُحدِث

وخالق. فما هو المحدث لحياة المادة ؟ إمّا هي نفسها أو غيرها ؟ ولكن الفرض الاول باطل ؛ لأنَّ المفروض انها كانت قبل حدوث الحياة لها فاقدة للحياة و (فاقد الشيء يستحيل ان يكون معطياً له). فلا مناص من قبول الفرض الثاني. فهناك اذن موجود آخر وراء عالم المادة وهو الموجد للمادة والمحدِثُ لحياتها.

إلى هنا تم دور الحدوث الزماني في البرهان وانـتج ان هـناك مـوجوداً مجرداً غير مادي، هو المحدث لهذا العالم المادي. واما ان ذلك المحدث ممكن أو واجب فلابد لأثباته من اللجوء إلى برهان الامكان وامتناع الدور والتسلسل المتقدم بيانهما.

جالينوف: ولكـن (بـرترندرسل) أشكـل عـلى هـذا القـانون أي قـانون «ترموديناميا» بقوله: لا يصح ان يستتنج منه ان العالم مخلوق لخالق وراءه ؛ لأنَّ استنتاج وجود الخالق استنتاج علّيّ (أي قائم على مبدأ العلية في الوجود) في حين ان الاستنتاج العلّي في العلوم غير جائز الا إذا انطبقت عليه القوانين العلمية. ومن المعلوم استحالة اجراء العملية التجريبية على خلقة العالم من العدم. ففرض كون العالم مخلوقاً لخالقٍ محدث ليس أولى من فرض حدوثه بلا علة محدثة فان الفرضين مشتركان في نقض القوانين العلمية المشهودة لنا.

سعيد: ان كلام رسل ليس بصحيح ولا يخدش بما اثبتناه؛ لأنّ برهان الحدوث كما عرفت متشكل من مقدمتين: الاولى: حدوث العالم وهذه نتيجة وضحت من الأبحاث العلمية التجريبية. وثـانيتهما: الأصـل العـقلي البـديهي. وليس هذا مستفاداً من الأبحاث العلمية، بل هو خارج عن نطاق العلم التجريبي رأساً. كما أنَّ النتيجة المذكورة أيضاً ليست ممّا تنالها يد التجربة وتنطبق عليها قوانينها فان كان مراد (رسل) من تساوي فرض مخلوقية العالم وفرض وجوده

صدفة أنّهما خارجتان عن نطاق العلوم التجريبية فصحيح. لكنهما غير متساويتين عند العقل الصريح الذي هو الحاكم الوحيد في امثال هذه الابحاث العقلية الخارجة عن نطاق العلوم التجريبية الحسّيّة. فكأنّ (رسل) رفض العقل والبراهين العقلية، وحصر طريق الاستدلال بطريقة الحس والاستقراء والتجربة، كما هو مختار بعض الفلاسفة الحسّيين الاوربيين وغيرهم. ولكن هذا المبنى فاسد وباطل وفساده ثابت في الكتب التي ألفها اصحاب المذهب الواقعي من نظرية المعرفة.

جالينوف: ان حدوث الخلق أمر مشكل بالنسبة لنا فأننا نعتقد بقدم المادة. أمّا ما تسمونه أنتم واجب الوجود أو الخالق الأزلي فنحن نعتقد بأنّه المادة. ولا يمكن لكم أن تثبتوا ذلك على اساس المنهج العلمي. واما منهجكم العقلي فانه لا يحظى بقبولنا.

سعيد: ليس منهجنا العقلي هو الوحيد الذي يثبت كون العالم حادثاً كما ذكرنا قبل قليل، إلا أنّك ان لم تقتنع بما ذكرناه اعطيناك المزيد من الأدلة العلمية التي تثبت ذلك.

جالينوف: ان استطعت ذلك أكون لك من الشاكرين .

سعيد: حسناً يا سيد جالينوف. أقول :

ان الافتراض القائل بان الكون أزلي وموجود منذ القدم، افتراض لا يستند على قاعدة علمية فهو لا يعدو عن كونه افتراضاً نظرياً غير مدعوم بأدلة مقنعة. ولهذا فان هذا الرأي السيء الحظ لم يلق رواجاً في أي عصر من العصور.

ومن الآراء الاخرى المطروحة منذ القدم والتي يتمسك بها السواد الاعظم من البشر هي فكرة الخلق. والحديث عن الخلق وعن الفترة التي استغرقها هذا

الخلق ورد في العديد من الكتب السماوية. وتكاد تتفق معظم نظريات الخلق على ان السموات والارض تكونت من مادة قديمة كانت مبعثرة في الفضاء منذ الأزل.

ولقد ثبت فعلاً الآن ان الارض لم تكن موجودة من قبل، وان ظهورها بدأ فعلاً منذ حوالي ثلاثة بلايين من السنين، وكانت إذ ذاك في صورة مواد ملتهبة انصهرت موادها من شدة الحرارة، فتحولت إلى كرة سائلة تحيط بها غلالة كثيفة من الهواء وبخار الماء وأبخرة اخرى لكثير من المواد والمركبات.

وأعقب ذلك ان برد جوها بالاشعاع الحراري، فأمكن لسطحها أن يتصلب أو يبدو في صورة قشرة صلبة لم يستغرق تكوينها وقتاً طويلاً نسبياً، الا أن اقدم صخورها التي عاصرت تلك الفترة يقدر عمرها الآن بما يقرب من ألفي مليون سنة.

جالينوف: وما هو الدليل العلمي الذي تستند عليه في هذا الكلام يا سيد سعيد. إذا كنت صادقاً بما تقول فأت لنا بنظريات علمية لعلماء مشهود لهم بالتخصص عالمياً حتى نطمئن لصحةِ مقالتك.

سعيد: يبدو ان الاخ جالينوف ليس له ادنى اطلاع على هذه الأشياء وهو فقط يحاول ان يطرح التشكيكات تمسكاً بفكرته عن الخلق والخالق. وعلى كل حال سوف اقدم لك بعض هذه النظريات .

مدير الندوة: تفضل يا اخ سعيد .

سعيد: هناك نظرية تسمى بنظرية «بفون» تؤكد هذه الحقيقة، وتعتبر هذه النظرية من اول المحاولات العلمية التي بدأت تناقش أصل الارض وباقي الكواكب السيارة، حيث يرجع تاريخها إلى حوالي «٢٠٠» سنة، وذلك عندما نشر

العالم الفرنسي «بفون» نظريته التي يقول فيها ان كواكب المنظومة الشمسية نشأت من الشمس نفسها وذلك حينما صدم الشمس كوكب خارجي صغير بالنسبة إلى الشمس أو نيزك جبار، ونتيجة لهذا الاصطدام تطايرت اجزاء عديدة من الشمس إلى مسافات متباينة، فالأجزاء التي طارت بعيداً عن الشمس استطاعت أن تفلت من جاذبيتها ممّا أدّى إلى فقدانها في الفضاء. وأمّا الأجزاء الباقية فأنها ظلّت على مسافات معينة من الشمس بفعل الجاذبية وكونت فيما بعد الكواكب السيارة التي ظلّت تدور حول أُمّها الشمس في أفلاك تكاد تكون سطحاً واحداً في اتجاه عام موحد مع اتجاه دوران الشمس حول محورها.

جالينوف: ولكنَّ هذه النظرية لم تكن مقبولة عند العلماء يا سعيد .

سعيد: بالفعل يا صديقي ولكنها لم ترفض على أساس أصل الفكرة. اقصد كون العالم الذي نعيش فيه حادثاً وليس قديماً أزلياً وانما الرفض كان من جهة التفسير الذي طرحه بفون في ذلك الوقت. ولكن على الرغم من ذلك فقد ظلت هذه النظرية لمدة خمسين عاماً تقريباً هي النظرية الوحيدة التي تفسر أصل الارض. وفي أواخر القرن الثامن عشر وجهت إلى نظرية بفون اعتراضات مبنية على اساس علمي رياضي وكان من اهم هذه الاعتراضات، هي تلك التي تقدم بها العالم الرياضي الفرنسي «لايلاس» الذي اثبت ان مسارات الكواكب التي تتطاير من الشمس بالطريقة التي يفترضها بفون يجب ان تختلف في طبيعتها وشكلها عما هو عليه الآن. وكان هذا الاعتراض يمثل هزة عنيفة اجتثت نظرية بفون من جذورها.

جالينوف: مع بطلان وهزيمة هذه النظرية كيف تثبتون مُدَّعاكم في حدوث الخلق.

سعيد: إن لايلاس عندما أورد اعتراضه على نظرية بفون لم يترك الامر هكذا بلا بديل، بل قدّم نظرية اخرى تثبت حدوث العالم يا صديقي جالينوف. وهذه النظرية هي التي عرفت بـ«النظرية السديمية».

جالينوف: وما هو محتوى هذه النظرية؟

سعيد: تفترض هذه النظرية أنّ الشمس وباقي الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس كانت قديماً بشكل سديم، كالسدم المنتشرة الآن في أرجاء السماء. والسدم عبارة عن دوامات غازية جبارة مكونة من مواد غازية ملتهبة تدور حول نفسها على هيأة أقراص شاسعة تفوق في مساحتها مساحة المجموعة الشمسية التي نشغلها الآن.

وتقول نظرية لايلاس إن جسم السديم هذا أخذ يفقد حرارته بالتدريج فتقلص حجمه وازدادت سرعته حتى بلغت حدّاً أدت به إلى انفصال بعض الاجزاء من وسطه على شكل حلقات غازية عظيمة بصورة متتالية نتيجة لقوى الطرد المركزي الهائلة. وقد حافظت هذه الاجزاء المنفصلة من السديم على الدوران في نفس الاتجاه الذي كانت تدور فيه مع السديم.

جالينوف: ان هذا الذي يذكره لايلاس اقرب للخيال منه للواقع فكيف تريدنا التصديق به.

سعيد: كلا يا سيد جالينوف فان هذا ليس من الخيال في شيء وانما له نظير قريب الوقوع. حيث ان هناك ظاهرة تشبه هذه الظاهرة، وهي ما شوهد من الانفجار الشهير الذي تم لاحد النجوم عام ١٩٧٢ م، وصاحبه وهج عظيم في السماء دام ضياؤه عدة شهور. والحقيقة ان ذلك النجم كان من النجوم فوق البرّاقة، ولم يكن ذلك الانفجار مجرد انفصال جو النجم الخارجي، وأن الحلقات

التي انفصلت كانت في بادئ الامر في الحالة الغازية، الا ان انخفاض درجة حرارة هذه الغازات ادى إلى انكماش هذه الحلقات وبالتالي صغر حجمُها، واجتمعت مادتها حول نقطة مركزية فيها مكونة جسماً كروياً ممّا أدّى إلى زيادة سرعة دورانها، وهكذا تحولت هذه الحلقات إلى كواكب احتفظت بنفس المدار الذي كانت تحتله الحلقات الغازية حول مركز السديم.

جالينوف: وماذا بعد يا سيد سعيد .

سعيد: هناك نظرية اخرى أثبتت حدوث المجموعة الشمسية، وهي نظرية الجسميات الكوكبية لصاحبيها تشامبر لين ومولتون.

وتفترض هذه النظرية أنّ نجماً جباراً غريباً قد تدخل بصورة تختلف هذه المرة عن تدخله في الصورة التي يصفها «بفون» في نظريته، فقد افترض بفون ان الجسم الغريب قد اصطدم بالشمس اصطداماً مباشراً، اما في هذه النظرية فأنها تفترض ان الجسم الجبار الغريب لم يصطدم بالشمس مباشرة، بل اقترب إلى مسافة قريبة من الشمس ممّا ادى إلى حدوث سلسلة من الانفجارات الكبيرة في جسم الشمس بفعل قوة الجاذبية الناتجة عن اقتراب هذا النجم الغريب، وبالتالي امتداد ألسنة طويلة من المواد الغازية والسائلة باتجاه النجم.

ولمّا اخذ النجم بالابتعاد عن الشمس فان ألسنة اللهب الجبّارة لم تعد تساير اتجاه الشمس، بل بدأت تنفصل عن الشمس بشكل حشد كبير من الجسيمات الصغيرة الصلبة التي اخذت تسبح في الفضاء .

ولمّا تلاشى تأثير هذا النجم الغريب بدأت هذه النجيمات الصغيرة تتجمع حول بعضها أو حول الكبيرة منها مكونة النُويات الأُولى لكواكب المنظومة الشمسية والتي استمرت بالنمو حتى صارت كما نعهدها اليوم.

ومن جهةاخرى ما لبثت أن انخفضت درجة حرارتها وتحولت من الحالة الغازية إلى الحالة السائلة. وهنا اخذت المواد المختلفة التي وجدت في كل كوكب تنفصل بعضها عن البعض كليّاً أو جزئياً، فغاصت المواد الثقيلة كالحديد إلى الباطن، بينما طفحت المواد الخفيفة إلى السطح، وأعقب ذلك أن تجمدت القشرة الخارجية المعرضة تعرضاً مباشراً للجو.

جالينوف: لكنّ هذه النظرية لم تقبل من قبل العلماء حيث وجهت اليها جملة من الاعتراضات والاشكالات .

سعيد: ليس المهم صحة النظرية وانما المهم ما ينتج عنها من لوازم تنفعنا في موضوع بحثنا وهو أصل الحدوث وعدم الأزلية والقدم. وإذا أردت المزيد يا سيد جالينوف فعليك بمطالعة الكتب المختصة لتجد نظريات عديدة اخرى امثال: نظرية «المد الغازي» التي تشابه النظرية السابقة وكذلك نظرية «سحابة الغبار العظمى» حيث نالت تأييداً كبيراً من قبل العلماء. حيث تؤكد على أنّ الكون بما فيه الشمس وبقية الكواكب كانت في هيأة سحابة كونية هائلة من الغاز والغبار الذي أخذ يتكاثف تدريجياً تحت ضغط ضوء النجوم المنبعثة من كل أرجاء الكون اولاً. وتحت تأثير قوة الجاذبية المتولدة فيها ثانياً، ثم حدثت بعد ذلك حركات دوامية عظمى في باطن هذه السحابة كانت بمثابة النويات الأُولى لتكوين الكواكب. وأما الذي لم ينفصل من السحابة فقد تكثف في المركز ليكوّن الشمس.

والجميل ان القرآن الكريم الذي نزل على قلب رجل من الجزيرة العربية والذي لم يكن فلكياً ولا فيزيائياً، بل هو رجل امي لا يجيد القراءة والكتابة

وعاش طوال حياته في بيئة صحراوية ومجتمع مُتخلِّف يخبرنا على لسان الله عزوجل عن طريق القرآن الكريم بهذه النظرية من خلال قوله تعالى في سورة الأنبياء:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَـٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَـآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ﴾.

جالينوف: أهكذا يقول القرآن يا سيد سعيد.

سعيد: بل أكثر من هذا يا صديقي جـالينوف، ولو أردت أن أسـوق لك الآيات العلمية وما فيها من أشياء مدهشة لطال بنا المقام ساعات وساعات. إلّا أنّي فقط أريد أن أبيِّن صحَّةَ ما طرحته عليك من عدم أزلية المادة وهذا العالم ومجموعتنا الشمسية من خلال الأدلة العلمية. ولذلك اعتقد بأنّي ذكرت الكثير من هذه النظريات ولكن آخرها هي نظرية «فريدهول» التي تسـمى بـنظرية «النجوم المزدوجة». التي لها تفصيل ليس الآن محله.

كل هذه ياسيد جالينوف أدلة، ولا زالت الأدلة تترى على أنّ اسطورة أزلية المادة ليست بصحيحة، وانما الصحيح هو خلافها. وقـد اثـبتنا ذلك بـالبرهان العقلي والنظريات العلمية. وعلى هذا الاساس لا يبقى أيَّ مجال إلّا الإيـمان بخالق الكون الأزلي الأبدي العالم القادر الحي الحكيم وهو الله سبحانه وتعالى. وخضوعنا له بالطاعة والعبادة. وهو ما جـاءت بـه الأديـان السـماوية ودعـا له «١٢٤» ألف نبي و «٣١٣» رسولاً وأربعة من الكـتب السـماوية وهـي الزبـور والتوراة والانجيل والقرآن الكريم .

مدير الندوة: نحن نشكر السيد سعيد على المشاركة فـي هـذا المـلتقى الفكري ونتمنىٰ له النجاح والتوفيق. كما نشكر السيد جالينوف على مداخلاته

للأخ سعيد ونثمّن جهده.

جالينوف: أنا أيضاً اشكركم جميعاً سيما السيد سعيد الذي كان موضوعياً ومنطقيّاً جداً.

سعيد: انا كذلك اشكركم جميعاً للأصغاء إلينا ومتابعة هذه المناقشات.

وبعدها قام الجميع واخذوا يتحدثون حلقات حلقات، واللطيف أنّه وفي الليلة نفسها أعلن مجموعة من الحاضرين إيمانهم بالله تعالى وطلبوا من سعيد ان يرسل لهم كتباً تعرفهم بالإسلام.

وبعد ثلاثة أيام شدَّ سعيد رحاله مسافراً تاركاً ذكراً طيباً وعقولاً اقتنعت بوجود أفكار أُخرى غير الفكر المادي تستحق الاحترام.

مباحث التوحيد الالهي

الرحلة الثانية:

برلين

طالما سمع سعيد عن ألمانيا، تلك البلاد الزاخرة بالأحداث العالمية، وذلك العمق العلمي والمعرفي الشامخ فيها. فقد انجبت هذه البلاد كبار فلاسفة الغرب ومفكريه، واحتضنت أعرق الجامعات والمعاهد العلمية. كل هذا دفعه لأن يشد الرحال اليها ليتعرف على معالمها، ويطلع على معاهدها ويطل على نتاجات مفكريها. فضلاً عن ان هناك بعض الأصدقاء العراقيين وغيرهم ممن اتخذ هذه البلاد موطناً وارتضاها مسكناً .

حينما وصل سعيد إلى برلين المدينة الاساسية في المانيا كان في استقباله في المطار ثلة من أصدقائه القدامى. وما ان رأوه وهو يمر في صالة العبور حتى اخذوا يلوّحون له بالأيدي، فتعانقت القلوب قبل الاجساد وتشابكت الأرواح قبل الأيدي. فما أسرع ان حملوه إلى بيت أحدهم فرحين بقدومه مستأنسين بحضوره. كيف وهم من عاشره عن كثب فما رأوا منه إلّا طيب المعشر ودماثة الخلق والثقافة العالية والعلم الكثير والايمان المضئ والكلام الجميل.

كانت من أجمل الليالي تلك الليلة التي وصل سعيد فيها إلى برلين حيث بقيَ الجميع ساهرين إلى وقت الفجر إلى أن أدَّوا فريضة الفجر بإمامة سعيد، ثم استسلموا بعدها إلى النوم على أمل أن تبزغ الشمس بنورها كيما يرى سعيد

برلين على ضوئها.

بقي الجميع نائمين إلى وقت قريب من الظهر، إلا أن سعيداً سبقهم بالنهوض مستغلاً هدوء المكان ليأخذ حماماً دافئاً ويحتسي كوباً من القهوة، ويطل من شرفة الشقة العالية نسبياً على المدينة بما تحوي من عمارات شاهقة وشوارع وسيعة وحدائق جميلة. وبقي على هذه الحالة إلى ان استيقظ أصدقاؤه وصنعوا وجبة الإفطار، فتناول الجميع الإفطار وهم في غاية السعادة والسرور. واثناء الطعام بدأ الاصدقاء يسألون سعيد عن برنامجه وهو في برلين فأخبرهم بأنه يريد التعرف على المعالم الأثرية والعلمية وغيرها اضافة إلى أمنيته المكث فيها مدة من الزمن لكي يتسنّى له متابعة آخر النتاجات الفكرية، فضلاً عن محاولة تنظيم برامج الدعوة إلى الإسلام بين أوساط المثقفين الألمان.

قرّر أصدقاء سعيد أن يكون مقر سعيد معهم في الشقّة نفسها لكي يقوموا بخدمته سيما وأنّ شقّتهم كبيرة وتسع لأربعة اشخاص، وفيها مكتبة اسلامية صغيرة اضافة إلى انها في اطراف المدينة ممّا يهيىء له جواً اكثر هدوءاً من أي مكان آخر فكانت الشقة تؤوي كلاً من خالد ومحمد وحسين اضافة إلى صديقهم سعيد.

بدأ سعيد مع اصدقائه بجولة في انحاء المدينة الكبيرة واخذوا كل يوم يذهبون لزيارة بعض الأماكن والمعالم، وبقي سعيد على هذه الحالة لمدة سبعة أيّام كاملة استطاع من خلالها ان يرسم في ذهنه صورة مجملة عن هذه المدينة. ولكن الجميل ان صديقه محمد يعمل في أحد المراكز التي تعنى بالفلسفة الإسلامية والثقافة (الشرق اوسطية). ممّا اتاح له التعرف على العديد من المثقفين والمفكرين. ولذا قرر محمد ان يصطحب سعيداً معه لكي يعرفه لأصدقائه في ذلك المركز ولكي يطلع سعيد على نوع العمل الذي يقومون به

هناك . وفعلاً تم التنسيق مع المركز وجاء سعيد مع محمد ليطلع عن كثب على عمل هذا المركز الذي حدّثه محمد عنه بشكل مجمل. وأتاحت تلك الزيارة لسعيد فرصة التعرف على بعض المثقفين والمهتمين بالأمر، الأمر الذي جعل المركز يوجه دعوة إلى سعيد لحضور بعض الندوات الثقافية والفكرية التي جعلته يتعرف اكثر على نتاجات الفكر والفلسفة في هذا البلد.

وشاءت الصدفة ان يكون مسؤول ذلك المركز ممن اعجب بسعيد كثيراً ومن هنا كان مهتماً دائماً لرؤيته والخوض معه في بعض النقاشات حول الفكر والثقافة الإسلامية. فوجد في سعيد عمقاً وعلماً وإحاطة في الفكر الاسلامي بشكل كبير، ولذا أصبح موضع أهتمامه ومحط عنايته فدعاه إلى بيته مع صديقه محمد، وتم هناك اللقاء مع بعض أكابر أساتذة الجامعات لاسيما في العلوم الانسانية والدراسات الفلسفية واللاهوتية.

وفي هذا اللقاء اتفق سعيد مع السيد توماس ـ الذي هو رئيس المركز ـ ان يحاولوا ا للقاء ليومين في الأُسبوع على الأقل من اجل التطرق إلى بعض المسائل في العقيدة الإسلامية ومناقشتها مناقشة علمية، غرضها الوصول إلى الحقيقة ومعرفة الأسس العقائدية التي يقوم عليها الدين الاسلامي. وما كان من سعيد إلّا الموافقة على هذا الطلب والذي شجعه على ذلك تسلط السيد توماس على اللُغة العربية، وكذلك معرفته بالاسلام بحكم وظيفته رئيساً لمركز الدراسات التي تعنى بالاسلام والذي هو مركز استشراقي مثل العديد من المراكز الاستشراقية الموجودة في العالم الغربي.

اتفق السيد توماس مع سعيد على ان يكون محور البحث في هذه اللقاءات هو مسألة التوحيد الذي يشكل الحجر الأساس في العقيدة الإسلامية على ان يكون البحث من زوايا عديدة ومرتباً بشكل منطقي. وعلى هذا فان الجلسة الاولى سوف تكون في ليلة السبت .

اللقاء الأول:

التوحيد الذاتي لله تعالى

لم تكن الفاصلة طويلة بين يوم الثلاثاء الذي التقى فيه سعيد مع توماس وبين ليلة السبت. ورغم ذلك فان سعيد قضى وقتاً ممتعاً مع أصدقائه حيث خرجوا إلى المناطق الريفية القريبة من المدينة حيث الطبيعة الخلّابة والهدوء الجميل والهواء الصافي بعيداً عن صخب المدينة وبيئتها الملوثة. ولكن هذه السفرة لم تدم طويلاً حيث سرعان ما عاد الأصدقاء إلى برلين بعد ان قضوا ليلة جميلة هناك.

أخذ سعيد في اليومين التاليين بزيارة أحد المراكز الإسلامية حيث تعرف على بعض الموجودين فيه والذي أسعده وجود مكتبة متنوعة الموضوعات فيه، ممّا جعله يقرر أن يقضي أوقاتاً جميلة في المطالعة، إلّا أن صديقه خالد أقترح عليه محاولة تعلم اللُّغة الالمانية ولو بشكل مجمل لكي يتسنى له فيما بعد تقديم رسالة الدكتوراه في احد الموضوعات الفكرية من إحدى الجامعات الألمانية. ووجد سعيد ان هذه الفكرة جميلة وجيدة. وفعلاً بدأ خالد الذي يجيد الألمانية بطلاقة مع سعيد درساً يومياً في شقتهم.

ما أسرع ما مرت الأيام وحان موعد اللقاء بين سعيد والسيد توماس. وعلى طبق الموعد جاء سعيد مع صديقه محمد إلى بيت توماس وبعد ان استقبلهم بحفاوة واحترام جلسا متقابلين وكل واحد منهما يحمل في نفسه

الكثير من الأفكار والمسائل المرتبطة بموضوع الجلسة، وتخلل اللقاء صمت قليل ليبادر بعده سعيد قائلاً:

تفضل يا سيد توماس فأنا على استعداد لبدء الحوار.

توماس: شكراً لك يا سيد سعيد وأود في البداية أن اسأل عن أصالة التوحيد في الفكر الديني عموماً سيما نحن نرى ان البشرية في عهودها القديمة والجديدة تمارس الشرك بالله عن طريق الاعتقاد بوجود إلهين اثنين أو أكثر.

سعيد: نحن نعتقد بان التوحيد كعقيدة ملازمة للاعتقاد بالله الخالق. وان الرابطة بين الخالقية والتوحيد رابطة صميمية. وان الشرك أمر طارئ على الإنسان ناتج عن جملة من الامور اللامنطقية. ولذا كانت دعوة الأنبياء إلى اعادة الإنسان المؤمن بالله إلى التوحيد لا أنهم قد أسسوا هذا الاعتقاد بشكل متأخر عن الاعتقاد بالأُلوهية .

توماس: حسناً يا سيد سعيد ولكن ما هو الدليل على هذه الرابطة العضوية بين الاعتقاد بالخالق وبين التوحيد؟ ولم لا يمكن التفكيك بين الأمرين، حيث نعتقد بأن هناك آلهة متعددة خالقة، كما قد نرى ذلك في بعض الديانات كالبرهمية مثلاً.

سعيد: لابد أن تعلم بان التوحيد في الخالقية بمعنى ان هناك خالق لهذا العالم أمر مسلّم عند كل الأديان. ولكن المشكلة التي واجهت أصحاب الديانات البعيدة عن الخط الإلهي الصحيح هي: تصور هذا الخالق وصفاته. وقد ترشح على ذلك الشرك في الربوبية كما سوف نرى. وإلّا لو دققنا النظر جيداً فسوف نجد مثلاً عوامل عديدة سببت الشرك وتعدد الآلهة ويمكن لنا القول بأن العامل الأول في الاتجاه إلى الشرك وتعدد الآلهة هو مشاهدة تنوع الظواهر السماوية

والأرضية، فاعتقدوا أنّ كل نوع منها خاضع لتدبير إله معين، فقد اعتقد بعضهم بان الخيرات مستندة إلى إله الخير، وان الشرور مستندة إله الشر، ومن هنا قالوا بوجود مبدأين وإلهين للعالم.

وكذلك يلاحظ مدى تأثير نور الشمس والقمر والكواكب في الظواهر الأرضية، لذلك أعتقد بعض بأن لها نوعاً من الربوبية للموجودات الأرضية. هذا من جهة ومن جهة اخرى: رغبة البشر في معبود محسوس وملموس دفعتهم إلى ان يصنعوا لتلك الآلهة المتوهمة تماثيل وعلامات ورسوم رمزية وهي الأصنام والأوثان التي اخذوا في عبادتها. وبالتدريج اكتسبت هذه الأوثان طابع الأصالة عند قاصري الذهن والبدائيين. ووضعت كل امة بل كل قبيلة لنفسها بعض الطقوس والتقاليد بما تمليه عليها أوهامها تعبد بها أوثانها ليشبعوا بهذه الممارسات والطقوس البديلة ذلك الدافع الفطري الكامن في أعماقهم لعبادة الله. وليضفوا على نزواتهم الحيوانية وأهوائهم العابثة لون القداسة الدينية. ومازالت بعض هذه الممارسات والطقوس والحفلات قائمة حتى اليوم، حيث تصحبها ألوان الرقص والصخب وشرب الخمور والعبث الجنسي بين الوثنيين،. متلونة كلها بطابع الطقوس الدينية.

إذن فالمعتقدات والمبادئ المشركة وجدت بين الناس نتيجة لعوامل مختلفة، وأنتشرت لتكون عقبة كأداء في مسيرة التكامل الحقيقي للبشرية، الذي يوفره العمل بالدين الإلهي والتوحيدي. ومن هنا خصّص الأنبياء الجانب الاكبر من جهودهم ونشاطاتهم لمحاربة الشرك والمشركين كما تذكر حكايات هذا الصراع مراراً في القرآن الكريم».

توماس : كلام جميل يا أخ سعيد إلا أنّ هناك جملة من علماء الاجتماع يؤكدون على أنّ الدين مطلقاً لم يكن متجذراً في حياة الإنسان وانما التجأوا إليه نتيجة لعوامل عديدة. فهذا (ويل ديورانت) مؤلف كتاب (قصة الحضارة) يؤكد على أنّ عامل الخوف من الموت والأخطار والأمراض والدهشة وما تسببه من الحوادث المفاجأة وغير ذلك كان سبباً في توجه الإنسان نحو الدين. وهذا (راسل) الفيلسوف الانجليزي يؤكد نفس الأمر فضلاً عن عنصر الجهل بمنشأ تلك الحوادث والكوارث في حين تذهب الماركسية إلى ان الدين صنيع الطبقة البرجوازية.

سعيد: ان هذه النظريات مجرد تخرصات وكلام فاقد للدليل، بل على العكس من ذلك فان الاعتقاد بوجود خالق لهذا الكون متأصل عند الإنسان في بدء تكوينه ؛ لأنّه ما آنفكّ يسأل عن مبدئه ومنتهاه، والعلة التي من أجلها وجد في هذا العالم. وهو يرى ويعيش حالة الارتباط بين الاسباب ومسبباتها والعلل ومعلولاتها وهو ينظر إلى الدقة في عالم الوجود ويحكم عقله حينئذ بأنّه لابد وان يكون لهذا الكون خالق حكيم ومدبر عظيم ومسبب عليم هو الله تعالى.

توماس : شكراً يا أخ سعيد وفي الواقع ما كانت تساؤلاتنا السابقة الا مقدمة للبحث المنهجي في التوحيد، وعلى ذلك أقول : باني أعلم بأنه في العقيدة الإسلامية يبحثون عن مراتب التوحيد التي هي التوحيد في الذات والصفات والخالقية والربوبية والعبادة. ولذا فأنّا أرجو أن يتمحور كلامنا ونقاشنا حول كلِّ مرتبةٍ من هذه المراتب واحدة بعد الأخرى.

سعيد: الأفضل أن يكون البحث في هذه الصورة حتى يعطي ثماراً ونتائج إيجابية ان شاء الله تعالى.

توماس : حسناً يا سيد سعيد نرجو منكم أن توضّحوا لنا معنى التـوحيد الذاتي .

سعيد: للتوحيد الذاتي معنيان.

الأول: ان ذاته تعالى بسيط لا جزء له.

والثاني: ان ذاته تعالى متفرد ليس له مثل ولا نظير. وقد يعبر عن الأول بأحدية الذات وعن الثاني بوحدانيته.

توماس : «يعني تريد ان تقول بأن توحيد الأحدية يعني الايمان بالأحدية والبساطة الداخلية الذاتية وعدم تركيب الذات الإلهية من أجزاء بالفعل أو بالقوة. في حين تقصد من المعنى الثاني للتوحيد هو نفي التعدد أي الاعتقاد بوحدانية الله ونفي الكثرة الخارجية الذاتية، وهذا المعنى يقابل الشرك الصريح والاعتقاد بإلهين أو آلهة متعددة بصورة يكون لكل منها وجود مستقل عن الآخر».

سعيد: تماماً كما تقولون .

توماس : حسناً ولكن ما هو الدليل الذي دعاكم إلى الاعتقاد بهذا التوحيد على مستوييه الأحدي والواحدي ؟

سعيد: في البداية لابد ان نعرف بأن الله الذي نعتقد بوجوده هو واجب الوجود بمعنى انه الحقيقة الوجودية الثابتة التي يستحيل عليها العدم والزوال. وهو جامع لكلّ صفات الكمال الوجودي. وان وجوده الواجبي من جميع الجهات لا من جهة دون أُخرى، لأنّه لو فرضنا كونه واجباً من بعض الجهات فحسب يلزم من ذلك محالات عديدة.

توماس: ومن أين جئتم بفكرة واجب الوجود؟ الا يمكن ان تعتقد بغير ذلك ؟

سعيد: إنَّ كل مفهوم إذا قيس إلى الوجود فإما ان يجب له الوجود فهو الواجب، أو يمتنع عنه فهو الممتنع، أو يمكن له بمعنى: لا يجب له ولا يمتنع عنه. وعلى هذا الاساس فلو كان واجب الوجود يمكن ان تكون فيه جهة عدمية ونقصية، أي لم يكن واجباً بالنسبة إلى شيء من الكمالات التي يمكن ان تكون له فانه يكون ذا جهة امكانية بالنسبة إلى ذلك الشيء. فيكون في ذاته خالياً عنه متساوياً نسبته إلى وجوده وعدمه، فيكون ممكناً لا واجباً. وهذا خلاف فرضه واجب الوجود.

توماس: جيد ولكن ما ربط هذا البحث الفلسفي في مسألة التوحيد.

سعيد: وجه الربط هو أنا «لو فرضنا ان الذات الإلهية المقدسة والعياذ بالله مركبة من أجزاء موجودة بالفعل، فاما ان تكون جميع الأجزاء المفروضة واجبة الوجود، واما ان يكون بعضها على الاقل ممكن الوجود. فان كانت بأجمعها واجبة الوجود وكل واحد منها ليس محتاجاً إلى الاخر فان هذا العود إلى تعدد واجب الوجود في حين ان مثل هذا التعدد لا يتصور مع فرض واجبية الوجود. واما لو فرضنا ان بعضها محتاج إلى البعض الآخر فان ذلك لا ينسجم مع كونها واجبة الوجود. فان فرضنا ان احدهاليس بحاجة إلى الأجزاء الأخرى فان واجب الوجود هو ذلك الموجود الذي هو غير محتاج والتركيب المفروض لا يكون له واقع بعنوان كونه تركيباً من أجزاء حقيقية ؛ لأن كل مركب حقيقي يكون محتاجاً إلى أجزائه».

توماس: لم لا تفترض أن بعض أجزائه ممكنة الوجود؟

سعيد: إذا فرضنا ذلك «فلا بد ان يكون هذا الجزء الممكن الوجود المفروض معلولاً. وإذا فرضنا انه معلول للجزء الآخر اذن يعلم ان الجزء الآخر في الواقع واجب الوجود وله وجود مستقل. وفرض التركيب الحقيقي بينهما يصبح غير صحيح. وإذا فرضنا ان الجزء الممكن الوجود معلول لواجب وجود آخر فلازم ذلك التعدد في الواجب الوجود وقد ثبت بطلانه.

اذن فرض تركيب ذات واجب الوجود من أجزاء بالفعل هو فرض غير صحيح إطلاقاً» .

توماس : هذا إذا فرضنا الأجزاء بالفعل ولكن ما المانع إذا كانت أجزاؤه بالقوة ؟

سعيد: لابد أولاً من تسليط الضوء على معنى الأجزاء بالقوة حتى نعرف بعد ذلك هل يمكن ان يكون لله عزوجل أجزاء بالقوة أو لا.

توماس : تفضل.

سعيد: «المقصود من وجود أجزاء بالقوة لموجود ما، هو أنه بالفعل له وجود واحد متصل، وأي جزء من أجزائه ليس له فعلية وتشخص واحد معين. إلا أنه عقلا يمكن تحليلها وتفكيكها عن بعضها. وفي أي وقت يتم فيه هذا التفكيك فان الموجود الواحد يتحول إلى عدة موجودات، لكل واحد منها تشخص واحد معين. فالأجزاء بالقوة ان كانت قابلة للاجتماع فمعنى ذلك أن الموجود المركب منها له امتدادات مكانية أي طول وعرض وسمك. وان لم تكن قابلة للاجتماع وكل واحد منها يوجد عند انعدام الآخر فمعنى ذلك أن له امتداداً زمانياً، وكلا هذين النوعين من الامتداد يختص بالأجسام.

اذن نفي الأجزاء بالقوة هو في الواقع نفي للجسمية عن الله تعالى، ولازم ذلك نفي المكان والزمان عنه أيضاً».

توماس: إذا كان الكلام السابق على مستوى المفهوم فكيف نستطيع تطبيقه على الله لكي نثبت أنه خالٍ عن الأجزاء بالقوة؟

سعيد: الدليل على ذلك بعد الذي بيناه يكون واضحاً، حيث أشرنا فيما سبق إلى أن «الموجود الذي له أجزاء بالقوة يكون قابلاً للتقسيم عقلاً إلى عدة موجودات أُخرى وبالتالي يصبح قابلاً للزوال، بينما وجود واجب الوجود ضروري وغير قابل للزوال».

توماس: أحسنت يا سيد سعيد. ولكن هناك مسألة ربما كانت مورد بحث عند الإلهين عموماً وعندكم أيُّها المسلمون بشكل خاص. وهي: مسألة ماهية الله! فبعض يعتقد بأنّ لله ماهية وبعض لا يعتقد ذلك. ومن هنا يبرز التساؤل التالي: لماذا يتمسك البعض سيما المتعمقين في الحكمة والفلسفة بنفي الماهية عن الله وما المحذور في ذلك؟

سعيد: إثارة جيدة ولها ارتباط وثيق في البحث التوحيدي الذي نتكلّم عنه. ونحن نؤكد كلامكم بأن المسألة كانت موضع بحث عند الحكماء المسلمين. إلا أن الحكماء لم يعتقدوا أبداً بثبوت الماهية لله تعالى بل على العكس حيث «عقد الحكماء الإلهيون السابقون بحثاً تحت عنوان (نفي الماهية عن واجب الوجود) وأثبتوه بعدة أدلّة ثم استفادوا منه في المسائل المختلفة لمعرفة الله. وأيسر الأدلّة على ذلك هو إن حيثية الماهية هي حيثية عدم الإباء عن الوجود والعدم، ومثل هذه الحيثية لا تجد طريقاً إلى الذات الإلهية المقدسة. وبعبارة اخرى: ان الماهية والامكان توأمان، فكما ان الامكان لا سبيل له إلى الذات الالهية فالماهية أيضاً لا تجد طريقاً لها إلى الساحة الالهية المقدسة.

محمد: عفواً ايها السادة الا اني اتذكر ان الفلسفة الإسلامية الحديثة

استطاعت البرهنة على نفي الماهية عن الله عزوجل بشكل اعمق وامتن. اليس كذلك يا أخ سعيد ؟

سعيد: بالضبط يا محمد فان فلسفة صدر المتألهين الشيرازي أعني الحكمة المتعالية التي تعد من أعمق المناهج والمدارس الفلسفية عند المسلمين، استطاعت حل هذه المسألة بشكل آخر وبنتائج اهم من الاسلوب القديم لنفي الماهية عن الله تعالى.

توماس : يا حبذا لو ذكرتم لنا شيئاً من براهين هذه المدرسة الفلسفية.

سعيد: بكل سرور يا أخ توماس. نقول: «ان الماهية أساساً امر ينتزع من حدود الوجود المحدود، فهي قالب مفهومي ينطبق على الموجودات المحدودة، ولما كان وجود الله تعالى منزهاً ومبرّءاً عن أي لون من الألوان المحدودية، اذن لاتنتزع منه أيضاً أية ماهية.

وبعبارة أخرى: ان العقل يستطيع ان يحلل الموجودات المحدودة فحسب إلى حيثيتين هما الماهية والوجود للقاعدة المعروفة «كل ممكن فهو زوج تركيبي من ماهية ووجود». اما وجود الله عزوجل فهو وجود صرف، والعقل لا يستطيع ان ينسب إليه أية ماهية .

وبهذه الصورة يتم إثبات البساطة بمعنى أدق لله تعالى، ولازم ذلك نفي أي لون من إلوان التركيب حتى التركيب من الأجزاء التحليلية العقلية عن الساحة الإلهية المقدسة».

توماس : وبذلك يتم المطلوب من ان ا لذات الالهية واحدة بمعنى كونها بسيطة وغير مركبة وهو الذي سميتموه بتوحيد الأحدية؟

سعيد: هو كذلك يا أخي العزيز. ولكن لابد لك ان تتوجه للنتائج المترتبة

على هذا البحث يا عزيزي. ومن بـينها بـطلان نـظرية التـثليث عـندكم أيُّـها المسيحيون.

توماس : وكيف ذاك ؟!

سعيد: بلاشك، لأنّكم تعتقدون بان الله واحد في عين انه ثلاثة، وعلى الرغم من انكم لم تستطيعوا ان تـقدموا الدليـل عـلى هـذا الادعـاء الا أنكـم تتمسكون به لاعتقادكم بصحة ما في ايديكم من الانـاجيل التـي تـفتقر إلى صحة الاثبات لأسباب عديدة، لا اعتقد انها غائبة عن شخصكم. والأكثر من هذا وذاك، ان هذا الاعتقاد ـ أي التثليث ـ يخالف الدليل العقلي الذي ذكرناه لكم وحجتكم في دعواكم ان تجارب البشر مقصورة على المحدود. فاذا قال الله بان طبيعته غير محدودة كأن تتألف من ثلاثة اشخاص، لزم قبول ذلك إذ لا مجال للمناقشة في ذلك، وان لم يكن هناك مقياس لمعرفة معناه. بل يكفي في ذلك ورود الوحي به، وان هؤلاء الثلاثة يشكلون بصورة جماعية «الطبيعية الالهية اللامحدودة». وكل واحد منهم في عين تشخصه وتميزه عن الآخـرين، ليس بمنفصل ولا متميز عنهما. رغم انه ليست بينهم اية شركة في الأُلوهية بل كل واحد منهم إله مستقل بذاته ومالك بانفراده لكامل الألوهية. وان الالوهية في كل واحد متحققة بتمامها دون نقص».

توماس : انا لم اكن اتوقع ابداً بان نتيجة البحث السابق سوف تنتهي إلى إبطال نظرية التثليث. وأنا ارجو منك ان تـبين لي الدليـل عـلى بـطلان هـذه النظرية، سيما ونحن نعتمد على الاناجيل في الايمان بها وهي ـ كما تـعلم ـ وحي من السماء ومن عالم الغيب الذي لا تدركه عقولنا. اليس كذلك يا أخ سعيد سيما وانكم ايها المسلمون تؤمنون بالغيب والوحي مثلنا؟

سعيد: إيماننا بالغيب لا يعني إلغاء دور العقل كما هو الحال عندكم. وانما نحن نؤمن بالأُمور التي تأتي عن طريق الوحي بعد ان يـثبت ان ذلك وحـي حقيقة وليس أدّعاءً وكذلك نشترط عدم معارضة العقل لما في الوحي، والا فلا نقبل به مطلقاً. وانا بعد ذلك اتعجب منكم ايها المسيحيون وفيكم الفـلاسفة والمفكرون واصحاب الاكـتشافات العـلمية والحـضارة الكـبيرة أتـعجبُ كـيف تؤمنون بهذه النظرية الخرافية التي لا تخضع للمنطق ولا للعقل؟

توماس: ولم لاتخضع للدليل، وكيف انها مناقضة للعقل؟!

سعيد: لأنّنا نلاحظ على هذه النظرية أمرين:

أولاً: «ان استناد هذه النظرية إلى الوحي عن طريق الأنـاجيل مـردود؛ لأنها ليست كتباً سماوية، بل تدل طريقة كتابتها على انها أُلفت بعد رفع المسيح إلى الله سبحانه أو بعد صلبه على زعم المسيحيين، والشاهد انه وردت في آخر الأناجيل الأربعة كيفية صلبه ودفنه ثم عروجه إلى السماء .

فضلاً عن ذلك ان عقيدة التثليث بالتفسير المتقدّم مشتملة على التناقض الصريح، إذ من جانب يعرفون كل واحد من الآلهة الثلاثة بأنه متشخص ومتميز عن البقية، وفي الوقت نفسه يعتبرون الجميع واحداً حقيقة لا مجازاً. أفيمكن الاعتقاد بشيء يضاد بداهة العقل. ثم اسناده إلى الوحي الإلهي؟!

وثانياً: نسأل ما هو مقصودكم من الأقانيم والآلهة الثلاثة التي تتشكل منها الطبيعة الإلهية الواحدة، فان لها صورتين لا تناسب أيّة واحدة منهما ساحة الله المقدسة.

توماس: وما هاتان الصورتان؟

سعيد: الصورة الأولى: «ان تكون الأقانيم الثلاثة موجودة بوجود واحـد فيكون الإله هو المركّب من هذه الامور الثلاثة. وهذا القول بتركيب ذات الواجب

وقد عرفت بساطة ذاته تعالى .

الصورة الثانية: ان يكون لكل واحد من هذه الآلهة الثلاثة وجوداً مستقلاً عن الآخر بحيث يظهر كل واحد منهم في تشخص ووجود خاص. ويكون لكل واحد من هذه الأقانيم أصل مستقل وشخصية خاصة مميزة عما سواها.

توماس : وما المانع من هذا النوع من التعدد؟

سعيد: هناك ثلاثة أدلة تبطل مثل هكذا تعدد.

الأول: «لو كان هناك واجب الوجود اخر لتشارك الواجبان في كونهما واجبي الوجود، فلابد من تميز احدهما عن الآخر بشيء وراء ذلك الأمر المشترك وذلك يستلزم تركب كل منهما من شيئين احدهما يرجع إلى مابه الاشتراك والآخر إلى ما به الامتياز. وقد عرفت ان واجب الوجود بالذات بسيط ليس مركباً لا من الأجزاء العقلية ولا من الخارجية.

الثاني: ان وجود الواجب بالذات غير متناه فان محدودية الوجود ملازمة لتلبسه بالعدم وهو واضح، وعلى هذا الاساس لا يمكن اعتبار ذاته سبحانه محدودة ؛ لأنّ لازم المحدودية الفقدان والانعدام بالنسبة إلى مرتبة من الوجود والكمال الوجودي الموجود في النظير. والفقدان مساوق للنقص والحاجة وهي تنافي وجوب الوجود بالذات.

الثالث: قد تبين ان واجب الوجود بالذات لا ماهية له، فهو صرف الوجود، ولا يخلط وجوده نقص وفقدان. ومن الواضح ان كل حقيقة من الحقائق إذا تجردت عن أي خليط صارت صرف الشيء وصرف الشيء لا يمكن أن يتثنى ويتعدد.

وعلى هذا فاذا كان سبحانه ـ بحكم انه لا ماهية له ـ وجوداً صرفاً لا

يتطرق إليه التعدد ينتج انه تعالى واحد لا ثاني له ولا نظير وهو المطلوب».

توماس : ربما كان هناك تفسيرٌ آخر للتثليث لم تذكره يا أخ سعيد وهو ان الحقيقة الالهية تتجلى في أقانيم ثلاثة.

سعيد: تجلّي الحقيقة فيها لا يخلو عن وجهين:

الأول: أن تصير بذلك ثلاث ذوات كل منها واحدة لكمال الحقيقة الالهية وهذا ينافي التوحيد الذاتي.

الثاني: ان تكون الذات الواجدة لكمال الالوهية واحدة ولها تجليات صفاتية وافعالية ومنها المسيح وروح القدس وهذا وان كان صحيحاً، الا انه ليس من التثليث الذي يتبناه المسيحيون في شيء».

توماس : احسنت يا سيد سعيد فلقد كانت اجاباتك وافكارك متينة جداًولقد استفدت في هذا اللقاء منك كثيراً، حيث كان محفزاً لي بشكل كبير ان اعيد النظر في اعتقادي المبني على التقليد لا سيما في مسألة التثليث وغيرها من المسائل. وانا ارجو ان يكون لقاؤنا في الليلة التالية أجمل وأكثر فائدة وسوف يدور حول التوحيد في صفات الله عزوجل وما فيه من مسائل.

سعيد: وانا أيضاً اشكرك كثيراً لحسن الضيافة والموضوعية التي اتصفت بها أثناء النقاش.

محمد: وأنا اشكركما معاً من صميم قلبي حيث استفدت من محضركما كثيراً.

ثم ودع سعيد ومحمد السيد توماس بعد ان قضيا ليلة ممتعة بالفكر ومصارعة الآراء والمناقشات الجميلة.

اللقاء الثاني:

التوحيد في: الخالقية، الربوبية، الحاكمية، التشريع، العبادة

أستيقظ سعيد من نومه في وقت متأخر على غير عادته فلم يجد أحداً من أصدقائه حيث ذهب الجميع إلى أعمالهم وتركوا له الفطور في الثلاجة. وبعد تناوله الفطور أرتدى ملابسه وخرج إلى المكتبة في ذلك المركز الاسلامي ليطالع قليلاً إلى وقت الظهر، حيث أدّى الصلاة هناك وتوجه إلى حديقة كبيرة قريبة من مكان سكناه. وهناك جلس بين الاشجار يجول بناظره بين الورود ويصغي باستئناس إلى زقزقة العصافير.

كانت هناك فتاة ذات عشرين ربيعاً تجلس تحت شجرة كبيرة وهي شاخصة ببصرها إلى السماء الزرقاء تراقب حركة السحاب المتقشع من السماء، ثم تهوي بنظرها إلى الارض، ثم ترجع مرة اخرى تنظر السماء، وتعاود النظر بعدها إلى الارض. واستمر حالها هكذا طوال الساعة، ممّا أثار تعجب سعيد وهو يراقب هذه الفتاة إلا أنّه ظن ان الأمر طبيعي، فربما كان هناك ما يثير هذا التصرف من قبل هذه الفتاة لاسيما وان ملامح الحزن الشديد تبدو ظاهرة عليها.

أحس سعيد بالجوع فحاول الرجوع إلى البيت ليهيئ له ولأصدقائه وجبة الغداء لأن أصدقاءه لا يأتون من اعمالهم الّا بعد الساعة الرابعة. وفعلاً أستطاع أن يهيىء شيئاً من الطعام وانتظر أصدقاءه إلى إن جاؤوا فتناولوا جميعاً الطعام

الذي صنعه سعيد إلا أنهم لم يرتضوا فعلَ سعيد وطلبوا منه ان لا يحاول ان يهيئ لهم الطعام بعد ذلك لأنّه ضيفهم ومن الواجب عليهم ان يقوموا هم بهذا العمل لا هو.

وفي وقت المساء وتحديداً في الساعة التاسعة كان سعيد مع محمد في طريقهم إلى بيت السيد توماس لخوض جولة جديدة من البحث والمناقشة. واما توماس فقد كان ينتظر قدوم سعيد بكامل اللهفة والشوق وكان قد أعدّ لهم شيئاً من الحلويات اللذيذة مع أكواب القهوة الممتعة. وبعد ان وصل الصديقان إلى بيت توماس جلس الجميع وهم يتبادلون كلمات الود والاحترام وأبدى توماس ارتياحه الشديد لما دار بينهما من نقاش في الليلة الماضية.

توماس : إنّ من المعلوم يا سيد سعيد إنّ الله هو خالق هذا العالم. وهذا المعنى متفق عليه بين الديانات الالهية، الا ان هناك مشكلة قد وقع فيها المسلمون افترقوا على أساسها إلى ثلاث فرق، هم: المعتزلة والاشاعرة والامامية. حيث أدعت المعتزلة بأنّ الخلق متعلق بالحدوث لذوات الأشياء فقط، واما الافعال فهي مخلوقة للانسان وهو ما عرف بنظرية التفويض. وأما الأشاعرة فقد أنكروا سببية كلّ سبب وقالوا بأنّ كُلّ شيء مخلوق لله تعالي وحده، وان الإنسان ليس له أيُّ دور في فعله. ولذا قالوا بالجبر وهو ما عرف بنظرية الجبر. وأمّا فرقة الإمامية فقد قالت بالحد الأوسط، وهو ان الفعل متعلّق لله من جهة وللعبد من جهة اخرى وهو ما عرف بنظرية الأمر بين الأمرين.

ومن هنا نريد السؤال عن الحق في ذلك؟ وما هو الدليل عليه؟ وما هو الدافع والسبب وراء هذا الاختلاف بينكم ايها المسلمون؟

سعيد: ما تفضلتم به من وقوع الاختلاف والافتراق بالشكل الذي

صورتموه صحيح ولا ننكره ابداً. واما لماذا ذهبت كل فرقة إلى ما تبنته فنقول:

أما الاشاعرة فانهم بعد ان آمنوا بالله ورسوله والقرآن الكريم شاهدوا ان في القرآن الكريم آيات تنسب الفعل إلى الله فحسب. هذا من جهة، ومن جهة اخرى اعتقدوا بان التوحيد في الخالقية يستلزم ان لا يكون هناك خالق سواه تعالى. فاذا قلنا بان الإنسان هو الذي يخلق افعاله (أي أن افعاله صادرة منه) لزم ذلك ان يكون خالقاً لها وبالتالي يناقض الاعتقاد بالتوحيد في الخالقية.

واما المعتزلة فلما شاهدوا بان بعض الآيات تجعل الإنسان مسؤولاً عن فعله واعتقدوا بان فعل الإنسان فيه ما هو حسن، وفيه ما هو سيء وقبيح، فاذا نسبنا فعل الإنسان إلى الله، وقلنا بانه هو الذي خلقه، فقد نسبنا إلى الله تعالى وتقدس فعل القبيح وهذا غير ممكن. اضف إلى ذلك فان في كون الله هو الخالق لأفعال الإنسان قول بالجبر أي ان الإنسان مجبور على هذا الفعل والجبر ينافي التكليف وهو ينافي العقاب والثواب، فكيف يجبرنا الله تعالى على فعل ثم بعد ذلك يعاقبنا عليه؟ ومن هنا قالوا بان الإنسان هو الذي يخلق فعله وإنّ الله لا دخل له مطلقاً.

واما نظرية الامامية فهي ذلك الخط الوسط بينهما حيث ترى بأن الإنسان ليس مفوضاً إليه الأمر بالكلية، ولا يعني ذلك أنه لا دور له مطلقاً. بل هو مسؤول عن فعله، وفعله ينسب إليه حقيقة لا مجازاً. وفي الوقت نفسه فانه وفعله مرتبطان بالله تعالى وليسا بخارجين عن القدرة والفيض الالهي. كيف والإنسان وكل ما في العالم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً الا بالله تعالى.

توماس: وما هو الرأي الصحيح في نظركم ؟

سعيد: إنّ الرأي الصحيح بلا أدنىٰ شك هو ما تبنته الامامية ؛ لأنه هو المنسجم مع العقل من جهة، ومع التوحيد في الخالقية. واما المعتزلة فأرادوا ان ينزهوا الله عن فعل القبيح وإذا بهم يسقطون في مشكلة التفويض. واما الاشاعرة فارادوا المحافظة على توحيد الخالقية فسقطوا في مشكلة الجبر.

توماس : وما هو موقف القرآن الكريم من هذه المسألة؟

سعيد: «إنَّ الامعان في الآيات الكريمة يدفع الإنسان إلى القول بان الكتاب العزيز يعترف بان النظام الامكاني نظام الاسباب والمسببات. فان المتأمل في الذكر الحكيم لا يشكّ في أنَّه كثيراً ما أسند اثاراً إلى الموضوعات الخارجية والاشياء الواقعة في دار المادة كالسماء وكواكبها والارض وجبالها وبحارها وبراريها وعناصرها ومعادنها والسحاب والرعد والبرق والصواعق... إلى غير ذلك. فمن انكر اسناد القرآن آثار تلك الاشياء إلى أنفسها فانما انكره بلسانه بينما قلبه مطمئن بخلافه. واليك نماذج من الآيات الواردة في هذا المجال:

١ ـ قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَراتِ رِزْقاً لَّكُمْ﴾ .

فقد صرح في هذه الآية بتأثير الماء في تكون الثمرات والنباتات.

٢ ـ قوله تعالى في سورة الروم: ﴿ٱللهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ .

فقوله سبحانه: «فتثير سحاباً» صريح في ان الرياح تحرك السحاب وتسوقه من جانب إلى جانب فالرياح أسباب وعلل تكوينية تُحرك السحاب وتبسطه في السماء. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

اضف إلى ذلك فان هناك أفعالاً أسندها القرآن إلى الإنسان لا تقوم إلّا به

ولا يصح اسنادها إلى الله سبحانه بحدودها وبلا واسطة. فأكله وشربه ومشيه وقعوده ونكاحه ونموه وفهمه وشعوره وسروره وصلاته وصيامه، فهذه كلها أفعال قائمة بالإنسان مستندة إليه فهو الذي يأكل ويشرب وينمو ويفهم.

محمد: اضف إلى ما ذكره الاخ سعيد «فان في القرآن آيات مشتملة على الأوامر والنواهي الالهية، وتدل على مجازاته على تلك الاوامر والنواهي. فلو لم يكن للانسان دور في ذلك المجال وتأثير في الطاعة والعصيان فما هي الغاية من الامر والنهي وما معنى الجزاء والعقوبة» ؟!

سعيد: احسنت يا محمد وعلى هذا الاساس نعرف «اتقان نظرية الامامية ونقف على الخلل في نظرية الاشاعرة والمعتزلة في مسألة التوحيد في الخالقية.

فان نظرية الاشاعرة المنكرين لقانون العلية والسببية تضاد صريح للآيات الدالة على ذلك القانون العام .

كما ان نظرية المعتزلة النافين لاسناد افعال الإنسان والموجودات الامكانية إلى إرادته وفاعليته سبحانه ـ في حال البقاء ـ تضاد الآيات الناصّة على انه تعالى خالق كل شيء. كقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ﴾ .

توماس : إذا كان الامر بهذا الشكل فما هو الشيء الذي دعاهم إلى التمسك بهذه النظريات الباطلة؟

سعيد: «إن الذي أوقعهم في هذا المضيق والرأي الخاطئ هو خطؤهم في تفسير التوحيد في الخالقية وحصرها بالله تعالى، كما انهم أخطأوا في تفسير السببية الجارية في نظام الكون. فزعموا ان المراد من حصر الخالقية بالله تعالى أعم من الخالقية على سبيل الاستقلال والتبعية وزعموا ان القول بسببية

الاسباب الطبيعية اعتراف بسبب في عرض السببية الإلهية. مع أنّ الحق ليس هذا وذاك فان المقصود من حصر الخالقية بالله تعالى هو الخالقية على سبيل الاستقلال وبالذات. واما الخالقية المأذونة من جانبه تعالى فهي لا تنافي التوحيد في الخالقية. كما ان المراد من السببية الامكانية (اعم من الطبيعية وغيرها) ليست في عرض السببية الالهية. بل المقصود ان هناك نظاماً ثابتاً في عالم الكون تجري عليه الاثار الطبيعية والافعال البشرية. فلكل شيء اثر تكويني خاص، كما ان لكل اثر وفعل مبدأ فاعلياً خاصاً. فليس كل فاعل مبدأ لكل فعل. كما انه ليس كل فعل وأثر صادراً من كل مبدأ فاعلي، كل ذلك باذن منه سبحانه. فهو الذي أعطى السببية للنار كما أعطى لها الوجود فهي تؤثر بأذن وتقدير منه سبحانه. هذا هو قانون العليّة العام الجاري في النظام الكوني الذي يؤيّده الحس والتجربة وتبتني عليه حياة الإنسان في ناحية العلم والعمل».

توماس : أحسنتم يا سيد سعيد على هذا الجواب التفصيلي. وبقي عندنا شيء آخر أود طرحه في هذه الجلسة وهو مسألة التوحيد في الربوبية.

سعيد: ان التوحيد في الربوبية يتضح من خلال التأمل في العلاقة والرابطة بين الخالق والمخلوق «فان المخلوقات ليست في أصل وجودها محتاجة إلى الله فحسب، بل ان كلّ شؤونها الوجودية مرتبطة بالله تعالى وليست لها أيّة استقلالية ويمكن له تعالى التصرف فيها بما شاء وان يدبر أمورها بما يريد. وحين نلاحظ هذه الرابطة بصورة عامة ننتزع منها مفهوم «الربوبية» الذي من لوازمه تدبير الأُمور وله مصاديق عديدة كالحافظ والمحيي والمميت والرازق والهادي والآمر والناهي وغيرها».

ومن هنا يتضح معنى التوحيد في الربوبية أي الاعتقاد بأن الله الخالق

عزوجل هو المدبر الوحيد لهذا العالم بالذات والأصالة، وان كل ما عداه محتاج إلى تدبيرة.

توماس: على هذا الاساس لا معنى لكون غير الله مدبراً فلا يوجد رازق إلّا الله ولا مميت ولا محيي، في حين ان القرآن يؤكد وينسب الإحياء والإماتة إلى الإنسان في كثير من الموارد كقوله تعالى: «**من أحيى نفساً فكأنّما أحيى الناس جميعاً**».

فالاعتقاد بتوحيد الربوبية يبطل أي تدبير لغيره، وهذا مخالف لما نجده واضحاً من أنفسنا.

سعيد: ليس الأمر كذلك يا أخي وإنما نحن نرفض كون المدبر على الاستقلال غير الله تعالى وهذا لا يعني بان هناك مدبرين في عرض وتبع تدبير الله. أي أنهم لا يملكون التدبير بشكل مستقل وإنّما يستمدون ذلك من الله عزّوجل فالتدبير ينسب اليهم مجازاً وينسب إلى الله تعالى حقيقةً. والذي يدل على ذلك آيات من القرآن الكريم كقوله تعالى في سورة النازعات: ﴿**فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً**﴾ وقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿**وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً**﴾.

فهؤلاء الحفظة أو المدبرات إنما هي في طول الله جلّ جلاله لا في عرضه وعلى نحو الاستقلال.

توماس: ولماذا نحصر التدبير الاستقلالي بالله عزوجل؟ ألا يمكن أن نتصور أن الخالق هو الله وأن المدبر غيره؟

سعيد: كلا لا يمكن ان نتصور ذلك؛ لأنّ التدبير لا ينفك عن الخلق.

توماس: وكيف ذاك؟

سعيد: في البداية لابد أن نشير إلى ان النكتة الأساسية في خطأ المشركين تتمثل في أنهم قاسوا تدبير عالم الكون بتدبير أمور العائلة أو المؤسسة، وتصوروا أنّهما من نوع واحد. مع انهما مختلفان في الغاية. فان تدبير الكون في الحقيقة إدامة الخلق والايجاد.

توضيح ذلك: إن كل فرد في النظام الكوني بحكم كونه فقيراً ممكناً فاقداً للوجود الذاتي، لكن فقره ليس منحصراً في بدء خلقته وانما يستمر هذا الفقر معه في جميع الأزمنة والأمكنة. وعلى هذا فتدبير الكون لا ينفك عن خلقته وإيجاده بل الخلق تدبير باعتبار، وتدبير خلق باعتبار آخر.

فتدبير الوردة مثلاً ليس إلّا تكونها من المواد السكرية في الأرض ثم توليدها الاوكسجين في الهواء... إلى غير ذلك من عشرات الاعمال الفيزيائية والكيميائية في ذاتها. وليس كل منها الّا شعبة من الخلق. ومثالها الجنين فمنذ تكونه في رحم الأُم، لا يزال يخضع لعمليات التفاعل والنمو حتى يخرج من بطنها، وليست هذه التفاعلات إلّا شعبة من عمليات الخلق وفرع منها.

ولاجل هذه الصّلة الشديدة بين التدبير والخلق نرى أنّه سبحانه بعدما يذكر مسألة خلق السموات والأرض يطرح مسألة تسخير الشمس والقمر الذي هو نوع من التدبير.

قال تعالى في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

توماس : على هذا الاساس الدقيق من التوحيد في الخالقية والربوبية تترتب اللّوازم الأخرى التي هي شؤون الخالق المدبر. أمثال التوحيد في

الحاكمية بمعنى انه لا حاكم بالأصالة إلا الله. وكذلك التوحيد في التشريع ؛ لأن التشريع تدبير وكذلك التوحيد في الطاعة، حيث انـه لا طـاعة لمخلوق عـلى مخلوق وانما من يستحق الطاعة هو الحاكم المشرع المدبر الخالق اليس كذلك يا سيد سعيد ؟

سعيد: بلا شك يا اخي وهذا هو الذي جعل المسلمين يتمسكون بحاكمية الإسلام في كل شؤون الإنسان، ويرفضون بشكل قاطع كل الأحكام الوضعية، ولا يعتبرون أي حكومة غير مستمدة لشرعيتها من الدين، ولا يجب لها الطاعة بل الواجب الوقوف بوجهها لأنها تتحكم بالناس بلا اساس شرعي أو عقلي أو عقلائي.

وكذلك فان من النتائج المترتبة على ما مر هو التوحيد في العبادة فان غير الله لا يمكن أن يكون معبوداً؛ لأنّه فقير محتاج يخضع لتدبير الله. وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

قال تعالى في سورة الحـج: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ فالانسان يتحتم عليه ان لا يخضع بالعبادة لغير الله عز وجل فالله هو المدبر للأمور، وهو الذي يملك كل شؤون الإنسان والعالم.

توماس: ما تتفضلون به منطقي جداً.

سعيد: إذا كان كذلك فلماذا تقومون أيُّـها المسـيحيون بـعبادة المسـيح عيسى بن مريم وهو عبد من عبيد الله فقير مسكين لله عزوجل وها هو القرآن الكريم يخبر ان عيسى ما امركم بعبادته وانما امركم بعبادة الواحد القهار. قال

تعالى في سورة المائدة: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾.

توماس: أنا لا اعرف ماذا أقول لك.

سعيد: إلا اني أعرف يا صديقي توماس، فقد اخبرنا الله في قرآنه ذلك قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شهِيداً مَّادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

توماس: لقد أخبرتك يا أخ سعيد بأني سوف أعيد النظر بالعقيدة المسيحية الموجودة بين أيدينا وأرجو منك ان تدعو لي في صلاتك بالهداية والتوفيق.

سعيد: أفعل إن شاء الله تعالى.

توماس: عليّ أن اشكرك كثيراً يا سعيد على هذا الحوار والاجابات المستفيضة وسعة الصدر الكبيرة. وأرجو أن يكون محور بحثنا في الاسبوع المقبل هو مسألة الصفات الالهية واختلاف المسلمين فيها.

سعيد: كلي أمل أن تتواصل هذه اللقاءات فيما بيننا وسوف أكون مستعداً للبحث في صفات الله تعالى في الاسبوع المقبل. ان شاء الله.

ثم بعدها أخذ توماس أصدقاءه إلى مكتبته الكبيرة وأخذوا يتجولون فيها. وتناولوا جميعاً وجبة العشاء عند السيد توماس ثم عاد محمد وسعيد إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل.

اللقاء الثالث:

في إمكان معرفة صفات الله تعالى

كان اسبوعاً جميلاً ذاك الذي قضاه سعيد مع أصدقائه بالتجوال في المدينة، وكان مواظباً على درس اللغة الالمانية مع صديقه حسين فأخذ في حفظ مفردات هذه اللغة. واتخذ المدينة الكبيرة التي زارها سابقاً مكاناً لمتابعة حفظ ما يلقيه عليه حسين اضافة إلى المطالعة في مكتبة المركز الاسلامي لمدة ساعتين أو ثلاث لا سيما في المسائل ذات العلاقة بالجانب الفكري والعقائدي.

كان سعيد جالساً تحت ظل إحدى الاشجار الباسقة، وإذا بعينه تقع على تلك الفتاة التي رأها منذ أيام وهي جالسة تقرأ كتاباً بيدها وتسرح بفكرها طويلاً ثم يبدو عليها الحزن والتوتر. ولا يدري سعيد انه لماذا يهتم بهذه الفتاة على الرغم من وجود حالات كثيرة من هذا النوع. وعلى كل حال ترك الأمر للأيام فهي التي سوف تحدد ماذا ينبغي ان يفعل. الا ان سعيد كان يتمنىٰ لو انه استطاع اتقان اللغة الالمانية بسرعة ليسأل هذه الفتاة عن سر هذا الحزن المخيم على وجودها.

كان يوم الجمعة يوماً ساراً للغاية بالنسبة إلى أصدقاء سعيد لأن المركز الاسلامي الذي تعرف على سعيد دعاه إلى إلقاء محاضرة دينية لمناسبة ولادة النبي الأكرم ﷺ. وفعلاً كان المركز الاسلامي مكتظا بالمسلمين الذين جاءوا للاحتفال بهذه المناسبة السعيدة. وبعد قراءة القرآن قدم عريف الحفل سعيد إلى

الحاضرين، وأرتقى سعيد المنبر والقى هناك محاضرة جيدة ركز فيها على شخصية النبي الأكرم ودوره في بناء الحضارة الانسانية. فكان صدى المحاضرة جيداً بين الحاضرين. واكتسب سعيد بذلك شعبية واسعة وجعلته محط احترام وتقدير الجالية الإسلامية هناك. وما ان انتهى من محاضرته حتى انهالت عليه الأسئلة من كلٍّ مكان، حول موضوعات عديدة. واخذ بالاجابة عنها، وحل بعض الشبهات حول الإسلام بشكل متين.

وبعد ليلة ملؤها السرور عاد الجميع إلى البيت محمَّلين بصور الاحتفال الجملية.

مرت الأيام سريعاً لتقترب من موعد اللِّقاء مع توماس الذي كان كثير السؤال عن سعيد من صديقه محمد. فأخبره محمد عن محاضرته بالمركز الإسلامي، وحزن توماس لأنّه لم يعلم بهذه المحاضرة حيث كان يأمل في حضورها سيما وان المحاضر هو سعيد .

جاءت ليلة السبت وفي بداية المساء كان سعيد ومحمد في بيت توماس الذي استقبلهم بحفاوة ورحب بهم بحرارة.

توماس : أهلاً وسهلاً بالأُخوة الأعزاء.

سعيد: أهلاً بك يا أستاذ توماس أرجو ان تكون بصحة جيدة .

توماس : الحمد لله يا استاذ سعيد فانا بتمام الصحة والعافية.

محمد: اما انا فأصبحت كالغريب بينكم لا يوجد من يسأل عني أليس كذلك؟

ضحك الجميع وبادر توماس قائلاً: أتعلم لِمَ لمْ نسأل عنك؟ لأنني أراك في العمل كل يومٍ، وكذلك الأخ سعيد فأنت معه في الشقة. واما نحن فلم نر

بعضنا منذ الاسبوع السابق.

محمد: لقد كنت امزح معكما ليس إلّا .

سعيد: لقد عودنا محمد دائماً ان يلطف كل مجلس نحضره بمزاحه الجميل .

توماس : تفضلوا إلى الصالة أيها السادة.

وبعد أن جلس الجميع احتسوا أكواب القهوة اللّذيذة، وأخذ توماس يسأل سعيداً عن أُسبوعه المنصرم كيف قضاه. ثم تطرقا إلى مناسبة ولادة النبي ﷺ والمحاضرة التي القاها سعيد في المركز الإسلامي.

سعيد: ماذا نريد أن نبحث في هذه الليلة يا سيد توماس ؟

توماس : على ما أتفقنا عليه حيث كان المقرر أن يكون البحث في صفات الله عزوجل.

سعيد: إن موضوع صفات الله واسع جداً، وله جهات مختلفة، كما هو مدوّن في كتب الكلام والعقائد الإسلامية. فأي جهة تريد البحث عنها؟

توماس : ما تفضلتم به صحيح، ولذا لابد من البحث في أساس الموضوع وهو امكان التوصل إلى معرفة صفات الله سيما وان هذه المسألة ربما كانت محل نقاش فيما بين المسلمين خصوصاً في زمن نضوج الفكر الاسلامي.

سعيد: نحن ندَّعي إمكان معرفة الله، وكذلك إمكان معرفة صفاته تبارك وتعالى، أمثال كونه عالماً وحياً وقادراً، وأمّا الأقوال الأُخرى فهي ليست صحيحة على الاطلاق؛ لان الإنسان مالم يعرف هذه الصفات فمعناه انه لم يعرف الله الخالق لهذا العالم. فكيف نتصور إلهاً لا نثبت له الحياة والعلم والقدرة؟ ان ذلك مستحيل بلاشك. ومن هنا كان التصور الذي يعتقد بانا لا يمكن ان نثبت هذه

الصفات لله. لأنّ كل صفة تتصورها فهي متناسبة مع المخلوق دون الخالق تصوراً لا ينسجم مع طبيعة العقل التأملية والاداركية .

توماس : وما ا لمانع من الايمان بالله من دون حاجة إلى اثبات الصفات؟

سعيد: ان ذلك لا يمكن لان «مجرد إثبات انه واجب الوجود لا يكفي لمعرفته بصورته المتميزة. إذ من الممكن ان يعتقد البعض بان المادة أو الطاقة ـ مثلاً ـ يمكن ان تكون مصداقاً لواجب الوجود. ومن هنا كان من الضروري ان نثبت من جهة: الصفات السلبية الإلهية ليعلم من خلالها تنزيه واجب الوجود عن الاتصاف بالصفات المختصة بالمخلوقات، ولا يمكن تطبيقه وصدقه على أحد من مخلوقاته. ومن جهة اخرى: لا بد ان نثبت الصفات الثبوتية الإلهية لتتضح لنا صلاحيته للعبادة ولتمهد بذلك الارضية لإثبات سائر المعتقدات امثال النبوة والمعاد وما يتفرع عنهما .

توماس : أين إذن المشكلة في البحث عن صفات الله عزوجل مادام الأمر بهذه الأهمية؟

سعيد: المشكلة هي الإنسان ـ يا أخي العزيز ـ لأنَّ الإنسان دائماً يتخبَّط في البحث عن الأشياء لاسيما في مسألتنا حيث «أعتاد الإنسان الساكن بين جدران الزمان والمكان أن يتعرف على الاشياء مقيدة بالزمان والمكان موصوفة بالتحيّز والتجسيم متسمة بالكيف والكم إلى غير ذلك من لوازم المادة ومواصفات الجسمانية. فكأن البشر جبلوا على المعرفة على أساس المقايسة والتشبيه فلا يمكنهم ان يجردوا أنفسهم من ذلك إلّا بالرياضة والتمرين. فقد قضت العادة الملازمة للإنسان ـ اعني أنسه بالمادة وأعتياده على معرفة كل شيء في الأطار المادي ـ ان يصور لربه صوراً خيالية على حسب ما يألفه من

الامور المادية الحسية. وقلما يتفق لأنسان ان يتوجه إلى ساحة العزة والكبرياء ونفسه خالية عن المحاكاة».

توماس: اذن المشكلة الحقيقية ليست في إمكان معرفة الصفات أو عدم معرفتها وانما المشكلة هي في فهم الصفات الإلهية بشكل لا يتناسب مع حقيقة الله أو واجب الوجود. ومن هنا «أفترق الإلهيون إلى مشبِّهٍ ومعطِّلٍ. فالأولون تورطوا في مهلكة التشبيه وشبهوا الله بانسان له لحم ودم وشعر وعظم وله جوارح وأعضاء حقيقية من يد ورجل ورأس ويجوز عليه المصافحة والانتقال... وأمّا الطائفة الثانية أرادت التحرز عن وصمة التشبيه وعار التجسيم فوقعت في أسارة التعطيل فحكمت بتعطيل العقول عن معرفة الله سبحانه، ومعرفة صفاته وأفعاله. قائلة: ليس لأحد الحكم على المبدأ الأعلى بشيء من الأحكام. وليس إلى معرفته من سبيل إلا بقراءة ما ورد في الكتاب والسنة. فقالت: إن النجاة كل النجاة في الاعتراف بكل ما ورد في الشرع الشريف من دون بحث ونقاش».

سعيد: أحسنت يا سيد توماس فهذا ما حصل فعلاً. ومن هنا نعرف بأن التعطيل ليس فكرة موضوعية. وانما كانت رد فعل على التجسيم الذي وقعت فيه الطائفة الاولى ليس إلّا.

محمد: من حقهم ان يكون عندهم ردُّ الفعل هذا. فان انكار إله بهذه الأوصاف المادية المنكرة أولى من اثباته ربّاً للعالم؛ لأنّ الاعتقاد بالباري بهذه الصفات يجعل الالوهية والدعوة اليها منكراً تنفر منه العقول والأفكار المنيرة.

سعيد: من حقهم فعلاً ان يرفضوا قول المشبهة. ولكن ليس من حقهم تعطيل العقول عن المعرفة؛ لأنّ فيه لوازم فاسدة كما كان لذلك القول لوازم فاسدة.

محمد: اذن ماذا نفعل أمام هذه المعضلة الكبيرة ؟!

سعيد: نسلك المنهج الصحيح في معرفة صفات الله تعالى .

توماس : وما هو ذلك النهج يا سيد سعيد.

سعيد: المنهج هو التأمل العقلي، فمثلاً لقد ثبت لدينا بالأدلة العقلية أنّ واجب الوجود غير محتاج إلى علة وأنه هو العلة لوجود الممكنات. وفي هذا إثبات لصفتين من صفات واجب الوجود.

«الاولى: عدم احتياجه لأيّ موجود آخر لأنّه لو أحتاج ادنى احتياج لأيّ موجود آخر لكان ذلك الموجود الآخر علة له. وقد علمنا بأن معنى العلة في المصطلح الفلسفي هو ان هناك موجوداً آخر يحتاج إليه .

الثانية: ان الموجودات الممكنة الوجود معلولة ومحتاجة إليه وهو العلة الأُولى لحدوثها».

توماس : وما شأن الصفات الأخرى الأساسية لكونه حياً وعالماً وقادراً؟ وكيف نستفيدها؟

سعيد: نصل إلى ذلك شيئاً فشيئاً، فنحن من هاتين الصفتين اللتين اثبتناهما لواجب الوجود سوف «نحاول البحث في لوازم كل واحدة منهما واثبات الصفات السلبية والثبوتية لواجب الوجود».

توماس : نريد أن تضرب لنا مثالاً على هذا الكلام. أي اثبات هذه اللوازم على ضوء ما توصلنا إليه سابقاً.

سعيد: بكل تأكيد، وكمثال لذلك سوف نثبت صفة الازلية والابدية فنقول: «إذا كان الموجود معلولاً ومحتاجاً إلى موجود آخر فان وجوده تابع لوجود الموجود الآخر وإذا فقدت علته فسوف لا يكون له وجود. أي إذا عدم الموجود

في فترة زمنية فهذا دليل على فقره واحتياجه وامكان وجوده. وبما ان واجب الوجود موجود بذاته وغير محتاج إلى أي موجود آخر لذلك فهو أبدي الوجود.

ومن هنا نثبت لواجب الوجود صفتين من صفاته:

الاولى: أزليته وانه لم يسبق له العدم في الماضي.

الثانية: أبديته أي انه في المستقبل لن يكون معدوماً أبداً واحياناً. يعبر عن كلتا الصفتين بالسرمدي».

وكذلك الحال في الصفات السلبية حيث بعد ايماننا بكونه واجب الوجود لابد وان يكون بسيطاً كما ذكرنا ذلك سابقاً وحينئذ سوف يستحيل عليه التركيب، فتستحيل عليه الجسمية، فتستحيل عليه الأعضاء والانتقال وكونه في زمان أو مكان أو غير ذلك. واما الصفات التي ذكرتموها أي العلم والحياة والقدرة فسوف نأتي عليها بعد ذلك الواحدة تلو الأخرى.

توماس : اذن يمكن التعرف على صفات الله عزوجل من خلال التأمل والتدبر في الوجود وما فيه .

سعيد: وكيف لا، ألا ترى أنّ الإنسان حينما يتأمل صفحة الكون الرحيب، ينظر إلى هذه الأبعاد الهائلة من الكواكب والنجوم والمجرات التي تتحرك بشكل منظم لا يختلف ولا يتخلّف، وينظر إلى الطبيعة بما تحمل من نبات وغيرها. «ان النظر إلى النباتات يهدينا إلى ان عالم هذا النوع من الكائنات عالم عجيب تحكمه المعادلات الدقيقة ويجد فيه من عجيب التركيب في خلقة النباتات وعملياتها وفعالياتها المدهشة وقد سببت هذه الأمور والأسرار العجيبة في عالم النباتات إلى ظهور علوم مختلفة مثل علوم تركيب النبات وشكله

وعملية التركيب الضوئي، وعلم تقسيم النبات، وعلم وظائف أعضاء النبات، وعلم البيئة.. الخ» .

أمّا خلقة الإنسان وما فيها من عجائب فحدِّث ولا حرج. فهذه أجهزة الإنسان تثير الدهشة لمن تأمّل فيها سيما المخ والجهاز الدموي والغذائي وغيره.

اذن من خلال ذلك الاتقان والإبداع كُلّه الذي يراه الإنسان ظاهراً في عالمه المحيط به سوف يتوصل بلا شكٍّ إلى أن خالق هذا العالم لابد وان يكون حيّاً؛ لأنّ الميت لا يمكن ان يفعل شيئاً لأنّه سكون وجمود. ولابد ان يكون ذلك الخالق أيضاً قادراً لأنّ هذا الصنع يدل على القدرة اللامتناهية عنده. وكذلك لابد وان يكون عالماً، لأنَّ الجاهل لا يمكن ان ينتج منه أمر مُنظَّم مطلقاً. وبذلك استطعنا ان نتعرف على صفات الله عزوجل واثباتها له. نعم حينما نطالع القرآن الكريم نجده يثبت معرفة صفاته كقوله تعالى في سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَامُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَالِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

توماس : بقيت مسألة أخرى ينبغي عدم التغافل عنها وهي: بعد أن أثبتنا صفات الله عزوجل فانه في علم الكلام الاسلامي تطرح مسألة زيادة الصفات عن ذات الله أو عدم زيادتها. حيث أختلف المسلمون إلى طوائف متعددة في مسألة صفات الله تعالى حيث ذهب البعض إلى انها عين الذات الالهية وأن كلّ واحدة من الصفات عين الاخرى. في حين ذهبت طائفة ثانية إلى ان صفات الله

زائدة على الذات الالهية، ولكنها لازمة لها كما تلازم الزوجية الأربعة. وذهبت طائفة ثالثة إلى ان صفاته تعالى حادثة. وذهبت رابعة إلى ان الصفات خارجة عن الذات. فمعنى اتصاف الذات بهذه الصفات: ان الفعل الصادر منها فعل من تلبس بها فمعنى كونها عالمة انها تفعل فعل العالم في اتقانه واحكامه ودقة جهاته.

ومن هنا وامام هذا الاختلاف الفاحش بين المسلمين في تفسير صفات الله تعالى أين يكمن الحق وما هو الدليل عليه ؟

سعيد: ما أشرتم إليه من الاختلاف في تفسير صفات الله عزوجل بين المسلمين صحيح. ولكن هذا الابتعاد عن الرأي الصحيح لتفسير صفات الله انما هو بسبب قياسهم صفات الله بصفات المخلوقين من جهة، أو رد الفعل السلبي الذي اشرنا إليه سابقاً ليس إلّا.

توماس : انا لا أقنع بهذا وانما اريد ان تبين لي المسألة بشكل واضح ومنطقي.

سعيد: حسناً يا سيد توماس. ان الحق في هذا النزاع هو: ان صفات الله عين ذاته وان كل صفة هي عين الاخرى ومعنى ذلك «ان الصفات التي ننسبها إلى الله تعالى ليست شيئاً مغايراً لذاته فهي ليست موجودات خارجة عن الذات ثم تلحق بها وتتصل معها كما يجري في صفات المخلوقين. فلكي يتصف جسم أسود بالبياض لابد من اضافة صبغة له حتى يصبح ابيضَ. وهكذا الامر في الصفات النفسية فالانسان الحزين لابد من اضافة حالة الفرح إليه حتى يغدو فرحاً. والشخص الذي لا إرادة له لابد من اضافة الإرادة إلى ذاته حتى يكون مريداً. اذن هناك ذات تفتقد الارادة ثم تنضم اليها ارادة انضماماً يتناسب مع النفس والاشياء المجردة، عندئذ تصبح واجدة لشيء كانت تفتقده من قبل. ومن

هذا يعلم ان النفس بذاتها شيء والارادة شيء آخر. لقد كانت نفس الإنسان ولم تكن معها ارادة ثم تحققت الارادة وأصبحت النفس ذات ارادة. فاتصاف النفس بالارادة لا يتحقق مالم يضف شيء غير النفس اليها. والصفات التي نعرفها عن الأجسام وغير الاجسام كالصفات النفسية كلها من هذا القبيل، أي ان الصفة فيها مغايرة للذات.

فهل هذا جارٍ حتى في ذات الله تعالى؟ أي هل أن ذات الله ـ مثلاً ـ شيء وعلمه شيء آخر، بحيث إذا قطعنا النظر عن العلم فالذات نفسها فاقدة للعلم؟ وهل قدرة الله أمر مغاير لذاته، فالذات بنفسها وبغضّ النظر عن القدرة تكون مجردة عن القدرة. والقدرة شيء يضاف إلى الذات. وعندئذ نستطيع ان نقول ان الله قادر ؟

وحينما نتامل جيداً في المسألة فسوف نجد ان القول بالعينية هو الحق؛ لأنّ ذلك الحق تعالى «مبدأ لكل كمال وجودي ومبدأ الكمال غير فاقد له ففي ذاته حقيقة كل كمال يفيض عنه وهو العينية. ثم حيث كان كل من صفات كماله عين ذاته الواجدة للجميع، فهي ـ أيضاً ـ واجدة للجميع وعينها فصفات كماله مختلفة بحسب المفهوم وواحدة بحسب المصداق الذي هو الذات المتعالية».

محمد: حقاً هذا رائع يا سعيد ؛ لأنّ الإنسان حينما يدقق فلا شك سوف يصل إلى «ان صفات الله ليست سوى ذاته فهناك فقط ذات الله البسيطة وعقلنا هو الذي ينتزع من هذه الذات مفاهيم مختلفة فمنشأ جميع هذه المفاهيم هو الذات، والعقل يظفر بها عندما ينظر إلى الذات من زوايا متعددة .

ان هذه المفاهيم مأخوذة قبل ذلك من مكان آخر ولكن لما كانت هذه المفاهيم تحكي عن الكمال والعقل حينما ينظر يرى أنّ الله ليس فاقداً لأيِّ

كمال أو ان يقول انه يتمتع بهذا الكمال أيضاً وهذا الكمال ليس شيئاً غير الذات.

نحن ندرك مفهوم العلم ابتداءً من انفسنا ثم نتساءل: هل يمكن ان يكون خالق هذا العالم غير عالم ؟ فمن المستحيل ان يُكوّن من لا علم له ولا وعي مثل هذا العالم الدال على الحكمة. إذن نقول: إنّ الله عـالم وحكـيم. ونـحن نحصل على هذه المفاهيم في البدء من أنفسنا ولكننا ننسبها إلى الله ؛ لأنّـه تعالى ليس فاقداً لأيِّ كمال. اذن لا يوجد شيء يصلح ليكون منشأ لانتزاع هذه المفاهيم سوى الذات، وليس شيئاً منفصلاً ثم يتصل بذات الله أو يضاف اليها أو يتحد بها، وانما توجد الذات الالهية المقدسة. والعلم ليس شـيئاً مـنفصلاً ثـم يتصل بذات الله أو يضاف اليها أو يتحد بها، وانّما توجد الذات الالهية البسيطة فحسب. والعقل هو الذي ينسب هذه المفاهيم اليها».

سعيد: أحسنت يا محمد فهذا الذي تفضلتم بـه هـو الذي يسـمى فـي اصطلاح الفلاسفة والمتكليمن بالتوحيد الصفاتي.

توماس : أنا أشكركم أيها السادة على هذا الحوار الجميل. ونرجو ان نكمل حديثنا في الليلة المقبلة إن شاء الله تعالى في تفصيل هذه الصفات أي نأخذ كل صفة لنرى معناها. وما هوالدليل عليها وما فيها من إشكالات وغيرها.

وبعد ان غادر سعيد ومحمد منزل توماس أسرع إلى جهاز التسجيل حيث كان يسجل هذه اللقاءات على شـريط الكـاسيت واخـذ بكـتابة عـنوان اللـقاء وتاريخه ووضعه مع الكاسيتات السابقة.

أمّا سعيد ومحمد فأنهما بعد أن خرجا من منزل توماس دعا سعيد محمداً لتناول العشاء في أحد المطاعم الإسلامية التي تصنع الاغذية العـربية. وفـعلاً قضيا هناك وقتاً ممتعاً للغاية.

اللقاء الرابع:

الصفات الذاتية لله تعالى: الحياة، العلم، القدرة

كان صباحاً دافئاً ذلك الذي مر على سعيد في هذا اليوم، حيث استثمره مبكراً بصحبة اصدقائه للتجوُّل في سوق المدينة الكبير، حيث كان من المقرر أن يشتري بعض الهدايا من أجل أن يرسلها عبر البريد إلى أهله في العراق. وفعلاً تم له ذلك. ولكن التجول في السوق يأخذ وقتاً وجهداً كبيرين من حيث لا يشعر الإنسان. ولذا تأخر سعيد مع أصدقائه عن الدعوة التي اقامها السيد مرتضى في بيته لجمع من المؤمنين بمناسبة ميلاد النبي ﷺ وعلى كل حال بقي السيد مرتضى والمدعوون الآخرون في انتظار سعيد إلى الساعة الثانية بعد الظهر حيث وصلوا إلى هناك. وبعد أن تناولوا جميعاً طعام الغداء، بدأت الفعاليات الجميلة، حيث قامت مجموعة من الأطفال بإلقاء الأناشيد، وبقوا على تلك الحال إلى وقت الغروب، حيث أمَّ سعيد الحاضرين لصلاة المغرب والعشاء بعدها أخذوا بالانصراف من بيت السيد مرتضى. وقرر أصدقاء سعيد أن يرافقوه إلى بيت السيد توماس لكي يستفيدوا من المناقشة التي سوف تدور هناك.

وصل الأصدقاء مع سعيد إلى بيت توماس في حدود الساعة الثامنة مساءً وهناك كانت الجلسة اكثر سروراً لما تحمل من حرارة البحث وشوق التزود من المعلومات حول العقيدة الإسلامية .

توماس : هناك تقسيمات مختلفة لصفات الله في كتب العقائد الإسلامية فما هو وجه هذه التقسيمات وما هي أنواعها؟

سعيد: صحيح ان هناك تقسيمات كثيرة في الصفات الإلهية، وكل تقسيم ناظر إلى جهة معينة يقوم على أساسها ذلك التقسيم. فمثلاً تقسم الصفات إلى ثبوتية وسلبية أو جمالية وجلالية. «فاذا كانت الصفة مثبتة لجمال في الموصوف ومشيرة إلى واقعية في ذاته سميت (ثبوتية ذاتية) أو (جمالية). وإذا كانت الصفة هادفة إلى نفي النقص والحاجة عنه سبحانه سميت «سلبية» أو «جلالية».

فالعلم والقدرة والحياة من الصفات الثبوتية المشيرة إلى وجود كمال وواقعية في الذات الالهية. لكنَّ نفي الجسمانية والتحيّز والحركة والتغير من الصفات السلبية الهادفة إلى سلب ما هو نقص عن ساحته سبحانه».

توماس : وما وجه تقسيم الصفات إلى صفات ذات وصفات فعل يا أخ سعيد .

سعيد: الملاحظ في ذلك، أنّا إذا نظرنا إلى الصفة التي يتصف بها الحق بان تكون الذات كافية في انتزاعها بغض النظر عن أي شيء آخر كانت تلك الصفة صفة ذات. مثال ذلك قدرة الله أو حياته أو علمه، فإنّا لا نحتاج في ادراكها إلى توسط شيءٍ ما، خلاف القسم الثاني الذي هو صفات الفعل. فان مجرد وجود الذات ليس كافياً في إدراك هذه الصفات، وإنّما نحتاج إلى توسط فعله تعالى حتى ننسب إليه هذه الصفات كالخالقية أو الرزاقية. فاننا لا يمكن ان نصف الله بأنه خالق قبل ان يقوم بعملية الخلق والايجاد وكذلك لا نستطيع ان نصفه بانه رازق إلّا بعد وجود مرزوقين قام بعملية إرزاقهم وهكذا....

توماس : على هذا الاساس تكون الصفات التي هي عين الذات التي تكلمنا عنها في الليلة السابقة غير شاملة للصفات الفعلية أليس كذلك؟

سعيد: بكل تأكيد ؛ فان الصفات التي تكون عين الذات هي صفات الذات لا صفات الفعل.

توماس : ولكن أريد أن أسأل، هل أن الصفات الفعلية أو ما قد يسمونها بالاضافية لها وجود حقيقي كما هو الحال في الصفات الذاتية أم أنها شيء آخر؟ وكيف ؟

سعيد: أحسنت يا أخ توماس على هذه الملاحظة، وهنا نقول: نعم انه ليس لهذه الصفات الاضافية واقعية كما كان الامر بالنسبة للصفات الثبوتية الذاتية، وانما العقل هو الذي يدرك هذه الصفات بعد المقايسة بين طرفيها. فالخالقية مثلاً لم تأت الا بعد ان نظرنا إلى وجه العلاقة بين الخالق والمخلوق فانتزعنا صفة الخالقية من هذه العلاقة، وإلّا فلا وجود إلّا للطرفين، كما هو الحال في صفة الزوجية لنا نحن البشر، فحينما يرتبط الرجل والمرأة بعلاقة مخصوصة شرعية وقانونية ننتزع من هذه العلاقة صفة نسميها الزوجية. وعلى هذا الاساس «فهذه الصفات هي معان اعتبارية انتزاعية لا حقائق عينية. إذ ليس في الخارج الا وجود الواجب وتعلق وجود المخلوق المحتاج في وجوده وبقائه واستكماله إليه».

ولكن هناك نكته لابد من الالتفات إليها وهي: «إن هذه الصفات الثبوتية الاضافية ترجع في حقيقتها إلى صفة واحدة حقيقية وهي القيومية لمخلوقاته وهي صفة واحدة تنتزع منها عدة صفات باعتبار اختلاف الآثار والملاحظات».

توماس : وما معنى القيومية التي ترجع اليها هذه الصفات؟

سعيد: المراد من القيومية هو التقويم الوجودي، لا مبالغة القيام الوجودي. فان الثاني من صفات الذات ومرادف مع وجوب وجوده أي كونه قائماً بذاته. وانما المراد به ما يقوم به غيره من وجود أو حيثية وجودية فان الخلق والرزق

والحياة والبدء والعود والعزة والهداية إلى غير ذلك حيثيات وجودية موضوعاتها من الوجودات الامكانية وهي جميعاً قائمة به تعالى مفاضة من عنده».

توماس: بعد أن عرفنا هذه التقسيمات نرجوالحديث بشكل أكثر تفصيلاً حول الصفات الثبوتية. ولنبدأ بصفة الحياة لله تعالى ونريد السؤال هنا عن أمرين، الاول: ما هو الدليل على كونه حياً؟

والثاني: ما نحو حياته تعالى ؟

سعيد: أما الدليل على كونه حياً فهو واضح جداً لأنّ الله تعالى هو الذي منح الحياة للمخلوقات الحية ومن الطبيعي ان فاقد الشيء لا يمكن ان يكون معطياً له. فلو فرضنا جدلاً انه ليس حياً فهذا يستدعي عدم وجود حياة في هذا العالم وبما أن وجود الحياة في هذا العالم أمر بديهي نحسّه بالوجدان اذن فوجود الحياة له كذلك.

فضلاً عن ذلك، لقد ذكرنا سابقاً ان هذا العالم متقن ومنظم بشكل دقيق، وهذا يلازم كون الخالق عالماً قادراً. وهاتان الصفتان لا تكونان الا لموجود حي ويمتنعان عن غيره .

توماس: ولكن الحياة التي عندنا في هذا العالم شيء لا يتناسب مع وجود الله، حيث ان الحياة عندنا تلازم بعض الآثار المستحيلة عليه أمثال الجذب والدفع والنمو والرشد والتوالد والتكاثر والحركة وردة الفعل. فضلاً عن ذلك فان المادة الحية عندنا هي عبارة عن مادة السوتوبلازم. حيث ان كل الموجودات الحية تتكون من هذه المادة الكيماوية وهذا مستحيل على الله تعالى. فكيف توفقون بين هذا الكلام وبين اثبات الحياة له؟

سعيد: هذا الذي تذكره من وجود الحياة في عالم المادة لا نشك، فيه إلا

أنّ معنى الحياة فيه ليس صحيحاً، حيث إنّ مفهوم الحياة يستعمل في مجموعتين من المخلوقات «الاولى: النباتات حيث تتميز بالنمو.

الثانية: الحيوانات والإنسان حيث تمتلك الشعور والارادة.

ولكن المعنى الاول لمفهوم الحياة مستلزم للنقص والاحتياج. وذلك لان طبيعة النمو تفرض ان يكون الشيء النامي في بداياته فاقداً للكمال. ولكن نتيجة لبعض العوامل والمؤثرات الخارجية تحصل فيه تغيرات تصل به إلى كمال جديد بالتدريج ولا يمكن نسبة مثل هذه الامور إلى الله تعالى .

واما المعنى الثاني: فانه مفهوم كمالي وان اقترن في بعض مصاديقه الامكانية ببعض النقائص والتحديدات، ولكن يمكن ان نتصور له مرتبة لا متناهية ليس فيها أيُّ نقص أو تحديد أو احتياج. كما هو الأمر في مفهوم الوجود ومفهوم الكمال .

والحياة بمعناها الملازم للعلم والفاعلية الإرادية من مستلزمات الوجود غير المادي، وذلك فانه وان نسبت الحياة إلى الكائنات المادية الحية ولكن الحياة في واقعها صفة لروحها لا لبدنها وانما يتصف بها البدن لتعلق وارتباط الروح به».

«وبناء على هذا يكون مفهوم الحياة دالاً على كمال وجودي وهو قابل للتوسعة حتى يشمل موجودات ليس لها تعلق بالمادة أيضاً. ومن هنا فان لجميع المجردات صفة الحياة الذاتية. وارفع مراتب الحياة تكون مختصة بالذات الالهية المقدسة. اذن بالالتفات إلى كون الذات الالهية مجردة فاننا لا نحتاج إلى برهان آخر لأثبات الحياة بعنوان كونه صفة ذاتية لله تعالى».

توماس: أحسنت يا أستاذ سعيد لقد كان جوابك متيناً للغاية. وعلى ذلك لا

نقف كثيراً في هذه المسألة بل ننتقل إلى صفة العلم في الله تعالى. ولكن ومن دون شك فان ثبوت العلم له أمر واضح ولا ريب فيه، وأقصد من العلم هنا العلم بذاته أي أنه يعلم ذاته، لأن «كل من يعرف تجرد الذات الالهية وعدم ماديتها فانه يستطيع أن يدرك بسهولة أن ذاته المقدسة هي عين العلم بذاتها كما هو الامر كذلك بالنسبة لكل موجود مجرد مستقل .

وإذا كان هناك من شك في ضرورة العلم بالذات لكل موجود مجرد فاننا نستطيع أن نستدل له في مورد الله تعالى بهذه الصورة:

إنّ العلم بالذات من الكمالات الوجودية التي تلاحظ في بعض الموجودات مثل الإنسان. والله تعالى يتمتع بجميع الكمالات الوجودية بشكل غير متناهٍ، إذن هذا الكمال موجود عنده بارفع مراتبه». إلا أنّ المهم في هذا المقام هو الإجابة على الاشكالات الواردة في علم الله بذاته، وكذلك علم الله بالجزئيات على الرغم من كونها متغيرة، وعلم الله قبل الايجاد وما شابه ذلك.

وأول سؤال نطرحه على بساط البحث هو: أنكم تقولون بان الله تعالى عالم بذاته، في حين إنّ العلم هو عبارة عن نسبة قائمة بين العالم والمعلوم. والنسبة انما تكون بين شيئين متغايرين ونسبة الشيء إلى نفسه محال إذ لا تغاير ولا إثنينية في الشيء الواحد. اذن إمكان كون الله تعالى عالماً بنفسه مشكل ؟

سعيد: لا يوجد أي مشكل في علم الله بذاته «لأنّ التعدد والتغاير إنّما هو في العلم الحصولي ؛ لانه عبارة عن إضافة العالم إلى الخارج بالصورة الذهنية، ففيه الصورة المعلومة غير الهوية الخارجية. وأمّا العلم الحضوري فلا يشترط فيه التغاير خارجاً بل يكفي التعدد اعتباراً .

وبعبارة اخرى: إنّ إطلاق العلم والعالم والمعلوم لأجل حيثيات وأعتبارات. فباعتبار إنكشاف الذات للذات يسمى ذلك الانكشاف «علماً». وباعتبار كون الذات مكشوفة لدى الذات يطلق عليها «معلومة»، وباعتبار كونها واقعة على ذاتها تسمى «عالمة». ولو اعتبرت كيفية علم الإنسان بذاته لربما يسهل عليك تصديق ذلك».

طبعاً لابدَّ من التوجه إلى ان العلم الحصولي يعني حضور صورة المعلوم عند العالم لا نفس المعلوم، بخلافه في العلم الحضوري حيث ان نفس المعلوم يحضر عند العالم. فعلم الإنسان بنفسه لا يحتاج إلى توسط صورة ذهنية، في حين علم الإنسان بالأمور الخارجية يحتاج إلى توسط الصور الذهنية.

توماس : أحسنت ياسعيد ولكن بقي عندنا الاشكالات العويصة في علم الله بالمخلوقات قبل الايجاد. والسؤال هو هل يمكن ان يتعلق علم الله بالاشياء قبل ايجادها أو لا ؟!

سعيد: نقول: نعم الله عالم بالاشياء قبل وجودها والدليل على ذلك ما يلي:

هل إنّ الله تعالى علة موجدة لهذه الاشياء التي وجدت بعد ذلك أم لا ؟ والجواب: نعم انه تعالى علة وسبب لهذه الاشياء. وعندما نضم هذه المقدمة مع القاعدة العقلية التي تقول: «ان العلم بالسبب بما هو سبب علم بالمسبب والعلم بالعلة بما هي علة علم بوجود المعلول». وبما ان الله عالم بذاته كما اتضح لنا ذلك قبل قليل، وذاته هي علة هذه الموجودات، والموجودات معلولة لذاته. اذن علمه بذاته يستبطن ويستلزم علمه بهذه الموجودات قبل الايجاد، لأنّ ذاته تعالى موجودة قبل الايجاد.

توماس : لم افهم بشكل دقيق هذه القاعدة العقلية، وكيف يلزم منها العلم بالموجودات قبل الايجاد.

سعيد: سوف أضرب لك بعض الامثلة لعلها تفي بـالغرض إن شـاء الله تعالى:

«ان المنجم العارف بالقوانين الفلكية والحسابات الكونية يقف عـلى ان الخسوف أو الكسوف أو ما شاكل ذلك يتحقق في وقت أو وضع خاص.

وليس علمه بهذه الطوارئ الا من جهة علمه بالعلة من حيث هي علة لكذا وكذا. وكذلك: ان الطبيب العارف بحالات النبض وأنواعـه وأحـوال القـلب وأوضاعه يقدر على التنبؤ بما سيصيب المريض في مستقبل أيامه. وليس هذا العلم الا من جهة علمه بالعلة من حيث هي علة».

توماس : ولكن بقي عـندنا إشكـال آخـر، وهـو: كـيف أنّ العـلمَ يـتعلق بالجزئيات على الرغم من ان الجزئيات متغيرة زائلة؟ وعلى ذلك فلو كـان الله تعالى عالماً بها لاستلزم التغير في علم الله. وبما ان العلم عين الذات الالهـية فذلك يستلزم التغير في الذات الالهية. ومعناه كون الذات من عالم المادة، ولكن ذلك مستحيل كما أثبتناه فيما سبق. وعليه فان الله تعالى لا يمكن ان يتعلق علمه بالجزئيات .

سعيد: إشكال جيد يا أستاذ توماس ولكن يمكن ان نجيب عنه ان شاء الله فنقول: اعلم يا اخي العزيز بان العلم الإلهي على نحوين :

الأول: علم الله تعالى في مرتبة الذات.

الثاني: علم الله تعالى في مرتبة الفعل .

أما العلم في مرتبة الذات فهو علم الله تعالى بذاته الذي هو عين الذات

الإلهية وهو «لا يتغير بتغير المتغيرات. فانه في الأزل كان عالماً بكل متغيراته، حدث في زمان خاص وبكيفية خاصة. ولا يتخلف شيء عن هذا العلم ويقع كما هو معلوم عند ربه ولا يحصل تغير في علمه أصلاً. وعلمه في الأزل بـوجود المعلول في زمان خاص لا يوجب كونه موجوداً في الأزل بوجوده الخاص به، وإلّا لزم الخُلف في علمه، فكل شيء واقع كما علم، والعلم بالمتغير ليس بمتغير. إذ حكم ذات المعلوم لا يسري إلى العلم، كما ان العلم بالحركة ليس بـحركة، والعلم بالعدم أو الإمكان ليس عدماً ولا إمكاناً. والعلم بالمتكثر ليس بمتكثر.

واما العلم في مرحلة الفعل فهو عين الفعل ؛ لان المراد من العلم الفعلي هو حضور الفعل بنفسه عند الله تعالى. كما ان الصور المعقولة والذهنية حاضرة عندنا بنفسها، وعلمنا بها عينها، فالتغير في هذا العلم لا بأس به ؛ لأنه يرجع إلى التغير في ناحية الفعل لا في ناحية الذات والمحال هو الثاني كما لا يخفى».

توماس : أحسنت يا أستاذ سعيد لهذا الجواب المتين. وبقي عندنا البحث في قدرة الله تعالى. حتى ننتهي من الصفات الذاتية في هذه الليلة ان شاء الله تعالى. ولذا نحاول الحديث في معنى كونه تعالى قادراً.

سعيد: ان القدرة من المعاني التي يدركها الإنسان بشكل واضح، وكل ما في الأمر هو أنّه لابد من التمييز بين القدرة المـحدودة والمـتلبسة بـالشوائب العدمية التي تكون عند الإنسان أو الحيوان أو غيرهما من المخلوقات، وبـين قدرة الله التي لا حدود لها. ومن هنا فانّ أيّ تعريف واضـح للـقدرة بـالمعنى الصحيح الدقيق غير متوفر في أيدينا. نعم قد عرف الفلاسفة والمتكلمون القدرة بتعريفات الغرض منها بيان المعنى الإجمالي لها ويصح هذا المعنى الذي ذكروه إذا جردناه من الشوائب العدمية واللوازم الفاسدة.

توماس: يا حبذا لو أعطيتنا بعض هذه التعريفات.

سعيد: عرفوا القدرة مثلاً بمعنى صحة الفعل والترك، فالقادر هو الذي يصح أن يفعل ويصح أن يترك .

وكذلك ثمة تعريف ثان وهو: انّ القدرة هي الفعل عند المشيئة، والترك عند عدمها. فالقادر إن شاء فعل وان شاء لم يفعل، أو ان لم يشأ لم يفعل. طبعاً كل هذا مع انضمام الشعور والعلم. وعلى هذا الاساس يكون الشعور والعلم هما مبدأ الفعل والترك. ولذا صح ان تقول «ان القدرة عبارة عن كون الفاعل الحي المختار مبدأً لأفعاله فاذا كان هذا الفاعل ذا كمالات غير متناهية فانه يصبح ذا قدرة غير متناهية. وبالالتفات إلى هذا التحليل فاننا لا نحتاج إلى برهان آخر لاثبات القدرة اللامتناهية للذات الالهية المقدسة.

وحسب هذا البيان تكون القدرة مفهوماً مشكّكاً ولمصاديقه مراتب مختلفة. ويشمل هذا المفهوم قدرة الحيوان والإنسان والمجردات التامة، ويشمل القدرة الالهية أيضاً. كما ان مفاهيم الوجود والحياة والعلم... أيضاً كذلك». نعم الاختلاف في المصداق حيث ان الله تعالى مصداق للقدرة اللاّمتناهية، في حين أن كل ما عداه تكون قدرته محدودة بحدود وجوده ومرتبتهِ الوجودية.

توماس: جيد ولكن هل تعتقدون بان قدرة الله ليست محدودة أو أنَّ هناك حدوداً لا مجال للقدرة الإلهية فيها؟

سعيد: في البداية لابدّ من الإشارة إلى أنَّ القدرة الإلهية انما تتعلق بما كان ممكناً في ذاته، واما الممتنع فليس داخلاً في متعلق القدرة من الاساس. ولذا عندما جاء شخص إلى الامام الصادق عليه السلام يسأله: هل يستطيع الله تعالى ان

يدخل الدنيا على كبرها في بيضة على صغرها، من دون ان تصغر الدنيا أو تكبر البيضة أو لا ؟!

فنرى ان الامام عليه السلام لم يقل له ان الله يقدر أو لا يقدر وإنما أجابه: بان الله تعالى لا يوصف بعجز ولكن الذي تسأل لا يكون.

وعلى هذا الأساس نعرف ان تعلق القدرة الالهية بالممكنات فحسب ليس تحديداً للقدرة، وانما المجال الذي تعمل فيه هو المُحَدّد ؛ وذلك لأنّ ما كان ممتنع الذات لا يتحقق، بغض النظر عن القادر. وبكلمة فنية ان العجز ليس في الفاعل لانه تام الفاعلية، وانما ا لعجز في القابل الذي لا يقبل ذلك. واريد أن أضرب لك مثالاً واضحاً، وهو: لو طلب منك شخص ان تضع ماء البحر كله في إناء صغير هل كنت تستطيع ان تفعل ذلك؟

توماس : بطبيعة الحال لا.

سعيد: ما هو السبب هل لأنك لا تستطيع، أو لان هذا غير ممكن التحقق مطلقاً ؟

توماس : حتماً لان ذلك لا يمكن تحققه ؛ لأن القدح لا يسع ماء البحر أبداً.

سعيد: كذلك الامر بالنسبة إلى تعلق القدرة الالهية فأنها خاصة في الممكنات فقط. ومن هنا تعرف سخافة بعض الاشكالات التي تطرح من هنا وهناك، بان الله هل يستطيع ان يخلق إلٰه واجب الوجود مثله؟ أو هل يستطيع الله ان يجمع بين النقيضين أو لا؟ فمثل هكذا إشكالات لا تتمتع بأيّ قيمة علمية لانها تتحدث عن شيء بعيد عن متعلَّق القدرة الالهية.

توماس : أحسنتم يا سعيد، ولكن ثمة أُمور اخرى قد تطرح في المقام

ليست من المحالات الذاتية أمثال هل ان الله تعالى يستطيع ان يفعل القبيح أو لا؟

سعيد: بلاشك ان الله قادر على ذلك ولكن هذا لا يعني انه يفعله لأنّ فعل القبيح من العبث، والحكيم ـ أمثال الله تعالى ـ لا يمكن ان يفعل العبث، لأنَّه يلزم منه النقص الذي يتنافى مع وجوب الوجود. اذن فلوح القدرة أعم من لوح الوقوع بمعنى انه ليس كل مقدور واقع وبالمقابل ليس كل مالم يقع ليس مقدوراً.

ومن هنا نستطيع ان نصل إلى أن القدرة الالهية تتعلق بالارادة. فليس معنى كونه تعالى قادراً ان يفعل كل ما يستطيع، وانما معناه ان يفعل كل ما يريد. ومع ضم مقدمة هي ان الله تعالى باعتباره مصدر الخير والعدل والاحسان والرحمة والكمالات الوجودية فانه لا يريد الا ما به الخير والرحمة والكمال.

توماس: أنا اشكرك يا أخ سعيد من صميم قلبي وأعتقد بانك كنت موفقاً في الإجابة عن جميع هذه الاشكالات، وبيان المعنى الصحيح لهذه الصفات الالهية.

محمد: أعتقد أننا أستغرقنا وقتاً طويلاً ولا مجال لفتح موضوع آخر في هذه اللَّيلة.

توماس: حتماً، لأنّا لا نريد أن نتعب سماحة الأخ سعيد. فإلى ليلةٍ أخرى مع موضوع آخر إن شاء الله.

ثم ودّع الأصدقاء توماس ورجعوا إلى البيت وهم فخورون بصديقهم سعيد الذي كان كالجبل الأشم لا تهزه الاشكالات ولا توقفه التساؤلات .

اللقاء الخامس:

الصفات الثبوتية الفعلية

كان هذا الاسبوع من الأسابيع التي قضى فيها سعيد أروع الأوقات وأجملها. فقد سافر مع السيد مرتضى في سيارته إلى مدن عديدة من المانيا حيث تجولا في المدن والأرياف، وزارا المتاحف والمعارض الفنية الجميلة. فكانت ايام هذا الاسبوع رائعة جداً ومرت على سعيد خلاله مواقف عديدة: منها ان شخصاً في الفندق الذي كانا يحلان فيه وبعد ان علم بان هؤلاء مسلمون اخذ يستهزئ بالاسلام والمسلمين، ويرميهم بالتخلف والجهل والهمجية. فما كان من سعيد الا توضيح الحق لهذا الشخص الذي خدعه الإعلام الغربي، الذي ما فتئ يحاول تشويه صورة الإسلام للشعوب الغربية. ومن هنا اقتضى الامر بيان الحقيقة لأمثال هؤلاء المغرر بهم. وبما ان سعيد كان لا يجيد اللغة الالمانية فلذا استعان بصديقه مرتضى للترجمة فيما بينهما. وحاول سعيد في ذلك الحال ان يكون واسع الصدر ويستوعب كل ما يتلفظ به هذا الرجل، والصبر عليه. وعندما رأى هذا الرجل من سعيد الكلمات الجميلة والوجه المتبسّم والاخلاق الرائعة، أخذ بالهدوء والاصغاء لما يبينه سعيد من الحقيقة المخفية عن هؤلاء. وبعد ساعتين من الكلام والاجابة عن تساؤلات الرجل، اعتذر ذلك الشخص من سعيد وسيد مرتضى، واوضح لهما بانه كان مخدوعاً وانه يحس ان من واجبه توضيح هذه الحقيقةللعديد من زملائه وأصدقائهِ الذين ربما يعيشون

التصور نفسه عن الإسلام والمسلمين.

الملفت للنظر ان هذا الشخص في اليوم التالي جاء إلى الفندق هو وزوجته وطفلاه حاملين باقة من الزهور من أجل زيارة سعيد وصديقه معلنين بذلك عن الاعتذار العملي. فقام سعيد في المقابل بأهدائهم كتاباً في اللغة الالمانية يعرف الإسلام بما يحمل من مفاهيم واسس راقية تحقق السعادة للبشرية باجمعها. فما كان من هذا الرجل الا ان يعاهد سعيداً بانه سوف يقرأ هذا الكتاب بعناية واهتمام لعله يجد فيه ما يبحث عنه منذ أمد بعيد. وطلب من سعيد ان يعطيه عنوانه ورقم هاتفه من أجل ان يسأل عنه متى ما سنحت لذلك فرصة.

عاد سعيد مع السيد مرتضى إلى برلين وهم يحملون ذكريات جميلة وصوراً جذابة التقطاها اثناء سفرتهم تلك. وبعد ان وصلا إلى برلين حيث كان يوم الخميس كان بأستقبالهم أصدقاؤهم الذين كانوا في أشد الشوق إلى سعيد الذي اعتادوا على مجالسته والاستماع إلى كلماته الهادفة. واما سعيد فقد قرر ان لا يخرج من البيت إلى غاية يوم السبت ليأخذ قسطاً من الراحة ويتفرغ في هذين اليومين للعبادة وقراءة القرآن الكريم .

في يوم السبت كان سعيد على عادته مع صديقه محمد في بيت توماس الذي كان في انتظار قدوم سعيد على أحرٍّ من الجمر. واخذ سعيد يحكي قصته مع ذلك الرجل في سفرته الممتعة، ولذا نرى توماس اخذ يمازح سعيداً قائلاً :

يبدو ان وجود السيد سعيد بات خطراً علينا في ألمانيا لأننا نخشى ان يتحول الشعب الالماني إلى مسلمين في بضع سنين على يده .

سعيد: ولماذاتخشون ذلك إذا كان هذا هو الحق وان الناس تعتنق الإسلام عن قناعة وايمان .

توماس : نحن نخشى على حضارتنا ان تزول يا سعيد .

سعيد: ومن قال لك بان الإسلام يتنافى مع الحضارة والعلم والتطور، بل على العكس الاسلام هو صاحب الحضارة التي يشهد لها العدو والصديق والبعيد والقريب، بل ان حضارتكم التي تعجبون بها انما قامت على أعتاب حضارتنا، أليس كذلك يا سيد توماس؟

توماس : أنا أعلم الناس بذلك يا سيد سعيد وانما احببت ان امزح معك وأُثير أحاسيسك الدينية ليس الا .

سعيد: بل أحاسيس الحق والعدل والواقع.

توماس : ما أعجبك يا سعيد! لا يفوتك حتى خطأ التعبير، فأين تعلمت هذا؟

سعيد: تعلّمته في جامعة تتخذ من المساجد صفوفاً لها. من اناس قد لا تعجبك هيأتهم ولكن يسرك عمق وعظمة فكرهم، لو توجهوا لدنياكم هذه لأوصلوها إلى السماء، ولكانت هذه الحضارة الّتي سحرتكم قرية صغيرة بالنسبة إليها. ولكنهم عرفوا حضارة الإنسان والكمال فسعوا في بنائها. وعلموا تفاهة حضارة الطين وزوا لها فأعرضوا عنها، فتراهم في النهار كالنحل دائبين على تلقي العلم وفي الليل ساهرين في عبادة الله وطلب لقائه.

توماس : ويل نفسي أين أنا عن ذاك؟ ما أتفه الذي بين أيدينا وما أعمى أبصارنا حيث لم نر إلّا ألات متحركة وأبنية شاهقة ووسائل عيش باهتة. وانا أغبطكم على ما أنتم عليه وأسأل الله أن يوقفني له.

سعيد: الطريق أمامك مفتوح والإسلام يحتضن بذراعيه الحنونتين كل قادم، ولكن تنقصكم العزيمة والإرادة التي تخرجكم من عبودية ما ألفيتم عليه

أباءكم وما تلقيه عليكم أصنامكم إلى نور الإسلام، وضياء الإيمان، وطاعة الرحمن، والوصول إلى الرضوان .

توماس يتحسر وتترقرق من عينيه دمعتان، ويعم الصمت المكان ثم يبادر قائلاً: لابد وان يأتي الأوان يا سعيد، فأنا من سنين أحارب نفسي وفكري إلّا ان الكثير من الشبهات والاشكالات كانت ولا زالت تحول بيني وبين ذاك فادعُ لي في صلاتك أن أتوفق لذلك.

سعيد: سوف أدعو لك من صميم قلبي.

توماس : لابد ان نرجع إلى موضوع الليلة يا سعيد أليس كذلك ؟

سعيد: بلا شك فان هذه اللقاءات بعض مقدمات وصولك إلى الحق.

توماس : وهذا بالفعل الدافع الذي دعاني لأن أطلب منك عقد هذه الحوارات واللقاءات ومن هنا أرجو ان يصل بنا المقام إلى ما فيه الخير إن شاء الله.

سعيد: ان شاء الله.

توماس : سوف يكون بحث هذه اللَّيلة حول بقية الصفات الإلهية، أقصد الصفات الفعلية، حيث كان حديثنا في السابق حول الصفات الثبوتية الذاتية.

سعيد: لقد ذكرنا فيما سبق بان صفات الله تعالى منها ما يكفي وضع الذات لاتصاف الله بها وهي الصفات الثبوتية الذاتية، أمثال الحياة والعلم والقدرة. ومنها ما لا يكفي وضع الذات لاتصاف الله بها وانما تحتاج إلى طرف ثانٍ، وهي الصفات الثبوتية الفعلية أمثال كونه تعالى متكلماً أو كونه صادقاً أو كونه حكيماً.

توماس : ارجو ان يبدأ حديثنا عن كلام الله تعالى ؛ لانه كان موضع نقاش ومنازعة ما بين الفرق الإسلامية. وحينئذ نسأل: ما معنى كون الله متكلِّماً ؟

سعيد: لو أردنا ان نوضح معنى كلام الله بشكل مختصر وواضح نقول: «ان من المفاهيم التي نسبت إلى الله تعالى مفهوم التكلُّم، وقد بحث منذ زمان بعيد حول الكلام الإلهي بين ا لمتكلِّمين ـ علماء العقائد ـ بل قيل ان السبب في هذه التسمية «علم الكلام» هو خوض أصحاب هذا العلم في البحث حول الكلام الالهي حيث أعتبرته الاشاعرة من الصفات الذاتية بينما أعتبرته المعتزلة من الصفات الفعلية. وهو من الموضوعات التي حدثت حولها نزاعات شديدة بين هذين المذهبين بسبب تعدد الآراء في هذا الموضوع. ومع ملاحظة التعريف الذي ذكرناه للصفات الذاتية والصفات الفعلية يظهر لنا بوضوح: ان التكلم من صفات الفعل حيث يتوقف انتزاعه على تصور مخاطب يتلقى مقصود المتكلم ومراده بواسطة سماع الصوت أو رؤية كتابه أو خطور مفهوم في ذهنه أو بأية صورة أو طريقة أُخرى. وفي الواقع ان مفهوم المتكلِّم ينتزع من الرابطة بين الله تعالى الذي يريد ان يكشف عن حقيقة معينة لآخر ومخاطب يدرك تلك الحقيقة ويتلقاها إلّا أن يراد من التكلُّم معنى اخر كالقدرة على التكلم أو العلم بمضمون الكلام وبهذا التفسير تؤول وتنتهي هذه الصفة إلى الصفات الذاتية، كما ذكر نظيره لبعض الصفات الفعلية الأُخرى .

وأمّا القرآن الكريم بمعنى هذه الكلمات المكتوبة أو الألفاظ أو المفاهيم الموجودة في الاذهان أو الحقيقة النورانية والمجردة فهو من المخلوقات. الا أن يقال بان العلم الالهي الذاتي هو حقيقة القرآن وفي هذه الصورة تؤول هذه الصفة إلى صفة العلم الذاتية. ولكنّ هذه التأويلات حول الكلام الإلهي والقرآن الكريم بعيدة عن الفهم العرفي للمحاورات ويلزم تجنبها».

توماس: إذا كان كلام الله تعالى بهذا المعنى، اذن لماذا نجد الله في آيات

متعددة يصف كلماته بأنها لا تنفذ ولماذا سمى الله عيسى بأنه كلمة منه؟

سعيد: ما أشرتم إليه صحيح فان الله تعالى يقول في حقّ عيسى في سورة النساء: ﴿يَـا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّـهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾. وكذلك قوله تعالى في سورة ا لكهف: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَـاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾. إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على إن كلمات الله هي وجود الأشياء. فعيسى كلمة الله ؛ لأنّه موجود من الموجودات الامكانية التي أوجدها الله تعالى وفيه إشارة إلى المعجزة التي بها ولد حيث لم يكن له أب. ومن هنا نرى أمير المؤمنين عليه السلام يؤكد بان كلام الله تعالى بهذا المعنى ليس عبارة عن الأصوات وما شابه ذلك وإنما هو ايجاده للأشياء من كتم العدم. فقد ورد في كتاب نهج البلاغة انه قال: «يقول ـ أي الله تعالى ـ لما أراد كونه: كن، فيكون. لا بصوت يقرع ولا بنداء يسمع وانما كلامه سبحانه فعل منه. أنشأه ومثله، لم يكن من قبل ذلك كائناً ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً» .

توماس : ولكن ما هو رأي الأشاعرة في هذه المسألة حيث ذهبوا إلى أنَّ كلام الله قديم وهو غير مخلوق .

سعيد: لقد «جعلت الاشاعرة التكلُّم من الصفات الذاتية ووصفوا كلامه سبحانه بالكلام النفسي. وقالوا: إن الكلام النفسي غير العلم وغيره الإرادة والكراهة. وقد تفنَّنوا في تقريب ما أدعوه بفنون مختلفة. فمثلاً يقولون: «إن من يورد صيغة أمر أو نهي أو نداء أو اخبار أو استخبار أو غير ذلك يجد في نفسه

معاني يعبر عنها نسميها بالكلام الحسِّي. والمعنى الذي يجده في نفسه ويدور في خلده لا يختلف باختلاف العبارات بحسب الأوضاع والاصطلاحات ويقصد المتكلم حصوله في نفس السامع على موجبه هو الذي نسميه بالكلام».

توماس: أرى إنّ ما تذهب إليه الأشاعرة متين ومنطقي فلماذا لا نقبل منهم هذا الرأي سميا وأنّا نجد ذلك من أنفسنا بشكل واضح .

سعيد: إن ما سمّاه بالكلام النفسي هو العلم يا عزيزي توماس، وليس شيئاً غيره والعلم من الصفات الذاتية وهو غير الكلام فلا معنى لأن نسميه بالكلام النفسي ونقول بان كلام الله قديم.

توماس: لم افهم لماذا ارجعت الكلام النفسي إلى العلم؟

سعيد: اوضح لك الفكرة: إن الذي يظهر من كلامهم ان ما ذهبوا إليه صحيح «ولكن المهم إثبات ان هذه المعاني في الاخبار غير العلم، وهو غير ثابت بل الثابت خلافه. وان المعاني التي تدور في خلد المتكلم ليست الا تصور المعاني المفردة أو المركبة أو الاذعان بالنسبة، فيرجع الكلام النفسي إلى التصورات والتصديقات. فأيُّ شيء هنا وراء العلم حتى تسميه بالكلام النفسي.؟ كما انه عندما يرتب المتكلم المعاني الانشائية فلا يرتب إلا أرادته وكراهته أو ما يكون مقدمة للأرادة والكراهة، فأيّ شيء هنا غيرهما وغير التصور حتى نسميه بالكلام النفسي؟ وعند ذلك لا يكون التعلُّم وصفاً وراء العلم في الاخبار ووراءه مع الإرادة في الإنشاء. مع أنَّ الاشاعرة يصرون على إثبات وصف للمتكلم وراء العلم والارادة ولأجل ذلك يقولون: كونه متكلماً بالذات غير كونه عالماً ومريداً بالذات». أرأيت كيف ان كلامهم ليس منطقياً ولا صحيحاً وان كان يدل في الظاهر على ذلك.

توماس : حقاً ان ما قاموا به هو تلاعب بالألفاظ ليس الا. ولكن هل ان كلام الله حادث أو قديم؟

سعيد: بلا شك سوف نصل من خلال البحث السابق إلى ان كلام الله الذي هو عبارة عن خلق صوت في شيء ما مثل الشجرة التي كلم الله من خلالها موسى عليه السلام أو كلامه بمعنى الكتب التي أنزلها على أنبيائه هو في الواقع حادث مخلوق وليس قديماً. وهناك دلائل عديدة تدل على ذلك سوف نذكر طائفة منها:

أولاً: ان الله تعالى يخاطب الناس في القرآن على نحو القضية الخارجية التي يكون موضوعها موجوداً فعلاً في الخارج والمحدد بزمن معين وفي مكان معين لصفة معينة. كقوله تعالى في سورة المُزمِّل مخاطباً النبي بـ ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ...﴾ أو قوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا...﴾. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حدوث النداء والسمع من حينه لا من الأوّل .

ثانياً: إنَّ الله تعالى يصف القرآن في القرآن نفسه بأنّه مُحدَث فكيف نأتي ونصفه نحن بالقدم؟ انظر إلى قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾. طبعاً ان المراد من الذكر هو القرآن كما هو واضح لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

توماس : وما معنى كونه محدثاً ؟

سعيد: معناه انه جديد أي أنه أتى هؤلاء القوم كتاب من الله تعالى بعد

مجيء الانجيل من قبل عيسى عليه السلام وكذلك فان الانجيل جديد بالقياس إلى توراة موسى عليه السلام.

توماس: ولماذا لا نعتبر كونه محدثاً اي في نزوله فقد نزل متأخراً قياساً للتوراة والانجيل وبالتالي لا يوجد تعارض بين كونه قديماً وبين كونه محدثاً حيث ان الجهة مختلفة فالمراد بالقدم أي في ذاته والمراد بالحدوث أي في نزوله ؟

سعيد: هذا لا تساعد عليه اللغة يا صديقي ؛ لأنّ كلمة محدث هو وصف للذكر ولا يمكن ان يكون وصفاً له والمقصود به النزول دون الذات. فالذات هي الموصوفة بالحدوث. وهناك نكتة ثالثة تدل على أمتناع ان يكون قديماً وهي قوله تعالى في سورة الاسراء: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾. فهل يصح توصيف القديم بالاذهاب والاعدام ؟! إن ذلك غير ممكن بطبيعة الحال.

توماس: أحسنت يا أُستاذ سعيد. ولكن بقيت عندنا صفات أمثال الخالقية والربوبية والصدق والحكمة وغيرها من الصفات الفعلية.

سعيد: هذه كلها واضحة بعد الذي بيناه من البحوث الا انه لا بأس بالتطرق اليها ولو اجمالاً.

الخالقية:

«بعد اثبات واجب الوجود وأنه العلة الأولى لوجود الموجودات الممكنة وبملاحظة انها جميعاً محتاجة في وجودها إلى الله تنتزع من ذلك صفة الخالقية لواجب الوجود والمخلوقية للممكنات. ومفهوم (الخالق) الذي يتوصل إليه من

خلال هذه العلاقة الوجودية مساوٍ للعلة الموجدة وكل الموجودات الممكنة المحتاجة التي تمثل طرف الاضافة متصفة بصفة المخلوقية.

ولكن احياناً يتصور للفظة (الخلق) معنى أكثر محدودية حيث تعتبر الموجودات التي وجدت من مادة سابقة فحسب طرفاً للإضافة، وفي مقابل ذلك مفهوم (الابداع) حيث يستخدم في الموجودات التي لم تسبق بمادة سابقة (كالمجردات والمادة الاولى) وعلى هذا الاساس يقسم الايجاد إلى قسمين: الخلق والابداع».

توماس: أفهم من كلامكم بأنّ «عملية الخلق التي يقوم بها الله تعالى لا تشابه تصرفات الإنسان في الاشياء وصنعه للصناعات حيث يحتاج في عمله هذا إلى الحركة وإلى استخدام اعضاء بدنه لتمثل حركته (الفعل) بينما تمثل الظاهرة التي تحصل منه (نتيجة الفعل). واما في خلق الله فلا يكون (الخلق) شيئاً و (المخلوق) شيئاً آخر، هذا فضلاً عن تنزه الله تعالى عن الحركة وخصائص الموجودات الجسمانية ».

سعيد: بلا شك يا صديقي ؛ لأنّه «لو كان لخلق الله مصداق عيني خارجي زائد على ذات المخلوق لكان موجوداً ممكن الوجود، ومخلوقاً من مخلوقات الله بدوره، ليعود الحديث مرة اخرى حول خلقه نفسه أيضاً. ولكن هذه الصفات (الفعلية) مفاهيم منتزعة من الاضافات والنسب بين الله والخلق وقوام الاضافة والنسبة بلحاظ العقل».

هذا ما يخص هذه الصفة وكذلك الحال في صفة الربوبية التي هي التدبير فإنها تأخذ من وجه العلاقة ما بين المدبِّر الذي هو الله تعالى والمدبَّر الذي هو المخلوق وقد تقدم البحث عنها.

توماس : وشأن بقية الصفات أمثال الصدق والحكمة ؟

سعيد: هذه بلا شك واضحة سيما بعد ملاحظة ان صفة الصدق لا معنى لها مالم يكن هناك مخاطب وخطاب. فبعد وجود مخاطبٍ ويقوم الله تعالى بمخاطبته تكون هذه الصفة فاعلة والا فلا معنى لها من الأصل. وكما يقول المنطقيون هي سالبة بانتفاء الموضوع. وأمّا صفة الحكيم فكذلك فلابد اولاً من وجود خلق ثم ننظر في ذلك الخلق وعلى أساسه نستطيع ان نصف خالقه بانه حكيم أو لا .

توماس : ما تفضلتم به صحيح ولكن كيف نثبت هذه المعاني لله تعالى مع الفراغ من وجود الطرف الثاني للاضافة.

سعيد: هذا لا يحتاج إلى دليل بعد الذي قدمنا من البراهين على صفات الله تعالى ؛ لأن واجب الوجود الذي هو جامع لكل صفات الكمال، وان وجوده ليس فيه أيّة جهة عدمية بلا شك يكون صادقاً وحكيماً ؛ لأنّ الكذب والعبث نقص واضح، والكامل المطلق والغني بلا حدود لا يمكن ان يكون فيه جهة عدمية أو نقصية ؛ لأن ذلك يتنافى مع فكرة واجبية الوجود.

توماس : احسنت يا استاذ سعيد لقد اتعبناك في هذه الليلة.

سعيد: عفواً يا أخ توماس فان هذا من صميم واجبي.

توماس : على هذا الاساس بقيت عندنا بعض المتعلّقات في الصفات أمثال الصفات السلبية والخبرية لابد من الخوض فيها والوقوف على ما تعني بشكل دقيق وارجو ان يكون هذا في الاسبوع المقبل إن شاء الله.

سعيد: أنا مستعد لذلك ان شاء الله تعالى .

توماس : على فكرة يا أصدقائي ان غداً يصادف عيد ميلاد ولدي وانا

أدعوكم في ليلة غد لحضور الحفلة التي سوف نقيمها بالمناسبة.

سعيد: نحن نقبل دعوتك ولكنّ هناك اموراً تمنعنا من الحضور.

توماس : هل هي متعلقة بكم أو بنا.

سعيد: الظاهر انها متعلقة بكلينا .

توماس : لم افهم، أفصح أكثر رجاءً.

محمد: يريد الأخ سعيد ان يقول بان حفلاتكم لا تتناسب مع وضعنا الديني والأخلاقي حيث يكون فيها عادة نساء غير محتشمات ورقص وغناء وشراب وغيره. ونحن كما تعلم لا نقبل كل ذلك ؛ لأنه حرام ومخالف للاخلاق والاداب الإسلامية .

توماس : ما تتفضلون به صحيح ولكني لا استطيع ان افرض على ضيوفي لباساً معيناً أو أن أمنعهم عن التعبير عن سعادتهم.

سعيد: نحن لم نطلب منك ذلك ولكن نريد ان نبين سبب عدم استطاعتنا لحضور حفلتكم التي دعوتمونا إليها .

توماس : أنا آسف فعلاً فان عاداتنا الاجتماعية حرمتني من حضور أصدقاء أعزاء عليّ، وأنا ارجو ان نخصص يوماً نتكلم فيه عن التشدد الذي يبديه الإسلام لمثل هذه القضايا .

سعيد: لا بأس في هذا الطلب .

ثم قام الأصدقاء متوجهين إلى بيتهم ولكنهم اتفقوا فيما بينهم على ان يشتروا هدايا ويأتي بها محمد غداً في المساء إلى ولد السيد توماس تعبيراً عن مشاركتهم في الاحتفال ولو بشكل رمزي.

اللقاء السادس:

في الصفات الخبرية والسلبية

كان سعيد طوال هذه الاسبوع منكبّاً على دراسة اللغة الالمانية وحفظ مفرادتها بشكل جيد وقد حاز على تقدم ملحوظ وكان يكثر زيارة تلك الحديقة الجميلة حيث الاشجار والورود والبحيرة الاصطناعية التي تسبح فيها بعض الوزّات الجميلة. واكثر ما يشد سعيد إلى هذه الحديقة هو الهدوء الذي يميزها وصفاء الهواء الذي لا يجده في بقية الأماكن.

جلس سعيد قريباً من تلك البحيرة وهو يمعن النظر في تموجات الماء التي تحدثها حركة الإوز اثناء سباحتها ويبهره منظر الاشجار المنعكس على الماء. ثم بعيداً في الجانب المقابل حيث وضعت ثلاثة زوارق صغيرة كان يستقلها زوجان أو صديقان في رحلة مائية جميلة وهم في غاية السعادة والسرور. أفكار تدور في مخيلة سعيد، ما أجمل ان يعيش الإنسان بسعادة وما أجمل ان يرى الناس كلهم سعداء، فهؤلاء الناس اما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق كما أتى عن الأئمة المعصومين. فلابد أن نتعامل مع كل الناس بلطف وصدق وإخلاص .

بينما سعيد سابح في أفكاره الجميلة وأمانيه الواسعة وشوقه إلى الأهل والأوطان، وإذا بالفتاة التي كان يراها سابقاً في حالة الحيرة والدهشة تمر من

أمامه ثم تجلس في مقعدٍ قريباً منه. ولكنها اثناء مرورها عليه رمـقته بـطرف عينها بشكل ملفت للنظر. وكأنها استغاثة ملهوف واقع في حيرة ومشكلة. وهذه النظرة وصلت إلى قلب سعيد الفتي فجعلته ينبض بسرعة وتزداد دقاته وأحسّ بان شيئاً ما يشده إلى تلك الفتاة.

حاول سعيد ان يخلص نفسه من هذه الأفكار وراح يشغل نفسه بقراءة كتاب بين يديه ولكن دون جدوى. فانه كلما نظر إلى الكتاب أرتسمت أمامه تلك الفتاة بنظرتها الثاقبة. وبعد ان فكر قليلاً قرر ان يحاول الحديث معها. ولكـن كيف وهو مازال لا يجيد اللُّغة الألمانية بشكل جيد وانما يستطيع ان يـتعامل بشكل عام فقط. الا ان ذلك لم يمنعه من الاصرار على التحدث معها.

تقدم اليها بخطوات مرتعشة وهو متردد ومتحير الا انه لم يشعر الا وهو واقف أمامها. رفعت رأسها ونظرت إليه ولكنها لم تتفوّه بأية كلمة، وكأنها تنتظر أن يبادر هو في الكلام. أمّا سعيد فقد حاول ان يجمع قواه ليبدأ الحديث معها. فسلم عليها باللغة الألماينة فردت عليه السلام، ثم قال لها:

هل تسمحين لي بالجلوس قربك والتحدث اليك قليلاً.

قالت: تفضل .

سعيد: أنا آسف لا أستطيع التكلم باللغة الالمانية بشكل جيد ولكني أجيد الانكليزية بطلاقة.

قالت: وانا كذلك أُجيد اللغة الانكليزية بشكل جيد .

سعيد: حقاً؟ إنه لشيء جميل جداً أن تكون هناك لغة ثالثة تجمعنا.

قالت: تفضل ماذا تريد مني.

سعيد: هل أستطيع أن أتعرف على اسمك أولاً .

قالت: اسمي مونكا .

سعيد: وأنا اسمي سعيد من العراق.

مونكا: أما انا فان أبي من البوسنة وهو مسلم واما والدتي فهي من برلين في ألمانيا .

سعيد: اذن أنتِ مسلمة أليس كذلك؟

مونكا: انا لا اعرف عن الإسلام شيئاً وقد ولدت هنا، وفقدت والدي وانا صغيرة، ثم تعرضت والدتي لحادث سيارة وماتت هي الاخرى فبقيت وحيدة الا من جدتي لوالدتي وهي إمرأة عجوز أسكن معها في بيت صغير فـي المـدينة القديمة.

سعيد: أود أن اسألك عن سبب ذهولك وحيرتك المستمرة فانا شاهدتك لأكثر من مرة وانت في وضع لم يكن طبيعياً.

مونكا: اتركني لشأني، وأحزاني ولا تحاول التعرف على المزيد من حياتي فان حياتي ما عاد فيها شيء من السعادة والأمل، بل هي ظلام في ظلام.

سعيد: ولماذا لا تريدين ان يقوم شخص باشعال شمعة في وسط هـذا الظلام لعلك حينما ترين النور تهتدين إلى الطريق الذي يوصلك إلى السعادة والأمل سيما وانت لا زلتِ في عنفوان الشباب ومازالت الحياة أمامك.

مونكا: لماذا تريد ان تقحم نفسك في حياتي فانها ملكي ولا أسمح لأحد في دخولها .

سعيد: لا بأس ولكن هل تقبلين أن نجلس سوية كلما التقينا هنا في هذا المتنزه لكي نتبادل الكلمات والافكار .

مونكا: إذا كنت ترغب في صديقة فانا لا انفعك يا سعيد فعليك باحداهن

فانهن كثيرات وجميلات.

سعيد: معاذ الله فانا انظر اليک كأخت ليس إلّا. واني رجل متدين ومسلم ومثلي لا يمكن له ان يفكر بهذا الشكل التافه.

مونكا: وهي متعجبة من كلام سعيد. أحقاً ما تقول يا سيد سعيد .

سعيد: نعم يا أخت مونكا. انا فقط أريد ان انتشلك من هذا الحزن الذي يخيم على حياتك فاذا استطعت ان اعيد الابـتسامة إلى شـفتيك والامـل إلى روحك فاعتبر نفسي قد حققت شيئاً عظيماً استحق به الأجر من الله تعالى .

مونكا: انك رجل طيب ورحيم .

سعيد: ماذا تقولين في طلبي الذي طلبته منك ؟

مونكا: انا موافقة.

سعيد: حسناً انا اليوم لا اود أزعاجك وسوف أكون غداً في هذا المكان إن شاء الله.

مونكا: سوف آتي إلى هنا حتماً.

ثم ودَّع سعيد مونكا ورجع إلى البيت وهو يترقب سر هذه المعاناة التي تمر بها هذه الفتاة. وفي اليوم التالي جاء في نفس الوقت ونفس المكان وبعد انتظار طويل لم تأتِ مونكا وهكذا في اليوم الذي بعده، فتوقع بانه سوف لا يرى هذه الفتاة بعد ذلك .

مر أسبوع كامل على رؤية سعيد للفتاة اليتيمة الحزينة وهي غائبة عـن المكان برمته حتى حلت ليلة السبت حيث كان لقاء سعيد مع السيد توماس. وما ان حل المساء حتى كانت الصالة الجميلة تجمع كلاً من سعيد ومحمد وتوماس.

سعيد: أهلاً بك يا أخ توماس .

توماس: أهلاً وسهلاً بكم في لقاء جديد مع الفكر والعلم والمعرفة.

توماس : أود في البدء ان يكون الكلام حول بعض الصفات التي وصف الله بها نفسه في القرآن الكريم والتي يسميها علماء الكلام بـ «الصفات الخبرية». حيث ان ثمة آيات عديدة أثبتت ان لله تعالى يداً وان له عيناً وما شابه ذلك. فكيف تنسجم تلك الصفات بما تحمل من معاني مادية مع الله تعالى واجب الوجود المطلق المجرد؟

سعيد: طبعاً هناك تداخل واضح بين البحث حول الصفات الخبرية والصفات السلبية. بمعنى اننا لابد لنا في المرحلة الاولى ان نرى ما لا يجوز لله تعالى ان يتصف به، ثم بعد ذلك نأتي إلى بعض الصفات الواردة في القرآن لنرى هل تنسجم مع ما اثبتنا أو لا؟ وكيف نعالج الآيات التي اوردت مثل هذه الصفات وهذه المعاني؟

توماس : حسناً اذن والسؤال حينئذ: ما معنى كون الصفة سلبية هل يعني ذلك بان لله تعالى صفات سلبية يتصف بها أو ثمة معنى اخر في المسألة؟

سعيد: سؤال جيد يا أخ توماس ولذا نقول في معرض الإجابة عليه: إن الصفة السلبية المقصودة في البحث لا إثبات السلب عليه؛ لأن ذلك ينافي كونه كاملاً مطلقاً وواجباً للوجود وانما المقصود هو البحث فيما يجب سلبه عن الله وأستحالة أتصافه بها. وان كان الظاهر من اللّفظ خلافه.

توماس : وما هي هذه الامور أو الصفات التي يستحيل علي الله تعالي الاتصاف بها؟

سعيد: منها انه ليس بجسم، وليس هو جهة من الجهات، وليس حالاً في

شيء، وليس متحداً مع غيره، وليس محلاً للحوادث، وان ذاته منزهة عن الألم واللّذة، وانه تعالى ليس بمرئي... إلى غير ذلك من صفات ومعاني النقص التي يتنزه الباري عنها.

توماس : وما هو الدليل على عدم كونه جسماً؟

سعيد: نحن إذا نظرنا إلى جسم ما رأيناه عبارة عن ما يشتمل على الأبعاد الثلاثة، أعني الطول والعرض والعمق. ومن الواضح ان الشيء الذي فيه هـذه الابعاد فانه مركب منها حيث تكوّن هي أجزاءه. ولكننا أثبتنا سابقاً بان الله تعالى لا يمكن ان يكون مركباً بأيّ تركيب كان. اذن فالله تعالى ليس بجسم لان كل جسم فيه هذه الابعاد الثلاثة.

توماس : طبعاً إنّ نفينا للجسمية سوف يلازم نفي كونه تعالى في جهة من الجهات أو محلاً من المحلات. ولكن لماذا نرى بانا نرفع أيدينا إلى الأعلى في الدعاء إذا لم يكن تعالى في جهة؟

سعيد: وهو يبتسم. نحن نفعل ذلك لانا نتصور دائماً بان جهة الشـرف والرفعة انما هي متمثلة بالجهة العليا. وهـذا صـحيح فـي ذاتـه إلا أنّ الرفـعة والشرف الالهي ليس من العلو المادي، وانما هو علو في درجات الوجـود. ولذا نحن نقول لصاحب شهادة ا لدكتوراه بانه أعلى من صاحب شهادة المـاجستير وهو أعلى من صاحب شهادة البكلوريوس. وهذا لايعني إن الأول أعـلى مـن الناحية المادية وانما المقصود أنّ درجته العلمية التي هي أمر معنوي وليس مادياً أرفع وأشرف. اليس كذلك؟

توماس : طبعاً طبعاً.

سعيد: والدليل على ما نقول ان الناس يسكنون على الكرة الارضية التي

هي مدورة وفيها جهات بعدد كل سنتمتر منها وهي باتجاهات متعددة ومختلفة شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، وما بين كل ذلك ورغم ذلك فان الناس يـرفعون أيديهم إلى الأعلى فاذا كان الله الجهة فلا بد ان تكون اما من جهة الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب أو غير ذلك اما ان يكون في كل ذلك فهذا لا معنى له ومن هنا نعرف بان رفع اليد هو عبارة عن مسألة رمزية تـرمز إلى الشـرف والرفعة فيعبر عنها بهذا التعبير المادي.

توماس : إنّ بعض الصوفية يعتقدون بان الله حل فيهم فلماذا نقول بان الله لا يحل في شيء.

سعيد: ما أجهل هـؤلاء الصـوفية وأسـخف مـقولتهم! فـانهم وبـلاشك يعيشون الهوس والجنون، والا فان الله تعالى لا يمكن ان يحل في شيء ؛ لأن الله تعالى ليس بمحدود، فكيف يحل في شيء محدود؟ فان هذا يـنتهي إلى اجتماع النقيضين. وكذلك فان معنى الحلول هو قيام شيء بشيء عـلى نـحو التبعية، وهذا المعنى لا يصح في حقه تعالى، لانه يستلزم حاجته إلى ذلك الذي يحل فيه ؛ لأنه تابع له وكونه واجب الوجود ينفي ذلك.

توماس : إنّ البعض الاخر من الصوفية يعتقدون بانهم اتـحدوا مـع الله فماذا تقول في شأنهم؟

سعيد: لو نظرنا إلى حقيقة الاتحاد لوجدناه «عبارة عن صيرورة الشيئين المتغايرين شيئاً واحداً وهو مستحيل في ذاته، فضلاً عن استحالته فـي حـقه تعالى. فان ذلك الغير بحكم إنحصار واجب الوجود في واحد ـ كما بينّا سابقاً ـ ممكن. فبعد الاتحاد اما ان يكونا موجودين فلا أتحاد ـ لانهما لم يصيرا شيئاً واحداً ـ أو يكون واحد منهما موجوداً والآخر معدوماً. والمعدوم اما هو الممكن

فيلزم الخلف ـ أي خلاف كونه متحداً معه ـ وعدم الاتحاد. أو الواجب فيلزم انعدام الواجب وهو محال .

توماس : هناك بعض الروايات التي نجدها في كتب الحديث تقول: بان الله تعالى ينزل من السماء السابعة إلى السماء الدنيا في كلِّ ليلة جمعة ويدعو الناس إلى التوبة وما شاكل ذلك. فماذا تقول في ذلك؟

سعيد: ان مثل هذه الروايات لا يمكن أنْ تكون صادرة من مقام النبوة، بل روايات واحاديث كاذبة ومكذوبة على النبي ﷺ. ولكن مع الاسف كان هناك مجموعة من المسلمين الذين يسمون بالحشوية أخذوا كل رواية بدون ان ينظروا إلى معناها ومحتواها وآمنوا بها ووضعوها في كتبهم. فامثال هذه الاحاديث المكذوبة تتنافى مع صفات الله تعالى وحقيقته الوجودية. فلو فرضنا صحة مثل هذه الاخبار فيلزم من ذلك ان يكون الله تعالى محلاً للحوادث أمثال الحركة والسكون وغيره.

توماس : وما المانع من ذلك؟

سعيد: لانا لو فرضنا ان يقوم شيء من الحوادث في ذاته للزم تغيره في حين ان اللازم ـ الذي هو تغيره ـ باطل فالملزوم ـ وهو كونه محلاً للحوادث ـ باطل مثله .

توماس : وما وجه الملازمة بين الأمرين ؟

سعيد: «وجه الملازمة: ان التغير عبارة عن الانتقال من حالة إلى اخرى. فعلى تقدير حدوث ذلك الأمر القائم بذاته يحصل في ذاته شيء لم يكن من قبل فيحصل الانتقال من حالة إلى اخرى فالحالة الاولى هي عدم وجود شيء

والحالة الثانية وجود الذات التي فيها هذه الحالة الجديدة .

واما بطلان اللازم: فلأنّ التغير هو نتيجة وجود أستعداد في المادة التي تخرج تحت شرائط خاصة من القوة إلى الفعل. فلو صح على الواجب كونه محلاً للحوادث لصح ان يحمل وجوده استعداداً للخروج من القوة إلى الفعلية. وهذا من شؤون الامور المادية وهو تعالى اجل من ان يكون مادة أو مادياً.

توماس : ان بعض المسلمين يعتقدون بان الله تعالى يمكن رؤيته في الآخرة تمسكاً بظاهر بعض الآيات والروايات. فماذا تقولون انتم في ذلك؟

سعيد: ان هذا خطأ كبير فان الأدلة العقلية التي أقمناها لأثبات واجب الوجود وصفاته تمنع من امكان رؤيته وذلك لاسباب عديدة: ـ

أولاً: ان الرؤية انما تصح لمن كان مقابلاً كالجسم أو في حكم المقابل كالعرض في المحل والصورة في المرآة . والمقابلة وما في حكمها انما تتحقق في الاشياء ذوات الجهة، والله تعالى منزه عن الجهة فلا يمكن ان يكون مرئياً.

ثانياً: ان الرؤية لا تتحقق الا بانعكاس الاشعة في المرئي إلى أجهزة العين كما ثبت ذلك في العلم الحديث ولكن هذا يستلزم أن يكون سبحانه جسماً ذا أبعاد حتى تنعكس عليه الأشعة. وهو ليس بصحيح كما بينا سابقاً.

ثالثاً: ان الرؤية بأجهزة العين نوع إشارة إليه بالحدقة وهي إشارة حسية لا تتحقق الا بمشار إليه حسي واقع في جهة. والله تعالى منزه عن الجسمانية والجهة.

رابعاً: ان الرؤية اما ان تقع على الذات كلها أو على بعضها. فعلى الاول يلزم ان يكون المرئي محدوداً متناهياً، وعلى الثاني يلزم ان يكون مركباً ذا أجزاء وأبعاض والجميع مستحيل في حقه تعالى .

توماس : حقاً إنها أدلة ساطعة وقاطعة تثبت استحالة رؤية الله تعالى. ولكن ماذا تفعلون في الآيات والروايات التي دلت على إمكان رؤيته؟

سعيد: إنّ هذه الآيات والروايات يجب ان لا نأخذها على ظاهرها، وانما لابد من تأويلهابما لا يتنافى مع العقل أولاً ومع الآيات الأخرى التي تقف معاكسة لهذه الآيات؛ لأنّ القرآن فيه ما هو محكم وواضح لا يقبل تفسيراً آخر وهو لا يخالف العقل أو الوجدان. ومنه ما هو متشابه يقبل اكثر من وجه وتفسير. ولذا نجد ان الله تعالى يوضح ويرشد الإنسان إلى هذه المسألة بقوله: ﴿فيه آياتٌ بيناتٌ هُنَّ أمُّ الكتابِ وآخرُ متشابهات فامّا الذينَ في قلوبِهم مرضٌ فيتّبِعونَ ما تشابَه منهُ إبتغاءَ الفتنةِ وأَبتغاءَ تاويلهِ وما يعلمُ تأويلَه الا اللهُ والراسخونَ في العلمِ..﴾. وعلى هذا الأساس إذا جئنا إلى الآيات التي يظهر منها إمكان الرؤية سوف نجدها من الآيات المتشابهات، كقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. فانها تقبل ان النظر الوارد فيها هو النظر القلبي، ويمكن ان يكون النظر العقلي، ويمكن ان يكون النظر الحسي. ولكن النظر الحسي لا يمكن الالتزام به لمخالفته الادلة التي ذكرناها وكذلك قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ الذي يؤكد انه تعالى يستحيل ان يكون مرئياً كخلقه إلى غير ذلك من الامور.

توماس : أحسنت يا أستاذ سعيد فقد أزلت الغبار عن كثير من الابهام في هذه المسألة. وفي الحقيقة لم يبقَ عندنا من هذه المسائل شيء. ولكن ثمة موضوع آخر لا يقل أهمية عن المسائل التي بحثت في الليالي السابقة وهو مسألة العدل الالهي وما فيه من إشكالات. ولذا أنقسم المسلمون إلى عدلية

وغيرهم. ولذا فأنا أرجو أن يكون مصب الحديث في اللِّقاء الآتـي هـو العـدل الإلهي.

سعيد: نعم إنه موضوع حسَّاس ومهم وفيه الكثير من الأُمور التي تحتاج إلى تسليط الضوء عليها.

محمد: وأنا أقول : أنا وسعيد مدعوان في هذه الليلة على طعام العشـاء، وأخشى ان الوقت قد فاتنا.

سعيد: لازال الوقت مبكراً فلم العجلة؟

محمد: الظاهر انك لم تنظر إلى ساعتك يا عزيزي.

سعيد ينظر إلى ساعته وإذا بها العاشرة والنصف. حقاً لقد تأخرنا كثيراً فماذا نفعل الآن؟

محمد: لا تقلق فاني اخبرت الرجل بأنا سوف نتأخر إلى الحادية عشرة وعلى هذا الاساس رتّب وضعه.

سعيد: اذن فلنقم مسرعين يا صديقي.

توماس : استودعكم الله يا اخوتي.

مباحث العدل الالهي

لقاء مع مونكا:

الموت والتكليف

كان يوماً جميلاً مر على سعيد ذلك الذي كان فيه اللقاء السابع مع توماس، حيث خرج من الصباح إلى ذلك المتنزه الجميل، واخذ معه ما يحتاج إليه من الغذاء. لانه قرر ان لا يعود إلى البيت وقت الظهيرة. واخذ معه كتاب تعليم اللغة الالمانية وصحيفة يومية. وجلس على عادته أمام تلك البحيرة الجميلة، وهو يستنشق ذلك الهواء العذب، مرت على سعيد ساعتان وهو على تلك الحالة. وبينما هو منهمك في القراءة، وإذا به يرى شيئاً يقف أمامه. رفع رأسه وإذا بها مونكا. فبادرته بالسلام والتحية ردّ عليها التحية، وسألها عن سر غيبتها التي طالت، في حين كان المقرر ان تكون موجودة في اليوم التالي.

سعيد: لقد ظننت بأنك هربت مني أليس كذلك ؟

مونكا: لا، يا أخ سعيد .

سعيد: إذن لماذا لم تأتي طوال هذه المدة؟

مونكا: إنها حلقة أُخرى من حلقات العذاب والمأساة التي أعيشها منذ سنين. لقد تمرضت جدتي بشكل كبير حتى كادت تفقد الحياة، فكنت معها

الليل والنهار في المستشفى. هذا هو السبب الذي منعني من المجيء إلى هذا المتنزه.

سعيد: أنا آسف يا أخت مونكا لم أكن أعلم الأمر. وأنا أرجو من الله أن يمنّ عليها بالشفاء والصحة والعافية. ولكن كيف حالها الآن ؟

مونكا: لقد تحسن حالها كثيراً ولو لا الطبيب الحاذق الذي كان يعالجها لفقدتها هي الأخرى.

سعيد: ولولا رحمة الله أيضاً لما كان الطبيب قادراً على علاجها، فلابد أن تتوجهي بالشكر له أيضاً .

مونكا: انا لا اعتقد بصحة هذا الكلام لان هذه المصائب التي أراها إنما جاءت من قبل الله الذي أمات والدي ثم والدتي، فتحطمت حياتي. عشت غريبة وحيدة أقاسي مرارة الحياة وأرى الدنيا كلها تافهة لا معنى لها.

سعيد: لا تقولي ذلك يا مونكا فان الله تعالى ليس ظالماً، ولا يريد الانتقام من عباده بل هو أرحم الراحمين.

مونكا: كيف تقول ذلك؟ وهذا الذي أعيش فيه، بل ويعيش فيه كثير من الناس خير دليل على خلاف ذلك؟

سعيد: أخبريني أولاً عن سبب ما يظهر منك من الحزن في السابق، حتى نبدأ الحديث بشكل متسلسل.

مونكا: ما أعانيه هو هذه الهواجس: إن الله لماذا يخلقنا فيكون لنا أهل وأحباب وأعزاء، نعيش في سعادة معهم. ما أجمل حضن الأُم الدافئ ولمساتها

الحنونة! ما أجمل رعاية الاب، واهتمامه بعائلته! ما أجمل الجلوس مع صديق وقريب! ما أجمل السلام والخير والمحبة! لماذا يزول كل هذا؟ لماذا يموت كل شيء؟ تموت الابتسامة في الافواه! وتموت الورود في الحقول! وتموت السعادة بفقدان الاهل والاعزاء! الا ترى بان هذا عبث وظلم ؟!

سعيد: لا يا مونكا ليس هذا ظلماً، وان الله تعالى لا يريد لعباده الا السعادة والحياة الطيبة. ولكن في الأمر اشياء لابد ان تعرفيها اولاً حتى تؤمني بان الله تعالى لن يفعل الا ما هو حسن وخير.

مونكا: هل أن الموت خير يا أخ سعيد؟ كيف اقتنع بهذا وانا عشت مرارة فقدان والديَّ من حولي فحرمت حنانهما ورعايتهما؟

سعيد: إن التصور الخاطئ عن الموت هو الذي يجعل الإنسان يفر منه ويتألم، إذا نزل بساحة احد من أعزته. بمعنى أنه يجزع ويعتبر أن كل شيء انتهى، في حين ان الامر مختلف تماماً. فالموت ليس انعداماً وانما هو استكمال. حيث يخرج الإنسان من هذا العالم إلى عالم آخر افضل منه وهو عالم الاخرة. فالانسان إذا مات خرجت روحه التي بها انسانيته، وانتقلت إلى العالم الآخر الذي تكون فيه بأحسن حال سيما اذاكانت روحاً مؤمنة صالحة. اما إذا كانت روحاً مجرمة فسوف تنال العقوبات العظيمة على ما اقترفته في حياتها الدنيا.

مونكا: هل من المعقول بان الموت ليس عدماً؟! ألم أفقد أنا هذا الذي مات، ولا يمكن له ان يوجد بيننا مرة اخرى؟ فكيف تقول بانه ليس بعدم؟!

سعيد: إذن أساس الاشكال لديك هو كون الموت عدماً في حين «انه ليس عدماً، وانما هو تطور وتحول وغروب نشأة ما وبدء نشأة اخرى. وبتعبير

آخر فان الموت عدم، ولكنه ليس عدماً مطلقاً، بل عدم نسبي. أي عدمُ تجاه نشأة معينة ووجود في نشأة أخرى .

فالانسان لا يتجرع الموت المطلق وانما يعاني فقدان حالة خاصة، والتحول إلى حالة أُخرى. فالفناء هنا نسبي ،مثلما لو تبدل التراب إلى نبات فان التراب لم ينله العدم المطلق. وانما عانى الموت النسبي، لان الشكل السابق والخواص الماضية للتراب قد انتفت وظهوره بشكل جماد قد أنعدم، ولكنه إذا كان قد فقد حالة الموت فانه قد اكتسب حالة الحياة».

مونكا: لم افهم بشكل جيد كون الموت انتقالاً وانه انعدام نسبي لا مطلق.

سعيد: اوضح لكِ ذلك من خلال المثال، ان «الانتقال من هذا العالم إلى عالم آخر له شبه بخروج الطفل من رحم امه... فالطفل يتغذى وهو في رحم أُمه بواسطة الحبل السري. ولكنه عندما يخرج إلى هذا العالم فان الحبل السري يقطع منه، ويبدأ بالتغذية عن طريق فمه وقناته الهضمية. وعندما يكون في الرحم فان الرئتين تُصنعان ولكنهما لا تعملان وبمجرد خروجه من الرحم فانهما تبدآن بالتنفس ».

ومثل هذا تقريباً يحدث في علاقة عالم الدنيا بعالم الآخرة، حيث يبدأ الإنسان فيها رحلة جديدة من الحياة ولكنها بأجهزة وظروف تختلف، علماً ان ذلك العالم الجديد هو أكمل وأفضل من هذا العالم الذي كان فيه. بل ان هذا العالم الذي كان فيه ما هو الا مقدمة لاجل ذلك العالم كما أن عالم الرحم في الجنين مقدمة لعالم الدنيا .

اذن من هذا كله ندرك أنّ «الموت بالنسبة إلى الدنيا موت ولكنه بالنسبة

إلى العالم الآخر ولادة كما تكون ولادة الطفل بالنسبة إلى الدنيا ولادة وبالنسبة إلى دور الرحم موتاً».

مونكا: كلام جميل يا سيد سعيد، ولكن لماذا لا يتكامل الإنسان في هذه الحياة مع بقائه فيها بين اهله واحبابه؟ اليس هذا افضل حتى لا تنكسر القلوب العاشقة؟

سعيد: ان مشكلة الإنسان هو حبّه للخلود والبقاء وهذا هو الذي يجعله يعتبر ان الحياة هي الغاية، فيكره الموت ويعتبره ظلماً وعذاباً. في حين إن حب الإنسان للبقاء والخلود لا يلازم البقاء في هذا الدنيا، كما هي عليه النظرة المادية للحياة، بل ان الخلود هوالبقاء في الوجود لا في عالم من عوالم هذا الوجود الذي يأتي بالمرتبة الدنيا منه. وعلى ذلك فان غريزة الخلود والبقاء وجمالهما لا تتنافيان مع الموت أبداً.

مونكاً: لو ان هذا الخلود تحقق في الدنيا أو كنا من البداية في أتم عالم لكان ذلك اجمل اليس كذلك ؟

سعيد: لا يمكن ان تكون بدايتنا في غير هذا العالم ؛ لأن عالم النشوء غير عالم البقاء، كما ضربنا مثال الطفل في الرحم. واما بقاؤنا في هذه الدنيا فلا معنى له مع وجود عالم أو عوالم هي افضل من هذه الدنيا التي تقيدها الكثير من القيود، كالزمان والمكان والحدود والنقص والحاجة والمرض، وتتزاحم مع أحياء آخرين لهم الحق في ان ينالوا ما نلناه اليس كذلك؟

مونكا: ربما يكون صحيحاً.

سعيد: أود أن أحدثك عن قصة تنقل في الكتب حول التساؤل «لماذا نموت؟» عن نبي الله موسى بن عمران عليه السلام مع الله تعالى نذكرها مضموناً بل

سوف نتحكم في السيناريو فيها:

«قال موسى: الهي يا ذا الحساب لقد صنعت ثم هدمت صنعك. لقد خلقت من ذوات الروح الذكر والأنثى، ثم ضربتهم فلماذا تصنع هكذا ؟

فقال الحق ـ أي الله تعالى ـ: انني اعلم أن تساؤلك هذا ليس من باب الانكار ولا الغفلة ولا الهوى، والا لعاتبتك وأدبتك ولصببتُ عليك الاذى. ولكنك تريد ان تبحث في افعالنا عن الحكمة والقضاء، وذلك لكي تطلع عليها الرأي العام ولكي تنضّج كل عقل فج. اذن يا صاحب اللب باعتبار أنك سألت فاسمع الجواب:

يا موسى ابذر بذراً في الارض حتى تعرف الانصاف فيما سألت عنه.

فلما بذر موسى ونما بذره وتعالت السيقان وانتظمت. امسك المنجل وحصد الزرع .

فجاء النداء من وراء الغيب: لماذا بذرت وربيت فلما تكامل حصدته ؟

قال: يا رب إنه من القبيح ان يوجد الحبُّ مع القشر فلا يليق بالحبة ان تسكن مسكن القشور. وكذلك القشرة فوضعها في مخزن القمح فساد وقبح وليس من الحكمة خلط هذين النوعين فالفرق بينهما يوجب فصلهما.

فقال الله: ممن تعلمت هذا العلم ؟ ومن اين اكتسبت هذا النور ؟

فاجاب موسى: إنك يا رب الذي اعطيتني .

فقال الله: اتستنكر عليّ التمييز يا موسى اذن؟ ان في الخلائق ارواحاً طاهرة وكذلك توجد فيها أرواحُ سوداء. ففي هذه الاصداف لا تكون الاشياء كلها بمرتبة واحدة ففي بعضها درّ وفي بعضها شبه درّ. ومن الواجب اظهار الحسن من السيء كما تفصل الحنطة من التبن».

مونكا: يالها من قصة رائعة ومعبرة، استفدت منها ان الله خلق الموت لاجل ان يتميز الخبيث من الناس عن الطيب. ومن اجل ان يعطى الطيب المكافأة ويعاقب الخبيث على خبثه. وهذا غير ممكن الا من خلال الانتقال من هذا العالم إلى عالم مخصص لهذا الامر.

سعيد: القول ما قلتِ يا أخت مونكا.

مونكا: لقد بددت احزاني وجمّعت أفكاري وارجعت إليّ ايماني وانا استغفر الله واتوب إليه حيث ظننت به شيئاً لا يصح. والآن فانا مؤمنة بان الله تعالى ليس ظالماً ابداً.

سعيد: هناك بعض الأمور التي لابد أن أحدثك بها ما دمتِ أصبحتِ بهذا المستوى من الايمان والتوجه إلى الله تعالى .

مونكا: وما تلك الأمور يا اخ سعيد ؟

سعيد: لابد ان تكوني من الارواح الطيبة المؤمنة حتى تنالي الجنة والمكافأة بعد الموت. ولا يمكن ان تكوني كذلك الا من خلال الالتزام الديني والعمل باحكام الله تعالى .

مونكا: وماذا يريد الله من الإنسان أن يعمل .

سعيد: طبعاً أنت مسلمة ولابد اولاً ان تغطي شعرك وجسدك عن انظار الاجانب من الناس. فكل شخص ليس لك بمحرم لابد وان تستري عنه جميع بدنك إلّا وجهك وكفوف يديك فانه لا بأس بأظهارهما. وكذلك لابد لك من تعلم الصلاة وأدائها، وصيام شهر رمضان، وأداء الزكاة والخمس، وحج بيت الله الحرام... إلى غير ذلك من التكاليف الإلهية.

مونكا: ولماذا يكلفنا الله تعالى بكل ذلك؟ اليس في هذا تعب وألم وحرج على الإنسان؟

سعيد: إعلمي يا مونكا بان الله العظيم الحكيم عندما خلق الإنسان في هذا العالم خلقه من أجل غاية عظيمة هي: وصوله إلى الكمال، عن طريق العبادة والالتزام الديني. فهدف الإنسان لا يتحقق الا عبر طريق معين. وهذا الطريق هو عبادة الله تعالى. لان العبادة التي هي عبارة عن امتثال أوامر الله والانتهاء عن نهيه، انما كانت ا لطريق الوحيد بسبب كونها تعطي الانسان المنهج الصحيح والسليم في الحياة الدنيا والاخرة، وتحدد لون وحدود العلاقة بين الإنسان وربه ونبيه وبين بقية أفراد المجتمع، بل والطبيعة التي من حولنا.

مونكا: اذن هي مجرد أوامر ونواهٍ ليس إلّا؟

سعيد: أبداً بل إنَّ كل أمر ونهي متعلق بمصلحة الإنسان وضرره؛ لأن الإنسان المحدود في وجوده وعقله وحياته وخبرته وغيرها، لا يستطيع إدراك المصالح والمفاسد الواقعية. وان علمها كان ذلك بشكل محدود جداً. ومن هنا ـ ورحمة بهذا الإنسان ـ تدخلت الساحة الالهية لترسم للانسان طريق السعادة الواقعية من السعادة الموهومة. فأمرت بأوامر ونهت عن نواهٍ. وما أمرت بشيء إلّا وفيه مصلحة للانسان، وان لم يدركها. وما نهت عن شيء إلّا وفيه مفسدة واقعية، وان لم يدركها أيضاً .

مونكا: إذا كان الله يريد منا العبادة والطاعة، وان كمالنا الذي خلقنا من أجله متوقف عليهما، اذن لماذا نراه قد خلق الشيطان الذي يوسوس للانسان بعمل المعاصي والذنوب؟ فضلا عن وجود النفس الأمارة بالسوء، حيث تسول

للانسان أرتكاب الشهوات وتكرّه له الطاعة والالتزام؟ هل تظن ان من العدل ذلك؟

سعيد: إنّ وجود الشيطان لا يعني ان الإنسان لابد أن يطيعه فيما يوسوس له فيه، بل ان الشيطان لا يأتي الا لمن كان مستعداً لغوايته، وان عباد الله الصالحين ليس للشيطان عليهم من سبيل. وكذا النفس الامارة بالسوء فانها خاضعة للانسان نفسه.

مونكا: لو اوضحت هذا الجواب بشكل جيد ؛ لأنّه لم يحلّ إشكالي الذي طرحته عليك .

سعيد: الله عندما خلق الإنسان أعطاه عقلاً يميز من خلاله بين الحق والباطل، والخير والشر، والنافع والضار، ويصل به إلى درجات التقدم والرقي الحضاري. وخلق له في المقابل نفساً شهوية يستطيع من خلالها التلذذ بالشهوات المحلّلة والمحرمة على حد سواء. فهي سلاح ذو حدين وجعل أمر النفس تحت العقل فاذا اتّبع الإنسان عقله بأن جعل شهوته ونفسه تابعة لعقله لم تكن النفس حينذاك الا عامل كمال وكذا مقدمة لوصول الإنسان إلى هدفه. واما إذا حدث العكس فان الانتكاسة الانسانية تبدأ من هنا حيث يصبح الناس حينئذ كالبهائم يتحركون بمحض غرائزهم وشهواتهم، ولا يستنيرون بنور العقل ولا هدي الدين. اما الشيطان، بل كل الفتن التي تمر على الإنسان في حياته، فان وجودها إنما هو لاجل أختيار الإنسان وأبتلائه حتى يرى الله الإنسان المؤمن من الكافر والصابر على هذه الامور من المستسلم لها. علماً ان الشيطان لا يأتي لمن كان قائده في الحياة العقل والدين وانما يفترس بمخالبه القاسية

اللعينة اولئك الذين وضعوا عـقلهم وديـنهم وراء ظـهورهم وأتـبعوا الشـهوات والمعاصي وسبل الشيطان.

فالشيطان ضعيف أمام المؤمن قوي أمام الكافر. وهذه الحقيقة هي التي ميّزت الإنسان الصالح من الطالح. وهي التي تجعل الإنسان إما أن يفوز بالنعيم في عالم الآخرة وإما أن ينال العقاب الأليم.

مونكا: أنا سوف أعاهدك على الالتزام الديـني وأريـد مـنك أن تـعلمني الصلاة والاحكام الشرعية وسوف ألبس الحجاب بمجرد أن أصل إلى البيت .

سعيد: حسناً سوف أخصص لك وقتاً يومياً في مثل هذا المكـان لكـي أعطيك درساً في الاحكام الشرعية والعقيدة الالهية.

مونكا: أنا أشكرك من صميم قلبي فلقد أبرأت الجروح التي كانت تؤلمني وأنرت بصيرتي.

سعيد: هذا من صميم واجبي ولا أستحق عليه الشكر.

ثم ودع سعيد مونكا ورجع إلى البيت وهو يشعر بالسعادة لما حققه من إنجاز عظيم في شأن هذه الفتاة. ولكنه لم ينسَ هذه المرة ان يأخذ عنوان بيتها ورقم هاتفها .

اللقاء السابع:

مفردات العدل الالهي

حلّ المساء بسرعة في ذلك اليوم. وكان سعيد في خارج المنزل إلى ما بعد الصلاة حيث أداها في المركز الاسلامي هناك. واما صديقه محمد فقد اتصل به هاتفياً واتفق معه على ان يأتي إلى المركز الاسلامي، ومن هناك ينطلقون إلى بيت توماس. وفعلاً بعد ساعة من المغرب كان الصديقان معاً وهم في طريقهم إلى بيت توماس.

لقد كان توماس في انتظار سعيد، وما إن جاء مع صديقه حتى أخذوا مجلسهم المعتاد في ذلك البيت الانيق الذي كان يسكن فيه توماس.

توماس: ان مسألة العدل الالهي من إحدى المسائل العقائدية التي اخذت جانباً كبيراً من فكر المسلمين، بل وغير المسلمين؛ لأن المسألة مرتبطة بالصميم في تأمل الإنسان في أحداث هذا العالم، وما يقع فيه من شرور ومصائب وأرتباط ذلك بالخالق فضلاً عن ذلك التأمل في النصوص الدينية، التي قد يفهم منها ان العالم سلسلة أحداث مرتبطة كلهابالخالق. ومن هنا يبرز هذا البحث وهو انسجام هذا الفعل الالهي مع ما يدركه الإنسان من الحسن والقبح حيث قد يحكم على الفعل الالهي الذي لا ينسجم مع الحسن بالقبح امثال وجود الزلازل والكوارث وغيرها من الامور التي شغلت بال الإنسان منذ أمد بعيد.

هذا من جانب ومن جانب آخر ـ الذي هو المصداق الأوضح لهذا النزاع وهذه المسألة ـ الجانب المرتبط بفعل الإنسان نفسه. فهل ان الإنسان مجبور على افعاله أو ان له الاختيار في ذلك؟ وذا كان مجبراً على أفعاله ولا يمكن له التنصل عنها بأي وجه من الوجوه فلماذا تؤكد النصوص الدينية على أن الله سوف يعاقب المسيء والعاصي يوم القيامة حيث يكون جزاؤه جنهم وغير ذلك من الموضوعات المرتبطة بهذه المسألة؟

سعيد: إنّ ما تفضلتم به صحيح فان «بحث (الجبر والاختيار) يؤدي بذاته إلى البحث في (العدل) فهناك رابطة مباشرة بين الاختيار والعدل من جهة، والجبر ونفي العدل من جهة اخرى. أي عندما يكون الإنسان مختاراً فانه يصبح للجزاء والمكافأة العادلة مفهوم ومعنى. أما الإنسان المسلوب الارادة والمحروم من الحرية أو الذي يقابل الارادة الالهية أو العوامل الطبيعية مغلول اليدين مغمض العينين فانه لا معنى للتكليف ولا للجزاء بالنسبة إليه .

وقد انقسم المتكلمون المسلمون إلى فئتين:

الفئة الاولى: وتسمى «المعتزلة» وهم يناصرون العدل والاختيار.

والفئة الثانية: وتسمى «الاشاعرة» أو أهل الحديث وهم يناصرون الاضطرار.

ولكن لابد من التنبيه على أن منكري العدل لم ينكروه ؛ لأنّ القرآن الكريم الذي يعتمد عليه كلا الطرفين قاوم الظلم ونفاه عن ذات الله سبحانه، ودعا إلى العدل وأثبته لذات الله سبحانه. ولكن الاشاعرة فسروا العدل تفسير خاصاً فقالوا: إنّ العدل ليست له حقيقة ثابتة من قبل بحيث نستطيع تحديدها

وجعلها معياراً ومقياساً لأفعال الباري جل وعلا، فاذا جعلنا مقياساً ومعياراً لافعال الله سبحانه فان ذلك يعدُ تحديداً وتقييداً لارادة الله ولمشيئته. ولا يمكننا أن نفرض قانوناً ثم نجعل هذا القانون حاكما على أفعال الله سبحانه. وذلك لأن كل القوانين جزء من مخلوقاته ومحكومة له سبحانه، وهو حاكمها المطلق. وكل فرض يتضمن تبعية الارادة الالهية فانه مخالف لصفات الله تعالى من علو وقدرة مطلقة. وليس معنى كونه عادلاً أنه يتبع قوانين سابقة هي قوانين العدل. ولكن معنى ذلك انه سر منشأ العدل. فكل ما يفعله فهو عدل، وليس كل ما هو عدل فهو يفعله. فالعدل والظلم متأخران ومنتزعان من فعل الله سبحانه. فالعدل ليس مقياساً لفعل الله، ولكن فعل الله هو مقياس العدل».

توماس : وماذا قالت المعتزلة؟

سعيد: «اما المعتزلة فقد ناصروا العدل وقالوا: ان العدل حقيقة مستقلة ولما كان الله تعالى حكيماً وعادلاً فهو ينجز أفعاله حسب معيار العدل. فلو نظرنا إلى ذات الافعال بغض النظر عن انها قد تعلقت بها ارادة الله التكوينية أو التشريعية، لوجدنا بعض الافعال بذاتها تختلف عن بعضها الآخر. بعض الافعال بذاتها تتصف بالعدل من مكافأة عاملي الخير، وبعضها بذاتها تتصف بالظلم مثل معاقبة فاعلي الخير، ولما كانت الافعال بذاتها تختلف مع بعضها وكان الله جل وعلا خيراً مطلقاً، وكمالاً مطلقاً، وحكمة مطلقة، وعدلاً مطلقاً. فانه يجعل أفعاله حسب معيار العدل ويصبها في قالبه».

هل الحسن والقبح في الاشياء ذاتي أم شرعي

توماس : إذن هذه المسألة مرتبطة بشكل وثيق مع مسألةالحسن والقبح؟ وهل أنهما ذاتيان ام لا؟ هذه المسألة التي كانت هي الاخرى محلاً للنقاش وللنزاع؟

سعيد: بلاشك يا صديقي فان البحث في هل ان للأفعال بذاتها صفة الحسن أو صفة القبح، أو لا؟ يشكل الحجر الاساس في مسألة العدل الالهي. فلو تأملنا في صفة الصدق أو الامانة، أو حسن الجوار، أو العطف على المسكين... واشباه ذلك. ولو تأملنا مرة أخرى في صفات أمثال القتل أو السرقة والكذب وايذاء الناس والقسوة على الضعيف... إلى غير ذلك من الصفات. يحق لنا التساؤل: هل ان الطائفة الاولى تملك صفة الحسن بذاتها وبغض النظر عن الشرع، أو ان انها لا تملك في ذاتها مثل هكذا حسن وانما الشارع هو الذي يجعلها حسنة؟! وكذا في الطائفة الثانية هل انها تملك قبحاً ذاتياً أو قبحاً مكتسباً ومجعولاً؟!

توماس : أظنُّ أنَّ هناك مسألة اخرى مرتبطة بما تقدم وهو على فرض ان للأشياء حسناً ذاتياً أو قبحاً ذاتياً. فهل ان عقل الإنسان يستطيع ادراك ذلك الحسن أو القبح أو انه عاجز عن ذلك؟ ويقوم الله سبحانه بالاخبار عن ما هو قبيح أو هو حسن ؟

سعيد: أحسنتم يا أستاذ توماس وهذا ما يسمّى في علم الكلام في البحث عن هل ان الحسن والقبيح من المستقلات العقلية أو ليس من المستقلات العقلية.

محمد: على هذا الاساس فان من ينكر أن تكون للأشياء صفة الحسن أو القبح الذاتي فانه يجوّز على الله سبحانه أن يظلم ؛ لأنه ليس في الظلم قبح ذاتي حتى يتنزه عنه الله تعالى؟ وفي المقابل فانه لا يحسن العدل بذاته حتى يفعله الله تعالى ؟

توماس : فعلاً فان هذه النتائج تترتب على مقالتهم. ولكن ما هي ادلة هؤلاء على أنه ليس للاشياء صفة الحسن أو القبح الذاتي ؟

سعيد: قبل أن نبيّن ما قدمه هؤلاء من أدلة، يحسن بنا ذكر أن الفلاسفة قد قسّموا العقل إلى قسمين على حسب الوظيفة التي يؤديانها:

القسم الأول: يسمى بالعقل النظري وهو تلك المرتبة من العقل التي يدركالإنسان بها الأمور النظرية أو ما ينبغي أن يعلم أمثال: أن اجتماع النقيضين محال وان الكل اعظم من جزئهِ.

القسم الثاني: ويسمى بالعقل العملي وهو تلك المرتبة من العقل التي يدرك الإنسان بها الامور العملية أو ما ينبغي ان يعمل أمثال: حسن العدل وقبح الظلم.

توماس : هل يعني هذا ان في الإنسان عقلين أحدهما عملي والآخر نظري وان احدهما غير الآخر ؟

سعيد: المقصود «ان العقل النظري والعملي من شأنهما التعقل، لكنَّ النظري شأنه العلوم الصرفة غير المتعلقة بالعمل، مثل: الله موجود واحد وان صفاته عين ذاته ونحو ذلك. والعملي: شأنه العلوم المتعلقة بالعمل، مثل: التوكل حسن والرضا والتسليم والصبر محمود وهذا العقل هو المستعمل في علم الاخلاق. فليس العقلان كقوتين متباينتين أو كضميمتين بل هما كجهتين

لشيء واحد وهو النفس الناطقة».

توماس: وهل ينفعنا هذا التقسيم للعقل في مسألة العدل الالهي؟

سعيد: وكيف لا؟ فاننا نؤمن بأن للعقل النظري بديهيات، امثال: ان اجتماع النقيضين محال، فكذلك لابد لنا من الايمان بان للعقل العملي بديهيات. وهنا مربط الفرس كما يقال، فانا ندعي بان كون الاشياء ذات حسن أو قبح ذاتي من بديهيات العقل العلمي. وحينئذ فلابد لنا من الالتزام بذلك ويترتب عليه أمور كثيرة سوف نذكرها بعد ذلك.

توماس: ولكن ما هو الدليل على حسن الاشياء الذاتي أو قبحها الذاتي؟ ولماذا لا تفترض ان الشرع هو الذي يحدد ما يكون حسناً أو ما يكون قبيحاً؟

سعيد: الجواب على ذلك بوجهين:

الأول: لو لم يستقل العقل بحسن الحسن وقبح القبيح واخبرنا الشارع بحسن فعل أو قبحه، فلا يمكن لنا الجزم بكونه صادقاً في كلامه حتى نعتقد بمضمون إخباره ونستكشف منه حسن فعل أو قبحه. وذلك لاحتمال عدم صدق الشارع في إخباره، فان الكذب حسب الفرض لم يثبت قبحه بعد، واثبات قبح الكذب بإخبار الشارع عن قبحه مستلزم للدور، في حين ان الدور بحكم بداهة العقل النظري مستحيل.

الثاني: «لو كان الحسن والقبح باعتبار السمع ـ أي كونه مسموعاً من الشارع ـ لا غير ـ لما قبح من الله تعالى شيء، ولو كان كذلك لما قبح منه تعالى اظهار المعجزات على يد الكاذبين، وتجويز ذلك يسد باب معرفة النبوة، فان أي نبي اظهر المعجزة عقيب ادعاء النبوة لا يمكن تصديقه مع تجويز اظهار المعجزة على يد الكاذب في دعوىٰ النبوة».

محمد: استطيع ان اضيف إلى ما ذكره الأخ سعيد عدة اجوبة يمكن ان تنفع في المقام:

الأول: ان الشخص العاقل الذي لم يسمع الشرائع ولم يعلم الاحكام، بل نشأ في البادية لو خيِّر بين ان يصدق في كلامه ويعطى ديناراً أو يكذب ويعطى ذلك الدينار مع عدم الضرر عليه في الصدق أو الكذب لاختار الصدق دون الكذب. ولولا حكم العقل بحسن الصدق لما فرّق بين الصدق والكذب ولما اختار الصدق دائماً.

الثاني: لو كان الحسن والقبح شرعيين غير عقليين لما حكم بهما من ينكر جميع الشرائع والاديان، فالبراهمة والملاحدة مع انهم كذلك يحكمون بالحسن والقبح بضرورة العقل .

الثالث: لو كانا شرعيين فقط لحسن من الله ان يأمر بالكفر وتكذيب الأنبياء وعبادة الاصنام والمواظبة على الزنا والسرقة لفرض عدم قبحها حينئذ... ولكن هذا نقض للغرض الالهي في الدين والشريعة وصريح الوجدان والبرهان يبطله.

توماس : أحسنت يا محمد فان هذه الادلة مع التي ذكرها الاخ سعيد قاضية بخطأ مقالة الاشاعرة فيما ذهبوا إليه. ولكن بقي شيء في المقام لم نتطرق إليه وهو أدلة الاشاعرة في هذا الصدد فما لم نستطع الاجابة عنها وردها فان الابهام سوف يعود إلى هذه القضية بعد اتضاحها بما قدَّمه الاخوة الاعزاء.

سعيد: وهل تستطيع يا عزيزي توماس ذكر أدلة الاشاعرة.

توماس : نعم يا أستاذ سعيد والمطلوب منك الاجابة عنها.

الدليل الاول: لو كان العلم بحسن الاحسان وقبح العدوان ضرورياً لما وقع

التفاوت بينه وبين العلم بان الواحد نصف الاثنين ولكن التالي باطل بالوجدان فالمقدم مثله.

سعيد: هل تسمح لي أن أرد على دليلك هذا قبل الانتقال إلى دليل آخر .

توماس : بكل تأكيد تفضل .

سعيد: هناك ملاحظتان يمكن إيرادهما على ما ذكرت:

الاولى: انه يجوز التفاوت في الادراكات البدهية فالاوليات ـ كاستحالة اجتماع النقيضين ـ متقدمة على المشاهدات ـ كمشاهدة زيد الذي يدل على وجوده قطعاً ـ وهي على الفطريات ـ وهي القضايا التي قياساتها معها كحكمنا بان الخمسة نصف العشرة ـ وهكذا. فوجود التفاوت بين البدهيات لا ينافي بداهتها.

الثانية: نفي كون الحكم بحسن فعل أو قبحه بدهياً لا يدل على نفي كونه عقلياً. فان نفي الأخص لا يدل على نفي الاعم، فمن الجائز ان يكون العقل مستقلاً بحسن فعل أو قبحه ولكن بالتأمل والنظر. فعلى فرض قبول ما أُدعي من التفاوت لا يجدي المنكر شيئاً .

توماس : جيد يا سعيد ولكن بقي عليك الدليل الثاني الذي أقامة الاشاعرة وهو: أنه لو كان الحسن والقبح عقليين لما اختلفا أي لما حسن القبيح ولما قبح الحسن. والتالي باطل فان الكذب قد يحسن والصدق قد يقبح، وذلك فيما إذا تضمن الكذب انقاذ نبي من الهلاك والصدق اهلاكه. فلو كان الكذب قبيحاً لذاته لما كان واجباً ولا حسناً عندما استفيد به عصمة دم نبي عن ظالم يقصد قتله .

سعيد: هذا الدليل جوابه ميسور أيضاً، لانا نقول: ان كلاً من الكذب في

الصورة الاولى والصدق في الصورة الثانية على حكمه من القبح والحسن، الا ان ترك انقاذ النبي اقبح من الكذب وانقاذه احسن من الصدق فيحكم العقل بترك الصدق وارتكاب الكذب قضاءً لتقديم الأرجح على الراجح فان تقديم الراجح على الأرجح قبيح عند العقل .

توماس : أحسنت يا سعيد، الا أنه بقيت شبهة واحدة، وهي: ان القول بالتحسين والتقبيح العقليين له دخالة في شؤون رب العالمين، الذي هو مالك كل شيء حتى العقل، فله ان يتصرف في ملكه كيف يشاء. ولازم القول بان العقل حاكم بحسن بعض الافعال وقبحها تحديد لملكه وقدرته سبحانه.

سعيد: ابداً ليس الامر كذلك فان العقل ليس فارضاً على الله تعالى شيئاً وإنما هو كاشف عن ا لقوانين السائدة على أفعاله. فالعقل يطالع اولاً صفات الله الكمالية كالغنى الذاتي والعلم والقدرة الذاتيين ثم يستنتج منها تنزهه عن ارتكاب القبائح. وهذا كما ان العقل النظري يكشف عن القوانين السائدة على نظام الكون وعالم الطبيعة.

توماس : احسنت يا أستاذ سعيد. وبعد أن أستطعنا إثبات الحسن والقبح الذاتي للاشياء وأجبنا عن الاشكالات المطروحة من قبل من تمسك بالرأي الاخر، نود السؤال عن النتائج العملية للايمان بالحسن والقبح العقلين وأرتباط ذلك بمسألة العدل الالهي.

سعيد: إن العدل الالهي ليس فقط مرتبط بهذه القضية، أعني الحسن والقبح العقليين. وانما له ارتباط بالكثير من الجوانب أمثال الحكمة الالهية، وأمثال مسألة العناية الالهية، ومسألة الخالقية... وغيرها. ولذا فان ا لبحث له

جهات ووجوه متعددة. ولكن ثمة أمور مهمة وتكون عادة هي منشأ الاشكالات وسبباً لحيرة الإنسان المؤمن وأضطرابه في العدل الالهي، أمثال: الخير والشرور والعبثية وغيرها.

توماس : على هذا الاساس ـ والحق ما قلتموه ـ لابد ان نسأل أولاً عن الغاية التي من أجلها خُلقنا وخُلق كل هذا العالم منَ حولنا. والا ينبغي ان يكون الخلق بصورة افضل من هذه التي نراها.

سعيد: لابد وان يكون لهذا العالم هدف وغاية من خلقه، لأننا اثبتنا فيما سبق بان الله تعالى واجب الوجود الكامل في وجوده من جميع الجهات وهـو على هذا الاساس غني وحكيم وعليم والا ينافي ذلك واجبية الوجود. وحينئذ فلا شك بان لله تعالى حكمة بالغة وغاية ساطعة في خلقه وهذا واضح لا ريب فيه. طبعاً هذه الغاية تعود إلى خلقه لا إلى نفسه ؛ لأنه بمحض كونه غـنياً لا معنى ان تكون الغاية هي نفسه؛ لان الهدف والغاية هو الشيء الذي يقصد إليه الفاعل المختار من وراء عمله، وهي الفائدة المترتبة على فعله، وهو ينظر اليها قبل قيامه بالعمل، ثم يجعل العمل وسيلة للظفر بتلك الفـائدة. وهـذه الفـائدة تصبح هدفاً وغرضاً للقيام بالفعل. ولكن هذا في حق الله غير ممكن ؛ لأن معناه ان الفاعل ناقصٌ في ذاته، ومن خلال الوصول والظفر بتلك الغاية يحقق كمالاً له. وهو ينافي الغنى المطلق وواجبية الوجود.

محمد: حتماً يا سعيد ذلك غير ممكن في حـق الله تـعالى ؛ لأنّ ذلك يستلزم ان يكون الله فاقداً لاشياء هو محتاج اليها ثم يحصل عليها بواسطة هذه الافعال. كما انا نفقد بعض الكمالات ونسعى بافعالنا للحصول عليها. بينما الله

ليس كذلك انه الكمال المطلق وليس بحاجة إلى أي شيء وكل ما لدى غيره من وجود فهو منه مكتسب .

توماس : ولكنهم يقولون بان الله تعالى قبل خلق العالم كان وحيداً فضاق بوحدته فخلق المخلوقات لتخرجه من وحدته فهو يأنس بالنظر اليها .

سعيد: ان ذلك غير ممكن يا عزيزي توماس ؛ لأنّ الله تعالى لا يستوحش من وحدته، وهو يبقى على هذه الوحدة في ذاته حتى عندما يخلق المخلوقات. وهذه الوحدة كماله سبحانه ولكننا لا نستطيع ان نفهم هذه الامور على حقيقتها، وكل ما نستطيع ان ندركه هو ان الله بريئ من كل نقص ولو كانت المخلوقات تؤنسه وتخرجه من وحدته لاصبح محتاجاً إلى مخلوقاته، بينما المخلوقات هي المحتاجة إليه في جميع شؤونها.

محمد: أعتقد أن الوقت تأخر كثيراً وأن الحديثَ ذو شجون وشجون، وفيه الكثير ممّا لابد أن يقال أو يسأل عنه. ولذا أنا أرجو منكم أن ننهي جلسة الليلة على أمل اللقاء في الاسبوع المقبل ان شاء الله لا كمال هذا البحث الشيق للجميع.

توماس : وهو كذلك يا أخ محمد.

سعيد: طابت ليلتكم يا أخ توماس .

توماس : وأنتم كذلك أملي أن أراكم بخير .

ثم ودّع الصديقان توماس عائدين إلى البيت بعد ليلة مفعمة بأريح المعرفة والعقيدة.

اللقاء الثامن:

اشكالية الخير والشر في العالم

بدا برنامج سعيد مكثفاً في هذا الاسبوع حيث فضلاً عن دراسة للُغة الألمانية، وحضور بعض الدعوات من الاخوة في برلين وخارج برلين، فان الدرس الذي وعد به مونكا سوف يأخذ منه وقتاً إضافياً، فيجب عليه الاعتناء بهذه الفتاة ورعايتها، ومحاولة تغذيتها عقائدياً وآيديولوجياً وفقهياً، حتى تقف بوجه الرياح السوداء العاصفة. التي تحيط بها من كل مكان، في ظل الظرف الذي تعيشه.

مونكا تلك الفتاة الجميلة ذات الثمانية عشر ربيعاً أخذت تنتظر لقاء سعيد على أحرّ من الجمر، لما أحسته عنده من الاخلاق والمعالي الانسانية، التي لم تجدها طوال حياتها، وهي تعيش مجتمعاً مادياً انعدمت فيه مثل هكذا معانٍ. فالاخلاص والصدق وحب الخير والصفاء والنقاء وغيرها مبادئ عظيمة كانت مونكا تحلم بها، ولم تكن تتوقع أنها سوف تلتقي مع إنسان يحمل مثل هكذا مواصفات.

كانت مونكا في اليوم التالي بانتظار سعيد من أول الصباح وقد اُرتدت الثياب الساترة لجميع الجسد، وقد وضعت على رأسها ورقبتها ربطة جميلة، فأصبحت كأنها إحدى المؤمنات في البلاد الإسلامية، هذا فضلاً عن حالة

الايمان المتجدد الذي يلتهب ناراً. كل ذلك زاد من رونقها وجمالها فبدت كأنها من حور عين بكل معاني الكلمة.

جاء سعيد يسرع الخطى، ووقع نظره من بعيد على مونكا التي بدت على البعد كأنها شمس تضيء ذلك المكان. وحينما رآها في حلية الصالحات حمد الله وأثنى عليه، واخذته عبرة وخشوع، واحس بقربه من الله اكثر. وكيف لا وقد كان هو السبب الذي أحدث أنقلاباً كبيراً في شخصية هذه الفتاة المعذبة، فقد أستنقذها من براثن الشك بل الكفر والفسق ودمار الحياة الانسانية الحقيقية .

رأت مونكا سعيد قادماً نحوها فأخذ قلبها تزداد دقاته، وشعرت باضطراب غير طبيعي لا تعلم مصدره. وما هي الا دقائق حتى كان سعيد ومونكا يجلسان على طاولة واحدة يتبادلان كلمات التحية الجميلة .

سعيد: ما أجمل أن تكون المرأة عفيفة مؤمنة ولا تكون عرضة لكل طامع، وغرضاً لكل رام، وفريسة لكل وحش كاسر. لقد اصبحت كأنك من نساء الجنة .

قالت مونكا، وهي خجلة متلعثمة: شكراً على هذه الكلمات الجميلة يا سيد سعيد .

سعيد: هل أنت مستعدة لدرس اليوم يا مونكا؟

مونكا: أنا في أشد اللهفة لسماع ما تجود عليّ به. وقد هيأت دفتراً وقلماً لاكتب كل ما تلقيه .

سعيد: حسناً فلنبدأ إذن .

ثم أخذ سعيد يلقي عليها درساً في العقيدة، وبعده درساً في الفقه، ثم

محاضرة أخلاقية مختصرة. واستمر هذا البرنامج بين سعيد ومونكا في كل يوم من أيام هذا الاسبوع.

وقبل أن يحين موعد سعيد مع السيد توماس اقترح محمد أن يكون اللقاء في هذا الاسبوع عندهم في البيت ؛ لأنه ليس من المناسب ان يكون السيد توماس في كل اسبوع يقوم بواجب الضيافة. فما كان من سعيد الا الموافقة على هذا الاقتراح فاخبر محمد توماس بهذا الاقتراح فلم يمانع، بل على العكس استأنس كثيراً .

وفي طريق مجيئة إلى بيت محمد توقف توماس على محلٍّ لبيع الزهور وأشترى باقة منها. وما ان وصل إلى بيت محمد وأستقربه المقام حتى قدم إلى سعيد هذه الباقة من الورد تعبيراً عن مشاعر الحب والصداقة. فكانت هذه المبادرة من توماس لها وقع كبير على نفس سعيد، ومدعاة لسعادة محمد وأرتياحه لما يرى من تقدم العلاقة بين سعيد وبين توماس.

محمد: لابد حينئذ أيها السادة من ان نبدأ من حيث أنتهينا في الجلسة السابقة وأتذكر ان الكلام كان يدور حول مسألة أفعال الله هل ان لها غاية أو لا؟

سعيد: نعم يا عزيزي محمد فانا ذكرنا بأن الغاية بمعنى الحاجة إلى الفعل ممتنعة على الله تعالى. وأما الغاية بمعنى أن فعله لا يمكن ان يكون عبثاً فهو ممّا يحكم به العقل بلا اشكال. فهذه الغاية تعود إلى المخلوقات لا إليه تعالى. وان إيجاده للمخلوقات بسبب انه تعالى يحب الخير وذاته الخير والعطاء والكرم، في حين نجد ان المخلوقات قبل تعلق الوجود بها كانت ممكنة ومن هنا فان الله تعالى لمحض كرمه لم يحرم هذه الممكنات من نعمة الوجود، وخير الخروج من

العدم إلى الوجود؛ فاوجدها لأجل أن يصل كل واحد منها إلى غرضه وكماله المستعد له، فالله تعالى اذن لا يمنع مستعداً للوجود وللكمال الوجودي وجوده وكماله.

توماس : ولكن رغم ذلك فان ثمة سؤال وهو لماذا يريد ان ينفع هذه المخلوقات؟ لان هذا النفع انما يتصور بعد ان توجد ولكن من البدء لماذا أوجدت، والا فقبل الوجود لا معنى لأن نقول نريد ان ننفعها لأنها كانت عدم والعدم ليس قابلاً للنفع أو عدمه.

سعيد: طبعاً الهدف النهائي لهذه العملية برمتها هو ذات الله تعالى ؛ لأن غير ذاته لا تصلح ان تكون غاية لفعله. لانه لا يوجد أشرف منها في عالم الوجود. ولكن بهذا المعنى الذي ذكرناه وهو: ان ذاته الرحمة وذاته الخير وذاته الجامعة لكل الاسماء والصفات الحسنى الجميلة، فيكون إيجاد الخلق بمقتضى ذاته العالية.

محمد: طبعاً هناك آيات عديدة تؤكد بان العالم خلق لأجل غاية عظيمة وهدف جليل يتناسب مع الخالق العظيم، والرب الجليل، كقوله تعالى في سورة الانعام: (وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتَ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ) أو قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾. وقوله تعالى في سورة (المؤمنون): ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثاً﴾. أو قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

توماس : أحسنت يا محمد. إذن من خلال جميع ما مضى نصل إلى

نتيجة: وهي أن الله تعالى خلق العالم بكل ما فيه لاجل غرض وهـدف. وان الحكمة الالهية هي: ذلك النظام السائد في هذا العالم. ولكن أمام هذه النتيجة تبرز عدة من التساؤلات والاشكالات. من أهمها: انه لو كان الخلق لاجل غاية وهي إيصال المـوجودات إلى السـعادة والتكـامل، اذن مـا مـعنى وجـود الشـر والمصائب والبلايا في حياة الإنسان؟ بل وفي كل العالم؟ اليس وجود مثل هكذا أشياء يتعارض ويتقاطع من الحكمة التي تذكرونها ؟!

سعيد: إن هذه الشبهة من أقدم الشبهات التي ترد عـلى نـظام الخـلق الحكيم، ونظام العدل المقرر لخالق هذا العالم. ومن هذا فقد أنبرى الفـلاسفة والمتكلمون من قديم الزمان إلى يومنا هذا للاجابة عنها وبيان النكتة فيها. ومن هنا فلابد ان نرى حقيقة البلايا والمصائب وما شابه ذلك، والتي تجمع كلها في كلمة: «الشر» لنرى ما معنى الشر! فنقول :

أولاً: إن الشر أمرٌ قياسي لا نفسي. بمعنى ان الشيء بنفسه لا يكون شراً. فاذا كانت هناك ظاهرة ليست لها صلة وثيقة بحياة الإنسان أو لا تؤدي صلته بها إلى اختلال في حياته فلا تتصف بالشر والبلاء، وانما تتصف بصفة الشر به إذا أوجبت نحو اختلال في حياة الإنسان، بحيث يوجب هلاك نفسه أو ما يتعلق به كماله وولده وغيرهم.

ومن المعلوم ان هذه النسبة والاضافة متأخرة عن وجود ذلك الموجود أو تلك الحادثة فلو تحققت الظاهرة وبقطع النظر عن المقايسة والاضافة، فانه لا تتصف الا بالخير. بمعنى ان وجود كل شيء يلائم ذاته، وانما يأتي حديث الشر إذا كانت هناك مقايسة إلى موجود آخر.

ثانياً: إنّ الشرَّ أمر عدمي. وهذا الجواب ذكره إفـلاطون ذلك الفـيلسوف

اليوناني حيث أكد بأن ما يسمى بالشر من الحوادث والوقائع يرجع عند التحليل إلى العدم. فان الذي يسمى بالشر عند وقوع القتل ليس الا انقطاع حياة البدن الناشىء عن قطع علاقة النفس عن البدن. وما يسمى بالشر عند وقوع المرض ليس الا باختلال الواقع في أجهزة البدن، وزوال ما كان موجوداً له عند الصحة من التعادل الطبيعي في الاعضاء والأجهزة البدنية. وعلى نفس المنوال سائر الحوادث التي تتصف بالبلاء والشر.

توماس : ان الذي تذكرونه من كون الشر عدم أمر يخالف الوجدان والواقع المحسوس، لانا نحس بالضرورة وجود العمى والصمم والمرض والظلم والعذاب والجهل والضعف والموت والزلازل وغيرها. فلا يستطيع أحد إنكار وجود هذه الاشياء ولا انكار كونها شراً .

محمد: أقول أكثر ممّا قاله السيد توماس، وهو: انه لو كان الشر أمراً عدمياً فلا وجود له إذن، ولمّا كان الشر لا وجود له فالانسان غير مكلف اذن بمقاومة الشر، وتحصيل الخيرات، ولكان كل وضع خيراً محضاً ولا سوء فيه. فالوضع الموجود اذن لابد من الرضا به، بل هو أفضل وضع ممكن. في حين ان هذا مخالف لما نجده من عقولنا ووجداننا وديننا ؟!

سعيد: كلا يا أصدقائي لا تتعجلوا بالحكم، فنحن لا نريد أن ننكر وجود العمى والصمم والظلم والفقر والمرض وغيرها، ولا نريد أن ننكر كونها شراً، ولا نقصد إلى سلب المسؤولية من الإنسان، ولا نريد ان نبخس الإنسان دوره في تغيير الكون، وتكامل المجتمع، وتكامل الكون وخاصة الإنسان ورسالته في التنظيم الذي ألقي على عاتقه. كل هذا جزء من النظام الجميل للكون فالحديث اذن ليس في هذه الامور.

توماس : عن أي شيء يكون الحديث اذن يا سيد سعيد ؟

سعيد: الحديث في أن هذه كلها من نوع «العدميات» و «الفراغات» ووجودها من نوع وجود «النقائص» و «الفقدانيات»، ومن هذه الجهة فهي شر. فهي اما ان تكون بذاتها عدماً أو نقصاً أو فراغاً واما ان تكون منشأ العدم والنقص والفراغ. ودور الإنسان في النظام التكاملي الضروري للكون هو جبران النقائص وملء الفراغات واقتلاعها جميعاً من صفحة الوجود.

وعلى هذا الاساس ثبت لدينا ان الشر ليس من ألوان الوجود، وانما هو خلاء وعدم. ولذا لا يتعلّق الخلق به، لأن الخلق إنما يتعلق بالامور الوجودية؛ لأن الخلق عبارة عن إفاضة الوجود ولا معنى لإفاضة الوجود على العدم.

توماس : أرجو أن نعود إلى أصل القضية وهي: العدل الالهي لنرى على ضوء ما توصلنا إليه من نتائج، هل أن الشرور والمصائب تنافي العدل الالهي؟ ولماذا لا يكون في الوجود خير محض حتى نتخلص من الشرور من الاساس.

سعيد: إن الخيرات والشرور في الكون ليستا فئتين متميزتين منفصلتين عن بعضهما كما تتميز الجمادات عن النباتات أو النباتات عن الحيوانات ولكل منهما صف خاص. نحن مخطئون إذا تخيلنا ان للشرور صفاً معيناً من الاشياء تكون ماهيتها شراً محضاً لا خير فيه. والصحيح ان الشر والخير مخلوطان مع بعضهما ولا يقبلان التفكيك ولا الانفصال. فاينما وجد في الطبيعة شر فهناك يوجد الخير أيضاً. واينما وجد فيها خير فالشر أيضاً موجود فيه. فالشر والخير قد عجنا في الطبيعة وركبا ولكنه ليس تركيباً كمياوياً، وانما هو تركيب أعمق وألطف انه تركيب من نوع تركيب الوجود والعدم.

والوجود والعدم لا يشكلان في الخارج فئتين منفصلتين. فالعدم نفي وفراغ، ولا يمكن ان يحتل موقعاً خاصاً في مقابل الوجود. ولكنه في عالم الطبيعة حيث هو عالم القوة والفعل والحركة والتكامل والتضاد والتزاحم. ففي المكان الذي يصدق فيه الوجود يصدق العدم أيضاً. وعندما نتحدث عن «العمى» فلا ينبغي الظن بان العمى شيء خاص واقع ملموس بحيث يوجد في العين شيء اسمه العمى. وانما العمى هو فقدان الرؤية وعدم البصر وليس له أي واقع متميز.

محمد: أحسنت يا أخ سعيد على هذا البيان الجميل. ولكن في ودِّي ان أسأل هل يمكن لنا ان لا نعتبر ان وجود العقرب أو وجود الذئب شر؟ فكلامنا الآن ليس عن العمى أو الفقر أو المرض، وانما عن موجودات حقيقية نراها شراً ولا نشك في شريتها.

سعيد: كلا صديقي فانه بلا شك ان وجود العقرب والذئب لأنفسهما خير وانهما لأنفسهما كما نحن لأنفسنا. اذن لا يوجود شيء بالنسبة إلى نفسه شر. وانما يمكن ان يكون وجود شيء شراً بالنسبة إلى وجود شيء آخر. وليس من شك أيضاً ان الوجود الحقيقي والواقعي هو وجود أي شيء في نفسه. واما الوجود الاضافي فهو أمر نسبي وأعتباري ولهذا فهو ليس واقعياً. يعني ـ في الحقيقة ـ ليس له مكان خاص في نظام الوجود والواقع حتى يقال لماذا اعطي الوجود النسبي لهذه الاشياء ؟

وبعبارة أخرى: فالموجودات لم توجد مرتين ولم تمنح وجودين: أحدهما وجود في نفسها والآخر وجود بالاضافة.

وعلى هذا الاساس لا يمكن البحث في هذه الامور على أعتبار كونها اشياء مستقلة، ولكن يمكننا ان نتساءل: لماذا خلق الله هذه الوجودات الاضافية والاعتبارية ؟

أولاً: لأنها لا تملك وجودات واقعية حتى يمكن الحديث عن الخلق .

وثانياً: هذه الوجودات الاعتبارية والأنتزاعية من لوازم الوجودات الواقعية ولا يمكن الحديث عنها مستقلة.

توماس : إذا كان الامر بهذا الشكل اذن يصح منا السؤال حينئذ: لماذا خلق الله هذا الوجود الواقعي الذي يلزمه ذلك الوجود الاعتباري الذي هو الشر؟

سعيد: هنا لابد من التأكيد على أن الشر أو المصائب ليست عديمة الفائدة حتى تكون سبباً لعدم وجود الامر الواقعي الملازم لها، بل على العكس قد تكون محض الفائدة، ولذا لابد من توضيح هذه المسألة بشكل جيد. فمثلاً: في مسألة القبح والحسن حيث ان القبح الذي هو شر يكون سبباً في إظهار الحسن الذي هو خير، ولولا القبح لما كان للحسن أي معنى. ومن هنا يكون وجود القبح ضروري.

توماس : لم أفهم وجه العلاقة بين الحسن والقبح في حين إن أحدهما يطرد الآخر وينافره .

سعيد: أوضح لك ذلك: ان الشرور ليست ضرورية لكونها جزءاً من المجموعة الكونية والنظام الكلي فحسب، وانما هي لازمة لأظهار الاشياء الجميلة. فلو لم تكن مقارنة ومقابلة بين القبح والحسن لم يوجد قبيح ولا جميل، ومن القبيح ان لا يكون جميل ولا قبيح. ولو كان كل الناس جميلين لم يكن احد منهم جميلاً ولو كانوا جميعهم قبيحين لم يكن هناك ولا قبيح واحد.

لو كان الناس كلهم يوسف الصديق عليه السلام لما بقي جمال في صفحة الوجود. ولو كان كل الناس بشكل الجاحظ لانتفى القبح تماماً. وهكذا لو كان كل الناس ابطالاً لانعدمت البطولة. فالابطال ينالون كل هذا التقدير ويواجهون كل هذا الحماس لكونهم افراداً معدودين. واحساس الإنسان بالجمال وادراكه له لا يوجدان الا ضمن شروط. وهي: ان يكون في مقابل الجمال القبح. فالناس ينجذبون نحو ذوي الجمال ؛ لأنهم يرون ذوي القبح فيشيحون بوجوههم عنهم.

توماس : وماذا بعد يا استاذ سعيد فقد اطربتنا بهذه الكلمات الجميلة والافكار الساطعة التي تخرج من فمك كانها قلائد اللؤلؤ وأساور الماس .

سعيد: لو تأملنا في واقع الحياة بشكل دقيق لوجدنا ان المصالح النوعية العامة راجحة على المصالح الفردية الخاصة. وعندما نرى الشرور نجدها لا تتعارض مع المصالح النوعية، بل على العكس تجدها تنسجم معها بشكل كامل. نعم هي قد تتعارض مع المصالح الفردية، ولكن كما ذكرنا فان المصالح النوعية مقدمة على المصالح الفردية.

توماس : ارجو ان تسلط الضوء أكثر على هذه الفكرة.

سعيد: لا بأس يا أخ توماس. أقول: لاشك ان الحياة الانسانية حياة اجتماعية. فهناك مصالح ومنافع فردية، واخرى نوعية اجتماعية. والعقل الصريح يرجح المصالح النوعية على المنافع الفردية. وعلى هذا فما يتجلى من الظواهر الطبيعية لبعض الافراد في صورة المصيبة والشر هي في عين الوقت متضمنة لمصلحة النوع والاجتماع. فالحكم بان هذه الظواهر شرور تنافي مصلحة الإنسان ينشأ من توجه الانسان اليها من منظار خاص، والتجاهل عن غير

نفسه في العالم، من غير فرق بين من مضى في غابر الزمان ومن يعيش في الحاضر في مناطق العالم أو الذي سيأتي يعيش فيها.

وما أشبه الإنسان في مثل هذه الرؤية المحدودة بعابر سبيل يرى جرافة تحفر الارض أو تهدم بناءً، محدثة ومثيرة الغبار والتراب في الهواء. فيقضي من فوره بانه عمل ضار وشر وهو لا يدري بان ذلك يتم تمهيداً لبناء مستشفى كبير يستقبل المرضى ويعالج المصابين ويهيء للمحتاجين العلاج ووسائل المعالجة والتمريض .

ولو وقف على تلك الأهداف النبيلة لقضى بغير ما قضى ولوصف ذلك التهديم بانه خير وأنه لا شرّ فيما يحصل من ضوضاء الجرافة وتصاعد الأغبرة.

محمد: احسنت يا سعيد، وأُضيف إلى ما تفضلتم به ان الإنسان مثلاً لو لا وجود هذه الشرور والمصائب لما استطاع ان يترقى في حياته وتتفجر فيه الطاقات الهائلة التي من خلالها استطاع ان يبني الحياة. فالحاجة أمُّ الاختراع ـ كما يقولون ـ فلولا وجود الفيضانات لما أبتكرت السدود التي من خلالها حصل الانسان على مخزون من الماء أثناء فترة الجفاف. ومن خلالها استطاع صناعة الكهرباء التي لا غنى للانسان المعاصر عنها، حيث ان اكثر الاشياء تعمل بواسطة الطاقة الكهربائية. وكذلك فان هذه المصائب تجعل الإنسان مرتبطاً بالله تعالى لا يأخذه الغرور والعنجهية والعجب. فيبتعد عن الله وهذا الابتعاد يعني ابتعاده عن الهدف والغاية من وجوده؛ لأن كمال الإنسان لا يتحقق الا من خلال أرتباطه بخالقه. وهذا أمر محسوس، حيث نجد أنفسنا عندما تصيبنا بلية نلجأ إلى الله نتضرع إليه ونصلي له ونعتمد عليه وفي ذلك أتصال وتقرب لمصدر الخير والكمال .

سعيد: ولذلك نرى بان الاولياء اكثر الناس ابتلاءً. واتذكر حديثاً للامام الباقر عليه السلام يقول فيه: «ان الله عزوجل ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالهدية من الغيبة» .

فكما ان معلم السباحة حين يأتيه من يحب تعلمها، فهو يحمله على المحاولة وبذل الجهد ليصبح مروَّضاً ومتعلماً للسباحة. فالله سبحانه حين يحب عبداً ويريد أن يوصله إلى كماله فانه يغرقه في البلاء. ولو قرأ الإنسان كتاباً عن السباحة فبدون نزوله إلى الماء لا يمسي سباحاً، ولكنه يتعلم السباحة عندما يجد طريقه إلى الماء ويجرب الصراع ضد الغرق، واحياناً يواجه خطر الغرق عندما يتحرك بعيداً عن الشاطئ.

فلابد أن يرى الإنسان الشدائد في دنياه حتى يتعلم طريق التخلص منها ولابد ان يواجه الصعوبات حتى ينضج ويتكامل.

توماس: لقد كان بحث الليلة رائعاً يا سعيد وقد كنت موفقاً فيه إلى حد بعيد فقد امتزج فيه الفكر والروح والواقع الاجتماعي. واعتقد بان مسألة عدل الله اصبحت من الوضوح التي لا يحتاج فيها إلى بيان اكثر. وانا مدين لك بكل وجودي، حيث كنت غارقاً في أوهام كثيرة. خصوصاً عندما اقرأ كتاب الكلام الاسلامي أزداد بعداً عن هذا الدين لما أجد من اختلاف وآراء تافه أو محيرة أو تنافي العقل الصريح. أما الآن فقد بدت أمامي الصورة واضحة نقية، وعلمت بأن الإسلام المرتبط بأهل البيت عليهم السلام هو الإسلام الصحيح الخالي من الخرافات والقادر على الاجابة عن الشبهات .

سعيد: أنا أشكرك كثيراً يا أستاذ توماس على هذا الشعور. وأنا في الواقع لم

أقم بأي شيء سوى توضيح ما هو موجود عند علمائنا وفي كتبنا.

محمد: أعتقد بان الليلة آخر المطاف في بحث العدل أليس كذلك ؟

توماس : ليس بعد يا عزيزي محمد فقد بقي عندي بحث القضاء والقدر فقط ثم ننتهي من هذا الموضوع المهم.

سعيد: ان شاء الله سوف يكون غداً .

توماس : ان شاء الله تعالى .

ثم خرج الصديقان من عند توماس وهو يعيش إحساساً غريباً وكأنه بدأ يحس بطعم الايمان يخالط روحه وشعوره، فظنَّ من نفسه انه قد أُصبح انساناً آخر غير الذي كان. ومن هنا نراه بعد الجلسات الاخيرة تأخذه حالة من الذهول ويستغرق في تفكير عميق حتى أن ذلك انعكس على كل حياته وقد تساءل زملاء محمد في العمل عن سلوك ووضع السيد توماس الذي أصبح متغيراً تماماً، واخذوا يحاولون معرفة أسباب ذلك.

اللقاء التاسع:

القضاء والقدر

بدا سعيد في هذا اليوم اكثر نشاطاً حيث بكر إلى المتنزه الذي واعدَ فيه مونكا ليلتقي معها هناك. وبدأ الدرس الذي ألتزم به لها. ولكنّ سعيدا بدا عليه القلق والاضطراب الواضحين، حيث لم يكن على عادته كما في بقية الايـام، ولكنَّ مونكا لم تحاول مفاتحته في شيء على أمل أن تكون حالة عابرة قـد تصيب الإنسان بين الفينة والاخرى. إلا انّ سعيداً وأثناء جلوسه مع مونكا أفضى بكلمات تعبر عن شوقه إلى بلده وأهله وأنه يحس بالابتعاد الطويل عن والديه اللّذين يحبهما كثيراً فضلاً عن أنه ومنذ أكثر من اسبوعين لم يحاول الاتصال بهم، ولذا عزم أن يفعل ذلك في المساء. وعلى كـل حـال أنـقضت السـاعات الثلاثة التي يكون فيها مع مونكا وكرَّ راجعاً إلى البيت وأخـذ بـالاستلقاء عـلى السرير وهو يغط في تفكير عميق، ويحسب الامور ويقلبها بطناً على ظهر. واخذ يتساءل فيما بينه وبين نفسه عن عزمه للرجوع إلى العـراق، لكـي يكسـر ألم الغربة ويرى الأهل ثم إذا شاء عاود السفر مرة أخرى .

عند الساعة الثالثة جاء الأصدقاء فوجدوا سعيداً نائماً في غرفته على غير العادة، فلم يحاولوا إيقاظه إلى ان ينتبه هو بنفسه. وفعلاً استغرق في النوم إلى قريب الغروب حيث نهض من فراشه ودخل الصالة ووجد الاصدقاء جالسين وقد خفضوا صوت التلفاز لكي لا يزعجوا صديقهم المحبوب سعيد.

سعيد: هل يوجد شيء من الطعام يا محمد ؛ لأنّي لم أتناول وجبة الغداء بعد.

محمد: خيراً ان شاء الله نراك اليوم على غير ما يرام! هل من شيء؟

سعيد: كلا ليس هناك شيء.

محمد: اخشى ان تكون مريضاً يا سعيد لم لا تذهب بعد قليل إلى الطبيب ؟

سعيد: لا حاجة لكل هذا وأرجو أن لا تكونوا في قلق. كل ما في الأمر أحسست بأني مرهق فأحببتُ ان استريح قليلاً فغلبني النوم.

محمد: إذا كان الامر هكذا بالفعل فاني سوف أهيىء لك الآن طعاماً لذيذاً كان مقرراً ان نأكله في العشاء. ولكن لا بأس ان يكون عشاؤنا مبكراً. إن صلاة المغرب قريبة جداً. أدُوا أنتم الصلاة بينما اقوم انا بتهيئة الطعام.

سعيد: شكراً لك يا محمد فقد كنتُ دائماً مصدر تعبٍ لك .

محمد: ماذا تقول يا سعيد؟ فأنا لم أفعل شيئاً، وأنت عزيز علينا جدّاً.

وبعد أن أدّى سعيد الصلاة تناول الطعام، وأتبعه بفنجانين من الشاي وظل جالساً في الصالة. فبادر محمد قائلاً :

إذا كنت اليوم متعباً فلا بأس من تأجيل ذهابنا إلى توماس وسوف نتصل به ونعلمه بأنك متعب قليلاً .

سعيد: لا يا محمد فانا أرجو أن أُنهي موضوع العدل الالهي مع هذا الرجل بسرعة ولقد أصبحت الآن في وضع طبيعي فلا داعي لهذه التخوفات الزائدة.

محمد: إذا كان الامر بهذا الشكل اذن فأرجو ان تذهب وتغير ملابسك لكي نذهب إلى الرجل فانه بانتظارنا.

وصل سعيد مع محمد إلى بيت توماس حيث كان في استقبالهم وبعد ان أخذا مجلسهما وتناولا اكواب القهوة اللذيذة، بدأ الحوار فيما بينهم حول مسألة القضاء والقدر الالهيين.

توماس : ان من المسائل المهمة والاساسية عند الإنسان الالهي أي الذي يؤمن بالله بغض النظر عن ان يكون مسلماً أو غير مسلم هي مسألة القضاء والقدر الالهيين يحث كانت هذه المسألة سيما في العالم الاسلامي مثاراً للنقاش الحاد والاختلاف العميق، حتى أنقسم المسلمون فيها إلى قسمين: احدهما المجبّرة الذين يعتقدون بان الله تعالى أجبر الناس على أفعالهم وعلى كل شيء يصدر في هذا العالم. والطائفة الاخرى تبنّت التفويض، وقالوا: بان الله لا دخل له بافعالنا فأنكروا القضاء والقدر بالشكل المتصور عنه. وأوّلوا الآيات الواردة في التأكيد على أرتباط مصير الإنسان وافعاله به تعالى. ومن هنا ينبغي إثارة هذا البحث للوصول فيه إلى نتيجة صحيحة.

سعيد: في البداية لابد من التأكيد على أنّ مسألة القضاء والقدر وان كانت مثاراً للبحث والاختلاف، إلا أنّ البحث فيها من العمق والشمولية وترامي الأطراف، بحيث وردت روايات عديدة تؤكد ضرورة ابتعاد الناس العاديين عن الخوض في اللُّجة الغامرة وركوب بحره المتلاطم، إذ إنّه يحتاج من الإنسان مؤونة فكرية وفلسفية عميقة حتى يتسنى له الخوض فيه. وما النتائج الخاطئة التي سقط فيها الأشاعرة من خلال القول بالجبر والمعتزلة من خلال القول بالتفويض إلا نتيجة لخوضهم في هذا الموضوع من دون مؤونة واستعداد فكري. لذا نجدهم لم يستوعبوه بشكل واضح فسقطوا في مهاوية وغرقوا في مطاويه.

توماس : إذا كان الامر بهذا الشكل كما تقول، فلماذا يؤكد الإسلام على

وجوب الايمان بالقضاء والقدر، واعتبره في نصوص كثيرة من شرائط الإيمان فكل شخص لا يؤمن بالقضاء والقدر فهوكافر. ولماذا جاءت الآيات الكثيرة لتبين ضرورة الإيمان به .

سعيد: لذلك أسباب كثيرة من أهمها أن الإسلام يريد من الانسان ان يتكامل على مستوى المعرفة التوحيدية. ولا يتحقق ذلك الا بالتعمق في جملة من المسائل ومن بينها القضاء والقدر. ولكن وبما أنّ التعمُّق في هذه المسائل يحتاج إلى تحصيل معرفة أكبر فينبغي عليه حينئذ تهيئة مقدمات البحث الذي سوف يؤدي بطبيعة الحال إلى وصول الإنسان إلى مرتبة عالية من العلم والمعرفة. هذا من وجهة ومن جهة اخرى فانه ليس كل شيء امرنا الإسلام ان نعتقد به ينبغي لنا البحث في تفاصيله ومسائله، وان لم تتوفر بأيدينا البضاعة الكافية للخوض فيه. ولذلك فقد الزمنا بالايمان بالبرزخ والصراط وتطاير الكتب والحشر ويوم القيامة والميزان وعذاب القبر أو نعيمه. ولكننا مع ذلك لا يتوجب علينا الخوض في مفرداتها ودقيق مسائلها. فمسألة ان الحشر هل هو جسمانياً وروحاني معاً أو هو روحاني فقط؟ وإذا كان جسماني فهل هو هذا الجسم أو جسم يشاكله ويماثله أو لا؟ لسنا مضطرين للبحث عنها، لانها في كثير من الاحيان خارجة عن قدراتنا الانسانية. فبعض المسائل غير خاضعة للعقل، وليس فيها روايات محددة وواضحة. وعلى كل حال فان الواجب علينا الايمان بها بشكل إجمالي كلي من دون الخوض فيها بما لا فائدة فيه. فكذلك القضاء والقدر فان الايمان به لا يستلزم الخوض في البحث عن مسائله، وهذا هو الذي دعا الدين إلى التأكيد على أفضلية تركه بالشكل التفصيلي.

توماس : ولكن لا نجد بدّاً من البحث فيه سيما وهو يشكل الحجر

الاساس في المعرفة الانسانية .

سعيد: إن ما ذكرته قبل قليل انما هو ناظر إلى الناس العاديين الذين لا يتحملون مثل هذا الموضوع أما اصحاب الفكر وحملة العلم فينبغي البحث فيه بينهم لكي يتوصلوا إلى النتائج الصحيحة في قبال النتائج الخاطئة.

توماس : اذن نبدأ هذا البحث على بركة الله فنقول: في البدء ما معنى القضاء والقدر يا سعيد .

سعيد: مفهوم القدر يختلف عن مفهوم القضاء، حيث إن الأول معناه هندسة الشيء وتصميمه وترتيبه على شكل وهيأة معينتين. فالتقدير الالهي معناه: ان الله تعالى جعل لكل حادث مقداراً وحدوداً كمية وكيفية زمانية ومكانية معينة في تحققه بفعل العلل والعوامل التدريجية .

واما القضاء الالهي فهو الفصل والابرام وتنفيذ ذلك الأمر الذي قدر وخطط له مسبقاً. وبكلمة اخرى: هو ايصال الحادث إلى مرحلته النهائية والحتمية بعد توفر المقدمات والاسباب والشروط لذلك الحادث .

نعم قد يستعمل القضاء والقدر بمعنى مترادف فيكون معناه المصير للانسان. وغيره. هذا من جهة. ومن جهة اخرى: فان القضاء والقدر قد يراد منهما الجانب التكويني وقد يراد بهما الجانب التشريعي.

اما القضاء والقدر التشريعي فان المقصود بهما الاوامر والنواهي الالهية الواردة في الكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾. وكل الاوامر الموجودة في الشريعة من هذا القبيل. وهذا القسم من القضاء والقدر لم يقع فيه بحث ولم يكن هو مثار الاشكالات.

واما النوع الآخر فهو القضاء والقدر التكويني الذي يتعلق بالمسائل

والحقائق التكوينية ونظام الوجود.

توماس: أحسنت يا سعيد وما هو رأي المجبّرة والمفوّضة في هذه المسألة؟

سعيد: لقد ذهب المجبّرة إلى انه تعالى هو الفاعل لأفعال المخلوقين ولا يمكن ان ينسب الفعل للمخلوقين. فقد انكروا سببية الأشياء واعتقدوا بان السبب الوحيد لأيِّ فعل هو الله تعالى. فقالوا: ان النار مثلاً لا تحرق شيئاً، بل عادة الله جرت على إحراق الثوب إذا مسته النار، واما النار فلا دور لها بالاحراق مطلقاً. ومن هنا فقد اعتقدوا بان أفعال العباد مخلوقة لله تعالى من دون دخل للعباد. وقد استدلوا بآيات من القرآن الكريم بشكل ليس صحيحاً. ومن هنا فقد قالوا بأنّا مجبورون على افعالنا.

اما المفوّضة عندما رأوا ان الاعتقاد بالجبر يتعارض مع العدل الالهي، فكيف يجبرنا الله على فعل القبيح والكفر ثم بعد ذلك يحاسبنا عليه؟ ولذا اعتقدوا انه تعالى فوّض الافعال إلى المخلوقين ورفع قدرته وقضاءه وتقديره عنها، باعتبار ان نسبة الافعال إليه تعالى تستلزم نسبة النقص إليه وان للموجودات أسبابها الخاصة، وان انتهت كلها إلى مسبب الاسباب وهو الله تعالى. وكذلك فان العبد اذا لم يكن مختاراً في فعله لما استحق العقوبة على فعله للقبح ولما استحق فعله المدح للحسن. وقد استدلوا أيضاً بآيات من القرآن الكريم تصوروا بانها تفيد التفويض .

سعيد: وبين هذين المشربين هل ثمة طريق لمعرفة الصواب والحق أو لا ؟

سعيد: بلا شك يا صديقي فان أئمة أهل البيت عليهم السلام لما رأوا هذين الرأيين

المتطرفين حاولوا إعطاء الرأي الصحيح حتى يخلِّصوا الناس من الجبر والتفويض فقالوا بان القضاء والقدر ليس تفويضاً ولا جبراً وانما أمر بين أمرين .

توماس : وما معنى أمر بين أمرين ؟

سعيد: معناه أنّ الإنسان ليس له استقلالية كاملة في فعله بحيث يخرج عن قدرة الله وإفاضة الوجود عليه من قبله، وليس مجبوراً على فعله بحيث لا يكون له أي مدخلية فيه. بل انه من جهة فاعل لفعله حقيقة ومن جهة اخرى فان الله تعالى هو الذي مكنه من ذلك الفعل، وهو قادر على منعه ان أراد. ولكن بما أنّ الإنسان مختار في فعله حتى ينال الثواب أو العقاب يوم القيامة فقد حال بينه وبين الفعل، ولذلك وردت رواية عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام حيث ذكر عنده الجبر والتفويض فقال: «ألا أعطيكم في هذا أصلاً لا تختلفون فيه ولا يخاصمكم عليه أحد إلّا كسرتموه ؟ قلنا: ان رأيت ذلك. فقال: ان الله عزوجل لم يطع باكراه ولم يعصَ بغلبة ولم يهمل العباد في ملكه. وهو المالك لما ملّكهم والقادر على ما اقدرهم عليه. فان أئتمر العباد لطاعته لم يكن الله عنها صادراً ولا منها مانعاً وإن أئتمروا بمعصيته فشاء ان يحول بينهم وبين ذلك الفعل وان لم يحل وفعلوه فليس هو الذي أدخلهم فيه».

توماس : على هذا الاساس توجد طولية بين فعل الله وفعل العبد ومن هنا لا يتقاطعان فيما بينهما .

سعيد: بالضبط يا أخي توماس، فان الامر يشبه ان يكون هناك شخص وقد اصابه مرض فما عاد يستطيع تحريك يده فقام طبيب بوضع جهاز في يده مربوط بجهاز آخر في يد الطبيب، ان شاء شغله فاستطاع المريض الاستفادة منه فيما يشاء، وان شاء أطفأه فعادت يد المريض إلى ما كانت عليه. وحينئذ لو قام

الطبيب بتشغيل الجهاز فاصبحت يد المريض قادرة على فعل أي شيء ولكن هذا المريض ضرب بيده شخصاً آخر كان جالساً قربه فهنا لا نستطيع ان نقول بان المريض مستقل بفعله ذاك بشكل كامل، وكذلك لا نقول بأنَّهُ مجبور؛ لأنه بذاته ما كانت له القدرة على فعل أي شيء، وكما قام بذلك ببركة الجهاز الذي شغله الطبيب. وفي نفس الوقت لو شاء الطبيب قبل ان يرفع المريض يده ويضرب ذلك الشخص ان يمنعه فما عليه الا ان يطفئ ذلك الجهاز فيعود المريض عاجزاً عن فعل أي شيء .

فهنا لون العلاقة بين فعل الطبيب وفعل المريض طولية لا تأتي النوبة على فعل المريض الا بعد فعل الطبيب، وفي نفس الوقت لا يمكن ان يستقل المريض من دون فعل الطبيب. وفي نفس الوقت فان المريض هو المسؤول عن ضرب ذلك الشخص وهو الملام من قبل العقلاء .

توماس : أحسنت يا سعيد انه مثال جيد لتصوير كيفية ارتباط العقل بالله من جهة وان الإنسان مسؤول عنه، لأنّه هو المباشر له من جهة أخرى .

محمد: اسمحوا لي أن أدلو بدلوي معكم. فقد وردت نصوص دينية عديدة تؤكد ان الاعتقاد بالقضاء والقدر لا يعني ان الإنسان مجبرٌ في عمله ولا يسوغ له حينئذ تبرير المعاصي والذنوب بحجة ماذا افعل فان الإنسان مجبور على فعل المعاصي .

منها: ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «سيأتي زمان على أمتي يؤوّلون المعاصي بالقضاء أولئك بريئون مني وانا منهم براء».

ومنها: انه لما انصرف أمير المؤمنين عليه السلام من معركة صفين أقبل شيخ فجثا بين يديه ثم قال له: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام أبقضاء

الله وقدره؟. فقال: أجل يا شيخ ما علوتم من تلعة ولا هبطتم من وادٍ الا بقضاء من الله وقدر. فقال الشيخ: عند الله أحتسب عنائي يا أمير المؤمنين. فقال عليه السلام: «مه يا شيخ فوالله لقد عظم الله لكم الاجر في مسيركم وانتم سائرون ـ إلى ان قال: ـ أو تظن انه كان قضاءً حتماً وقدراً لازماً ؟ انه لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب والأمر والنهي ».

توماس: ما ذكرته لنا يا محمد زاد الطين بلة وأدخلنا في مشكلة أخرى لابد لنا من خوضها مرة اخرى، وهي: ان كلامنا السابق لم يعالج المشكلة التي طرحناها وانما بيّن لنا مسألة الامر بين الامرين فحسب. الا ان هناك جملة من الاشكالات التي تثار في هذا الصدد. منها لو ان الله تعالى قد قدر علينا الامور وامضاها ونفذها عن طريق القضاء فهل يمكن ان يأتي العبد فيحاول تغييرها؟ إذا قلنا نعم فمعناه ان العبد اصبحت له سلطة على تغيير ما قدرهُ الله وقضاه؟ وان قلنا لا فيكون الإنسان حينئذ مجبوراً على كل ما قدر الله وقضى .

سعيد: في البداية لابد ان تعلم بان القضاء والقدر قد يستعمل في معنين أحدهما القضاء والقدر العلمي والآخر القضاء والقدر العيني. ولكلّ واحد منهما معنى غير الآخر .

أما المعنى الاول ـ العلمي ـ فنقصد به علم الله بتوفر المقدمات والاسباب والشروط المؤثرة في تحقق الظواهر وكذلك علمه بالوقوع الحتمي لها.

اما المعنى الثاني ـ العيني ـ فيستعمل بمعنى انتساب المسيرة التدريجية للظواهر وكذلك انتساب تحققها العيني الخارجي إلى الله تعالى .

وعلى هذا الاساس يكون الاشكال والشبهة التي تطرحونها متعلقة بالمعنى الثاني للقضاء والقدر أعني العيني دون المعنى الأول أعني العلمي.

محمد: بالضبط يا استاذ سعيد فان القضاء والقدر العلمي ليس فيه اشكالٌ كثير ؛ لأنه وفقاً لما يستفاد من الآيات والروايات فان العلم الالهي بكل الظواهر بالصورة التي تتحقق فيها في العالم الخارجي تماماً مودع في مخلوق شريف رفيع يسمى «اللوح المحفوظ»، وكل من يمكنه الاتصال بهذا اللوح باذن الله سيكون عالماً بالظواهر الماضية والمستقبلية. وهناك لوح آخر يقلّ رتبة ومقاماً عن اللوح المحفوظ أودعت فيه الظواهر بصورة مشروطة وغير تامة. ومن يشرف ويتعرف عليها ستكون له معلومات محدودة وناقصة ومشروطة وقابلة للتغيير. وربما تكون هذه الآية الشريفة ناظرة إلى هذين النوعين من المصير وهي قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿يَمْحُوْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَابِ﴾. وتغير التقديرات المشروطة وغير الحتمية يعبر عنه في الروايات بـ «البداء».

سعيد: احسنت يا صديقي محمد فان هذا الجانب ليس فيه اشكال كثير وأما الاشكال الحقيقي فهو في القضاء والقدر العيني حيث يقال كيف نوفق بين القضاء والقدر الالهيين من ناحية وبين اختيار الإنسان من ناحية اخرى .

توماس : وما هو الجواب عليه يا سعيد ؟

سعيد: حاصل الجواب عن هذا الاشكال هو: ـ ان استناد الفعل إلى الفاعل القريب المباشر وهو الإنسان مثلاً وإلى الله تعالى يكون على مستويين: ـ

والفاعلية الانسانية تقع في طول فاعلية الإنسان. فالأفعال التي تصدر من الإنسان ليست بحيث اما ان تكون مستندة إليه واما ان تكون مستندة إلى الله، وانما هذه الافعال في نفس الوقت الذي تستند فيه إلى ارادة الإنسان واختياره تكون مستندة إلى الله عزوجل في مستوى أرفع. فلو لم تتعلق الارادة

الالهية فانه لا يوجد انسان ولا علم ولا قدرة ولا إرادة ولا اختيار ولا فعل ولا نتيجة فعل. ووجود هذه جميعاً بالنسبة إلى الله تعالى هو عين التعلق والربط وأي واحد منها ليس له استقلال بذاته .

توماس : لم استوعب ما قلته بشكل كامل ؟

سعيد: حسناً يا أخ توماس أوضح أكثر: ان الفعل الاختياري للانسان بوصفه اختيارياً يصبح مورد القضاء الالهي. وكونه اختيارياً من مشخصاته ومن شؤون تقديره. فلو تحقق بصورة جبرية لتخلف القضاء الالهي، بمعنى ان الله قضى على الإنسان ان يكون فاعلاً بالاختيار، فسلب الاختيار عنه تخلف للقضاء الالهي، فيكون بعكس الاشكال الذي طرحتموه تماماً. فاذا عدنا إلى الاشكال لوجدنا منشأه الأساس ان الفعل إذا كان متعلق القضاء والقدر الالهيين فحينئذ لا مجال لاختيار وانتخاب الفاعل. بينما الفعل الاختياري بقطع النظر عن إرادة الفعل لا يكتسب الضرورة، وكل معلول يصبح متعلق القضاء والقدر الالهي عن طريق أسبابه فحسب .

والحاصل ان القضاء العيني هو عبارة عن وصول كل معلول إلى حد الضرورة الوجودية عن طريق تحقق علته التامة. ومن جملة ذلك وصول الافعال الاختيارية إلى حد الضرورة عن طريق إرادة الفاعل القريب لها. ولما كان كل مخلوق لا أستقلال له في وجوده وآثاره الوجودية فمن الطبيعي ان تصبح جميع الظواهر مستندة إلى الله تعالى، فهو الذي يتمتع بالغنىٰ والاستقلال المطلقين.

توماس : وهل ان القضاء بهذا المعنى قابل للتغير أو لا ؟

سعيد: كلا يا صديقي فان القضاء بالمعنى الذي ذكرناه ليس قابلاً للتغير مطلقاً. وبناءً على هذا فان كل ما ورد في الروايات الشريفة حول تغيير القضاء

فهو بمعنى القضاء المرادف للتقدير، والذي تكون حتميته وعدمها نسبية. ولكن التقدير العيني يختلف عن القضاء العيني فهو من جهة كونه متعلقاً بـالعلاقات الامكانية للظواهر قابل للتغيير، وهذا التغيير في التقدير هو الذي سميناه من قبل بالبداء .

وكذلك لابد من الالتفات إلى ان التقدير العلمي أيضاً قابل للتغيير تـبعاً للتقدير العيني؛ لأن هذا العلم انما تعلق بالنسبة الامكانية، وبـتحقق الظـاهرة بصورة مشروطة، وليس هو العلم بالنسبة الضرورية وتـحقق الظـاهرة بـصورة مطلقة.

توماس : اذن استطيع ان استنتج من كلامك هذه النتائج .

أولاً: القضاء العيني لا يمكن تغييره ابداً .

ثانياً: التقدير العيني يمكن تغيره .

ثالثاً: التقدير العلمي يمكن تغييره.

رابعاً: القضاء العلمي لا يمكن تغييره .

سعيد: هو هكذا يا صديقي العزيز .

توماس : أحسنت يا أخي يا سعيد فقد أزلت عني همّاً طالما أرق مضجعي وحيّر عقلي، ولم أرسوَ فيه على بر الأمان. اما اليوم فقد رست سفينة فكري على شاطئ المعرفة والايمان فجزاك الله خير الجزاء على هذا الجهد الذي تبذله معي يا سعيد .

سعيد: عفواً يا أخ توماس فان هذا من صميم واجبي فلا أستحق عليه شكراً .

توماس : بحمد الله لقد أنتهينا من موضوع العدل ولكن ثمة موضوع آخر

لابد من البحث فيه وهو موضوع النبوة أليس كذلك يا أستاذ سعيد .

سعيد: لا اظن باني سوف أتوفق لهذا البحث يا أخي .

توماس : وهو ينظر إلى وجه محمد بغرابة: ولماذا يا سعيد ؟

سعيد: لقد عزمت على السفر والرجوع إلى بلدي العراق حيث هاج بي الحنين إلى الاهل والاقرباء والاصدقاء وزيارة المراقد المقدسة وليس لي بد من الذهاب إلى هناك.

محمد: ما اخبرتنا يا سعيد عن هذه النية من قبل فلقد فاجأتنا بها.

سعيد: صحيح ولكنَّكم ربما لاحظتم بعض التغير في وضعي في الايام الاخيرة وما سبب ذلك الا شوق الروح إلى الوطن العزيز بما فيه من أهل وأحبة.

توماس : لا بأس يا سعيد يمكنك ان تذهب لشهر أو شهرين ثم تعود الينا وانا مستعد ان اتحمل جميع نفقات ذهابك وإيابك وغير ذلك فماذا تقول ؟

سعيد: لا استطيع ان اعدك بشيء فانا لا اعلم الظروف التي قد تحكمني هناك وعلى كل حال الامر بيد الله تعالى هو يفعل ما يريد ولا يريد الا الخير ان شاء الله.

ثم استأذن سعيد من توماس ان يرجع إلى البيت ولكن تواعدا ان يلتقيا قريباً .

خرج سعيد مع محمد وتركا توماس حزيناً جداً، لأنه سوف يفقد شخصاً عزيزاً عليه استطاع في خلال هذه المدة القصيرة ان يحدث تغييراً كبيراً في مساره الفكري وأعتقاده الديني بحيث أوصله إلى حافة الهداية ورفع الكثير من الشكوك والشبهات والحلقات المفقودة في منظومته الفكرية والعقائدية.

إرهاصات الفراق

أنطلق سعيد في اليوم التالي إلى تلك الحديقة ليلتقي مع مونكا التي كانت تنتظره على أحر من الجمر. وبعد ان وصل اليها وأخذا يتبادلان أطراف الحديث أخبرها بنيته في السفر إلى بلاده فحزنت لذلك حزناً شديداً وقالت له :

لماذا تتركني يا سعيد في هذا الظرف وأنا محتاجة اليك كثيراً فلا زلتُ برعماً صغيراً ضعيف العود، ومع ذلك تريد ان تمنع عني الماء والضوء.

سعيد: كلا يا مونكا بل سوف أوكل مهمة إكمال المشروع الذي بدأته معك إلى احد اصدقائي المقيمين هنا في برلين، وسوف يواصل معك هذه الدروس، وسوف تجدينه عوناً لك في كثير من الاشياء. وهو انسان ملتزم ومتدين ومثقف ديني بشكل جيد فضلاً عن كونه انساناً يتمتع باخلاق جميلة وسوف يتناسب معك قطعاً ان شاء الله .

مونكا: لا ادري يا سعيد ماذا أقول !

سعيد: لا تقولي شيئاً يا أختاه فالدنيا شأنها اللقاء والفراق ولا يوجد بُدٌّ من ذلك ولا مفر، فهو قضاء الهي وسنة ربَّانية ليس لها تحويل ولا تغيير .

وبعد ان امضى مع مونكا ساعة كاملة اخبرها بان تنتظره في الساعة الخامسة عصراً من يوم غد لكي يأتي مع محمد ليتعرف على مونكا ويتفقا على موعد الدرس بينهما. ثم رجع بعد ذلك إلى البيت بعد ان مر بالسوق ليشتري بعض الاشياء التي يريد أخذها معه إلى الوطن.

كان ذلك المساء حافلاً، حيث اجتمع الاصدقاء مع سعيد ليعيشوا معه أيام الوداع وقلوبهم تعتصر ألماً وحزناً. اخبر سعيد محمداً بموضوع مونكا وشرح له كل ما مر معه وطلب منه طلباً أخوياً أن يفرغ قسماً من وقته لهذه الفتاة والا فلا يمكن الاطمئنان بما سوف يؤول إليه أمرها ان تُركت هكذا بلا موجه ولا مشير أو معين. فوافق محمد على الرغم من كون برنامجه اليومي مزدحماً جداً، الا ان سعيد اقترح على محمد ان يكون لقاؤهم في يومي العطلة الاسبوعية السبت والاحد فهو وقت جيد له ولها أيضاً .

في اليوم التالي وعلى رأس الساعة الخامسة كان سعيد ومحمد جالسين على أحد المقاعد في ذلك المتنزِه الجميل. وبعد دقائق قليلة جاءت مونكا تمشي على استحياء وهي ترتدي الحجاب الكامل وبدت بأبهى صور الجمال والوقار. وما ان وقعت عين محمد عليها حتّى شعر بأنّه يعرفها قبل زمن طويل .

جلست مونكا بعد السلام وهي مطرقة إلى الارض بعد ان أدت التـحية الإسلامية. وخيم الصمت في ذلك المكان لدقائق معدودة، إلى أن قطع سعيد هدوء المكان.

سعيد: اهلاً بك يا مونكا هذا صديقي الاستاذ محمد الذي سوف يكون أُستاذك من هذه الساعة وتستطيعين ان تعتمدي عليه في كل ما تريدين.

مونكا: انا اشكرك كثيراً يا أخي سعيد، واشكر الاخ محمد الذي قبل ان يتحمل جهد وعناء تعليمي معالم ديني.

محمد: عفواً يا أختاه، فانا اقوم بواجبي الديني والانساني تجاهك وأرجو أن اكون موفقاً في مهمتي أمام الله اولاً وأمام أخي سعيد ثانياً .

سعيد: إن شاء الله تكونان موفقين في عملكم هذا. والمهم هو أن تتفقا على الزمان وجزئيات البرنامج. والآن أود ان أستأذن واترككما هنا تكملان بقية اللقاء .

مونكا: لا زال الوقت مبكراً يا أستاذ سعيد .

سعيد: لا يا مونكا فان عندي الكثير من الامور التي ينبغي ان أفعلها .

مونكا: وكيف نراك مرة اخرى ؟

محمد: نحن سوف نقيم له حفلاً توديعياً جميلاً سوف يحضره العديد من اصدقائنا رجالاً ونساءً وسوف تكونين معناً حتماً .

مونكا: بلا شك سوف اكون أول الحاضرين كيف وهو صاحب فضل كبير عليّ بالخصوص .

كان موعد سفر سعيد يوم الثلاثاء الساعة الواحدة بعد الظهر ولذا رتب اصدقاء سعيد حفلاً توديعياً في ليلة الثلاثاء دعوا فيها كل الاصدقاء سيما توماس ومونكا. وكان حفلاً بهيجاً حيث بدأ محمد يتكلم عن سعيد بشخصيته العلمية والاجتماعية ويطري عليه كثيراً. ثم قام توماس الذي كان يحترم سعيد بشكل كبير وأخذ يبين كيف أنه أنار طريقه وأوضح سبل المعرفة أمامه، ولذا كانت ساعات لقائه اجمل الساعات وانفعها. وطلب من سعيد أمام الحاضرين ان يعاود زيارته إلى برلين لأنّهم محتاجون إليه كثيراً.

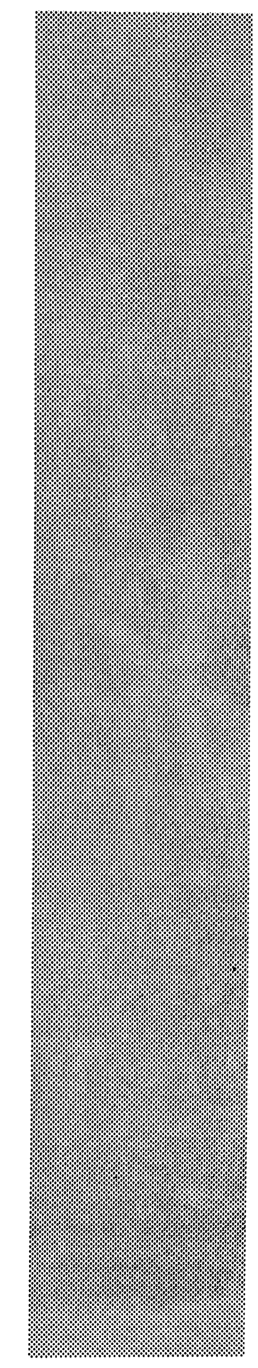
ثم طلبت مونكا من محمد ان يفسح لها المجال للتحدث، فاخذت تشرح للحاضرين ما قام به سعيد تجاهها وأنهت الحديث بعبرة صادقة ودموع نازفة وآخر كلمات نطقتها هي: لقد فقدت والدي ووالدتي ولم يكن لي أخ أحتمي به

ولكن الله عوضني بالاستاذ سعيد الذي كان كالاب في عطفه ورحمته وكالاخ في نصحه وإرشاداته فجزاه الله خير الجزاء.

ثم تناول الجميع وجبة العشاء اللذيذة التي أُعدت بالطريقة العربية وبقي الجميع ساهرين إلى نصف الليل ثم ودع الجميع سعيداً وداعاً مراً صاحبته العبرات والدّموع والوصايا بالدعاء عند الأئمة الأطهار. اما توماس ومونكا فقد أصرّا على ان يكونا آخر المودعين له غداً في المطار.

في اليوم التالي وعند الساعة الثانية عشرة والنصف كان سعيد وأصدقاؤه مع مونكا وتوماس في صالة المطار وهم يتزودون من النظر إلى وجه سعيد الذي علته مسحة الحزن لمفارقة مثل هؤلاء الناس الطيبين. ولكن مونكا كانت اكثر الحاضرين عاطفة حيث بقيت تبكي طول مدة الانتظار في صالة المطار. وبعد ذلك توجه سعيد باتجاه الطائرة بعد عناق حار ودمع فوّار وقلوب تعتصر وأرواح تنصهر. فودعهم سعيد بأمان الله وحفظه وودعوه بالدعاء للوصول بالسلامة ان شاء الله.

وبهذا انطوت صفحة من حياة سعيد مع أناس جمعته معهم مواقف جميلة ولقاءات نافعة وكلمات دافئة لا يمكن ان يطويها النسيان، أو تزيلها الأيام سيما وأن صورة كل واحد منهم تسبح أمام عينيه بما تحمل من شعور لطيف وعاطفة جياشة.



مباحث النبوة الالهية

الوصول إلى الوطن والسفر إلى لندن:

ما إن اقتربت الطائرة من بغداد، حتى بدأ سعيد يشعر بحالة غريبة تغمره، بكل كيانه، وكأنه يقترب من شيء مجهول، فهناك أدرك بأنّ الإنسان فيه من الحالات العجيبة، التي ربما كنا في كثير من الاحيان، لا نجد لها تفسيراً منطقياً.

هبطت الطائرة بسلام، وما انّ وصل سعيد إلى صالة المطار، حتى وجد اخاه عقيلاً، مع صديقه باقر في انتظاره، فأخذوه في الأحضان وتبادلوا السلام، كلمات الحب والاشتياق، وانطلقوا سوية إلى مدينة البصرة، تلك المدينة الحبيبة حيث الذكريات الجميلة، التي قضاها فيها. والتي مازالت عالقة في ذهنه، ومخيلته حيث اشجار النخيل الباسقة، وضفاف شط العرب، وأكلات السمك الشهي، وتمر البرحي وغيرها من الاشياء، التي تفرض نفسها على ذاكرة سعيد.

كان أهل سعيد مجتمعين في البيت، ومعهم مجموعة من الاقرباء والأصدقاء، وكلّهم في انتظار مرور الساعات القصيرة التي سوف يقطع فيها سعيد المسافة بين بغداد والبصرة وكان والد سعيد المتعب المريض من اشد الناس، بهجة وسروراً، بقدوم سعيد. كيف لا وهو الابن الأكبر والافضل للحاج عبد الله، ذلك الرجل التاجر المتدين، ذو السمعة الحسنة بين الناس.

وبعد انقضاء ساعات السفر، وطيّ المسافة بين سعيد واحبابه رنّ جرس الباب، وما أسرع أن هرع أحمد الأخ الاصغر لسعيد إلى الباب، وإذا به يجد سعيداً

ومرافقيه، فكانت الفرحة عارمة، والدموع متدفقة والقلوب سعيدة، وبدأت النساء تريد مسابقة الرجال لاحتضان سعيد، ولكن سعيد انشغل عن كل اولئك وتوجه بكل وجوده الى أبيه الحاج عبد الله فارتمى في حضنه وعيونه تغمرها الدموع واخذ يقبل يديه ثم توجه إلى امه وفعل معها ما فعل مع أبيه ثم توجه إلى بقية العائلة والاقرباء ليسلم عليهم الواحد تلو الاخر.

مرّ على سعيد اسبوعان وهو في اجمل الساعات لاسيما حينما كان يجلس مع الاهل ويقص لهم ما مر عليه في اثناء سفره، وهم يستمعون بكل شوق إلى ما يسرده من احداث ومواقف ومشاهدات، وامّا الحاج عبد الله فانه يشعر بالفخر والاعتزاز بهذا الولد الذي يشع فكراً وايماناً واخلاقاً، وهذه في الواقع هي غنيمة الإنسان، انّ يترك من بعده أولاداً بهذا الشكل، وكما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «إذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث علم ينتفع به وولد صالح يدعو له وصدقة جارية» وفعلاً كان سعيد من الأولاد الصالحين الذين يفتخر بهم.

في بداية الاسبوع الثالث طلب سعيد من والده الاذن بالسفر إلى العتبات المقدسة في النجف الاشرف حيث مرقد الامام امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وكربلاء المقدسة حيث مرقد الامام الحسين عليه السلام واخيه العباس بن أمير المؤمنين عليهما السلام، والكاظمية في بغداد حيث مرقد الاماميين الهمامين موسى بن جعفر الكاظم ومحمد الجواد عليهما السلام ثم سامراء التي فيها مرقد الإمامين العسكريين علي بن محمد الهادي والحسن بن علي العسكري عليهما السلام كما زار الحوزة العلمية والتقى بالعلماء. وفعلاً أتم سعيد ذلك، وقضى حوالي اسبوعين وهوفي رحاب تلك البقاع المباركة في اجوائها الايمانية وريحها الطيب بما يحمل من نفح الولاء لمحمّد وآل محمّد صلوات الله عليهم.

بعد انقضاء مدّة الزيارة رجع سعيد إلى البصرة، ولكنه فوجئ بمرض والده حيثُ بدأت حالته الصحية تتدهور بشكل ملحوظ وبعد مراجعة الاطباء والمتخصصين اخبروهم بانّ الحاج عبد الله مرضه خطير ولا يمكن علاجه هنا.

اخذ سعيد والده إلى مدينة بغداد العاصمة الجميلة للعراق وهناك عرض الوالد على اكابر الاطباء وبعد اجراء فحوصات كثيرة وتحاليل عديدة اكّدوا له بان والده مصاب بمرض خطير ويحتاج إلى عملية خاصة وليس في العراق امكان اجرائها ولذا فلابد من السفر إلى لندن عاصمة بريطانيا لاجل تلقي العلاج واجراء العملية هناك.

قرر سعيد التوجه إلى لندن بصحبة أبيه لمعالجته هناك، وبعد ثلاثة ايام كان سعيد مع ابيه في لندن والتي كانت يوماً ما عاصمة اكبر امبراطورية استعمارية في العالم، وما ان وصلا حتى توجّها مباشرة إلى المستشفى حيث كان باستقبالهم احد الاطباء المتفق معه سلفاً على الاشراف في معالجة الحاج عبد الله فكان السرير المخصص له مهيئاً بشكل جيد.

في اليوم التالي أُجريت له الفحوصات والتحاليل المختبرية بشكل مكثف وخلال عدّة ايّام تم تشخيص المرض بوضوح ولذا قرر الاطباء اجراء العملية في اسرع وقت ممكن، وفعلاً بعد ثلاثة ايّام كان الحاج عبد الله في غرفة العمليات حيث دامت العملية زهاء الأربع ساعات.

اما سعيد فقد كان طيلة الوقت مشغولاً بالتضرع والدعاء إلى الله سبحانه وتعالى بنجاح العملية وسلامة الوالد، وما مرّ الا وقت قصير حتى أخرجوا الحاج عبد الله من غرفة العمليات وهو في حالة غيبوبة جراء التخدير فاسرع سعيد إلى

الطبيب فأخبره بان العملية قد نجحت مائة بالمائة وزال الخطر عن الوالد بشكل يدعو إلى الاطمئنان.

لقد اخبر الطبيب المعالج سعيداً بانه يلزم بقاء والده فترة من الزمن لأجل إكمال العلاج وفترة النقاهة فلم يمانع سعيد أبداً، وقال للطبيب المهم هو سلامة الوالد وشفائه بشكل كامل، ثم اخذ سعيد يشكر ذلك الطبيب الذي كان انساناً طيباً ومجاملاً إلى حد بعيد.

في اليوم التالي كان سعيد مع الطبيب عند الحاج عبد الله الذي استعاد وعيه ولكنَّه لازال لا يقوى على الحركة أو الكلام الكثير، فبادر سعيد والده بأني دعوت الله لك بحق محمَّد وآل محمد ان يمن عليك بالشفاء العاجل والسلامة الكاملة، ثم حاول سعيد ان يفهم الطبيب باللغة الانكليزية بان نجاح العملية كان بفضل الله عزوجل وشفاعة النبي الأكرم وآله الاطهار والتوسل بهم إلى الله سبحانه وتعالى. ولكن الطبيب حينما سمع هذه الكلمات من سعيد اخذ بالضحك والسخرية فتعجب سعيد من تصرفه ذاك. وقال له :

مالي أراك حينما سمعت كلامي اخذت بالضحك والسخرية.

فقال الطبيب: لقد كنت اظنك انساناً متحضراً متنوراً، ولكني فوجئت بايمانك بهذه الخرافات، التي اكل الدهر عليها وشرب، فأيُّ نبوة وأيُّ شفاعة، وهل تصدق مثل هذه الأشياء ؟

لاسيما ونحن في زمن التطور والحضارة والرقي الفكري والتكنلوجي.

سعيد: هل افهم من كلامك يا ايها الطبيب بانك لا تؤمن بالأنبياء مطلقاً؟

الطبيب: بلا شك، وهل هذه إلّا خرافة دينية ابتدعها بعض الاشخاص الذين ادعو النبوة من اجل أغراض خاصة أو عامة.

سعيد: وما تقول في الايمان بالله هل تنكره هو الآخر؟

الطبيب: ابداً فأنا أؤمن بان هناك خالقاً خلقنا وجعلنا نعيش في هذا العالم فهذا شيء لا يتسنى لي انكاره ابداً.

سعيد: اذن كيف لا تؤمن بسفراء ذلك الخالق إلى البشر، لكي يعرفوهم غرض خلقهم ومنهج سعادتهم واصلاح ما فسد منهم، اليس الخالق قد خلقنا لحكمة وهدف، فما هو ذلك الهدف؟ وكيف يمكن لنا؟ ان نعرفه ونعرف الطريق الذي يُوصل إليه بدون وجود اشخاص من البشر ، يوحي اليهم ويجعلهم سفراء فيما بينه وبين البشرية.

الطبيب: في الحقيقة انا غير مؤمن بالانبياء لاسباب كثيرة .

سعيد: الم تفكر يا حضرة الطبيب بانّك بعد الموت ماذا سيؤول مصيرك؟ وهل ان وجودك رهن الحياة الدنيا؟ ام له امتداد إلى الآخرة حيث الثواب للمطعين والعقاب للعاصين؟ وإذا كنت تؤمن بان هناك يوماً آخر، وهو يوم القيامة يلزم منك ان تؤمن بالنبوة بلا شك لوجود تلازم وثيق فيما بينهما حيث لا معنى للثواب والعقاب بدون تكاليف يُكلف الإنسان بها، فاذا التزم بها الإنسان يثاب، ويسكن الجنة، وإذا خالفها يعاقب ويعذب في النار، وهذا لا يكون إلّا بعد ان يكون هناك سفراء بين الله سبحانه وتعالى وبين خلقه يبينون لهم أوامر الله ونواهيه.

الطبيب: المعادُ خرافة أخرى ابتدعها رجال الدين، ومدَّعي النبوة والّا كيف للإنسان بعد ان يموت ويتلاشىٰ ويصبح تراباً، يعود مرة اخرى ليحاسب علىٰ اعماله .

سعيد: اذن انت منكر، للنبوة، وللمعاد يا حضرة الطبيب .

الطبيب: كما سمعت يا سيد سعيد .

سعيد: اود ان اسألك سؤالاً وأريد الاجابة عنه، وهو هل انّك تنكر هذين المبدأين؟ اعني النبوة والمعاد متعصباً ولا تريد البحث عن الحقيقة ام انّك طالب للحقيقة إلّا أنّك لم تصل اليها، ولذا انكرت ما انكرت.

الطبيب وهو يتأمل في وجه سعيد: ابداً بل أنا وصلت إلى هذه النتيجة بعد دراسة ومتابعة، ولم آخذ اعتقادي هذا عن تقليد، أو تأثّر بفكرة ما، فانا لست إنساناً عادياً اقتنع بأي فكرة، أو ظاهرة، بل انا اضافة إلى كوني طبيباً متخصصاً فأنا أيضاً كاتب ومثقف ولي مجموعة من الكتب الفكرية والاجتماعية.

سعيد: إذا كان الامر كذلك، لماذا لا نعقد لقاءات خاصة، نبحث فيها هذين المبدأين بحثاً علمياً، لعلنا نصل إلى الحقيقة، اي اما ان اقنعك بضرورة الايمان بالنبوة والمعاد، أو انّك تقنعي بعدم الايمان بهما، وانت الذي تحدد المكان والزمان المناسبين ما دمت انا في هذه المدّة موجوداً هنا في لندن.

الطبيب: فكرة جيدة ولم لا، فأنا موافق، وافضل حديقة المستشفى مكاناً للقائنا حيث انّ لي وقتاً للاستراحة، في كل يوم لمدّة ساعتين، وانا عادة اشغلهما في المطالعة، أو النوم، أو الذهاب إلى خارج المستشفى، ولكن مادام الامر بهذا الشكل، فلتكن تلك الساعتان فرصة للبحث عن النبوة والمعاد.

سعيد: أودّ فقط انّ يكون النقاش علمياً موضوعيّاً خالياً من العناد والتعصب .

الطبيب: هذاما أوده انا أيضاً. وسوف نبدأ غداً من الواحدة إلى الثالثة ظهراً.

سعيد: اتفقنا. نلتقي هنا عند والدي ثم نذهب سوية إلى الحديقة .

اليوم الأول:

مباحث النبوةُ العامةُ

جاء سعيد مبكراً إلى المستشفى، ليطمئن على صحة الوالد، الذي بدا في هذا اليوم، افضل كثيراً، حيث يمكنه الكلام بشكل جيد، الّا انّه لا يزال لا يستطيع التحرك، أو الاكل بشكل طبيعي، فجلس سعيد عنده يسليه، ويلاطفه بالكلام غير انّ الممرضة طلبت منه انّ يخرج من الحجرة، لكي لا يتعبه بكثرة الحديث ، فلا زال يحتاج إلى عناية خاصة ، فما كان من سعيد الّا الخروج من المستشفى، ليتجول في تلك المدينة الجميلة، باحيائها القديمة ومعالمها العظيمة.

كان سعيد قبل الموعد موجوداً في المستشفى، حيث زار والده مرة أخرى ليطئمن عليه، وبعد مجيء الطبيب ديفيد سأله عن حالة الوالد، هل هي في تحسن أم لا؟ فأخبره بان وضعه الصحي مستقرُ جداً، وانّ مرحلة الخطر قد زالت تماماً ن وما بقي الّا مدّة من الزمن كي تعود إليه صحته بشكل كامل.

الطبيب: ما رأيك في كوب من الشاي، قبل الذهاب إلى الحديقة .

سعيد: هذا مهم جدّاً، استعداداً للنقاش اليس كذلك يا دكتور؟

الطبيب: اظن انّه هكذا.

ثم توجه الاثنان إلى غرفة الطبيب، ليتناولا الشاي، وقطع البسكويت، ثم عند حلول الساعة الواحدة، توجها إلى احدى زوايا حديقة المستشفى، التي كانت هادئة وجميلة جداً، وجلسا على كراسي من الخشب، كانت قد اعدت لمثل هكذا جلسات للاستراحة.

الطبيب: نعم يا سيد سعيد، ماذا هيأت لنا في لقائنا الأول.

سعيد: في الحقيقة من الأفضل، ان نبدأ في التعرف على النبوة، بصورة عامة، على اسبابها ودورها في حياة الإنسان، بغض النظر عن المصاديق، أي انّ البحث الاول الذي ينبغي ان يدور النقاش حوله، هو مفهوم النبوة، وما يتعلّق به من مسائل ثم بعد ذلك إذا اتضحت لنا فكرة النبوة بشكل كامل، نحاول ان نبحث عن مصاديق تلك الفكرة، وهو ما نسميه بالنبوة الخاصة. في حين ان البحث عن مطلق النبوة يسمى بالنبوة العامة.

مباحث النبوة العامّة

الطبيب: اذن ينبغي اولاً ان نسأل عن معنى النبوة حتى نعرف النبي .

سعيد: لقد عرف العلماء النبوة بأنها سفارة بين الله سبحانه وتعالى، وبين ذوي العقول من عباده، ومن خلال هذه السفارة الالهية، يقوم الله سبحانه وتعالى بتعليم الإنسان، ما يسعده في حياته الدنيا والآخرة ويوصل إليه ما لا يستطيع نيله عن طريق العلم الطبيعي.

الطبيب: وما هي الحاجة لأرسال الأنبياء، ما دام الله سبحانه وتعالى قد زوّد الإنسان بالعقل وجعل له القدرة، على ادراك النافع من الضار، وجعل له امكانية استثمار الطبيعة بما تحمل من خيرات .

استطاع الإنسان ان يكتشف الكثير منها، ولا يزال يكتشف في كل يوم فيطور حياته ويبني حضارته بشكل صحيح.

سعيد: هناك جملة من الامور التي يتحتم علينا تقديمها لأجل الوقوف على حقيقة النبوة، وما تصبو إليه، ذكرها علماء الكلام في أسفارهم الكلامية:

منها: انّ أي مجتمع من المجتمعات يحتاج إلى قانون ينظم شؤونه، ويرفع الاختلاف بين افراده، وذلك القانون لابد وان يكون متوافقاً ومتناسقاًمع هذه الحاجة وإلّا، لم يُؤت ثماره، ولما حصل الغرض منه.

فكون الإنسان بلا قانون ينظم اموره مرفوض من قبل العقل السليم، والفطرة النقية، وهذا امر واضح لا يحتاج إلى كلام .

وانّما الكلام فيمن يضع هذا القانون، هل هو الإنسان ام رب الإنسان ؟ فان قلتم بانه رب الإنسان ثبتت بذلكالنبوة، حيث انّ النبي هو ذلك الإنسان المخبر عن قانون الله سبحانه وتعالى، وانّ قلتم بانه الإنسان. قلنا لكم بان الشرائط اللازمة لكون القانون صحيحاً وموصلاً إلى السعادة لاينسجم مع طبيعة الإنسان القاصر في ادراكه وتجربته، اضافة إلى ميوله النفسية والعاطفية.

الطبيب: لماذا لا نفترض ان الإنسان، هو الذي يقنِّن ويضع ماينظم شؤونه، بل اكثر من هذا انه لا معنى للنبوة من الاساس، فلا يمكن ان تصدر من الله الحكيم المتعالي وذلك لأن الذي يأتي به النبي، أو الرسول لم يخل من احد أمرين:

اما ان يكون معقولاً ومنطقياً، واما ان لا يكون كذلك.

فانّ كان معقولاً فقد كفانا العقل التام بأدراكه، والوصول إليه، فاي حاجة لنا إلى الرسول، أو النبي.

واما إذا لم يكن معقولاًولا منطقياً، وان جاء به النبي أو الرسول فلا يكون مقبولاً باي وجه من الوجوه، إذ قبول ماليس بمعقول خروج عن حد الانسانية ودخول في حريم البهيمية.

سعيد: ليس الامر هكذا يا صديقي الدكتور، فانّ الأنبياء والمرسلين لا

يأتون بشي غير معقول، وانما هناك اشياء، لا يـمكن للـعقل ادراكـها بشكـل طبيعي، لانّها ليست في متناوله .

اضافة إلى ان وظيفة النبوة اعمق من هذا الذي تذكره ، بل ان الذي يضع القانون، يجب ان تتوفر فيه جملة من الشرائط تخرج قطعاً عن قدرة الإنسان مهما ترقَّى في درجات العلم، وحصل له من كمال العقل؟

الطبيب: وما هي تلك الشرائط يا صديقي.

سعيد: الشرط الأوّل: انّ يكون المقنِّن عارفاً بالانسان.

حيث ان اول واهم خطوة في وضع القانون، معرفة المقنِّن بالمورد الذي يضع له القانون، وبما ان الإنسان هو موضوع القانون في حديثنا، فـلا بـد ان يكون المقنن عارفاً بالانسان. وبما ان الإنسان فيه طبيعة اثنينية اقصد له جسد وروح ولكل من الجسد والروح متطلبات لابد من التناسق فيما بينها ومراعاتها جميعاً بدون ميل لاحدهماعلى الاخر أو ايجاد حالة من الاختلال وعدم الموازنة فيما بينهما، وحينئذ مالم يكن ذلك المقنن، ملمّاً بكل جزئيات الروح والجسد لا يمكن ان يعطي القانون الناجح للانسان.

وأنا اسألك يادكتور أليس انه كلما كانت معلومات الطبيب حول المريض كاملة، عن جسمه وروحه وظروفه المحيطة به فانّ الوصفة التي يعطيها له تكون هي الأُخرى نافعة وتؤدي مفعولها بشكل صحيح ؟

الطبيب: بلاشكهذا امر مسلَّم:

سعيد: كذلك الحال بالنسبة إلى الذي يضع القانون للانسـان، فـي كـل مجالاته الحياتية من الفردية إلى الاجتماعية في جـانبيه الروحـي والعـاطفي، والجسدي والمادي، ولكن حينما ننظر إلى الإنسان لا نـجد ان هـناك انسـاناً

يستطيع ان يدَّعي علمه بأرواح واجساد الناس، رغم التفاوت والاختلاف في الرغبات، والحاجات والمشاكل والعادات والطبائع وغيرها، وحينئذ نصل إلى ان غير الله سبحانه وتعالى لا يمكن ان يكون عالماً بهذا الإنسان، بكل ابعاده الوجودية، فلا يصلح أيَّ احد غيره سبحانه وتعالى، لوضع القانون الذي ينظم حياة الإنسان، وبذلك نصل إلى النتيجة المطلوبة .

الطبيب: نفرض انّ ما ذكرته يا اخ سعيد صحيحاً حيث ان العقل لا يستقل بالعمل في كل فرد أو في كل قوم في جميع التقادير، ولكنَّ الطبيعة تميل دائماً إلى ما فيه صلاحها. ونحن إذا نظرنا إلى أي مجتمع نجده كذلك يتبع هذه الطبيعة وحينئذيقوم بعملية اصلاح افراده فيستقر في النتيجة على هيئة صالحة فيها سعادة كل افراد المجتمع.

وهذا الكلام ليس اعتباطياً وانما هو قائم على اسس اجتماعية، ومن بينها ذلك القانون الاجتماعي المسمى بتبعية المحيط، فالتفاعل بين الجهات المتضادة يِؤدي بالنتيجة إلى اجتماع صالح مناسب لمحيط الحياة الانسانية جالب لسعادة النوع بكلا قسميه المجتمع والفرد. والشاهد على ذلك ما نراه من التأريخ حيث ان المجتمعات لا تزال تميل إلى التكامل، وتتمنّى الصلاح وتتوجه إلى السعادة اللذيذة عند الإنسان ، فمنها ما بلغ مبتغاه وأُمنيته كما في بعض الشعوب الاوربية، ومنها ما هو في الطريق إلى انّ تكتمل عنده شرائط الكمال وهي قريبة أو بعيدة كما في سائر الدول.

سعيد: تمايل الطبيعة إلى كمالها، وسعادتها ممّا لا يسع احدُ انكاره، والاجتماع المنتهي إلى الطبيعة حاله حال الطبيعة في التوجه إلى الكمال، لكن الذي ينبغي الإمعان فيه ان هذا التمايل، والتوجه لا يستوجب فعلية الكمال

والسعادة الحقيقية، لأنّ الكمال الشهوي والغضبي في الإنسان امر بالفعل عند الإنسان، ولا يمكن انكاره في حين نجد انّ مبادئ السعادة الحقيقية فيه بالقوة لا بالفعل، والدليل على ذلك ما ذكرته انت الآن من ان المدنية عند الإنسان متوجهة إلى الكمال، فلو لم تكن فيه بالقوة لما كان ثمّة معنى لتوجه طبيعة الإنسان إلى التكامل ولكن لو نظرنا بدقة اكثر فسوف نجد انّ الكمال الموجود عند أهل المدنية الحديثة، والمجتمعات المتطورة هو في الواقع الكمال الجسمي في حين ان الكمال الجسمى لا يمثل الكمال الانساني الحقيقي، فان الإنسان ليس هو الجسم بل هو مركب من جسم وروح، ومؤلف من جهتين مادية ومعنوية، له حياة في البدن، وحياة بعد مفارقته للجسم من غير فناء وزوال، فيحتاج إلى كمال وسعادة يستند إليها في حياته الآخرة، فليس من الصحيح ان يعد كماله الجسمي الموضوع على اساس الحياة الطبيعية كمالاً له، وسعادة بالنسبة إليه في حين انّ حقيقته ،تتمثل بشخصيته الانسانية الباقية بعد مفارقة البدن.

ومن كل ما ذكرنا يتضح ان الاجتماع بحسب التجربة انما يتوجه بالفعل إلى فعلية الكمال الجسماني دون فعلية الكمال الانساني، وإن كان في قصدها هداية الإنسان إلى كمال حقيقته، لإكمال جسمه الذي في تقوية جانبه هلاك الانسانية، وانحلال تركيبه، وضلاله عن الصراط المستقيم، فهذا الكمال لا يتم له الا بتأييد من النبوة، والهداية الالهية.

الطبيب: لو صحّت هذه الدعوة النبوية، ولها أرتباط بالهداية التكوينية لكان لازمها فعلية التأثير في المجتمعات الانسانية، كما انّ هداية الإنسان، بل كل موجود ومخلوق إلى منافع وجوده أمر فعلي جار في خلقه التكوين، فكان

من اللازم ان تتلبس به المجتمعات البشرية، ويجري فيما بين الناس مجرى سائر الغرائز.

فهذا ما ينبغي أن يكون على اساس ما تفضلتم به، في حين ان الواقع خلاف ذلك تماماً حيث لا نجد للدعوة الدينية ذلك الاثر، فعبادة الاصنام والشرك والظلم، وانتهاك الاعراض وسفك الدماء لازم البشرية بكل امـمها ومجتمعاتها على طول التأريخ، وحينئذ نسأل كيف تكون الدعوة الدينية اصلاحاً حقيقياً ولا تقبله المجتمعات الإنسانية ؟!

وعلى هذا الأساس نقول: ليست الدعوة الدينية في رفعها اختلافات الحياة الا فرضية غير قابلة للأنطباق على الواقع بما يحمل من حقيقة .

سعيد: ان كلامكم ليس بصحيح يا اخي العزيز لأمرين:

أولاً: اثر الدعوة الدينية مشهود معاين، لا يرتاب فيه الامكابر، فأنها في جميع اعصار وجودها منذ ظهرت ربّت ألوفاً وألوفاً من الافراد في جانب السعادة، واضعاف ذلك، واضعاف اضعافهم في جانب الشقاء بالقبول والرد والانقياد والاستكبار، والايمان والكفر، اضافة إلى بعض المجتمعات الدينية المنعقدة احياناً من الزمان، على ان الدنيا لم تقض عمرها بعد، ولما ينقرض العالم الانساني، ومن الممكن ان يتحوّل المجتمع الانساني يوماً إلى مجتمعٍ ديني صالح، فيه حياة الانسانية الحقيقة وسعادة الفضائل والاخلاق الراقية يوماً لا يعبد فيه الا الله سبحانه، ويسار فيه بالعدالة والفضيلة، وليس من الجائز ان نعد مثل هذا التأثير العظيم شيئاً لا يعبأ به.

ثانياً: ان الابحاث الاجتماعية وكذا علم النفس، وعلم الاخلاق تثبت ان الافعال المتحققة في الخارج لها أرتباط بالأحوال والملكات من الاخلاق ترتضع من ثدي الصفات النفسانية، ولها تأثير في النفوس، فالافعال آثار النفوس

وصفاتها، ولها اثار في النفوس في صفاتها، ويستنتج من هناك أصلان:

اصل سراية الصفات والاخلاق، وأصل وراثتها، فهي تتسع وجوداً بالسراية عرضاً، وتتسع ببقاء وجودها بالوراثة طولاً.

فهذه الدعوة العظيمة، وهي تصاحب الاجتماعات البشرية من اقدم عهودها، في تاريخها المضبوط وقبل ضبط التأريخ، لابد ان تكون ذات اثر عميق في حياة الإنسان الاجتماعية من حيث الاخلاق الفاضلة والصفات الحسنةَ الكريمة، فللدعوة الدينية آثار في النفوس وإن لم تجبها ولم تؤمن بها.

بل حقيقة الأمر: ان ما نشاهده من القيم والاخلاق، والمبادئ الحقَّة عند الامم، والشعوب الموجودة بالفعل، انّما هو من اثار النبوة والدين، وقد ملكوها بالوراثة والتقليد، فان الدين منذ ظهر في الانسانية حملته واعتنقته امم وجماعات كثيرة، وهو الداعي الوحيد الذي يدعو إلى الايمان، والاخلاق الفاضلة، والعدل والاصلاح، فالموجود من الخصائل الحميدة بين الناس اليوم ـ وان كان قليلاً ـ بقايا من أثاره ونتائجه، فان التدابير العامة في الاجتماعات المتكونة ثلاثة لا رابع لها:

احدها: تدبير الاستبداد، وهو يدعو إلى الرقي في جميع الشؤون الانسانية.

وثانيهما: القوانين المدنية وهي تجري وتحكم في الافعال فحسب، وتدعو إلى الحرية فيما وراء ذلك من الاخلاق وغيرها.

وثالثهما: الدين وهو يحكم في الاعتقادات والأخلاق والافعال جميعاً ويدعو إلى صلاح الجميع.

فلو كان في الدنيا خير مرجو، أو سعادة لوجب ان ينسب إلى الدين وتربيته، ويشهد بذلك ما نشاهده من امر الامم التي بنت اجتماعها على كمال

الطبيعة، وأهملت أمر الدين والاخلاق، فأنهم لم يلبثوا حتى يفتقدوا الصلاح والرحمة والمحبة وصفاء القلب وسائر الفضائل الخلقية والفطرية مع وجود أصل الفطرة فيهم، ولو كان أصل الفطرة كافياً ولم تكن هذه الصفات بين البشر من البقايا الموروثة من الدين لما افتقدوا شيئاً من ذلك.

على ان التأريخ اصدق شاهد على الاقتباسات التي عملت بها الامم المسيحية بعد الحروب الصلبية، فاقتبسوا أهم النكات من القوانين العامة الإسلامية فتقلدوها وتقدموا بها، والحال ان المسلمين اتخذوها وراءهم ظهرياً، فتأخر هؤلاء وتقدم اولئك.

وبالجملة: الأصلان المذكوران، اعني السراية والوراثة، هما التقليد الغريزي في الإنسان، والتحفظ على السيرة المألوفة يوجبان نفوذ الروح الدينية في الاجتماعات كما يوجبان في غير ذلك وهو تأثير فعلي.

الطبيب: اذن على كلامك هذا، فما فائدة الفطرة؟ فأنّها لا تغني شيئا، وانّما امر السعادة بيد النبوة ؟ وما فائدة بناء التشريع على اساس الفطرة على ما تدعيه النبوة؟

سعيد: ما قدّمناه في بيان ما للفطرة من الارتباط بسعادة الإنسان، وكماله يكفي في حل هذه الشبهة، فان السعادة والكمال الذي تجلبه النبوةإلى الإنسان ليس امراً خارجاً عن هذا النوع، ولا غريباً عن الفطرة، فان الفطرة هي التي تهدي إليه ، لكن هذه الهداية لا يتم لها بالفعل وحدها من غير معين يعينها على ذلك، وهذا المعين الذي يعينها على ذلك هو حقيقة النبوة وهي ليست امراً خارجاً عن الانسانية وكمالها، منضماً إلى الإنسان كالحجر الموضوع في جنب الإنسان مثلاً، والا كان ما يعود منه إلى الإنسان امراً غير كماله وسعادته كالثقل

الذي يضيفه الحجر إلى ثقل الإنسان في وزنه، بل أيضاً كمال فطري للانسان مذخور في هذا النوع، وهو شعور خاص، وإدراك مخصص مكمون في حقيقته لا يستهدي إليه بالفعل الا أحاد من النوع ادركت العناية الالهية، كما ان للبالغ من الناس شعوراً خاصاً بلذة النكاح، لا تهتدي إليه بالفعل بقية الأفراد غير البالغين بالفعل، وان كان الجميع من البالغ وغير البالغ مشتركين في الفطرة الانسانية، والشعور شعور مرتبط بالفطرة.

وبالجملة انّ حقيقة النبوة ليست امراً زائداً على إنسانية الإنسان الذي يسمّى نبياً، وخارج عن فطرته، ولا السعادة التي تهتدي اليها سائر الامة أمر خارج عن إنسانينتهم وفطرتهم، غريب عما يستأنسه وجودهم الانساني، وإلّا لم تكن كمالاً وسعادة بالنسبة اليهم.

الطبيب: فيعود الاشكال على ما قلته إلى النبوة، فان الفطرة على هذا كافية وحدها، والنبوة غير خارجة عن الفطرة.

فان المتحصّل من هذا الكلام، هو ان النوع الانساني المتمدن بفطرته والمختلف في اجتماعة يتميز من افراده آحاء من الصلحاء تكون فطرتهم مستقيمة نقية، وعقولهم سليمة عن الاوهام والتهوسات ورذائل الصفات، فيهتدون باستقامة فطرتهم، وسلامة عقولهم إلى ما فيه صلاح المجتمعات، وسعادة الإنسان فيضعون قوانين فيها مصلحة الناس، وعمران الدنيا والآخرة، فان النبي هو الإنسان الصالح الذي له نبوغ اجتماعي.

سعيد: كلاً يا عزيزي فأنما كلامك تفسير، لا ينطبق على حقيقة النبوة، ولا ما تستتبعه.

الطبيب: وكيف ذاك يا استاذ سعيد ؟

سعيد: أما أوّلاً: فان ذلك فرض افترضه بعض علماء الاجتماع ممّا لا قدم له في البحث الديني، والفحص عن حقائق المبدأ والمعاد.

فذكر ان النبوة نبوغ خاص اجتماعي استتبعته استقامة الفطرة وسلامة العقل، وهذا النبوغ يدعو إلى الفكر في حال الاجتماع، ومايصلح به هذا الاجتماع المختل، وما يسعد به الإنسان الاجتماعي.

فهذا النابغة الاجتماعي هو النبيّ، والفكر الصالح المترشح من قواه الفكرية هو الوحي، والقوانين التي يجعلها لصلاح الاجتماع هو الدين، وروحه الطاهر الذي يفيض هذه الافكار إلى القوة الفكرية ولا يخون العالم الانسانيباتباع الهوى هو الروح الامين جبرائيل، والموحي الحقيقي هو الله سبحانه، والكتاب الذي يتضمن افكاره العالية الطاهرة هوالكتاب السماوي، والملائكة هي القوى الطبيعية أو الجهات الداعية إلى الخير، والشيطان هي النفس الامارة بالسوء، أو القوى والجهات الداعية إلى الشر والفساد .

الطبيب: ولماذا لا تقبل بهذا التفسير الذي طرحه علماء الاجتماع أليس هو افضل من تصور اتصال الإنسان النبي، بما يسمى الغيب الذي لا يمكن ادراكه أو تصوره على المستوى الحسي أو الوجداني ؟!

سعيد: لا نقبل بهذا ؛ لأنه فرض فاسد، وانّ النبوة بهذا المعنى الذي يذكره علماء الاجتماع اولى بان يسمىٰ لعبة سياسية من ان يسمى نبوة الهية. اضف إلى ذلك ان هذا الفكر الذي يسمي هؤلاء الباحثون نبوغه الخاص نبوة من خواص العقل العملي، الذي يميز بين خير الافعال وشرها بالمصلحة والمفسدة، وهو امر مشترك بين العقلاء من افراد الإنسان، ومن هداية الفطرة المشتركة عند كل الناس، في حين لو تأملنا قليلاً نجد، انّ هذا العقل نفسه هو

الداعي إلى الاختلاف، وإذا كان هذا شأنه لم يقدر من حيث هو بهذه الصورة على رفع الاختلاف الذي نريده في شأن صلاح وأرتقاء المجتمع، ولذا فانه يحتاج إلى متمم يتمم امره، وقد ذكرنا ان هذا المتمم، يجب انّ يكون نوعاً خاصاً من الشعور يختص به بحسب الفعلية بعض الآحاد من الإنسان، وتهتدي به الفطرة إلى سعادة الإنسان الحقيقية في معاشه ومعاده.

ومن هنا يظهر ان هذا الشعور من غير سنخ الشعور الفكري، بمعنى ان ما يجده الإنسان من النتائج الفكرية من طريق مقدماتها العقلية غير ما يجده من طريق الشعور النبوي، والطريق غير الطريق .

اضف إلى ذلك فانه لا يشك الباحثون في خواص النفس ان في الإنسان شعوراً نفسياً باطنياً، ربما يظهر في بعض الآحاد من أفراده، يفتح له باباً إلى عالم وراء هذا العالم، ويعطيه عجائب من المعارف والمعلومات، وراء ما يناله العقل والفكر.

ومن هنا نصل إلى هذه النتيجة وهي: انّ باب الوحي النبوي غير باب الفكر العقلي، وان النبوة والشريعة والدين والكتاب والملك والشيطان لا ينطبق عليها ما اختلقوه من المعاني.

الطبيب: وما هو الامر الثاني الذي تجيبنا به على ما طرحناه عليكم من تفسير ورأي ؟

سعيد: هناك ملاحظة لابد من الالتفات اليها، وهي ان المأثور من كلام هؤلاء الأنبياء المدعين لمقام النبوة والوحي مثل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعيسى وموسى وإبراهيم ونوح عليهم السلام وغيرهم، ـ وبعضهم يصدق بعضاً ـ وكذا الموجود في كتبهم فالقرآن، صريح في خلاف هذا الذي فسروا به النبوة والوحي، ونزول الكتاب

والملك وغير ذلك من الحقائق، فان صريح الكتاب والسنة وما نقل من الأنبياء العظام عليهم السلام، انّ هذه الحقائق وآثارها امور خارجة عن سنخ الطبيعة، ونشأة المادة، وحكم الحس، بحيث لا يعد إرجاعها إلى الطبيعة وحكمها الا تأويلاً بما لا يقبله طبع الكلام، ولا يرتضيه ذوق التخاطب.

وقد تبين بما ذكرنا ان الامر الذي يرفع فساد الاختلاف عن الاجتماع الانساني، وهو الشعور الباطني الذي يدرك صلاح الاجتماع اعني القوة التي يمتاز بها النبي من غيره امر وراء الشعور الفطري الذي يشترك فيه جميع افراد الإنسان

الطبيب: انا اشكرك يا استاذ سعيد على هذه المناقشة النافعة، وكذلك معجب جداً بما تحمل من فكر ثاقب، وبيان بديع وأفكار راقية وهذا شجعني ان اواصل معك مسيرة البحث والنقاش بكل جزئيات مسائل النبوة لعلنا نصل إلى الحقيقة ويرتفع الالتباس، ولذلك فسوف اقوم كل ليلة بمراجعة المصادر والكتب ذات العلاقة بهذا الموضوع، وأرجو ان يكون مستوى النقاش كما كان في هذا اليوم مفعم بالادلة والبراهين، وإزاحة الغبش عن كل الملابسات.

سعيد: وانا اشكرك أيضاً يا دكتور على ما اثرته من مسائل واشكالات، وبما تتمتع به من موضوعية وحسن انصات، وانا ملتزم بما اتفقنا عليه، وعلى استعداد ان اكمل معك النقاش والبحث .

ثم نهض الاثنان متوجهين إلى بناية المستشفى حيث جلس سعيد قرب أبيه يلاطفه ويخفف من آلامه، واما الطبيب فبعد ان اطمأن على الوضع الصحي للحاج استأذن من سعيد، وانصرف إلى عمله. فحكى سعيد خلاصة ماجرى بينه وبين الطبيب لأبيه الأمر الذي زاد في سعادة الوالد، وافتخاره بولده كثيراً.

اليوم الثاني:

دلائل النبوة

لم يتمكن سعيد من المجيء فى هذا اليوم إلى المستشفىٰ مبكراً، حيث كانت عنده بعض الاعمال، التي لابد ان يؤديها ما دام موجوداً في لندن، ولكنه لم ينس ان يطمئن على والده عن طريق الهاتف فقد تكلَّم معه، وسأله عن صحته، ومزاجه واذا كان هناك حاجة يود ان يقضيها له، فطلب الحاج من ولده سعيد ان يتصل بأهله فيالعراق، ويخبرهم عن وضعه الصحي، حتى لا يعيشوا في قلق عليه .

حاول سعيد فيهذا ا ليوم ان يزور المكتبة الملكية التي تعد من كبريات مكتبات العالم حيث وجد هناك كتباً نفيسة في مختلف اللغات، ومن شتى التخصصات لا سيما الكتب الخطية القديمة للمسلمين والتي سرقها او اشتراها سماسرة الانكليز في السنين الماضية فكان سعيد يحاول ان يتعرف على المصادر المهمة لعلماء الاسلام في هذه المكتبة، وبقي هناك إلى قريب الظهر حيث استقل سيارة الاجرة متوجهاً إلى المستشفى .

دخل سعيد على والده الذي كان نائماً، وبقي جالساً قريباً منه إلى ان حان وقت الصلاة حيث فرش قطعة من القماش، واخذ في الصلاة إلّا أنّ الممرضة جاءت واخذت تؤمي بيدها إلى سعيد ان اكمل صلاتك بسرعة .

وبقيت واقفة في الغرفة تنتظر سعيداً وهي غاضبة.

وما ان انتهى سعيد من صلاته حتى التفت اليها قائلاً:

ما الأمر يا اختاه ؟

الممرضة: ان هذا المكان يا سيد سعيد ليس مكاناً للعبادة وانما هو مكان للمرضى فكيف تقوم هنا بالصلاة اليس هناك اماكن مخصصة للعبادة لماذا لا تذهب إلى هناك وتتعبد بما يحلو لك؟!

سعيد: عفواً ان ما تقولينه صحيح، غير ان اماكن العبادة الاسلامية هنا في هذه البلاد قليلة جداً، ومن اجل ان أذهب اليها يستغرق مني ذلك وقتاً طويلاً .

الممرضة: ولكن هذا اليوم، ليس يوم عبادة لأننا في يوم الثلاثاء، فلماذا تصلي اذن .

سعيد: ان تخصيص العبادة بيوم معين انما هو في بعض الاديان يا سيدتي، واما ديننا الاسلامي فانه يفرض الصلاة على كل مسلم في خمسة اوقات في يومه وليلته اضف إلى ذلك، فان المسلم يمكنه ان يؤدِّي عبادته في أي مكان، لأن الله تعالى في كل مكان أليس كذلك يا سيدتي؟

الممرضة: انا لست راهبة حتى اعلم هذه الاشياء، كلَّ ما اعلمه ان أداء العبادات في مثل هذه الاماكن، غير مسموح به قانوناً.

سعيد: ونحن نحترم القانون وسوف لا أؤدّي الصلاة هنا مرة أخرى إن شاء الله.

وفي هذه الاثناء دخل الطبيب عليهما فوجد سعيد يتكلم مع الممرضة.، فقال لسعيد: يمكنك ان تستفيد من غرفتي الخاصة، لاداء صلاتك يا سعيد.

سعيد: اشكرك كثيراً يا دكتور على هذه المساعدة الكريمة.

الطبيب: لا حاجة للشكر فقد اصبحنا صديقين اليس كذلك؟

سعيد: بلا شك، يا دكتور.

وبعد ان فحص الطبيب الحاج عبد الله اخذ سعيداً إلى غرفته، وطلب منه اكمال صلاته، وفعلاً أدّى سعيد الصلاة بشكل طبيعي ثم توجّه الاثنان إلى الحديقة، ليخوضا جولة أخرى من النقاش حول مواضيع النبوة.

دور المعجزة في اثبات صدق دعوة النبوة

الطبيب: اود منك يا سعيد ان تبين لي الطرق التي من خلالها، نعلم بان مُدّعي النبوة نبياً حقاً، والّا فلا يمكن ان تصدق كل من ادعى ذلك، لانّه من الممكن ان يكون كاذباً .

سعيد: ما تقوله حق، ومن هنا فقد التزم الالهيون بانه لا يتم الايمان باي احد على انّه نبي، مالم يثبت ذلك بالدليل.

وهناك طرقٌ ثلاثة للوقوف بنحو قاطع على صدق مدعي النبوة في دعواه، وهي: الاعجاز، وتصديق النبي السابق بنبوة النبي اللاحق، وكذلك يمكن ذلك من خلال جمع القرائن، والشواهد من حالات المدعي وتلامذته ومنهجه، بحيث تفيد العلم بصدق دعواه .

الطبيب: فلنبدأ بالمعجزة، ونريد ان نسأل ماذا تعني المعجزة ؟

سعيد: المعجزة يا صديقي العزيز تعني امراً خارقاً للعادة، مقروناً بالتحدي مع عدم المعارضة. ولقد رأينا الاعجازات التي اظهرها الانبياء كما يحدثنا بذلك التاريخ، ونقل الينا بالتواتر الذي يفيد اليقين ؛ امثال موسى عليه السلام الذي فلق البحر

الأحمر، وسار مع بني اسرائيل، وكذلك عيسى عليه السلام الذي ولد من غير اب، وكلّم الناس وهو لا يزال في ايامه الثلاثة الأولى، واحياء الموتى، وابراء المرضى، ورأينا ابراهيم عليه السلام الذي القي في النار، فكانت عليه برداً وسلاماً وكذلك نبينا محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم الذي جاء بالقرآن الكريم، الذي هو معجزة خالدة وهي موجودة إلى الآن واعجازها قائم إلى يوم القيامة.

الطبيب: ولكن يا سيد سعيد، كيف نفرض ان المعجزة خارقة للعادة، والقوانين الطبيعية في حين ان العقل يحكم بثبوت هذه القوانين، واستحالة اختلافها وتخلفها، والّا لم نستطع اقامة أي صرح علمي، أو بناء فكري وبالتالي سوف يمكن ان يجتمع النقيضان على يد النبي، وهذا ما لا يمكن الالتزام به.

سعيد: ان الأمر ليس هكذا يا عزيزي، فأنّه لا منافاة بين كون المعجزة خارقة للعادة، وبين الحفاظ على القوانين الطبيعية، وذلك لأنّ هناك أموراً تعد خارقة، أو مضادة للعقل من قبيل اجتماع النقيضين وارتفاعهما، أو وجود المعلول بلا علّة ونحو ذلك، والمعجزة لا تتعلّق بمثل هكذا أُمور لأنّ استحالتها ذاتية.

ولكن ثمة أُمور أُخرى تخالف القواعد العادية أو الاسباب المتعارفة ولكنّها ليست محالات ذاتية بحكم العقل كما في النقطة السابقة فهي خارجة عن نطاق القدرة العادية للانسان فحسب، امثال حركة جسم كبير جداًمن مكان إلى مكان آخر بعيد عنه في فترة زمنية لا تزيد على طرفة عين من دون استخدام الوسائل الاعتيادية في مثل هذه الاشياء من قبيل ما يحكيه القرآن الكريم من قيام شخص اعطاه الله بعضاً من علم الكتاب باحضار عرش بلقيس ملكة سبأ، من بلاد اليمن إلى بلاد الشام في طرفة عين بلا توسط شيء من تلك الاجهزة المادية المتعارفة، ومن الواضح ان مثل هكذا فعل ليس أمراً خارقاً للعقل او

القوانين الطبيعية بل هو نوع من التصرف التكويني طبقاً لقوانين غير مكتشفة من قبل البشر، وهذا هو الذي نسميه بالمعجزة. طبعاً مع اقتران ذلك بدعوى النبوة، والّا مع عدم الاقتران، فانه يُسمّى كرامة وليس معجزة، وكذلك لابد ان لا يقابل من قبل احد فان النبي بعد الاتيان بالمعجزة يتحدي الناس بانّكم اذا كذبتم دعوتي، ولم تصدقوني فينبغي لكم حينئذ ان تأتوا بشيء يماثل، ويشابه ما اظهرته لكم من الاعجاز فان جاء احد بمثل ما جاء به فهذه ليست معجزة وصاحبها ليس بنبي، وانّ لم يأت احد بذلك فهذا يكشف لنا صدق دعوة صاحب المعجزة.

الطبيب: ولكن يا اخ سعيد قد تقع امام ما تفضلتم به مشكلة أخرى وهي انه مما لا ريب فيه ان هناك جماعة من الناس، لهم قدرة على القيام باعمال مدهشة وعجيبة لا يمكن تفسيرها عن طريق العلوم المتعارفة كالمرتاضين من الهنود وغيرهم وامثال السحرة والمشعبذين، وكذلك كأساتذة التنويم المغناطيسي، حيث يتمكن الاستاذ من السيطرة على الوسيط الذي فيه استعداد خاص للتأثر، وكيفية ذلك ان الاستاذ ينظر في عين الوسيط نظرات عميقة ويجري عليه حركات يسمونها «سحيات» فما تمضي لحظة الا ويغط الوسيط في النوم، على وجه لو قام احد بوخزه بالابرة مرات عديدة لا يبدي الوسيط أي حركة، ولا يظهر اي شيء يدل على شعوره واحساسه، فعند ذلك يقوم الاستاذ بسؤاله اسئلة ربما يقتدر معها على كشف المغيبات، ويستطيع ان يتصرف فيه بنحو يقنعه بتغيير اسمه، وغير ذلك.

ومن هنا يطرح السؤال التالي: مع وجود هذه الامور المدهشة والعجيبة والخارقة للقوانين المتعارفة، التي تحصل بالرياضة وسحر السحرة، والأعيب

المشعوذين، فكيف نتمكن من تمييزها عن المعجزة الالهية ؟

سعيد: اشكال جيد يا دكتور، والجواب عليه يتطلب مزيد بيان واسهاب في الكلام .

الطبيب: لا يهم ذلك، تفضل يا سعيد.

سعيد: نحن عندما جعلنا المعجزة طريقاً، لمعرفة النبوة لم نغفل عن وجود مثل هذا الذي ذكرته ومن هنا اسس الالهيون جملة من الضوابط التي يميزون بها المعجزة عن باقي خوارق العادة، وهي:

١ ـ ان السحر ونحوه نتاج التعليم والتعلم، وله مناهج تعليمية يجب ممارستها حتى يصل طالبها إلى النتائج المطلوبة. واما الاعجاز الذي يقوم به الأنبياء فانه منزه عن هذه الوصمة حيث لا يكون عن تعلُّم، وهذا ما نجده في حياة الأنبياء.

٢ ـ ان السحر ونحوه قابل للمعارضة دون المعجزة فانها لا تقبل المعارضة كما ذكرنا سابقاً.

٣ ـ ان السحرة والمرتاضين، وإن كانوا يأتون بالعجائب ويفعلون الغرائب، الا ان الواحد منهم لا يجرؤ على تحدي الناس ودعوتهم إلى مقابلته، لعلمهم بان التحدى لن يتم لصالحهم، بخلاف اهل الاعجاز فأنهم لا يأتون بمعجزة الا ويقرنونها بالتحدي، كما ذكرنا في تعريف المعجزة.

٤ ـ ان السحر ونحوه لما كان رهن التعليم والتعلم، متشابه في نوعه، متحد في جنسه، يدور في فلك واحد، ولا يخرج عن نطاق ما تعلَّمه اهله ولذا لا يأتون الا بمثل ما تدربوا عليه، بخلاف إعجاز الأنبياء فانه على جانب عظيم من التنوع في الكيفية إلى حد قد لا يجد الانسان بين المعجزات قدراً مشتركاً وجنساً

قريباً كما في معجزات موسى وعيسى عليهما السلام.

فموسى عليه السلام مثلاً عنده عدة معجزات مختلفة .

الأولى: العصا التي انقلبت ثعباناً واكلت حبال السحرة.

الثانية: اليد حيث كانت من البياض الناصع التي لا يمكن ان تتصف بها يد احد من الناس.

الثالثة: نزول الدم والقمل والضفادع من السماء على هيئة مطر .

الرابعة: ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا من الماء لكي يشرب قومه منه.

الخامسة: ضرب بعصاه البحر فانفلق نصفين، فكان كل قسم كالجبل العظيم.

فهذه كلها معجزات متباينة فيما بينها لا يوجد فيها امر جامع خلافاً للسحر كما بيَّنا.

٥ ـ ان اصحاب المعاجز يتبنون أهدافاً عالية ويتوسلون بمعاجزهم لإثبات حقانية تلك الاهداف ونشرها، وهي تتمثل في الدعوة إلى الله تعالى وحده وتخليص الإنسان من عبودية الاصنام، والحجارة والحيوانات، والدعوة إلى الفضائل ونبذ الرذائل، واستقرار نظام العدل الاجتماعي وغير ذلك.

وهذابخلاف المرتاضين والسحرة، فغايتهم اما كسب الشهرة والسمعة بين الناس، او جمع المال والثروة، وغير ذلك مما يناسب مستلزمات القوى البهيمية.

٦ ـ ان اصحاب المعاجز ـ باعتبار كونهم خريجي المدرسة الالهية ـ متحلون باكمل الفضائل والاخلاق الانسانية، والمتصفح لسيرتهم لا يجد فيها اي عمل مشين، ومناف للعفة ومكارم الاخلاق، واما اصحاب الرياضة والسحر،

تراهم غالباً فارغين عن المثل والفضائل والقيم.

فبهذه الضوابط يتمكن الإنسان من تمييز المعجزة عن غيرها من الخوارق والنبي عن المرتاض والساحر .

طرق أخرى لأثبات نبوة الأنبياء

الطبيب: احسنت يا اخ سعيد، فقد اجدت في ذكر الضوابط التي على أساسها يتميز النبي عن الساحر وغيره إلا أنك ذكرت ان هناك طرقاً أخرى لمعرفة النبي، والوثوق بقوله حيث هو المخبر عن الله عزوجل .

سعيد: نعم فهناك تنصيص من النبي السابق على النبي اللاحق، حيث انه اذا ثبتت نبوة نبيمن الأنبياء عن طريق المعجزة مثلاً، فانه بلاشك سوف يكون معصوماً عن الخطأ، ولا يمكن ان يكون كاذباً في قوله، وحينئذ اذا اخبر بان فلاناً من الناس هو نبي فان ذلك دال بلاشك على نبوته.

الطبيب: حسناً، وما هو الطريق الثالث يا سعيد ؟

سعيد: هو عبارة عن جمع القرائن، والشواهد التي من خلالها يحصل لنا اليقين بنبوة هذا الشخص او عدم نبوته. مثلاً خصال هذا الشخص والاخلاق الكريمة التي يتحلى بها، والصدق والامانة، وعدم التعلق بالدنيا، ونبذه لحب التسلط والرئاسة وغيرها. وكذلك مضمون الدعوة التي يدعو بها، فان لكل نبي دعوة يدعو الناس اليها، فننظر في هذه الدعوة هل هي منسجمة مع خط النبوة الالهية من الفضائل الاخلاقية والعقائد الصحيحة النقية، وتهذيب الإنسان والسعي من اجل وصوله إلى الخير والكمال والسعادة. فاذا وجدنا دعوته كذلك فهذا يشكل دليلاً على صدق دعوته، والّا فهو كاذب من دون شك.

وكذلك الادوات والاساليب التي يستفيد منها في دعوته فهل يستخدم الوسائل التي لا تنسجم مع فطرة الإنسان وسعادته عن طريق الوسائل الاجرامية مثلاً كما نلاحظ مثل هذه الاعمال للحركة الماسونية العالمية او الصهيونية او غيرها، من الدعوات الباطلة التي تستخدم في دعوتها شتى الاساليب والطرق الخبيثة من الاغتيالات وقتل الابرياء، وتدمير الاقتصاد، والمجتمع، ونشر الفساد فان مثل هكذا أدوات، تكشف عن الوجه المنحرف، والمزيف لصاحبها، ولا يمكن حينئذ ان تكون هذه الدعوة إلاهية او حقانية، أما لو كان العكس تماماً، فهي من دون شك كاشفة على الهية هذه الدعوة.

الطبيب: حقاً انه اسلوب جميل، وطريق منطقي مبني على الاسس النفسية والفكرية والاجتماعية للنبي، وبهذا أربطتم الدعوة النبوية في مثل هذه المجالات. حقّاً إنّ المسلمين بارعون في ذلك الا اني أود ان اسأل هل حصل لنبيكم، مثل هكذا امر؟ حيث عرفه الناس عن هذه الطرق، وآمنوا به لذلك.

سعيد: ان لنبينا محمد بن عبد الله ﷺ دلائل كثيرة، قد نأتي على بيانها في الأيام القادمة ان شاء الله تعالى الا اني اود ان انقل لك هذه الحادثة التأريخية وهي ان النبي محمد ﷺ بعد ان صدع بدعوته، وآمنت به ثلة من الناس واسس دولة اسلامية في يثرب اخذ يراسل الملوك، والأكابر من الناس ومن بين من أرسل اليهم قيصر ملك الروم فانه كتب إليه يدعوه إلى اعتناق دينه. وبعد ان وصلت الرسالة إلى قيصر اخذ يتأمل فيها بشكل عميق فلاحظ العبارات الواردة فيها، واسلوبها ومضمونها، وانسجامها والنور الذي عليها حتى وقع في نفسه احتمال صدق دعوة هذا النبي، ولكن ومن اجل الاطمئنان حاول التعرف على المزيد من المعلومات عن هذا الرجل الذي هو النبي، ولذلك أرسل

إلى مجموعة من مساعديه لكي يأتوا له بمن يعرفه عن قرب، وما اسرع ان طافوا في بلاد الشام، حيث وجدوا أشد أعداء النبي، وهو ابو سفيان الذي كان من زعماء قريش الذين يحاربون النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويكيدون له المكائد حيث كان في تجارة في الشام، وبعد ان وصل ابو سفيان إلى قيصر ملك الروم، اجلسه قريباً منه، وأخذ يسأله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قيصر: كيف نسب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيكم ؟

أبو سفيان: محض اوسطنا نسباً.

قيصر: اخبرني هل كان احد من اهل بيته يقول مثل ما يقول فهو يتشبه به؟

أبو سفيان: لا، لم يكن في أبائه من يدعي ما يقول.

قيصر: هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه اياه، فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه؟

أبو سفيان: لا .

قيصر: أخبرني عن اتباعه منكم من هم ؟

أبو سفيان: الضعفاء والمساكين، والاحداث من الغلمان والنساء، اما ذووا الشرف من قومه، فلم يتبعه أحد منهم.

قيصر: اخبرني، عمن تبعه، ايحبه ويلزمه؟ ام يقليه ويفارقه؟

أبو سفيان: ما تبعه رجل ففارقه .

قيصر: اخبرني كيف الحرب بينكم وبينه ؟

أبو سفيان: سجال، يدال علينا وندال عليه .

قيصر: أخبرني هل يغدر ؟

أبو سفيان: لا .

ثم ان قيصر ابان وجه السؤال عن الأمور السابقة وانه كيف استنتج من الاجوبة التي سمعها من أبي سفيان انه نبي صادق بقوله:

سالتك كيف نسبه فيكم، فزعمت انه محض من اوسطكم نسباً، وكذلك يأخذ الله النبي إذا اخذه، لا يأخذه إلا من أواسط قومه نسباً. وسألتك هل كان احد من أهل بيته يقول بقوله، فهو يتشبه به، فزعمت ان لا. وسألتك هل كان له فيكم ملك سلبتموه اياه، فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه فزعمت ان لا. وسألتك عن اتباعه فزعمت انهم الضعفاء والمساكين، والأحداث والنساء، وكذلك اتباع الأنبياء في كل زمان .

وسالتك عمن يتبعه، ايحبه ويلزمه، أم يقليه ويفارقه، فزعمت أن لا يتبعه احد فيفارقه، وكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلباً فتخرج منه. وسالتك هل يغدر، فزعمت أن لا.

فلئن صدقتني عنه ليغلبني على ما تحت قدمي هاتين، ولوددت أني عنده فأغسل قدميه، أنطلق لشأنك».

قال ابو سفيان: فقمت من عنده وانا اضرب احدى يدي بالأخرى واقول: إي عباد الله، لقد أمِرَ أمْرُ أبن ابي كبشة، اصبح ملوك بني الاصغر يهابونه في سلطانهم بالشام».

انظر يا دكتور كيف ان هذا الرجل النصراني الغربي استطاع تشخيص صحة دعوة نبيناﷺ عن طريق هذه الصفات التي تتصف بها دعوته، وسيرته ونفسيته الكريمة .

الطبيب: انها حادثة مدهشة حقاً، واسلوب متين واقعاً.

سعيد: المهم هو ان تتعلم منها ما ينفعنا، ويوصلنا إلى الحقيقة واساسها هو ادراك حقيقة النبوة التي حينما نتأمل فيها، نجدها تنبثق من البعد الالهي، اي الوحي، ومن البعد الانساني، أي الكمال المودع في وجود الإنسان، والذي يستطيع ذلك الإنسان النبي استثماره فيتدفق ذلك الكمال من كل وجوده، فيصبح قدوة للآخرين بكل كيانه، وتصبح حياته كالشمس التي تضيء العالم، وتحوّل الظلام إلى نور ساطع لا غنى لشيء عنه .

الطبيب: انه كلام جميل وأوصاف تأخذ بمجامع القلوب يا استاذ سعيد .

سعيد: ان لي مع قلبك وقفة أخرى، فأريد منك ان تعيرني سمعك، وتفتح لي روحك وعقلك، وتنظر بعين البصيرة ما يدور حولك. فكِّر وتأمل وتدبر فان لله سبحانه وتعالى في كل شيء اجراس ترن لتنبيه الغافل .

الطبيب: تفضل يا عزيزي، فكلي اذآن صاغية.

سعيد: هذا ليس اليوم يا صديقي الدكتور فقد طال بنا المقام. وما ان تشرق الشمس من غد وتغني العصافير انشودة الصباح، وتبتسم الورود بوجه النسيم فسوف تكون وأكون بين هذه الشجيرات، انّ شاء الله تعالى. واحدثك عن حقيقة الوحي التي هي الحجر الاساس في النبوة. ثم قام سعيد مع الطبيب ليلقي نظرة على والده الحاج عبد الله الذي اخذ يتعافى شيئاً فشيئاً. ثم انصرف إلى شقته بعد يوم مجهد قضاه بين المكتبة والمستشفى .

اليوم الثالث:

حقيقة الوحي وعلاقته بالنبوة

استيقظ سعيد في هذا اليوم مبكراً حيث ما ان حل الفجر حتى كان فارشاً سجادته متوجهاً إلى الله تعالى بروحه، ودقات قلبه تعزف سيمفونية الحب الالهي ولسانه يردد الهي عبدك بين يديك، يستغفرك ويتوب اليك، واما عيناه فقد اغرورقتا بالدموع التي اخالها قد طهرت ذلك القلب الطاهر. ركوع وسجود، عبودية وتذلل اعلان سلوكي ومنهج عملي ان لا اله سواك ولا معبود غيرك. يعبر بذلك عن رفضه لكل العبوديات ويصر على الحرية بأجلى معانيها الانسانية.

ما ان تناول سعيد افطاره حتى كان في المكتبة الملكية حيث وجد هناك ما يستحق الاهتمام به ومطالعته، وكان في قلبه شوق عارم وحب جارف ؛ لأن يأخذ المزيد، وان يطلع على الاكثر، فالضمآن لا يرويه القليل، والعاشق لا يرضى الا بأشباع الغليل. وهناك حيث الصالة الطويلة والفهارس التي لاعدد لها، ومتحف الكتب النادرة التي تستقطب العديد من المهتمين والسائحين كل ذلك جعل الوقت عند سعيد يتلاشى، فما عاد للزمن حسابه، بل راح يتمنى بصمت ان تتمدد الساعات، بل وتعود أدراجاً لتحيي معالم هذه التحف النفيسة، وتسكب على اصحابها لمسات الحياة.

عندما حلت الساعة الثانية عشرة ظهراً، توجّه سعيد مسرعاً إلى

المستشفى حيث وجد والده في انتظاره، وقد اخذه القلق عليه لتأخره، وعدم اتصاله، وما ان وصل إلى سرير الحاج عبد الله حتى انكب يقبل يديه معتذراً، ولكن الحاج يعلم بان ولده من دون شك قد شغله أمر مهم. وفعلاً اخذ سعيد يحدث والده عن ما رآه في المكتبة، ويحسن الوصف إلى درجة ان والده طلب منه، انّ يأخذه إلى تلك المكتبة، بعد الخروج من المستشفى ان شاء الله.

ذهب سعيد إلى صديقه الطبيب، حيث طلب منه ان يطمئنه على والده وفعلاً تم ذلك ثم اخبره بنتيجة الفحوصات التي اجريت للحاج عبد الله ونتائج التحاليل كذلك، وبيّن له بان امام الوالد اسبوعين على الاقل، ليجري عملية جراحية أخرى تكون هي الاخيرة، وبعدها باسبوع يمكنه مغادرة المستشفى، والعودة إلى بلاده ان شاء الله.

بعد ان ادّى سعيد صلاته في غرفة الطبيب، اخبره بانه قد اعدلهما سندويشتين من البطاطس، والحمص المطحون والخضروات، واقترح الطبيب على سعيد بان يتناولا الغداء في الحديقة حيث مكان الاستراحة، والمناقشة المقررة بينهما. وبعد ان اكملا الغداء توجه الطبيب إلى سعيد قائلاً :

لقد وعدتني يا استاذ سعيد بان تحدثني اليوم عن حقيقة الوحي وعلاقته بالنبوة فأرجو ان تكون على استعداد لذلك.

سعيد: بكل تأكيد يا اخي العزيز. ولابد اولاً ان ابين لك التحريف لهذه الحقيقة التي نسميها الوحي فنقول :

ان الوحي ظاهرة من ظواهر خط النبوة، فهو ادراك خاص يختص به الأنبياء وهو متميز عن سائر الادراكات، فانّه ليس نتاج الحس او العقل ولا الغريزة، وانما هو شعور خاص بوحدة الله تعالى في الأنبياء، وهذا الشعور يغاير

الشعور الفكري، المشترك بين افراد الإنسان عامة، فهذا الشعور لا يغلط معه النبي في ادراكه، ولا يعترضه ريب في ان الذي يوحي إليه، هو الله سبحانه، من غير ان يحتاج إلى اعمال نظر او طلب دليل او ما شابه ذلك.

الوحي يا أخي العزيز طريق معرفي آخر غير الطرق المعروفة عندنا، لأن هناك طريق الحس الذي من خلاله نتعرف على الاشياء المادية او التي لها ارتباط بالمادة اي ما نستطيع ادراكه عن طريق الحواس الخمس، وهذا مصدر اساسي للمعرفة، وهناك طريق أرقى من الحس، وهو العقل الذي ندرك به الاشياء، التي ليس لها وجود مادي ، فالمسائل الرياضية والحسابات الهندسية والقضايا الفلسفية ليس لها وجود مادي يمكن ان نتعرف عليها بواسطة الحواس، وانّما العقل الذي هو ادراك مجرد هو الذي يقوم بتلك المهمة. فالتصورات البشرية على قسمين: الاول هو التصورات الاولية. والثاني: هو التصورات الثانوية.

اما التصورات الاولية فهي الاساس التصوري للذهن البشري، وتتولد هذه التصورات من الاحساس، بمحتوياتها بصورة مباشرة .

فنحن نتصور الحرارة لأننا ادركناها باللمس، ونتصور اللون لأننا ادركناه بالبصر، ونتصور الحلاوة لأننا ادركناها بالذوق، ونتصور الرائحة لأننا ادركناها بالشم. وهكذا جميع المعاني التي ندركها بالحواس التي لدينا فان الاحساس بكل واحد منها هو السبب في تصوره، ووجود فكرة عنه في الذهن البشري. وتتشكل من هذه المعاني القاعدة الاولية للتصور، وينشىء الذهن بناء على هذه القاعدة التصورات الثانوية، فيبدأ بذلك دور الابتكار والانشاء، فيولد الذهن مفاهيم جديدة من تلك المعاني الاولية، وهذه المعاني الجديدة خارجة عن

نطاق الحس وإن كانت مستنبطة ومستخرجة من المعاني التي يقدمها الحس في الذهن والفكر.

هذا ما يخص الجانب التصوري من الادراكات البشرية وفي المقابل عندما نحلل الجانب التصديقي، ونقصد به الادراك الذي ينطوي على الحكم واذعان النفس به، ويحصل للانسان على ضوئه المعرفة الموضوعية، وهو مستوى ارقى من الجانب التصوري الساذج، وهنا ايضاً تنقسم المعارف البشرية إلى طائفتين: إحداهما معارف ضرورية او بديهية. ونقصد بالضرورة هنا ان النفس تضطر إلى الاذعان بقضية معينة من دون ان تطالب بدليل او تبرهن على صحتها، بل تجد من طبيعتها ضرورة الايمان بها ايماناً غنياً عن كل بينة واثبات، كأيمانها بالقضايا الآتية (النفي والاثبات لا يصدقان معاً في شيء واحد) او (الحادث لا يوجد من دون سبب) او (الصفات المتضادة لا تنسجم في موضوع واحد) إلى غير ذلك.

واما الطائفة الأخرى «المعارف البشرية» فهي معارف ومعلومات نظرية، لأنّ عدة من القضايا لا تؤمن النفس بصحتها إلا على ضوء معارف ومعلومات سابقة، فيتوقف صدور الحكم منها في تلك القضايا على عملية تفكير واستنباط للحقيقة من حقائق اسبق واوضح منها كما في القضايا الاتية: (الأرض كروية) (الحركة سبب للحرارة) (التسلسل ممتنع) (زوايا المثلث تساوي قائمتين) (المادة تتحول إلى طاقة) وما إلى ذلك من قضايا الفلسفة والعلوم. فان هذه القضايا حين تعرض على النفس لا تحصل على حكم في شأنها الا بعد مراجعة للمعلومات الأخرى، ولأجل ذلك فالمعارف النظرية مستندة إلى المعارف الأولية الضرورية، فلو سلبت تلك المعارف الاولية من الذهن البشري لم يستطع التوصل إلى

معرفة نظرية مطلقاً. واما العملية التي تستنبط بها معرفة نظرية من معارف سابقة هي العملية التي نطلق عليها اسم الفكر والتفكير. فالتفكير جهد يبذله العقل في سبيل اكتساب تصديق وعلم جديد من معارفه السابقة.

الطبيب: هذا تحليل عميق لمصادر المعرفة البشرية ما سمعت به من قبل، بل هو مخالف لما ألفناه وتثقفنا عليه من عملية الادراك البشري، ولكن المهم ليس هذا وانما هو مدخلية هذا البحث في موضوعنا اقصد بيان حقيقة الوحي وأرتباطه بالنبوة؟

سعيد: اضافة إلى اننا سوف نحتاج إلى هذه المعلومات حول الادراك البشري، كما سوف ترى، الا اني أريد ان ابين لك بأن ثمة مصدراً ثالثاً للمعرفة، وذاك المصدر اكثر انسجاماً مع الواقع، واكثر انطباقاً عليه، وهو مصدر الوحي فان التصور أو التصديق أو قل المعرفة التصورية والمعرفة التصديقية قابلة للخطأ والاشتباه، ومن هنا تنشأ عندنا الجهالات، وعدم اصابة الواقع سواء على مستوى التصور أو التصديق، وهذا معلوم بالوجدان. نعم يبقى ان هذين الطريقين يشترك فيها كل البشر واما الطريق الثالث للمعرفة فهو مختص لبعض الافراد لهدايةالناس، ومعرفة الأمور التي لا يمكن ان يدركها العقل البشري أو ينالها الحس بأدواته القاصرة. فمثلاً علم الغيب بما يحمل من تفاصيل عجيبة لها مدخلية في سعادة الإنسان وشقاوته لا يوجد طريق تصوري أو تصديقي لمعرفة أو الحكم عليه لاسلباً ولا ايجاباً. وقد ذكرنا سابقاً بان الإنسان لا يستطيع ادراك منافعه وسعادته لا على مستوى التقنين، ولا على مستوى السلوك والتعامل مع الاشياء اضافة إلى أنّ حياة الإنسان ليست مقتصرة على البعد الدنيوي وانما حياته ممتدة إلى عوالم أخرى من البرزخ إلى الآخرة التي تتجلى فيها الحياة

الحقيقية بكل ابعادها وجوانبها. اقول كـل ذلك لا يسـتطيع الإنسـان ادراكـه، والعمل بمقتضاه لقصور الطريقين اعني التصوري والتصديقي، لنيل تلك المعرفة الوجودية الشاملة ومن هنا وبـلطف مـن الله ورحـمة أرسـل سـبحانه الأنـبياء والمرسلين، واوجد طريقاً للاتصال بهم، وتزويدهم بـما يـحتاجه النـاس، ومـا ينفعهم ويحقق سعادتهم ويبعدهم عن الشر والنقص والألم والجمود أو الهبوط عن درجات الكمال الوجودي، وذلك الطريق هو عبارة عن الوحي.

الطبيب: في البداية اود ان ابين لك، بانّ العلم الحديث اثبت ان للانسان بعداً آخر غير البعد المادي المتمثل بالجسد، وهو ما يسمّى بالروح، فالروح هو ذلك البعد الانساني الذي تتجلى فيه العـديد مـن شـئونات الإنسـان كـالحب والبغض والتفكير وغير ذلك؛ ولكن لم لا نتصور بان الوحي ليس كما حـاولتم تصويره وانه نوع علاقة مع الله، وهناك واسطة اسمها الملكْ تكون هي الرابط بين الله وبين النبي وانما هو عبارة عن إلهامات روحية تنبعث من داخل الوجود، اي الروح الواعية هي التي تنفث في روع الأنبياء ما يعتبرونه وحياً من الله، وقد تظهر النفس تلك الروح الواعية وراء جسمهم، متجسدة خارجاً فيحسبونها من ملائكة الله هبطت عليهم من السماء، وما هي الا تجلّي شخصيتهم الباطنية، فتعلمهم مالم يكونوا يعلمونه من قبل، وتهديهم إلى خير الطرق لهداية انفسهم وترقية امتهم، وليس بنزول ملك من السماء ليلقي عليهم كلاماً من عند الله.

سعيد: ولماذا نتصور هذا التصور ولماذا لا نقبل بالرأي الأول ما هو الدليل وما هو السبب؟

الطبيب: لان الله يا عزيزي في نظرنا اجلّ وأعلى من أن يقابله بشر أو يتصل به مخلوق، وأنَّ الملائكة مهما قيل في روحانيتهم وتجردهم عن المادة

فلا يعقل انهم يقابلون الله أو يستمعون إلى كلامه. لان هذا كله يقتضي تحيزاً في جانبه تعالى، ويستدعي عدم التنزيه المطلق بشأنه جل شأنه، ولأن الملائكة مهما ارتقوا فلا يكونون اعلى من الروح الانسانية، التي هي من روح الله نفسه، فمثلهم ومثلها سواء.

سعيد: ان ما تفضلت به يا اخي العزيز ليس بصحيح مطلقاً لأننا عندما نراجع كلمات هؤلاء الذين ادعوا ارتباطهم بالسماء، والذين نسميهم بالأنبياء نجدهم يؤكدون بان هذا الذي يذكرونه، ويدعون الناس إليه قد افيض عليهم من الله تعالى وان هناك وحياً هو الذي نبأهم بهذا. ولا يمكن بعد ان اعترفت بأنهم اناس على مستوى عال من الروحية والصلاح، والارتقاء الوجودي وهم يقومون بوظيفة اصلاح المجتمعات البشرية في حين انهم يعيشون خداع الذات أو ما يسمى بالجهل المركب فكيف يمكن ان نعقل بان أناساً بهذه الدرجة ويتولون هذه المهمة العظيمة وبعد ذلك يعيشون هذا الجهل، ولا يعلمون بان مصدر هذه المعارف التي ينطقون بها هو نفوسهم المتجلية على حد تعبيركم، ويدعون كذباً بانهم مرتبطون بالوحي، والذي يأتي لهم بهذه المعارف من الله تعالى. هذا أولاً .

وثانياً: ان من المتعارف ان الأنبياء حينما ادعو ارتباطهم بالوحي لم يكن هذا الادعاء ابداً من دون دليل وبينة تثبت ذلك عقلاً، وتقطع الطريق امام مثل هكذا تشكيكات أو الاحتمالات أو التفسيرات. ومن هنا كان لكل نبي مرسل ادعى النبوة والرسالة معجزة تثبت صحّة مدّعاه عن طريق العقل. ولأن المعجزة هي الامر الخارق للقانون الطبيعي، والذي يعجز البشر عن الاتيان بمثله ويقترن ذلك بدعوة النبوة والسفارة الالهية فينبغي حينئذ لكل عاقل من الاذعان والتصديق به .

الطبيب: ولماذا يجب علينا انّ نصدق النبي مع وجود المعجزة.

سعيد: ذلك واضح يا صديقي، لانّ الاعجاز انما يكون دليلاً على صدق المدّعي، لأن المعجز فيه خرق للنواميس الطبيعية، فلا يمكن ان يقع من احد الا بعناية من الله تعالى، وإقدار منه، فلو كان مدعي النبوة كاذباً في دعواه، كان اقداره على المعجزة من قبل الله تعالى إغراء بالجهل وإشادة بالباطل، وذلك محال على الحكيم تعالى بحكم العقل. فاذا ظهرت المعجزة على يده كانت دالة على صدقه، وكاشفة عن رضا الحق سبحانه بنبوته.

وما ذكرناه قاعدة مطردة يجري عليها العقلاء من الناس في مثل هذه الأمور، ولا يشكون فيها ابداً، فاذا ادعى احد من الناس سفارة عن ملك من الملوك في أمور تختص برعيته، كان من الواجب عليه أولاً ان يقيم دليلاً على دعواه، ويكون ذلك الدليل في غاية الوضوح، فاذا قال لهم ذلك السفير: الشاهد على صدقي ان الملك غداً سيحييني بتحية مخصوصة ومتميزة وهي التي يحيي بها سفراءه الآخرين. فاذا علم الملك ما جرى بين السفير وبين الرعية، ثم حياه في الوقت المعين بتلك التحية، كان فعل الملك تصديقاً لمدّعي السفارة، ولا يرتاب العقلاء في ذلك؛ لأنّ الملك القادر المحافظ على مصالح رعيته يقبح عليه ان يصدق هذا المدعي اذا كان كاذباً؛ لأنه يريد افساد رعيته.

فاذا كان هذا الفعل قبيحاً من سائر العقلاء كان محالاً على الحكيم المطلق. اضافة إلى ذلك كيف ننظر إلى هذا الاتفاق بين كل اولئك الذين يدّعون النبوة والسفارة الالهية وبين المعاجز التي يأتون بها، فهذا يجرنا إلى التصديق بحقيقة تلك العلاقة ما بين هؤلاء الاشخاص وما بين الله تعالى عن طريق الوحي.

عصمة الأنبياء

الطبيب: بعد ان عرفنا طبيعية العلاقة بين النبوة والوحي الالهي ثمة مسألة أخرى مرتبطة بهذا البحث، وهي: نحن وإن صدقنا النبي بدعوة النبوة وانه يوحى إليه من الله تعالى ولكن كيف نضمن بان ما ينقله عن ذلك الوحي لم يقع فيه خطأ أو اشتباه فان النبي لا يعدو كونه بشراً معرضاً للخطأ، وبالتالي سوف نشك بكل ما يقوله ويخبر به عن الله تعالى، بانّه من الممكن ان لا يكون من الوحي في شيء، وبالتالي سوف ينجر هذا التشكيك إلى كل اخبارات النبي فتنتفي الفائدة من بعثة الأنبياء؟!

سعيد: جواب ذلك يا دكتور هو ان العقل مع ملاحظته للحكمة الالهية يدرك ضرورة وجود طريق آخر لمعرفة الحقائق، والوظائف العملية وإن لم يتعرف على كنه هذا الطريق وحقيقته، فانه يدرك أيضاً بان الحكمة الالهية تقتضي وصول هذه الرسالة للناس بصورة سليمة وصحيحة، دون ان تتعرض لأي تلاعب وتشويه، والا لزم نقض الغرض.

وبتعبير آخر: بعد ان علم ان الرسالات الالهية، لابد ان تصل إلى الناس من خلال واسطة أو وسائط، حتى تتوفر الاجواء والظروف الملائمة للتكامل الاختياري للناس، وليتحقق بذلك الهدف الالهي من خلق البشر، فانه ـ بملاحظة الصفات الكمالية الالهية ـ يثبت ان هذه الرسالة يلزم ان تكون مصونة من التشويه والتلاعب العمدي والسهوي، ذلك: لأن الله تعالى لو لم يرد وصول الرسالات بصورة صحيحة إلى عباده، لكان هذا مخالفاً للحكمة، والأرادة الالهية الحكيمة تنفي ذلك، واذا كان الله لا يعلم عن أي طريق أو أي شخص يبلغ

رسالته، لتصل سليمة إلى عباده فهذا ينافي علم الله اللامتناهي، واذا لم يقدر على اختيار وسائط صالحة لحفظها من شرور الشياطين، فان هذه الحالة لا تتلاءم وقدرته اللامحدودة.

إذن فمع ملاحظة إن الله عالم بكل شيء لا يمكن ان نحتمل عدم علمه، بأخطاء الواسطة التي يختارها، ومع ملاحظة القدرة الالهية غير المحدودة لا يمكن ان نحتمل عدم قدرته على صيانة وحيه من تلاعب الشياطين، وتأثير عوامل السهو والنسيان فيه، ومع ملاحظة الحكمة الالهية، لا يمكن ان نتقبل أنه لا يريد حفظ رسالته من الخطأ. اذن فالعلم والقدرة والحكمة الالهية كلها تقتضي وصول رسالته بصورة سليمة وصحيحة إلى عباده. ومن هنا تثبت صيانة الوحي بالبرهان العقلي.

الطبيب: جيد يا استاذ سعيد فهذا جواب متين لا يمكن الخدشة فيه، ولكن وبمناسبة ذكر العصمة نود ان نتطرق إلى موضوع عصمة الأنبياء في المجالات الأخرى اقصد في غير تبليغ الرسالة والوحي امثال عصمتهم عن الذنوب والخطأ في مجالاتهم الاجتماعية والفكرية العادية فهل يوجد دليل على شمول العصمة إلى كل ابعاد شخصية النبي ؟

سعيد: اعلم يا اخي العزيز بان هذه المسألة كانت موضع اختلاف بين الالهيين عموماً والمسلمين خصوصاً ولكن الصحيح هو ان كل الأنبياء معصومون من الولادة إلى الوفاة من كل ذنب أو معصية صغيرة كانت أو كبيرة ومن السهو والغلط والنسيان والاشتباه .

الطبيب: ان تصوير النبي بهذا الشكل يخرجه عن حده الانساني ويجعله كالآلهة!!.

سعيد: ابداً يا اخي العزيز ليس الأمر كما تتصور، وانّما هؤلاء رجال قد طهر الله قلوبهم، فجعلهم قدوة للآخرين وقادة للمجتمعات ؛ لأن النبي يعكس بشخصيته الاجتماعية السلوك الالهي فهو النموذج الاسمى الذي يكون بكل وجوده مبلغاً عن الله تعالى ؛ لأن المفروض انه انسان مرضي من قبله تعالى، وعاكس لأوامره ونواهيه ومستحباته، ومكروهاته بل عاكس للعلم والحلم وغيرها من الصفات الكمالية التي لابد ان تتجلى فيه، بأبهى صورها لانه الإنسان الكامل الذي اختاره الله واصطفاه على العالمين .

الطبيب: أريد دليلاً مقنعاً اكثر وضوحاً اذا سمحت .

سعيد: لقد ذكرنا لك الدليل العقلي على عصمة الأنبياء في تلقي الوحي وتبليغه وقد سلّمت به، أليس كذلك؟

الطبيب: نعم انه دليل مقنع.

سعيد: حينئذ نقول بان نفس الدليل دال على عصمتهم من الذنوب والمعاصي أيضاً لان الغاية المتوخاة من بعث الأنبياء هي هداية الناس إلى السعادة، ولا تحصل هذه الغاية الا بكسب اعتمادهم، وثقتهم المطلقة بصحة ما يقوله الأنبياء ويحكونه عن الله تعالى، وهذا موضع وفاق فيما بيننا ولكن ما قولك فيما لو شاهد الناس نبيهم يسهو في تطبيق الشريعة التي أمرهم بها، أو يغلط في أموره الفردية والاجتماعية؟! هل من ريب في ان الشك سيجد طريقاً رحبة للتسرب إلى أذهان الناس فيما يدخل في مجال الوحي والرسالة؟ بل لن يبقى شيء مما جاء به هذا النبي، الّا وتطرقه علامات الاستفهام. وحينئذ ينتفي الغرض من البعثة ويكون وجوده عبثاً.

اضف إلى ذلك فان الأنبياء كما انهم مكلفون بابلاغ محتوى الوحي

والرسالة للناس، وهدايتهم للطريق المستقيم، كذلك هم مكلفون بالقيام بتزكية الناس وتربيتهم واصلاحهم، وايصال الافراد المؤهلين وذوي الاستعداد إلى آخر مرحلة من مراحل الكمال الإنساني.

ولا يحقق ذلك الا اولئك الذين بلغوا اسمى درجات الكمال الإنساني، ويمتلكون اكثر الملكات النفسية كمالاً، وهي ملكة العصمة. لأنّ دور سلوك المربي وافعاله، ربما تكون أكثر تأثيراً من اقواله في تربية الآخرين واصلاحهم. ومن وجدت نقائص وعثرات في افعاله، فان قوله سوف لا يملك التأثير المنشود.

اذن فانما يتحقق الهدف الالهي من بعثة الأنبياء بصورة كاملة بما هم مُربُّوا المجتمع ومصلحوه، فيما لو كانوا معصومين ومنزهين عن كل انحراف في اقوالهم وافعالهم.

طبعاً وهناك ادلة نقلية عن طريق الوحي تثبت عصمتهم جميعاً من كل خطأ وعصيان ولكن بما ان البحث في الجوانب الكلية لموضوع النبوة العامة فلا نريد ان نستدل باي نص من ذلك القبيل .

شبهات حول عصمة الأنبياء

الطبيب: ولكن ثمة اشكالات عديدة حول عصمة الأنبياء اود ان اطرحها عليك واحدة بعد الأخرى .

سعيد: تفضل يا اخي العزيز.

الطبيب: اذا كانت النبوة مقترنة بالعصمة بشكل مطلق، فهذا يعني ان الأنبياء ليس لهم فضل الطاعة، ولا يستحقون الكمال، بل ان عامة المؤمنين

افضل منهم وذلك لأنهم حينئذ لا يقدون على فعل القبيح، ولا يستطيعون ترك الطاعة فهم مجبورون فلا تكون لهم فضيلة على غيرهم مطلقاً.

سعيد: ابداً يا عزيزي فان المعصوم قادر على فعل القبيح، وترك الواجب وان العصمة لا تنفي القدرة وتسلب الاختيار، وحقيقة الأمر ان الله تعالى لطف بالنبي فرزقه ما به يكون معصوماً، وهذا اللطف لا يكون جزافياً وانما هو ناتج عن علم الله المسبق بان هذا الشخص يريد الطاعة ويبغض المعصية. وقد يكون العلم هو احد تلك الوسائل التي من خلالها يكون الشخص معصوماً لأنّ النبي اذا علم بحقيقة المعصية وما يترتب عليها من السخط الالهي، والاثر الوضعي، وهو البعد عن حضرة الله تعالى فسوف لا يقدم على أي معصية سواء كانت كبيرة أو صغيرة وسوف اضرب لك مثالاً عملياً، وهو انك لو علمت بان في هذا القدح سم قاتل بمجرد شربه سوف يؤدي بك إلى الموت المحتم والهلاك الاكيد اتراك تقدم على شربه بل وهل يخطر في بالك ؟

الطبيب: اذا كنت انساناً سوياً عاقلاً لست مريضاً بمرض نفسي أو ما شابه ذلك، فاني بلا شك لا اشربه، ولا يخطر في ذهني ذلك.

سعيد: احسنت يا دكتور فهذا الجواب الذي تذكره تقتضيه الفطرة السليمة والعقل الصحيح. وما ذلك الا للنتائج الوخيمة المترتبة على اقدامك على شرب السم. وحينئذ نسأل منك مرة أخرى، هل انت مسلوب الاختيار، والقدرة في امتناعك عن شرب السم ام انك في الواقع تمتنع عن شربة بكل اختيارك وكامل حريتك وإرادتك ؟

الطبيب: بلاشك فانا مختار لست مضطراً. غاية ما في الأمر ان علمي

بالنتيجة المترتبة على شربي لذلك السم، هي التي جعلتني امتنع عن شربه .

سعيد: احسنت يا دكتور فهذا جواب صحيح وحينئذ نعود إلى مسألة عصمة الأنبياء لنقول بانهم كذلك حينما يمتنعون عن المعاصي فلأنهم يعلمون بالنتائج الخطرة لفعلها فهي عندهم كالسم بالنسبة اليك، بل أكثر من ذلك لانّ السم اقصى ما يفعله هو اعدام الحياة الدنيا في حين ان المعاصي تجعل الإنسان يعيش البعد عن الله والعذاب الدائم في جهنم، والخسة والنقص والتسافل الوجودي وحرمان الكمال الذي تدعو إليه الفطرة ويحكم به العقل .

الطبيب: زدني يا سعيد .

سعيد: ان المعاصي في نظر هؤلاء الأنبياء كالجيفة المتعفنة وهل يمكن لعاقل، ولسوي ان يؤثر جيفة نتنة على مائدة فيها ما تشتهي الانفس، وتلذ الاعين، ان ذلك مستحيل .

الطبيب: هذا الذي ذكرته جيد ومقنع من ناحية تعمد المعصية، ولكنه غير شامل للخطأ والاشتباه والسهو والنسيان فما تقول فيها؟

سعيد: اما هذا فهو من اللطف المباشر من الله تعالى لما ذكرنا سابقاً بانه لو جوزنا على النبي الخطا أو الاشتباه إلى غير ذلك فانا سوف لا نطمئن من ان ما يتلفظ به أو يفعله لا يكون كذلك، وحينئذ يخرج عن كونه اسوة حسنة لنا وقدوة نقتدي به. وكذلك فان الناس عندما يرون صدور الاخطاء والاشتباهات من النبي سوف يسقط من عيونهم وتشمئز منه قلوبهم فلا يقبلون قوله ولا يقتدون بفعله وبذلك ينتفي الغرض والحكمة من بعثة الأنبياء. ومن هنا كان من الواجب ان يلطف الله تعالى بأنبيائه ويعصمهم من كل تلك الأمور.

الطبيب: هناك آيات كثيرة في الكتب الثلاثة التوراة، والانجيل، والقرآن تدل على ان بعض الأنبياء ارتكب المعاصي والذنوب امثال النبي آدم الذي نهاه الله تعالى عن الاكل من الشجرة فأكل منها، وطرده من الجنة، وامثال ايوب ويونس وداود ويوسف وابراهيم وموسى، وغيرهم وكل ذلك يؤكد بان الكتب السماوية لا تحكم بعصمة الأنبياء فكيف تدعون خلاف ذلك؟

سعيد: جواب هذا الاشكال بالتفصيل يستدعي كلاماً كثيراً ولقد ألّف المسلمون عشرات الكتب، للرد على هذا الاشكال بتناول كل نص على حدة ومناقشته مناقشة علمية مفصلة، الّا اننا لا نحتاج إلى كل هذا التطويل، وانّما يكفينا ما ثبت لدينا من وجوب العصمة لهم عقلاً، واما النقل فهو حافل بالادلة المثبته لها، وحينئذ فلابد ان نحمل كل تلك النصوص الدينية على المعنى الذي لا ينافي العصمة، هذا بخصوص القرآن الكريم، واما بخصوص الكتب الأخرى، أي التوراة والانجيل، فنحن نعتقد بانها محرفة ولا تمثل الوحي الإلهي في شيء. واما الكتب الاصلية فقد ضاعت منذ زمن بعيد .

الطبيب: لقد اتعبناك اليوم كثيراً يا استاذ سعيد .

سعيد: على العكس يا اخي فانا مسرور جداً، لأنك رجل مثقف ومتفهم جداً ولذلك لا اجد ما يعكر صفو النقاش معك ابداً.

الطبيب: ماذا بحوزتك غداً يا سعيد .

سعيد: هذا ما سوف تتعرف عليه غداً إن شاء الله .

اليوم الرابع:

مباحث النبوة الخاصّة

نبوة نبينا محمد ﷺ

لم يستيقظ سعيد في هذا اليوم مبكراً حيث بقي في ليلته السابقة ساهراً يطالع بعض الكتب التي اشتراها ولهذا ما بقي عنده مزيد من الوقت لكي يذهب إلى المكتبة الملكية. ولذلك قرر ان يذهب إلى المستشفى لرؤية والده.

جلس سعيد عند الحاج عبد الله يسأل عن احواله، ويؤنسه بطيب الكلام، ويسرد له ما يدور بينه، وبين ذلك الطبيب الانجليزي، والاب يستمع باعجاب لحديث ولده، وما ان انتهى سعيد من كلامه حتى دمعت عينا الوالد .

سعيد: مالي أراك تبكي يا والدي، عسى ان لا يكون هناك ما لا يسرك؟!

الاب: كلا يا سعيد، وانما ابكي شكراً لله سبحانه وتعالى، الذي رزقني ولداً صالحاً متديناً عالماً مثلك.

سعيد: اشكر الله تعالى، الذي وفقني لأن ترضىٰ عني، فهذه هي النعمة الحقيقية.

الاب: وعن أي شيء سوف تحدثه بعد ذلك يا سعيد .

سعيد: في هذا اليوم سوف ابدأ معه موضوع نبينا الأعظم محمد ﷺ

والإسلام، وما يتعلق بذلك من مسائل .

الاب: هل تتوقع انه بالامكان ان يصبح مسلماً ؟

سعيد: انا أرى فيه الموضوعية والفهم، اضافة إلى ان الرجل له اطلاع واسع وثقافة عالية لذلك فان الحديث معه له شكل متميز وهذا ما شجعني ان استمر معه في النقاش .

الاب: يرفع يديه إلى السماء ويقول: اللهم بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والتسعة المعصومين من ذرية الحسين افتح قلب هذا الطبيب إلى الإسلام واهده إلى الإيمان انك مجيب قريب.

سعيد: آمين يا رب العالمين.

الأب: طبعاً لقد لاحظت ان هذا الطبيب يهتم بي بشكل غير طبيعي ويحرص كثيراً على راحتي، وتقديم كافة الخدمات لي.

سعيد: الظاهر ان ما يقتنع به في اثناء نقاشنا ينعكس على سلوكه معك .

الاب: حتماً هذا هو السبب.

وبقي سعيد مع والده الحاج عبد الله إلى وقت الظهر حيث جاء الطبيب على عادته لإجراء الفحص العادي على الحاج ثم أخذ سعيداً معه متوجهاً إلى غرفته لكي يؤدي سعيد هناك صلاته ثم ينطلقان إلى المكان المحدد.

قال سعيد للطبيب، وهم في طريقهم إلى الحديقة: لقد كنت كريماً في يوم امس حيث دعوتني إلى سندويشات البطاطس وقد حان الوقت لكي أرد لك ذلك الكرم .

الطبيب: هل تريد دعوتي إلى سندويشات البطاطس أيضاً يا استاذ سعيد ؟

سعيد: بالطبع كلا فان الكرم العربي يختلف عن الكـرم الانـجليزي بـل احضرت معي طعاماً لذيذاً من احد المطاعم العراقية الموجودة هـنا فـي لنـدن لكي ترى لون الطعام العراقي.

الطبيب: حقاً فعلت ذلك يا سعيد؟! لقد قمت بعمل رائع، فأين هو؟ دعني أراه.

سعيد: هو ذا معي في الكيس. ثم فتح سـعيد الكـيس واخـرج ظـرفين ملفوفين بالغطاء المحافظ على الحرارة في الأول رز وفي الآخر مرق البامية مع اللحم مع رغيفين من الخبز العراقي كذلك .

ما إن تذوق الطبيب ذلك الطعام حتى اعجب به كثيراً واخذ يسأل سعيداً عن كيفية صنعه، وهل يوجد انواع أخرى من الطعام العراقي بهذه الجودة واللذة، فاكد له سعيد ذلك. ودعاه لزيارة العراق لكي يرى ما يسره مـن الطـعام ولون الحياة الاجتماعية، والآثار الحضارية وغيرها.

بعد ان انتهيا من تناول الطعام وجلس الاثنان على أرض الحديقة، بادر الطبيب سعيداً قائلاً: ما اخبرتني يا سعيد عن أي شيء سوف تحدثني في هذا اليوم ؟

سعيد: اود ان اسألك يا صديقي العزيز بعد هذا الحديث الطويل الذي مر معنا في موضوع النبوة هـل لازلت تشك فـي ضـرورة وجـود الأنـبياء وانـهم مرسلون من عند الله من اجل هداية الانسـانية إلى كـمالها وسـعادتها، وبـان القانون الالهي هو الطريق الصحيح لسعادة الانسانية في الدنيا والآخرة ام لا ؟

الطبيب: الحق والانصاف إني أمنت بذلك عن قناعة كاملة، فوجود الأنبياء ضروري حسب ما اعتقد الآن.

سعيد: فبعد هذه الخطوة الكبيرة التي خطوتها في طريق الايمان لابد ان نتطرق الآن إلى الإسلام، وإلى نبيبنا محمد ﷺ بالتحديد لكي نرى مدى انطباق ما توصلنا إليه مسبقاً من المسائل مع دعوته ونبوته .

الطبيب: ولماذا اخترت النبي محمداً ﷺ والإسلام، وتركت الأنبياء الذين سبقوه امثال موسى وعيسى ؟

سعيد: لأنّ الايمان برسول الله محمد ﷺ هو ايمان بكل الأنبياء السابقين حيث انّ القرآن الكريم الذي هو الكتاب الالهي المنزل على النبي محمد ﷺ يذكر اولئك الأنبياء ويؤكد ضرورة الإيمان بنبوتهم، بخلاف ما لو جئنا إلى التوراة او الانجيل الموجودين بين ايدينا في هذا الزمن فسوف لا نحقق تلك النتيجة، اضافة إلى انه لا معنى للحديث والدعوة إلى اديان نسخت بالدين الإسلامي الذي هو المكمل لجميع الاديان السابقة طبعاً هذا من حيث التشريع والنظام المعرفي بشكل عام، واما في الأصول الاساسية فكل الأنبياء والاديان تدعو إلى عقيدة واحدة وهي التوحيد والمعاد والنبوة. نعم هناك بعض الجزئيات في العقيدة أيضاً تختلف من واحدة إلى الأخرى، إلّا ان المصب الكلي العام وهو التوحيد واحد بلا شك.

الطبيب: حسناً يا سعيد أرجو ان تبدأ معي بنبذة عن الظروف التي دعت إلى وجود هذا الدين الجديد.

سعيد: إنها بداية فنية لطيفة، وسأحدثك بشكل مختصر وكلي واما التفاصيل فلابد من الرجوع بها إلى كتب التأريخ. ولان النبي محمداً ﷺ ظهر في شبه الجزيرة العربية على فترة من الرسل أي كانت بينه وبين الرسل الذين قبله مدّة طويلة من الزمان، فلابد من ملاحظة ذلك المناخ السائد في تلك

المدة، لأن ذلك سوف يساعدنا كثيراً، لمعرفة شخصية النبي وطبيعة الإسلام وعظمته .

الطبيب: اتوقع ان يكون الحديث ممتعاً. تفضل يا سعيد .

سعيد: كانت العرب يومئذ تجاور في جنوبها الحبشة وهي نصرانية، وفي مغربها امبراطورية الروم وهي نصرانية أيضاً، وفي شمالها الفرس وهم مجوس، وفي غير ذلك مصر والهند وهما وثنيتان، وفي أرضهم طوائف من اليهود.

وكان العرب وثنيين يعيش اكثرهم عيشة القبائل، وهذا كله اوجد لهم اجتماعاً همجياً بدوياً فيه اخلاط من رسوم اليهودية والنصرانية والمجوسية وهم سكارى في جاهليتهم.

وكانت قبائل البادية على مالهم من خساسة العيش ودناءته يعيشون بالغزوات، وشن الغارات واختطاف ما في ايدي الآخرين من متاع أو عرض، فلا امن بينهم ولا أمانة، ولا سلم ولا سلامة، والأمر لمن غلب، والملك لمن وضع يده عليه .

اما الرجال فالفضيلة بينهم سفك الدماء والحمية الجاهلية والكبر والغرور واتباع الظالمين وهضم حقوق المظلومين، والتعادي والتنافس، والقمار وشرب الخمر والزنا، وأكل الميتة .

واما النساء فقد كن محرومات من مزايا المجتمع الانساني لا يملكن من انفسهن إرادة ولا من اعمالهن عملاً، ولا يملكن ميراثاً، ويتزوج بهن الرجال من غير تحديد بحد، كما عند اليهود وبعض الوثنيين، ومع ذلك فقد كنّ يتبرجن بالزينة ويدعن من احببن إلى انفسهن، وفشا فيهن الزنا والسفاح حتى المحصنات منهن، ومن العجيب أنهنّ ربما كنّ يطفن بالبيت

ليلاً عاريات من ثيابهن.

واما الاولاد فكانوا ينسبون إلى الاباء لكنهم لا يورّثون صغاراً ويذهب الكبار بالإرث ـ ومن الارث زوجة المتوفي ـ نعم لو ترك المتوفي صغيراً ورثه ولكن الاقوياء يتولون امر اليتيم ويأكلون ماله، ولوكان اليتيم بنتاً تزوجوها، واكلوا مالها ثم طلقوها وخلوا سبيلها، فلا مال تقتات به، ولا راغب في نكاحها ينفق عليها. والابتلاء في أمر الايتام من اكثر الحوادث المبتلى بها بينهم لدوام الحروب والغارات والغزوات اضافة إلى شيوع ظاهرة القتل بينهم.

وكان من شقاء الاولاد ان بلادهم خربة، وأراضيهم قفرىٰ بائرة يسرع اليها الجدب والقحط، فكان الرجل يقتل اولاده خشية الفقر والاملاق ولذلك نرى القرآن، يأمرهم بالانتهاء عن ذلك الفعل المشين بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ الانعام: ١٤٠. وكان اسوأ ما يكون عندهم البنت حيث عندما تُولد لاحدهم انثى يتألم كثيراً ويستحي من الناس ولذلك نجد ان الكثير منهم يقتل ابنته ويدفنها وهي حية في التراب. ولذلك نجد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ التكوير: ٧. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ النحل: ٥٨ ـ ٥٩ .

واما المجتمعات التي تعتنق اليهودية والنصرانية ومن يلحق بهم من المجوس، والصابئة فقد كانت مجتمعاتهم تدار بالاهواء الاستبدادية والتحكمات الفردية من الملوك، والرؤساء والحكام والعمال. والمجتمعات حينذاك تنقسم إلى طبقتين . طبقة حاكمة فعالة لما تشاء، تعبث بالنفس والعرض والمال. وطبقة

محكومة مستعبدة مستذلة لا امن لها في مال ولا عرض ولا نفس ولا حرية ولا إرادة.

وقد كانت الطبقة الحاكمة استمالت علماء الدين وحملة الشرع وائتلفت معهم، واخذت مجامع قلوب العامة وأفكارهم بأيديها، فكانت بالحقيقة هي الحاكمة في دين الناس ودنياهم، تحكم في دين الله كيفما أرادت، بلسان العلماء واقلامهم، وفي دنياهم بالسوط والسيف.

وقد انقسمت الطبقة المحكومة أيضاً حسب قوتها في السطوة والثروة فيما بينهم، إلى طبقتي الاغنياء المترفين والضعفاء والعجزة والعبيد، وإلى رب البيت ومربوبيه من النساء والأولاد، وكذا إلى الرجال المالكين لحرية الارادة والعمل في جميع شؤون الحياة وإلى النساء المحرومات من جميع ذلك، والتابعات للرجال محضاً، والخادمات لهم فيما أرادوه منهن من غير استقلال ولو يسيراً.

واما الاديان السابقة كاليهودية والنصرانية وغيرها فقد انحرفت عن الخط الالهي والتعاليم الربانية بالاضافة إلى الانحراف السابق الذي كانت عليه اليهودية والذي من اجله بعث الله تعالى عيسى عليه السلام لكي يصحح ما فسد من دين اليهود، لكنّنا نجد ان النصارى أيضاً ساروا على طريقتهم، حيث جعل الانجيل اناجيل متناقضة فيما بينها ومتناقضة مع العقل والفطرة، واستبد الاحبار والرهبان واصبحوا يتلاعبون بالدين بما يتلاءم وشهواتهم فصاروا ارباباً من دون الله. كما يصور ذلك القرآن اليكم بقوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران: ٦٤.

الطبيب: لقد كان الوضع هناك مأساوياً حقاً، لم اكن اتصور ان الظروف كانت بهذا ا لشكل الرهيب. الحمد لله الذي لم يجعلنا في ذلك الزمن القاسي المدمر.

سعيد: قد يكون الكثير مما سردته عليك فيه اختصار شديد، والّا فلو أردنا ان نتكلم بالتفصيل لشاهدت الفضائع التي لا تحتمل. ولكن واقولها بصراحة ان الوضع الموجود في عالمكم الغربي اليوم يسانخ في كثير من مفرداته ما استنكرته يا صديقي، نعم قد يكون بشكل مختلف من حيث المصاديق أو الاساليب. فنحن نعيش الآن جاهيلة جديدة، كالجاهلية التي كان يعيش فيها الناس قبل بعثة النبي محمد ﷺ.

البشارة بالنبي محمد ﷺ في التوراة والانجيل

الطبيب: لقد اصبحت الصورة للوضع العالمي الذي صاحب ظهور النبي محمد ﷺ والإسلام واضحةً لدي، والآن نريد ان ننتقل إلى مسألة أخرى، وهي الدلائل التي تدل على نبوة نبيكم، وأوّل شيء اطالب فيه، هو هل يوجد في الكتب السماوية السابقة كالتوراة والانجيل ما يشير إلى نبوته بالاسم أو العلامات أم لا ؟

سعيد: نعم يا صديقي العزيز فان الأنبياء السابقين، كلهم بشروا بهذا النبي العظيم لأنه سيدهم وخاتمهم، واما رسالته فهي المهيمنة على كل الرسالات. ولكن الحديث باستقصاء جيد يطلب وقتاً طويلاً، فهل انت مستعد لسماع كل ذلك.

الطبيب: انا محتاج فعلاً إلى الاستدلال بنبوة محمد ﷺ من التوراة

والانجيل لكي اكون على بصيرة من امري .

سعيد: هل معك ورقة وقلم ؟

الطبيب: نعم وماذا تريد ان تفعل بها ؟

سعيد: حتى املي عليك أرقام وعناوين النصوص للتوراة والانجيل لكي يمكنك مراجعتها حينما تعود إلى بيتك، لأنه لا يمكن لي ان انقل النص كاملاً .

الطبيب: هذا دفتر صغير احمله دائماً معي للضرورات ولا اظن له ضرورة افضل من هذه .

سعيد: اكتب يا صديقي، لقد جاء في سفر التكوين ١٧: ٢٠ مباركة اسماعيل عليه السلام. وفي الاصحاح ٢١: ١٣ جاء ما نصه «ابن الجارية سأجعله أُمَّة».

الطبيب: ومن هو ابن الجارية يا سعيد ؟

سعيد: ابن الجارية هو اسماعيل عليه السلام واما الامة فهي امة الإسلام أي أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه هو النبي الوحيد من نسل اسماعيل عليه السلام .

ولقد جاء في سفر التكوين الاصحاح ٤٩: ١٠ قوله: «لا يزال قضيب يهوذا ومشترع بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع الشعوب». وكلمة «شيلون» عبرية الاصل، وهي بمعنى: «المرسل» واما في اللغة اليونانية فأنها تعني: «الذي له الكل» وبالسريانية تعني: «الذي سيرسل».

الطبيب: قد تكون هذه الآية تنطبق على النبي موسى عليه السلام أو النبي داود عليه السلام فلماذا جعلتها تشير إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؟

سعيد: اما عدم انطباقها على موسى عليه السلام، لأنّه أول من نظم اسباط بني اسرائيل الاثنى عشر، ولم يظهر قبله أي نبي، أو ملك من سبط يهوذا .

واما عدم انطباقها على داود عليه السلام فقد كان اول ملك ينحدر من سبط يهوذا.

الطبيب: يبقى احتمال انطباقها على المسيح عليه السلام.

سعيد: وهذا أيضاً غير ممكن يا صديقي لأنه عليه السلام نفسه رفض الفكرة القائلة بان المسيح عليه السلام الذي كانت تنتظره بنو اسرائيل هو احد ابناء داود عليه السلام وذلك واضح في انجيل متي الاصحاح ٢٢: ٤٢ ـ ٤٥ وفي انجيل لوقا الاصحاح ٢٠: ٤١ ـ ٤٤. اضافة إلى ان المسيح عليه السلام لم يترك قانوناً مكتوباً ولم يكن ملكاً. لقد انقرض نسل يهوذا منذ مئات السنين فاين «شيلون» اذن ؟

الطبيب: زدني يا استاذ سعيد من هذه النصوص.

سعيد: جاء في سفر التثنية الاصحاح ١٨: ١٥ واعمال الرسل الاصحاح ٣: ٢٢ وفي اعمال الرسل أيضاً الاصحاح ٧: ٣٧ ما نصه: «يقيم لك الرب إلهك من وسطك من اخوتك مثلي. له تسمعون».

فكلمة «من وسطك» يعني يهود المدينة المنورة حيث اسس محمد صلى الله عليه وآله وسلم اول دولة اسلامية. وكلمة «اخوتك» تعني العرب، فهم ابناء اسماعيل عليه السلام اخ اسحاق عليه السلام كما في سفر التكوين الاصحاح ١٦: ١٢ .

الطبيب: ولماذا لا تفترض ان كلمة «اخوتك» المقصود منها بني اسرائيل .

سعيد: لو كان الأمر كذلك، لكان الأولى ان يستخدم كلمة «منكم» بدل «اخوتك». واما كلمة «مثلي» فهي تنطبق على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

سعيد: ولماذا لا نفرضها تنطبق على عيسى عليه السلام ؟

سعيد: لانه ثمة متشابهات بين موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم غير موجودة في عيسى عليه السلام. لان كلا من محمد صلى الله عليه وآله وسلم وموسى عليه السلام :

أ ـ له اب وام وليس لعيسى عليه السلام اب .

ب ـ ولادتهما طبيعية، أي بوجود زوج وزوجة بينما ولد عيسى عليه السلام بكلمة من الله سبحانه.

جـ ـ تزوجا وانجبا بينما عيسى عليه السلام لم يتزوج أو ينجب .

د ـ كلاهما نبي وحاكم، واما المسيح عليه السلام فلم يأت بشريعة جديدة ولم يحكم قومه.

هـ ـ كلاهما مات ميتة طبيعية، ودفنا في الأرض، بينما عيسى عليه السلام رفعه الله إلى السماء.

و ـ ما جاء في الاصحاح ٣٤: ١٠ ما نصه: «لم يقم بعد نبي في اسرائيل مثل موسى».

الطبيب: وهل ثمة نص اخر مشابه لهذا يوضح لنا الفكرة اكثر.

سعيد: نعم فقد جاء في سفر التثنية الاصحاح ١٨: ١٨ ـ ٢٢ ما نصه: «اقيم لهم نبياً من وسط اخوتهم مثلك، واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به أنا اطالبه. واما النبي الذي يطغي فيتكلم بأسمي كلاماً لم اوصه ان يتكلم به أو الذي يتكلم باسم الهة أخرى فيموت ذلك النبي. وإن قلت في قلبك كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب. فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يضر فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبي فلا تخف منه».

الطبيب: أرجو منك يا استاذ سعيد ان تحلل لي هذا النص .

سعيد: اذا جأنا إلى كلمة «مثلك» فسوف نجد انها لا تنطبق على النبي عيسى عليه السلام فهو ليس كموسى عليه السلام كما تقدم.

اما كلمة «اخوتهم» فهي تعني العرب كما بينا في النص السابق. واما عبارة «واجعل كلامي في فمه» فالمقصود هو القرآن الكريم كلام الله سبحانه وتعالى. والوصية في قوله «بكل ما اوصيه به» فهي تعني الشريعة الإسلامية .

واما قوله «ويكون ان الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به بأسمي أنا اطالبه».

فهو يدل على وجوب اتباع النبي محمد ﷺ وعقاب من لا يفعل ذلك. وقوله «يتكلم به بأسمي» فهذا ما نجده ينطبق على القرآن حيث ان كل سورة تبدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم». طبعاً ما عدا سورة التوبة، وهي موضع خلاف بين المسلمين من انها سورة مستقلة أو جزء من سورة ولا يضر بالعموم تخلف فرد واحد لوجود المانع لا لعدم المقتضي.

الطبيب: ولكن ما معنى قوله: «فما تكلم به النبي بأسم الرب ولم يحدث ولم يضر فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب... الخ».

سعيد: يعني ان الكلام الذي يقوله هذا ا لنبي من النبوءات التي يخبر بها لابد من تحققها، والّا فلا يكون هذا الشخص نبياً حقاً. وإذا جئنا إلى نبينا محمدﷺ فانا نجد ان ثمة الكثير من النبوات التي تحدث بها، وتحققت على أرض الواقع كما سوف نبين ذلك عند الحديث عن اعجاز القرآن، والادلة الأخرى على نبوة محمد ﷺ .

الطبيب: وماذا في جعبتك من النصوص، أيضاً يا سعيد .

سعيد: نعم يا صديقي فقد جاء في سفر التثنية الاصحاح ٣٢: ٢١ وفي رسالة رومية ١٠: ١٩ ما نصه: «فانا أغيرهم بما ليس شعباً. بأمة غبية أغيظهم». ومن الواضح كما ذكرنا سابقاً بان العرب قبل الإسلام كانوا قبائل متفرقة لا

يشكلون شعباً متجانساً كبقية الشعوب امثال اليونان أو المصريين أو غـيرهم. ومن هنا فيتعين ان يكون مقصود هذا المقطع، هم العرب الذين يعتنقون دين الإسلام .

واسمع هذا النص يا صديقي فقد جاء في الاصـحاح ٣٣: ٢ مـن سـفر التثنية «فقال جاء الرب من سينا واشرق لهم من ساعير، وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس، وعن يمينه نار شريعة لهم فاحب الشعب جميع قديسيه في يدك وهم جالسون عند قدمك من اقوالك».

الطبيب: وما ربط ذلك بمسألتنا.

سعيد: هناك مفردات لابد ان ابينها لك حتى نرى انسجامها مع ما نقوله ونستدل عليه وهي :

١ ـ «الرب» وتعني كلمة الله سبحانه وأوامره .

٢ ـ «سينا» صحراء في مصر، وهي مكان تلقي موسى عليه السلام للتوراة .

٣ ـ «ساعير» جبال في فلسطين حيث تلقى عيسى عليه السلام الانجيل .

٤ ـ «فاران» مكة المكرمة حيث سكن اسماعيل عليه السلام وامه كما في سفر التكوين الاصحاح ٢١: ٢١. وطبعاً مكة لم يكن لبني اسرائيل اية علاقة بـها وهي مكان تلقي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بداية الوحي الالهي.

٥ ـ «نار شريعة» يعني الإسلام الذي هو الوحيد في الجزيرة العربية .

٦ ـ «القديس» تعني المؤمن كما فـي رسـالة بـولس إلى أهـل فـيليبي الاصحاح ١: ١ .

٧ ـ «اقوالك» هو القرآن الكريم .

وحينئذ اصبح واضحاً يا صديقي العزيز بان هذا النص يبشر بالنبي محمد صاحب الشريعة الذي يظهر في مكة والذي يؤمن بالله وكلماته وكـل الأنـبياء

والمرسلين وينزل الله تعالى عليه القرآن الكريم الذي هو كلامه سبحانه.

الطبيب: لقد قرأت الكتاب المقدس عشرات المرات، ولم يخطر في ذهني هذه الأمور التي تذكرها. فكيف توصلتم اليها يا سعيد ؟

سعيد: أرجو ان تسمع المزيد حتى تعرف بانا المسلمون نعلم كتابكم المقدس اكثر منكم. امثال ما في المزمور ٨٤: ٤ ـ ٦ ما نصُه: «طوبى لأناس عزهم بك. طرق بيتك في قلوبهم. عابرين في وادي البكاء يصيرونه ينبوعاً. أيضاً ببركات يغطون موره. يذهبون من قوة إلى قوة».

فهذا النص يدل على النبي محمد ﷺ لأن وادي البكاء يعني مكة التي لها اسم آخر وقد ورد في القرآن أيضاً وهو «بكة»، والقرينة على ذلك قوله «يثيرونه ينبوعاً» الذي هو اشارة واضحة إلى بئر زمزم الذي كان مورداً للبركات على أهل مكة كما هو واضح، وبعد ان جاء النبي ﷺ اصبح العرب كما يقول النص «يذهبون من قوة إلى قوة» حيث فتحوا المشرق والمغرب، وسيطروا على اغلب بقاع الدنيا .

الطبيب: لقد حيرتني يا سعيد بهذه الكلمات والله ما أدري ما اقول .

سعيد: اتريد ان ترى كيف ان اصحاح اشعياء ٢١: ٧ ـ ١٧ يؤكد على حادثة وقعت في حياة النبي ﷺ حيث توفي في السنة العاشرة من البعثة أبو طالب عم النبي والمدافع عنه امام كفار قريش، مما جعل قريشاً تتمادى في ايذاء النبي ﷺ والمسلمين الذين في مكة، وكان الإسلام قد امتد إلى يثرب، فقد آمن به نفر من قبيلتي الأوس والخزرج، وأخذ الإسلام ينتشر هناك، مما جعل قريش تفكر في قتل النبي ﷺ فقررأيهم على ان ينتخبوا أربعين رجلاً من كل قبيلة رجل واحد فيهجمون عليه ليلاً فيقتلونه، ولايتمكن حينئذ بنو هاشم ـ

الذين هم قبيلة النبي عليه السلام - من الطلب بدمه لتوزعه بين القبائل، وفعلاً اجتمعوا وبأيديهم سيوفهم، لكن الله حفاظاً على نبيه أنبأه بكيدهم وأمره أن يخرج إلى يثرب، وان يطلب من علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان ابن عمه ان ينام في فراشه .

واما النبي فقد خرج من بينهم، وهم لا يحسون به فقد القى الله النعاس في عيونهم فنجاه الله تعالى، وتوجه إلى يثرب قاطعاً مئات الكيلومترات جائعاً عطشاناً قد انهكه التعب حيث كانت قريش تطارده.

هذه القصة جاءت في هذا الاصحاح بشكل عجيب حيث التطابق الذي يشعر بكيفية الدقة في المعلومات حول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحياته ودعوته الامر الذي يؤكد صدق ما ندعي وكذب وافتراء المنكرين، استمع إلى هذا النص بامعان تام: «وحي من جهة بلاد العرب. في الوعر في بلاد العرب تبتتين يا قوافل الدوانين. هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزه. فأنهم امام السيوف قد هربوا. من امام السيف المسلول ومن امام القوس المشدود ومن امام شدة الحرب».

الطبيب: يزداد عجبي، كيف ان علماء اهل الكتاب من اليهود والنصارى لا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبين ايديهم هذه النصوص التي تدل بما لا يقبل الشك بنبوته ودينه.

سعيد: لا تعجب يا صديقي فان الله تعالى في القرآن يبين السبب الذي جعل هؤلاء ينكرون نبوة هذا النبي العظيم يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ النمل: ١٤. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ

﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٤٦. ومما يدل على انهم يعرفونه كذلك ما جاء في سفرأ شعياء الاصحاح ٢٩: ١٢ ما نصه: «أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتاب ويقال له اقرأ هذا فيقول لا اعرف الكتابة».

فمن الواضح لمن قرأ السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي ان جبرائيل عليه السلام نزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم في غار حراء لاول مرة وامره بالقراءة مكرراً ذلك ثلاث مرات، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم يجيب كل مرة «ما انا بقارىء» فضمه جبرائيل عليه السلام قائلا: ﴿ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن عَلَقٍ﴾ العلق: ١ ـ ٢.

الطبيب: هل عندك نصوص أخرى يا استاذ سعيد ؟

سعيد: نعم فعندي الكثير.

الطبيب: لقد اكتفيت، ولا أريد أكثر من ذلك فقد صار واضحاً ان التوراة والانجيل تؤكدان على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والذي ينكر هذا ما هو الّا معاند بعيد عن الحق والحقيقة .

سعيد: جزاك الله خيراً على هذه الشهادة المنصفة.

الطبيب: الا اني أريد ادلة من نوع آخر، وأرجو ان يكون حديثنا غداً ان شاء حول المعجزة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وآله وسلم لانه كما ذكرتم سابقاً ينبغي لكل نبي ان يقدم معجزة تدل على صدق دعواه فكيف بمن يدعي انه سيد الأنبياء وخاتم المرسلين.

سعيد: لقد طلبت حقك، وسوف احدثك غداً ان شاء الله عن القرآن الكريم الذي هو معجزة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الطبيب: ما اشوقني للقاء غد يا سعيد! .

اليوم الخامس:

أولاً: القرآن معجزة محمد ﷺ الخالدة

التقى سعيد في هذا اليوم بأحد الاصدقاء القدامى، الذي يسمى أحمد بطريق الصدفة وما كان من ذلك الصديق الا ان يطلب من سعيد ان يبقى معه في هذا اليوم الا ان سعيداً اخبره بضرورة ذهابه إلى الوالد لاسيما وان بعض نتائج التحليلات الطبية سوف تخرج في هذا اليوم الامر الذي تتحدد به شكل وكيفية اجراء العملية الجراحية المقررة للحاج عبد الله اضافة إلى برنامجه مع الطبيب الذي لا يود ان يتخلف عنه. ولكنه وعد صديقه بزيارته له في المساء، بل والمبيت عنده كذلك، ففرح ذلك الصديق وابتهج للزيارةالمترقبة لسعيد.

بقي الصديقان معاً اغلب الصباح، وأخذ أحمد يحاول تعريف سعيد على بعض الاماكن المهمة من الناحية التاريخية والعلمية وكان سعيد قد اصطحب معه الة التصوير التي استغلها في هذه الجولة احسن استغلال، حيث التقط مجموعة من الصور الجميلة لتلك الاماكن الرائعة لكي تبقى ذكرى طيبة للايام التي قضاها في هذا البلد .

وما ان حانت الساعة الثانية عشر ظهراً الا وسعيد امام والده في المستشفى ومعهما ذلك الطبيب حيث اخذ يطلع سعيداً على نتائج الفحوصات الطبية للحاج عبد الله وبشره بانها ايجابية، وما بقي الّا بعض الأمور التي لابد من التأكد منها وسوف يكون موعد العملية في بداية الاسبوع القادم بأذن الله.

توجه سعيد مع الدكتور إلى غرفته، وبعد ان تناولا شيئاً من الطعام طلب

الطبيب من سعيد ان يكون الحديث في غرفته بسبب كونه الطبيب المناوب في هذا اليوم، مما يستلزم ان يكون قريباً من المرضى، فلم يمانع سعيد ابداً.

الطبيب: لقد وعدتني ان يكون حديث اليوم، عن معجزة محمد ﷺ المتمثلة بالقرآن اليس كذلك؟

سعيد: نعم يا صديقي فسوف يكون حديثنا حول هذا الموضوع. فنقول: هل تتصور يا دكتور بان القرآن الكريم كتاب عادي فيه مجموعة من الوصايا والتعاليم الالهية ؟

الطبيب: المتبادر إلى الذهن ذلك، فمثله مثل الكتب السماوية السابقة .

سعيد: الواقع غير هذا تماماً فان القرآن الكريم الذي هو كلام الله تعالى الملقى على قلب النبي الخاتم هو المعجز الذي جاء به رسول الله ﷺ وافحم كفار قريش به، بل وتحدى كل البشرية ان يأتوا بمثله، بل ببعضه بقدر سورة واحدة. قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة: ٢٣ .

ومن هنا سوف نتكلم عن عدة وجوه للاعجاز القرآني فمنها الوجه البلاغي الذي كان هو الاعجاز الاساسي في عصر الرسالة من خلال لفظه الجميل، ومعناه البليغ، ونظمه المعجب، واسلوبه الرائق. ولذلك ادهش عقول الفصحاء والبلغاء في عصر النبي، ولم يزل يدهش كل عربي ملم بلغته، أو غير عربي عارف باللغة العربية، من غير فرق بين جيل وجيل .

وكذلك سوف نتحدث عن الاعجاز العلمي الذي اصبح واضحاً جداً بفضل ما توصل إليه العلم الحديث. وهذا الجانب أيضاً له فروع متعددة امثال الفلك والطب وغيرها. ثم نتحدث عن التنبؤ بالمغيبات التي ذكرها القرآن الكريم.

الفرق بين اعجاز محمد ﷺ واعجاز الأنبياء عليهم السلام

الطبيب: قبل ان تبدأ بهذه التفاصيل في ودّي ان اطرح هذا التساؤل وهو: ان من المعروف ان الأنبياء السابقين، كانت معاجزهم تنصب على الجانب التكويني، امثال انفلاق البحر لموسى عليه السلام وتحويل العصا ثعباناً، واحياء الموتى لعيسى، وغير ذلك فلماذا اذن اختصت معجزة محمد ﷺ بالجانب الكلامي .

سعيد: الاجابة عن ذلك بوجهين:

الأول: اذا كان المعجز عبارة عما يخرق نواميس الطبيعية، فلاشك بان معرفة ذلك يختص بعلماء الصنعة التي يشابهها ذلك المعجز، فان علماء اي صنعة اعرف بخصوصياتها، فهم يميزون بين ما يعجز البشر عن الاتيان بمثله، وبين ما يمكنهم. ولذلك فالعلماء اسرع تصديقاً بالمعجز من غيرهم، واما الجاهل فباب الشك عنده مفتوح على مصراعيه مادام جاهلاً بمبادئ الصنعة، وما دام يحتمل ان المدعي قد اعتمد على مبادئ معلومة عند الخاصة من اهل تلك الصنعة.

ولذلك اقتضت الحكمة الالهية ان يخص الله كل نبي بمعجزة تشابه الصنعة المعروفة في زمانه، والتي يكثر العلماء بها من اهل عصره، فانه اسرع للتصديق واقوم للحجة. فكان من حكمته ان يخص موسى عليه السلام بالعصا، واليد البيضاء لما شاع السحر في زمانه وكثر السحرة. ولذلك كان السحرة اسرع الناس إلى تصديق برهانه لعلمهم ان ما اتى به موسى عليه السلام خارج عن حدود السحر، فتيقنوا من كونه معجزة إلهية.

وشاع الطب اليوناني في عصر المسيح ﷺ، واتى الاطباء في زمانه بالعجب العجاب، وكان للطب رواج باهر في سوريا وفلسطين، فشاءت الحكمة الالهية ان تجعل برهان المسيح شيئاً يشبه الطب، فقام بأحياء الموتى، وإبراء الأكمة والابرص، ليُعْلِم أهل زمانه ان ما اتى به خارج عن قدرة البشر.

واما نبي الإسلام، فقد ادعى النبوة بين العرب، وكان الفن الرائج بينهم هو الشعر والخطابة، فقد برعوا في البلاغة، وامتازوا بالفصاحة، وبلغوا الذروة في فنون الأدب. وكانوا يعقدون النوادي ويقيمون الاسواق لإلقاء الخطابة والشعر، وكان المرء يقدَّر على حسب ما يحسنه من إلقاء الخطب الرنّانة، والاشعار البليغة.

وقد بلغ تقديرهم للأدب والشعر إلى حد عمدوا إلى قصائد سبع، من خيرة اشعارهم، فعلقوها على جدران الكعبة، بعدما كتبوها بماء الذهب، فكان يقال هذه مذهَّبة امرئ القيس اذا كانت اجود الشعر.

كما بلغ اهتمام رجال العرب ونسائهم بالخطابة والشعر إلى انهم كانوا يحتفلون كل عام في موسم الحج احتفالات كبيرة لإلقاء الخطب والاشعار. وكان النابغة الذبياني هو الحَكَم في تمييز الراجح من المرجوح، فيأتي سوق عكاظ وتضرب له فيه قبة حمراء من الأدم، فيأتيه الشعراء، فيعرضون كل قصائدهم التي صاغها طيلة السنة المتقدمة.

وفي هذه الاجواء، كانت المناسبة تقتضي ان تكون معجزة المدعي للنبوة مشابهة للفن الرائج في ذلك الظرف، فلذلك جاء بمعجزة البيان وبلاغة الكلام، حتى يعرف كل عربي أو الاخصائي منهم، ان قرآنه بعذوبته وحلاوته، وسمو معانيه وعمقها، وروعة نظمه وبديع اسلوبه، خارج عن اطار الكلام الرائج بين فصحاء العرب، وبلغائهم أولاً، وخارج عن طاقتهم ومقدرتهم ثانياً.

الطبيب: جواب متين ومفيد وما هو الامر الثاني:

سعيد: واما الوجه الثاني يا صديقي العزيز فان اختصاص النبي ﷺ بهذه المعجزة ناتج عن الفرق الواضح بين دعوته ودعوة سائر الأنبياء، فان دعوتهم وشريعتهم كانت محدودة زماناً ومكاناً، أو من حيث الزمان فقط. ولاجل ذلك كانوا يبشرون بمجيء نبي آخر ينسخ بشريعته شرائع الأنبياء قبله. ومثل تلك الدعوات يكفي في اثباتها وجود معاجز تنقلها الاجيال التالية لهم بصورة الامر المتواتر، ومثل هذه المعاجز لا تكفي للدعوة الخالدة، لان الإيمان بالمعاجز والاذعان بصحتها من خلال نقلها بالتواتر يزول بمضي الزمان، إلى حد تصبح معه أموراً ظنية، غير قابلة لأتمام الحجة للاجيال المتلاحقة.

فلأجل ذلك اقتضت الحكمة الالهية ان يكون الدين الخالد مقروناً بالمعجزة الخالدة، حتى تتم الحجة على جميع الاجيال والقرون إلى ان تقوم الساعة، وهذا لا يمكن الّا بان يكون الاعجاز وجوداً خالداً، وثابتاً عبر القرون، وليس ذلك الا ان يكون مثل القرآن.

الطبيب: حينئذ لا يوجد للنبي محمد معجزة سوى القرآن؟!

سعيد: ليس الأمر هكذا، بل هناك معاجز أخرى موجودة سوف نتطرق اليها بعد ذلك الا ان القرآن هو اهم المعاجز، وهو الخالد من بينها .

أ ـ الاعجاز البياني للقرآن الكريم

الطبيب: ارجو ان توضح لي الاعجاز البلاغي والبياني للقرآن باعتبار تحقق التحدي به .

سعيد: لقد ذكرنا فيما سبق، بان العرب امتازوا بفن البلاغة والفصاحة ودقة المعاني، وقبل الكلام في تفاصيل ذلك لابد ان تعرف ماذا تعني كل

واحدة من هذه المفردات.

اما الفصاحة فتعني: الظهور والبيان، تقول: أفصح الصبح اذا ظهر. والكلام الفصيح ما كان واضح المعنى، سهل اللفظ، جيد السبك. وانما تكون الكلمة كذلك اذا كانت مألوفة الاستعمال بين النابهين من الكتاب والشعراء، لأنها لم تتداولها ألسنتهم، ولم تجربها اقلامهم، الا لمكانها من الحسن باستكمالها جميع ما تقدم من نعوت الجودة وصفات الكمال.

واما البلاغة: فهي تأدية المعنى الجليل واضحاً بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النفس اثر خلاب، مع ملاءمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه، والاشخاص الذين يخاطبون. وليس هناك فرق بين البليغ والرسام الا ان هذا يتناول المسموع من كلام. وذلك يشاكل بين المرئي من الالوان والاشكال، اما في غير ذلك فهم سواء، فالرسام اذا هم برسم صورة فكر في الالوان الملائمة لها، ثم في تأليف هذه الالوان بحيث تختلب الابصار وتثير الوجدان، والبليغ اذا أراد ان ينشيء قصيدة أو مقالة أو خطبة فكر في اجزائها، فياتي بالالفاظ والاساليب الخفيفة على السمع، واكثرها اتصالاً بموضوعه، ثم اقواها اثراً في نفوس سامعيه وأروعها جمالاً. فالبلاغة ليست في اللفظ وحده، وليست في المعنى وحده، ولكنها اثر لازم لسلامة تأليف هذين وحسن انسجامهما.

الطبيب: وهل كان القرآن كذلك ؟

سعيد: بل كان اكثر من ذلك بحيث ابهر العقول وحير الالباب. فمثلاً نجد ان قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ الشورى: ٣٢. في غاية الفصاحة فان لهذه الآية تميزاً ذاتياً عن كلام البشر لا يتمارى فيه منصف، ولا يشتبه على من له ذوق في معرفة فصاحة الكلام، وذلك التميز رهن فصاحة

أبنيتها وعذوبة تركيب أحرفها، مضافاً إلى سلاسة صيغها والشاهد على ذلك كله الذوق السليم.

أو قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]. فقد اجتمعت في هذه الآية ثمانية عشر ميماً منشورة بين كلماتها حتى كأن الآية مشكلة كلها من الميمات، ومع ذلك فانك اذ ترتل الآية الكريمة على الوجه الذي يرتل به القرآن، لا تحس ان هنا حرفاً ثقيلاً قد تكرر تكراراً غير مألوف بل تجد الآية قد توازنت كلماتها في اعدل صورة واكملها.

الطبيب: ان هذا الكلام جميل جداً يا سعيد .

سعيد: لو انك كنت عربياً فصيحاً لأدركت عظمة هذه الكلمات، ولا أريد ان اطيل عليك في هذا الموضوع والمهم عندي ان اذكر لك شهادات أهل التخصص في زمن الصفاحة والبلاغة اي عند نزول القرآن الكريم لكي ترى بعد ذلك كيف ان القرآن اخذ بمجامع القلوب في فصاحته وبلاغته وعذوبة الفاظه وسلاسة تعابيره وعمقها.

فهذا الوليد بن المغيرة المخزومي الذين كان احد سادة قريش وفصحاء العرب حينما سمع آية من القرآن. لم يتمالك نفسه ـ وهو من اشد اعداء النبي ﷺ وأبغضهم للإسلام ـ فأخذ يصرح على رؤوس الملأ من قومه: «يا عجباً لما يقول ابن ابي كبشة، فو الله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي جنون، وإن قوله لمن كلام الله». ومرة أخرى حينما سمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَٱلْبَغْيِ

﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. فقد اعجبته كثيراً فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن اسفله لمغدق، وإن اعلاه لمثمر، ما هذا بقول بشر» .

الطبيب: هل عندك قصة أخرى وشاهد آخر من البلغاء أو الشعراء .

سعيد: اين انت من الطفيل بن عمرو الدوسي الذي كان شاعراً لبيباً من أشراف العرب، كان قد قدم مكة ورسول الله ﷺ بها. فمشى إليه رجال من قريش وقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين اظهرنا قد أعضل بنا ـ اي اوجد مشكلة عندنا ـ وقد فرق جماعتنا وشتَّت امرنا، وانما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين ابيه، وبين الرجل وبين اخيه، وبين الرجل وزوجته، وإنا نخشىٰ عليك وعلى قومك ما دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئاً .

وكانت قريش قد تخوفت من اسلام الطفيل، الشاعر المفلق، وللشعر عند العرب مكانة سامية، فاذا اسلم اندفعت العرب وراءه .

قال ابن الطفيل: فو الله مازالوا بي حتى اجمعت ان لا اسمع منه شيئاً ولا أُكلمه، حتى حشوت اذني حين غدوت إلى المسجد قماشاًخوفاً من ان يبلغني شيء من قوله .

قال: فغدوت إلى المسجد واذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقمت قريباً منه، فأبى الله الا ان يسمعني بعض قوله: فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: واثكل امي، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني ان اسمع من هذا الرجل ما يقول، فان كان الذي يأتي به حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته.

قال: فتبعته إلى بيته، وحدثته الحديث. وقلت له: اعرض علي امرك. قال فعرض ﷺ عليّ الإسلام وتلا عليّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط احسن منه، ولا أمراً اعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق. فرجع إلى قومه وكان داعية الإسلام، واسلمت معه قبيلة دوس .

فهذه شهادة شاعر لبيب له مكانته عند العرب، وله معرفته وذوقه وسليقته، جذبته روعة كلام الله تعالى وقلبته من كافر وثني مشرك إلى داعية من دعاة الإسلام .

الطبيب: ما أعجب هذا! والله ان أمر العرب الذين لم يؤمنوا بالاسلام لغريب حقاً. اليس من الافضل العدول من الوثنية إلى التوحيد، ومن الهمجية إلى الحضارة والعلم والمعرفة، ومن الباطل والظلم إلى الحق والعدل .

سعيد: ان المصالح الدنيوية والمطامع الشهوانية في حب الرئاسة ونزعة التسلط والكبر والغرور والطغيان كل ذلك يجعل الإنسان اعمى عن إبصار الحقيقة أو اتباعها وهؤلاء الذين عاندوا محمداً ﷺ كانوا كذلك. والا فان القرآن الكريم كما يعبر هو عن نفسه بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٢٣].

نعم هو احسن حديث سمعته العرب، بل البشرية جمعاء، كتاباً متشابهاً، لا يختلف اسلوبه في التعبير والأداء، في أبدع لفظ وافخم معنى، في روعة واناقة وإكبار، لا يختلف اوله عن آخره، ولا اطرافه عن وسطه.

مثاني تتكرر قرأته من غير ملل ولا كسل، بل هو المسك ما كرّرته يتضوع.

ان الانفس البشرية تهتز وجداً عند استماعه، وتطرب خفة عند تلاوته، إنها جذبة روحية تنجذب النفس انجذاباً من داخلها حيث جذوات الروح الملتهبة، وليس وهماً أو خيالاً شعرياً في تيه الهيام.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

﴿كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

نعم تلك قلوب واعية تتفتح مساربها تلقاء آيات الذكر الحكيم، لا لشيء سوى انها نفوس مستعدة صنعها خالق السماء، وها هي كلماته المشرقة وجدت مواضعها فهبطت اليها .

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣ ـ ٨٤].

الطبيب: مطرقاً إلى الأرض وقد خيم على المكان صمت عجيب لا تسمع فيه غير الأنفاس تعلو وتهبط تسبح لله تعالى وتشهد على ما دار في هذه الحجرة المغلقة بين سعيد والطبيب. ثم يرفع الطبيب رأسه وقد غمرت دموعه وجهه وهو يقول: والله ما ادري ما اقول لقد امتلأ قلبي نوراً وسناءً وكأنّ صوت الله يناديني في أعماقي ووجداني، ان هذا لهو الحق ولا محيص عنه.

سعيد: مشاركاً اياه البكاء: صدق هذا الصوت يا دكتور فانه صوت الفطرة السليمة التي تدعوا إلى الله وإلى الإسلام كما يقول سبحانه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

ب ـ الاعجاز العلمي للقرآن

الطبيب: أرجو ان تحدثني عن الاعجاز العلمي في القرآن الكريم .

سعيد: حبّاً وكرامة يا اخي العزيز. ولكن الحديث عن تفاصيل الاعجاز العلمي للقرآن يتطلب حديثاً طويلاً لا مجال له الآن، ولكن سوف نأخذ مقتطفات منوعة من ذلك .

الطبيب: لا توجد أي مشكلة فانه يكفي ذكر النموذج لكي يدل على وجود هذا الاعجاز.

سعيد: في البداية لابد ان انبه على مسألة مهمة قبل الخوض في الاعجاز العلمي للقرآن وهي: انه لاشك ان القرآن، كتاب حكمة وهداية وتربية وإرشاد. لقوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الاعراف: ١٥٧]. وقوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [المائدة: ١٦].

هذه هي رسالة القرآن رسالة الله في الأرض. ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨]. اذن فليس القرآن كتاباً يعنى بدراسة الطبيعة أو الفلك أو الطب أو ما شابه ذلك. نعم فيه من ذلك اشارات عابرة جاءت في عرض الكلام، وإلماعات خاطفة وسريعة إلى بعض اسرار الوجود، وإلى طرف من كوامن اسباب الحياة، ولكن اجمالاً وفي غموض تام يعرفها العلماء الراسخون، اذ لم تصدر على سبيل القصد والبيان، وهي في نفس الوقت تنم عن خضمٍّ بحر لا ينفد، وعن مخزون علم لا يتناهى .

نعم انها شذرات بدت من طيّ كلامه تعالى، ورشحات فاضت من عرض بيانه، كانت عظيمة ومتينة، كلما تقدم ركب الحضارة، وتألق نجم العلم والمعرفة على آفاق الوجود، واذا بالقرآن يسبق الإنسان بخطوات، ولا يكاد يلحق بأذياله في هذا المسير، كما يقول تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰناً لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

الطبيب: هذه ملاحظة جيدة تدفع توهم ان القرآن كتاب علمي أو أدبي .

سعيد: ولكن هذا لا يعني بان القرآن في جوانبه الأخرى ليس فيه تحد وإعجاز يبهر العقول، بل هو كذلك، وكل يوم يكتشف شيء جديد للقرآن.

ولنبدأ الآن بذكر بعض الآيات لنرى ما تنطوي عليه من اعجاز علمي عجيب، قال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥].

فان هذه الآية الكريمة تدل على كروية الأرض، لأنه لا يمكن ان يحدث التكوير المذكور في الآية الا اذا كانت الأرض كروية. فهذه الآية هي اوضح الآيات دلالة لنا على كروية الأرض في الكتاب العزيز .

لقد كان ادراك وتصور هذه الحقيقة صعباً على الناس، قديما. فهم لم يعلموا حينئذ بجاذبية الأرض، فلا يمكن ان يصدقوا بانهم يقفون على سطح كرة عظيمة، فهذه الآية جاءت بهذه الحقيقة، قبل ان يمكن للناس ادراك ذلك ومعرفته بزمن طويل .

الطبيب: وهل اشار القرآن إلى حركة الأرض ؟

سعيد: نعم يا صديقي فان الله تعالى يقول: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]. فهذه الآية تؤكد ان دوران الكرة

الأرضية الهائلة، والذي بلغ في هدوئه حداً تحسبها معه بانها جامدة. ثم ان الأرض وهي تدور بسرعة حول نفسها، لا تترك السحب ثابتة حيث هي، بل إنها، وكل ما في غلاف الأرض الجوي، يتبعها كذلك سقفاً محفوظاً اين ما سارت.

ولغير العارف بدوران الأرض، فان تعبير ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يشير إلى حركة الجبال كحركة السحاب التي نراها، والمسببة عن دفع الرياح لها. ولكن الواقع خلاف ذلك. اما العليم بكتاب الله، حق العلم، فانه يعلم أيضاً بان السحاب يتبع الأرض في حركتها السريعة.

الطبيب: من الواضح عند العلماء ان الأرض ليست كروية، وانما هي على شكل بيبضوي فهل للقرآن اشارة إلى ذلك ؟

سعيد: نعم وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠].

فالأدحُوة والأدحِيَّة في اللغة بيض النعام في الرمل. فهذه الآية تدل على بيضوية الأرض بلا شك.

الطبيب: هل هناك آية أخرى حول حقيقة علمية بخصوص الأرض ؟

سعيد: نعم وهو قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰداً وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ [النبأ: ٦ـ٧].

فمعنى «الرواسي» هي الجبال الثوابت. ومعنى «ان تميد بكم» ان لا تميل وتتحرك وتضطرب. ومعنى «والجبال اوتاداً» كالأوتاد للأرض، أي ارسيناها بالجبال لئلا تميد وتضطرب .

وكما تعلم يا صديقي، فان العلماء اكتشفوا في القرن العشرين، بان الأرض تتصدع وتتحرك الواح قشرتها بشكل دائم، ولكن ببطءٍ لا يحس به احد، فالجبل الذي يخرج من باطن الأرض إلى سطحها هو بمثابة الوتد الذي يثبّت قشرة الأرض عن جانبيه، ولقد اثبت علمياً ان الجبل يمتد أربع مرات ونصفاً تقريباً، داخل طبقات الأرض السفلى، حسبما اثبتته وسائل التصوير الهولوغرافي.

الطبيب: حقاً انها آيات تدل على الحقائق العلمية بشكل لطيف .

سعيد: اسمع هذه الآية يا دكتور وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

فان من معاني اختلاف الليل والنهار امران تعاقبهما واختلاف خواصهما. اذ لولا ان الأرض تدور حول نفسها بشكل مائل لحصل على ارضنا الآتي:

١ ـ انعدام الفصول تماماً زماناً ومكاناً .

٢ ـ لتساوىٰ الليل والنهار.

٣ ـ لتفاوتت درجات الحرارة بين الليل والنهار تفاوتاً كبيراً تنعدم معه إمكانية الحياة على سطح الأرض .

٤ ـ لاختلّ كل النظام البديع في تصريف الرياح، وتوزيع السحب والماء في مختلف بقاع الأرض .

طبعاً وفي كل هذه النتائج لا يمكن للانسان العيش على سطح الأرض .

الطبيب: احسنت يا استاذ سعيد على هذه الاشارات الواضحة لما يحمله القرآن من اسرار الكون.

سعيد: طبعاً هناك العشرات من الحقائق التي ذكرها القرآن حول

موضوعات مختلفة، امثال حقيقة السموات والأرض واصل الخلقة وكون الماء أصلاً للحياة وغيرها، وقد الف المسلمون العديد من الكتب في هذا الموضوع.

الاعجاز الطبي في القرآن

الطبيب: اذا كان ثمة مسائل حول الطب، فأرجو ان تتحفني بها لأنها اقرب إلى تخصصي كما تعلم .

سعيد: ولم لا فالقرآن زاخر بآيات تتعلق بجسم الإنسان وما ينفع الإنسان في حياته كقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٧].

فهذه الآية تتحدث عن أصحاب الكهف الذين اختبأوا في الكهف خوفاً على دينهم وناموا هناك وما استيقظوا الّا بعد قرون بقدرة الله تعالى لكي يكونوا آية للانسان وليعلم الناس عظمة الله وقدرته ويؤمنون بيوم القيامة، حيث سيبعثون كما بعث أصحاب الكهف. والآية تريد ان تتحدث عن الوضع الذي كانوا يعيشون فيه، وهم نائمون وكيف ان الله تعالى هيأ أسباب بقائهم هذه المدة الطويلة من دون ان يتعرضوا لما يفسد ابدانهم. فقد كانوا يعيشون في محيط كبير وهو الكهف، وكانت هناك فتحات في ذلك الكهف يمر من خلالها الهواء ويتبدل، وضوء واشعة الشمس بحيث لا تصل إلى اجسامهم مباشرة لا عند طلوعها ولا عند غروبها.

وأريد ان اسألك يا دكتور عن اضرار تعرض الشخص النائم إلى اشعة الشمس فماذا تقول لي؟

الطبيب: بالطبع فان الإنسان النائم، ينخفض ضغطه، وبذلك تقل الدورة

الدموية بصورة عامة. فاذا سقطت عليه اشعة الشمس مباشرة تؤدي إلى توسع الاوعية والشرايين الخارجية، وامتلائها بكمية كبيرة من الدم وعلى اثره تقل كمية الدم التي تصل إلى الاجهزة الرئيسية، مثل المخ والكلى والكبد والرئة، وبذلك يقل تزويد هذه الاعضاء بالمواد الغذائية والاوكسجين، لأن الدم هو الواسط الاساسي لذلك. وبنفس الوقت ينخفض ضغط الدم إلى درجة كبيرة يؤدي بالانسان المضطجع تحت اشعة الشمس إلى فقدان الوعي والاغماء، أو ما يسمى بـ «الكلد لابس» .

سعيد: اذن يسبب التعرض لأشعة الشمس للنائم اخطار كثيرة. وحيئنذ تسأل مرة أخرى ما هي الفائدة التي يحصل عليها الجسم عند عدم التعرض للشمس بشكل مباشر؟

الطبيب: من الواضح علمياً بانه من دون اشعة الشمس لا يمكن لخلايا متعددة في الجسم البناء والعمل فان لأشعة الشمس اهمية كبيرة، فمثلاً يشكل الجلد بوجود الاشعة فوق البنفسجية فيتامين «دي» والذي يؤدي نقصه إلى ضعف في نمو العظام، وأيضاً إلى تساقط الشعر وقلة الحيوية وغير ذلك.

وكذلك فان لاشعة الشمس فعل المطهر للجراثيم في الجسم وكذلك البيوت والمحلات، وثبت علمياً بانها ضرورية للتطهير بصورة عامة لنمو الحياة على الأرض .

سعيد: احسنت يا دكتور على هذه الأفادات. وحينئذ نرجع إلى الآية الكريمة: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٧]. فنرى ان الموجد سبحانه أبعد عن أهل الكهف اضرار الشمس التي ذكرتموها، وبالمقابل زودهم بجميع الفوائد التي

يحتاجها الجسم منها، والتي ذكرتموها أيضاً. ونشاهد حكمة وضعهم في ذلك الكهف على تلك الحال، ودوران الشمس حولهم فهي لا تشرق عليهم اشراقاً مباشراً متواصلاً فتصيبهم بالاضرار الكبيرة، ولا هي تبتعد عنهم ابتعاداً كاملاً فتتركهم في حجاب كامل عنها ليحرموا من فوائدها.

الطبيب: وماذا بعدُ يا سعيد ؟

سعيد: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَـٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَاءِ﴾ [الانعام: ١٢٥].

فان القسم الأول من الآية المباركة يشير إلى الذين يهتدون للإسلام حيث نراهم تتسع صدورهم للحق ويتفاعلون معه، ويطمئنون إليه لوعيهم وتحررهم من الاغراض والاهداف الشخصية وتحررهم من التقاليد والاهواء، فلا يردون كلمة الحق إذا عرفوها.

واما الذين لا تتسع صدورهم للحق بجهلهم وضيق آفاقهم أو لتناقض منافعهم وأرباحهم أو عاداتهم وتقاليدهم فهؤلاء هم المعنيون بحكم الآية الكريمة عليهم ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَاءِ﴾. وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. وقال في مكان آخر: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

الطبيب: وما مدخلية هذه الآية مع ما نحن فيه من الاعجاز الطبي يا سعيد؟!

سعيد: سوف ابين لك يا صديقي العزيز. حيث ان القاسية قلوبهم هم

اولئك الذين جعل الله صدورهم ضيقة حرجة كما وصف سبحانه، والحرج كما يقول اهل اللغة هو اضيق الضيق. فهؤلاء تصبح صدورهم كالذي يصعد في السماء. فلو تمعنا في هذه الكلمات، وما وصل إليه العلم الحديث لرأينا شيئاً يحير العقل، وتدرك منه المعجزة التي تحتويها هذه الآية. لان الناس عندما سمعوها عند نزولها اعتبروا هذا الشيء وهو الصعود إلى السماء امراً خيالياً، وإن القرآن الكريم قصد الصعود مجازاً لا حقيقة، والواقع ان هذه الآية الكريمة نبوءة تحقَّقت في حياة الناس فيما بعد .

فلو رجعنا إلى ما قام به الغرب والشرق من دراسات متعددة، بدأوها بأرسال اقمار صناعية محكمة الصنع، تحتوي على اجهزة متعددة، وفي داخلها حيوانات تجريبية ليعرفوا ماذا يحدث لهذه الحيوانات عند ارتفاع الاقمار إلى مسافات عالية، فوجدوا ان قسماً من هذه الحيوانات مات، وإن قسماً آخر اصيب بأمراض انعدام الضغط، وحاولوا ويحاولون لحد هذا اليوم لايجاد طريقة يمكن فيها للأنسان وهو في داخل هذه الاقمار الصناعية ان يسيطر على نفسه فلم يستطيعوا، فنرى ان ربان الفضاء قد زود بملابس خاصة، واجهزة معقدة حتى يمكنه البقاء ولمدة معينة من الزمن في الفضاء بدون اضرار، فأفلحوا بجزء وبقي الجزء الثاني، وهو كيف يمكنهم ان يسيطروا على توازنهم فلم يفلحوا، ولهذا نراهم طائرين وهم داخل الاقمار الصناعية.

ان الأرتفاع في الجو لمسافات عالية وبدون أي جهاز اضافي يسبب ضيقاً في التنفس وشعوراً بالاختناق، ويزداد هذا الشعور كلما ازداد الارتفاع حتى يصل إلى درجة حرجة جداً بسبب انخفاض نسبة الاوكسجين والضغط الجوي، وتكون تلك النسبة معدومة في علو (٦٨ ـ ٧٠) ميلاً وعند الوصول اليها يفقد الإنسان

وعيه ثم يموت.

واما انخفاض الضغط الجوي المؤدي إلى انعدام الجاذبية فانه يؤدي إلى نقص مرور الهواء عبر الحويصلات الرئوية إلى الدم حيث ينخفض ضغط الإنسان، وتتمدد غازات المعدة والامعاء حيث تدفع الحجاب الحاجز إلى الاعلى، وهذا بدوره يضغط على الرئتين ويمنع تمددها حيث يضيق التنفس، ويزداد هذا الضيق كلما صعد الإنسان في الجو حتى يحصل لديه نزيف دموي في الانف والفم ثم يسير تدريجياً نحو الموت.

ان معرفة هذه الأمور لم تتم الّا على مراحل مختلفة، ولم يتوصل البشر اليها الا بعد جهود وتضحيات كثيرة، ولا يزال لحد الآن عاجزاً عن حل مشكلة انخفاض الضغط الجوي، وان استطاع ان يحل مشكلة قلة الاوكسجين بالاجهزة الخاصة.

انظر يا دكتور ما اعظم هذه الآية التي تشير إلى هاتين الظاهرتين الموجودتين في اعالي السماء (قلة الاوكسجين، وانخفاض الضغط الجوي) واللتين لم يتوصل اليهما العلم الحديث الا اخيراً. وقرآننا ينادي بها قبل ١٤٠٠ سنة فتبارك الله صاحب الكلمات المعجزة.

الطبيب: ان هذا رائع حقاً ليس لي الا ان اقف، وقفة اعجاب بهذا القرآن وبمن نزل عليه. اود ان تذكر لي المزيد من هذا الاعجاز يا سعيد فانه اقرب إلى نفسي من أي شيء آخر .

سعيد: ان شاء الله تعالى. ولكن أريد ان أسأل جناب الدكتور عن الفوائد الطبية للعسل، فهل يستطيع ان يتحفنا بذلك، وبشكل تفصيلي؟

الطبيب: ولماذا تريد معرفة فوائد العسل الطبية يا سعيد ؟

سعيد: انت فقط بين لنا من موقعك كطبيب هذه الفوائد، ثم سوف ترى المعجزة الالهية في ذلك .

الطبيب: للعسل فوائد طبية متعددة. منها:

أولاً: شمع العسل البروبوليزي. وهو يعتبر من اهم المضادات الحيوية واقواها، والتي توصل اليها العلم الحديث، وهي تتكون من كتلة شمعية، وهي التي تحصل عليها النحلة من الاشجار. والنحل يستعمل هذه المادة للحفاظ على بيوته من الخراب والتعفن الذي يصيبها من مواد غريبة تدخل إلى خلاياها.

ثانياً: ويحتوي العسل على المواد السكرية الطبيعية واهمها سكر العنب، وسكر الفواكه، وهذه السكريات لها اهمية كبيرة في الجسم، وذلك لسرعة امتصاصها، واستخدامها كطاقة كاملة بدون ان يجهد الإنسان نفسه للحصول عليها .

ثالثاً: يحتوي العسل على مجموعة كبيرة من الفيتامينات، مثل مركب فيتامين (پ) وفيتامين (ي) وفيتامين (آ). وهذه الفيتامينات تكون بمقادير مختلفة، وتختلف حسب نوع العسل .

رابعاً: يحتوي العسل على انواع البروتينات، والاحماض الامينية والاحماض العضوية .

خامساً: يعتبر كمادة غذائية مهمة، وذلك لاحتوائه على الخمائر.

سادساً: يحتوي على املاح معدنية، واهمها املاح الكالسيوم، والصوديوم، والبوتاسيوم، والكبريت واليود والحديد.

سابعاً: يحتوي على مادة مثبطة لنمو الجراثيم، وهذه المادة تحافظ على العسل من الفساد .

سعيد: ولماذا تكون مادة العسل مختلفة الالوان ؟

الطبيب: لان العسل شديد التعقيد، يتباين قليلاً في تركيبه باختلاف الزهور التى جنى منها، ولعل السر في ذلك احتواؤه على مواد مختلفة، والتي لم تجتمع في اي مادة غذائية أخرى على الاطلاق. وهذا هو السبب في اختلاف الوان العسل من العسل المختلط، وعسل الحقول، وعسل الربيع وغيره .

سعيد: وما هي فائدة العسل في شفاء المرضى، ارجو ان توضح لي اهم الامراض التي يدخل العسل في علاجها؟

الطبيب: لقد اكتشف العلم الحديث امكانية الاستفادة من العسل لمختلف الامراض وهي كما يلي:

١ ـ التهاب الانف والاذن والحنجرة :

لقد انتج العلماء من مادة البروبوليز كتلة صغيرة يمكن للمريض ان يمضغها ولمدة معينة من الزمن، ثم يبتلعها بعد ذلك، فتكون شفاء لهذا الالتهاب.

٢ ـ لاحظ العلماء ان المرضى الذين يشكون من أرتفاع درجات الحرارة يشفون وتنخفض عندهم درجة الحرارة، بعد اخذ جرعة صغيرة من هذه المادة. وقد استخدموا هذه الطريقة استناداً إلى ان مادة البروبوليز تحتوي على المضادات الحيوية.

ولاحظ العلماء ان الامراض بعد معالجتها بالعسل لا تعود ثانية، وكذلك لم يعثروا على أي ضرر بعد الاستعمال، ولا أي مضاعفات جانبية.

٣ ـ القرحة المعدية: من تجارب طبيبة اجريت في النمسا وألمانيا على

خمسة عشر مريضاً كانوا مصابين بالقرحة، حيث اعطوا مادة العسل، شفي منهم أربعة عشر مريضاً.

وفي النمسا أيضاً عولج (٢٩٤) مريضاً بهذا العلاج فكانت النتائج جيدة وصلت إلى ٩٠ ٪ من المرضى تماثلوا للشفاء.

٤ ـ يستخدم العسل في علاج اليرقان، فقد لوحظ ان المرضى المصابين بهذا المرض بعد اعطائهم مادة العسل تماثلوا للشفاء بسرعة، وذلك لان المواد الغذائية الموجودة في العسل تساعد الكبد على الراحة، وتزوده بالطاقة، هذا اضافة لاحتوائها على المادة المضادة الحيوية.

٥ ـ علاج الحروق: ففي عام ١٩٥٨ م قامت دراسات في روسيا لمعالجة الحروق، فتوصلوا بعد ما عرفوا مفعول مادة البروبوليز الموجودة في العسل إلى نتائج حسنة في علاج المحروقين.

٦ ـ الامراض الجلدية: في دراسات في النمسا، والتي اجريت على الحروق والامراض الجلدية التي اصيب بها الكثير من الشباب، والنساء والتي تعرف بـ (حب الشباب) توصلوا إلى ان مادة البروبوليز تشفي جميع هذه الامراض، ومنها حبوب الجلد المختلفة في الحجم والشكل، وذلك لان قسماً من هذه الحبوب يحتوي على نوع خاص من الجراثيم، والمشهور منها (العنقودية) والعصيات، وكذلك تمكنوا من علاج بعض انواع «الأكزما» بهذه المادة.

٧ ـ استخدم في التخدير الموضعي، وذلك في سنة ١٩٥٥ م فقد استعملوا هذه المادة في العمليات التي تجري في قرنية العين، ووجدوا ان مفعولها يصل

إلى ثلاثة اضعاف مفعول اي مادة أخرى، ومنذ ذلك الوقت اخذوا يستخدمونها في عمليات الأنف والاسنان.

٨ ـ امراض العين: استخدمت مادة العسل لالتهابات القرنية المختلفة وحروق العين.

٩ ـ التهاب المجاري البولية، والمثانة والبروستات حيث يتم علاج هؤلاء المرضى باعطائهم ٣ غرام من البروبوليز لمدة ثلاثة ايام، وبعدها ٢ غرام من نفس المادة ولمدة ثمانية ايام.

١٠ ـ حسب ما نعرف ان المصابين بداء السكر، يجب عليهم الامتناع عن أكل عدد كبير من المأكولات، وبهذه الطريقة وحدها يمكن معالجتهم إلى ٦٠ ٪، واهم المواد التي يجب ان يمتنع عنها المصاب هي: الخبز، والبطاطا، والرز، وكثير من انواع الحلويات والمشروبات الحلوة، وهذه الطريقة صعبة جداً، لان المواد السكرية ضرورية جداً في بناء الجسم، وضارة به عند اصابته بداء السكر، فلهذا يمكن ان نعوض هذه السكريات للمصاب بمادة العسل، فانه يستطيع اخذ العسل بدلاً من السكر، ومن المعروف ان نسبة سكر الفواكه في العسل عالية جداً. فلهذا ينصح بعض العلماء باستخدام العسل بكافة انواعه، ويدرج بجدول «الحمية الخاصة بالسكريين».

واثبتت فحوصات اخرى متعددة انه لا ضرر يصيب المرضى عند اخذهم مادة العسل، وانهم ليسوا بحاجة إلى اخذ مادة الأنسولين بكمية اضافية لتلافي ارتفاع السكر عندهم.

سعيد: احسنت يا حضرة الدكتور لهذه المعلومات القيمة حول العسل واليك المفاجاة الاعجازية فقد اخبر القرآن الكريم بهذه الحقائق التي ذكرتها

اجمالاً قبل ١٤٠٠ سنة حيث قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨ ـ ٦٩].

فهذه الآية المباركة تؤكد ما في العسل من الشفاء للعديد من الامراض. وقد وردت احاديث عن النبي ﷺ واهل بيته الطاهرين تؤكد حقيقة ما جاء في الآية كقول النبي ﷺ: «من شرب العسل في كل شهر مرة يريد به ما جاء به القرآن عوفي من سبعة وسبعين داء». وفي حديث آخر للنبي ﷺ قال: «ان الله عزوجل جعل البركة في العسل، وفيه شفاء من الاوجاع وقد بارك عليه سبعون نبياً».

وقال ﷺ: «عليكم بالشفائين العسل والقرآن». يشير بالعسل إلى الشفاء الجسدي والقرآن إلى الشفاء الروحي.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال: «العسل شفاء من كل داء، ولاداء فيه يقلل البلغم ويجلو القلب».

وعن الامام جعفر الصادق عليه السلام قال: «ما استشفى الناس بمثل لعق العسل». فانظر يا دكتور عظمة الإسلام الذي يؤكد هذه الحقائق التي لم تعرفها البشرية الا بعد اختبارات عديدة، وما توصلوا اليها الا في هذا الزمن.

الطبيب: ان يقيني ليزداد بهذا الدين كلما ذكرت لي مسألة من هذه المسائل. ثم طلب الدكتور من سعيد ان يأذن له بربع ساعة ريثما يأخذ جولة على المرضى مع الممرضة.

بقي سعيد في الحجرة واستغل وقت ذهاب الدكتور ليأخذ نومة خفيفة،

وفعلاً ما هي الا عشرون دقيقة، وإذا بالطبيب يأتي، فوجد سعيداً نائما فلم يحاول أزعاجه، وما هي الا بضع دقائق واذا بسعيد يستيقظ من رقدته، ويعتذر من الدكتور. وبعدها اخذا يواصلان الحديث، وبادر الطبيب قائلاً :

كان حديثك رائعاً يا سعيد، وانا في الواقع اود المزيد من هذا النوع من الاعجاز ولا أريد أكثر من مورد واحد فحسب فقد اغنيتي بما فيه الكفاية.

سعيد: سوف احدثك عن آيات الله تعالى في نمو الجنين، ومنه تعرف المعجزة العلمية للقرآن الكريم .

طبعاً انت تعلم بان تغييرات الجنين في بطن امه ظلت ولسنين طويلة خافية عن اعين العلماء، إلى ان رفعت يد العلم النقاب عن هذا العالم المزدحم بالاسرار، واظهرت ان النطفة لما تستقر في محلها من الرحم، وتبدأ سيرها التكاملي، ماذا تطوي من المراحل المختلفة والمتنوعة حتى تصبح على هيئة انسان كامل، والعجيب ان القرآن الكريم أكد عدة مرات على قضية نمو الجنين في آياته المختلفة، وفي ذلك العصر والزمان الذي لم يكن له شأن بهذه الاكتشافات وانّما كان يثبت تارة التوحيد وتارة لاثبات المعاد. مع ان علم الاجنة مازال يقطع مراحل طفولته، ومعلوماتنا عن هذا العالم الغامض ما تزال قليلة جداً، ولكن حتى هذا المقدار الذي كشف العلم البشري عنه، قد وضع دنيا من العجائب والغرائب بين يدي العلماء. اليس كذلك يا دكتور ؟

الطبيب: نعم يا سعيد فان عالم الجنين، والاجنة غريب حقاً، ومذهل في نفس الوقت .

سعيد: ولكن اسمع ماذا يقول القرآن عن هذا العلم بأشارة خفية مختصرة: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ

مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰماً فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقاً ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٧ ـ ٣٩].

الطبيب: ما معنى هذه الكلمات: العلقة، المضغة، المني .

سعيد: اما كلمة (العلقة) فهي في اللغة الدم المتخثر، وقد سميت العلقة بهذا الاسم لأنها احدى مراحل تكوين الجنين في رحم الام، فهي تشبه قطعة الدم المتخثر .

واما (المضغة) فهي تعني في اللغة قطعة اللحم التي يمضغها الإنسان لمرة واحدة شرط ان تكون غير مطبوخة، واطلاق هذا المصطلح على احدى مراحل الجنين التي تأتي بعد مرحلة العلقة، جاء من باب تشابهها مع مثل هذا اللحم. ففي ذلك الحين يصبح الجنين على شكل قطعة حمراء فيها الكثير من العروق ذات اللون الاخضر. واما المني فهو السائل الذي فيه الحيامن، والتي تلقح البويضة من الرجل إلى المرأة.

الطبيب: الآن يمكن ان ندخل في صلب البحث .

سعيد: ان القرآن الكريم أكد مراراً على مسألة المراحل التكاملية للجنين في رحم الام، ودعا الناس كافة إلى مطالعتها بدقة، واعتبرها احدى الطرق للوصول إلى معرفة الله، وكذلك احدى طرق اثبات إمكانية المعاد. إن الآيات التي ذكرناها تتحدث في البداية عن خلق الإنسان من (سلالة من طين) ثم من

(نطفة ذات قرار مكين)، وبعد ذكر هاتين المرحلتين تـنتقل إلى ذكـر خـمس مراحل أخرى.

المرحلة الأولى: (العلقة) حيث تتبدل النطفة إلى دم مـتخثر فـي داخـل الكثير من العروق.

المرحلة الثانية: (المضغة) حيث يصبح هذا الدم المتخثر على شكل قطعة من اللحم.

المرحلة الثالثة: (العظام) حيث تـتبدل كـل الخـلايا اللـحمية إلى خـلايا عظيمة .

المرحلة الرابعة: تغطية العظام باللحم حيث تغطي العضلات كل العظام.

المرحلة الخامسة: وهي مرحلة جديدة تغاير المراحل السابقة حيث تتغير هنا لهجة القرآن، وتخبرنا عن تحول وخلق مهم وجديد للجنين، فيقول بتعبير مرموز ومغلق (ثم أنشأناه خلقاً آخر)، وعندما تنتهي هذه المراحل السبع يصف القرآن هذه الخلقة العجيبة اجمل وصف بعبارة :

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ وهي عبارة لم تأتِ في أي آية أخرى من القرآن، ولم تستخدم في أي موجود آخر .

ذكر المفسرون تفاسير متنوعة في المراد من الجملة الغـامضة (الخـلق الآخر). ويبدو ان انسبها، واقربها إلى القصد هو بلوغ الجـنين مـرحـلة الحـياة الانسانية، حيث يظهر فيه الحس والحركة، ويبدأ بالتحرك ويضع قدماً في عالم الحيوانات والبشر. ويعبر القـرآن عـن هـذه الطـفرة الكـبيرة والعـجيبة بكـلمة «الانشاء» في إشارة إلى الطريق الطويل الذي يقطعه الإنسان، خلال هذه المدة القصيرة. ولذلك يعبر الامام الباقر عليه السلام في تفسير عبارة «ثم أنشأناه خلقاً آخر»

بقوله: «هو نفخ الروح فيه». فالانسان في هذه المرحلة ينتقل إلى عالم الادراك والاستعداد الحضاري، أو ما يسمى بالاصطلاح الحديث «الحيوان العلمي».

الطبيب: ان هذا القرآن يدعو للعجب، كيف يذكر أموراً دقيقة في ذلك الزمن الغابر، ولا ادري لماذا ان علماء الغرب لم يهتموا بما جاء في القرآن الكريم من معلومات دقيقة. وقد يكون لكم ايها المسلمون مسؤولية ذلك حيث انكم لم تهتموا بشكل كامل وجدي بأيصال هذه المعارف إلى الانسانية .

سعيد: ان الموانع هي التى عاقت ذلك يا دكتور، والا فانظر إلى زمن الحضارة الإسلامية كيف ان المسلمين برعوا في الكثير من العلوم، كالطب والهندسة والرياضيات والكيمياء والفن والعمارة والعلوم النظرية بالاضافة إلى تنظيم المجتمع، أو ما يسمى بالمدنية. وهذا كله بفضل ما في تعاليم الإسلام، ولكن انشغال المسلمين بالحروب الداخلية، والصراعات المذهبية وغيرها اطمعت اعداء الإسلام بهم، وبالتالي انتهى الأمر إلى التراجع والتقهقر الذي تراه اليوم .

الطبيب: اشكرك كثيراً يا سعيد على ما تبذله معي من جهد جبار، وانا ابقى مدين لك طول حياتي على هذه الخدمة التي تقدمها لي.

سعيد: انا اقوم بواجبي، وانت لست مدين لي بذلك، بل انك مدين لله سبحانه وتعالى الذي هيأ لك هذه الفرصة التي ينبغي لك استغلالها، والظفر بنتائجها.

ثم ودع سعيد الطبيب بعد ان اطل على والده واطمأن عليه، وخرج قاصداً بيت صديقه حيث كان في انتظاره .

اليوم السادس:

اسلام الطبيب

لقد مضت ليلة البارحة، وسعيد في غاية البهجة والسرور، حيث قضى تلك الليلة مع صديقه أحمد الذي دعي على شرفه مجموعة من اصدقائه، وكانت ليلة مشحونة بالاسئلة الموجهة إلى سعيد، وما انتهت تلك الجلسة الّا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. ولم يسمح أحمد لسعيد في الذهاب إلى الفندق ، بل اجبره على البقاء معهم، واستغرق سعيد في نوم عميق بعد هذه الليلة المجهدة، ما تخلله الا استيقاظه إلى صلاة الصبح .

في الساعة التاسعة ايقظ احمد سعيداً، وقدّم له الافطار، ثم خرج الاثنان قاصدين المستشفى لزيارة الحاج عبد الله، مكثا هناك إلى الظهيرة ورأى سعيد بان هناك طبيباً آخر يتولى معاينة والده، فسأله عن صديقه الطبيب، فأخبره بانه يتمتع بأجازة آخر الاسبوع، ولكنه فوجئ ان صديقه الطبيب قدم إلى المستشفى، ودخل على غرفة الحاج عبد الله بملابسه الاعتيادية، فسلم عليهم سلاماً حاراً، ثم خاطبه سعيد قائلاً :

لقد اخبرنا زميلك الطبيب بانك في اجازة.

الطبيب: فعلاً كذلك، يا استاذ سعيد .

سعيد: اذن ما الذي جاء بك إلى المستشفى مرة أخرى ؟

الطبيب: جئت اليك يا سعيد، اريد ان تذهب معي في هذا اليوم إلى البيت، فقد اعددت لك غداءً شهياً، صنعته زوجتي بعناية.

سعيد: لا حاجة لذلك، يمكننا ان نشتري بعض السندويشات من بعض المطاعم. فلا داعي ان تزاحم نفسك.

الطبيب: انا اعلم بأنك تتحرج من أكل لحم الخنزير، باعتباره محرم في دينكم، الّا اني قد راعيت ذلك، وصنعت لك غداءاً من السمك والرز وغيرها. فلا يبقى لك حينئذ عذر من الذهاب معي.

هنا تدخل الحاج عبد الله، وقال لسعيد: اذهب مع صديقك يا ولدي فانه انسان طيب، ويستحق الاحترام.

سعيد: سمعاً وطاعة ياأبي .

اما أحمد فقد استأذن من سعيد والحاج عبد الله بالانصراف. فشكره سعيد على حسن الضيافة، ووعده بزيارته مرة أخرى .

ثم اخذ الطبيب سعيداً إلى بيته، الذي كان جميلاً جداً، لأن زوجة الطبيب كانت مهندسة ديكور، ومن هنا فقد جعلت منزلها لوحة فنية رائعة، فيه من لمسات الابداع ما يبهر العقل، لا سيما وقد طرزته ببعض الفن الشرقي.

استأذن سعيد صديقه بالسماح له بالصلاة، وبعد انتهائه منها كانت المائدة في انتظار الضيف العزيز، حيث جلس الثلاثة يتناولون الطعام، ويتبادلون الكلمات الجميلة، وأخذ سعيد يطري على اناقة المنزل وجمال ابداع تصميمه. وبعد الغداء جلس سعيد مع صديقه الطبيب وزوجته في الصالة واخذوا يحتسون اكواب الشاي اللذيذة. وبادر الطبيب سعيداً قائلاً:

ماذا تريد ان تحدثنا اليوم يا استاذ سعيد فاني مشتاق لسماع المزيد من

المعلومات عن الإسلام .

سعيد: لقد وعدتك سابقاً ان احدثك عن المعاجز الأخرى للنبي ﷺ، وقد حان الأوان لذلك، لاسيما بعد الفراغ من المعاجز اللغوية والعلمية للقرآن الكريم.

الطبيب: طبعاً اود ان الفت نظرك بان زوجتي مطّلعة على كل ما جرى بيننا من احاديث سابقة، لأني كنت في كل يوم اخبرها بتفاصيل الحديث .

سعيد: هذا جيد يا اخي العزيز، فقد قمت بعمل كبير من حيث لا تشعر.

الطبيب: ما هي تلك المعاجز يا صديقي؟

عدم التناقض في القرآن

سعيد: ان ما اذكره لك الآن من الوان الاعجاز شبيه بالاعجاز العلمي هو عام لكل البشر ولا يخص اهل اللغة العربية فحسب، واول ما أود بيانه لك هو ان القرآن الكريم خال من التناقض مطلقاً، حيث هو كتاب لا يخالف العقل ولا الفطرة، وهو بعد ذلك غير متهافت في آياته فلا يختلف بعض القرآن عن بعضه الآخر وبذلك يكون معجزة الهية، وتحدياً للناس ان يأتوا بمثله مع عدم الاختلاف والتناقض .

الطبيب: وكيف ذاك يا سعيد، ان كلامكم مجمل وغامض ؟

سعيد: قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفاً كَثِيراً﴾ [النساء: ٨٢].

فان هذه الآية المباركة تريد ان تتحدى كل البشرية، بعدم وجود أي اختلاف أو تناقض فيه، وهو دليل على انه من الله تعالى، لأنّ البشر مهما اوتوا من قوة ادراك ومعرفة، لا يمكن ان يكون كلامهم سالماً من التهافت في بعض

اجزائه؛ لأن الإنسان مجبول على التحول والتكامل، فهو يرى نفسه في كل يوم اعقل من سابقه، وإن ما صنعه اليوم اجمل واكمل مما أتى به بالامس، وبالتالي يبقى الإنسان مهما كتب، أو تكلم يشعر بان ثمة اشياء لو لم يقلها لكان افضل، أصحيح هذا أم لا ؟

الطبيب: بالتأكيد فهذا حال الإنسان دائماً.

سعيد: فلو فرضنا ان انساناً يكتب كتاباً كبيراًولمدة ثلاث وعشرين سنة ويضع فيه مسائل مختلفة من اجتماعية وعقائدية واخلاقية وتاريخية وعلمية وغيرها، ويكون ذلك في احوال مختلفة، من ليل ونهار، وسفر وحضر، وحرب وسلم، وضراء وسراء، وشدة ورخاء، فهل يمكن ان يكون كتابه ذاك خالياً من التهافت والتناقض والاختلاف، مع وجود تلك الحالات وتلك المدة؟!

الطبيب: الواقع انه من غير الممكن ذلك.

سعيد: وماذا تقول السيدة الكريمة ؟

الزوجة: انا اشارك زوجي رأيه.

سعيد: حينئذ تظهر معجزة القرآن الكريم، حيث نزل على شكل نجوم متفرقة في الاحوال التي ذكرتها لكم، وفي نفس المدة أيضاً. فلو كان من عند غير الله تعالى لكان من الطبيعي حدوث مثل هذه الاشياء فيه، ولكنه خال عنها، فيدل على انه من عند الله سبحانه وتعالى .

الطبيب: عفواً يا اخ سعيد عندي كتاب لاحد المستشرقين يؤكد فيه بالنصوص خلاف ما ذكرته. ثم قام الطبيب وتناول كتاباً واخذ يتصفحه ثم أردف قائلاً: يقول هذا المؤلف ان هناك آيات في القرآن تخالف آيات أخرى كما ورد في سورة [الطور: ٢٥]: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾. فهو يناقض ما

جاء في سورة [المؤمنون: ١٠١]: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾. ففي الآية الأولى اثبات للتساؤل، وفي الثانية نفي له، وفي ذلك تناقض جلي.

سعيد: ان هذا المستشرق حاقد على الإسلام، وهو يدعي ما لا يفهم ويقول مالا يعلم، واهل اللغة افهم بها من غيرهم، وإن بين الآيتين لا يوجد أي تناقض. لأن الموردين مختلفان ومن شروط التناقض كما هو واضح وحدة الموضوع. انظر إلى الآية الأولى فهي تريد ان تحكي حال اصحاب الجنة بعد الحساب ودخولهم الجنة، وكونهم في الأمن والأمان، والحياة القريرة الجميلة، فحينذاك اخذ بعضهم يتساءل من بعضهم البعض كيف كانت احوالهم وهم في الدنيا، يلاقون الفتن والامتحانات، وكأنهم جنود خرجوا من الحرب، ورجعوا إلى ثكناتهم العسكرية، كل واحد يسأل من الآخر عن الحوادث التي مرت عليه اثناء الحرب .

وهذا المستشرق لو انه اثبت في كتابه سياق الآية لعرف القارئ كونها تختلف عن الآية الأخرى واليكم الآيات التي هي قبل هذه الآية. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إلى ان قال: ﴿يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ١٧ ـ ٢٧] فهذه الآية اذن في سياق كون التساؤل وقع من اصحاب الجنة، اثناء استقرارهم ويسأل بعضهم بعضاً عن ذكرياته.

في حين اذا جئنا إلى الآية الأخرى فسوف نجد الموضوع مختلفاً تماماً،

فهي تتحدث عن وقت قيام الساعة، الذي هو وقت عظيم الاهوال تصفه آيات أخرى من القرآن بأوصاف عجيبة كما جاء في سورة الحج قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ ـ ٢]. أو قوله تعالى: إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا* وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَالَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَايَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ... الخ﴾ [الزلزلة: ١ ـ ٨].

فان يوم القيامة بهذا الشكل المخيف، وحينئذ من الطبيعي ان يكون كل انسان مشغولاً بنفسه ولا يلتفت إلى أي احد ويسأل عنه كما يقول تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَـٰحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣ ـ ٣٧]. فقوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] منسجم مع هذه الاجواء المرعية.

الطبيب: احسنت يا سعيد فلقد اجدت في اثبات عدم التناقض بين الآيتين، ولكن ثمة مورد آخر ذكره هذا المؤلف وهو قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣] حيث هو مناقض لقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩].

سعيد: هنا أيضاً لا يوجد تناقض يا صديقي، حيث ان القرآن يبين بأن يوم القيامة فيه مواقف متعددة، وليس موقفاً واحداً، حيث ان الله تعالى يقسّم الناس على حسب ما عملوا في الدنيا إلى اقسام، فمنهم من يسأل عن ذنبه،

ومنهم من يختم الله على فمه فلا يسمح له بالكلام ولا يوجَّه إليه سؤال، وانما تقوم اعضاؤه بالشهادة عليه، وبعضهم تعرف جرائمهم من خلال علامات موجودة في وجوههم، إلى غير ذلك فحينئذ اثبات السؤال في الآية الأولى يراد به موقف ما، ونفي السؤال في الآية الثانية يراد به موقف آخر، فأيضاً هنا لا توجد وحدة موضوع حتى يتم التناقض المزعوم .

الطبيب: يذكر هذا المؤلف ان ثمة تناقض ثالث وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الانفال: ٣٣]. في حين نجد في مكان آخر من نفس السورة ان الله يقول: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الانفال: ٣٤] .

سعيد: هناك احتمالات كثيرة ذكرها مفسرو القرآن الكريم، الا ان الأقرب هو ان العذاب المنفي هو عذاب الدنيا، كما مر على الأمم السابقة، حيث ان الله تعالى بتكذيبهم الأنبياء انزل عليهم عذاباً استأصلهم بحيث لم يبق لهم من باقية، كما فعل ذلك في قوم هود، وصالح، ولوط، ونوح وغيرهم. واما الآية التي تثبت العذاب فانما تثبته لهؤلاء الذين يصدون عن المسجد الحرام، ولم يؤمنوا بالله وحاربوا الرسول، في الآخرة، فأنهم هناك معذبون بما جنوا من الجرائم التي يأتي في مقدمتها الشرك بالله تعالى .

الطبيب: احسنت يا سعيد، لا حاجة إلى سرد المزيد من الموارد، فقد اتضح بان هذه مغالطات ليس الا، وأريد منك الآن ان تحدثني عن الموارد الأخرى للاعجاز القرآني.

الاخبار عن الغيب

سعيد: ان في القرآن الكريم اخباراً عن شؤون البشر في مستقبل ادواره

واطواره، واخبار بملاحم وفتن واحداث ستقع في مستقبل الزمن، وهذه الاخبار ان دلت على شيء، فانما تدل على كون القرآن كتاباً سماوياً أوحاه سبحانه إلى احد سفرائه الذين أرتضاهم من البشر، لأنه اخبر عن حوادث كان التكهن والفراسة يقتضيان خلافها، مع انه صدق في جميع اخباره، ولا يمكن حملها على ما يحدث بالمصادفة، أو على كونها على غرار اخبار الكهنة والعرافين والمنجمين، فان دأبهم هو التعبير عن احداث المستقبل برموز وكنايات حتى لا يظهر كذبهم عند التخلف، وهذا بخلاف اخبار القرآن فانه ينطق عن الاحداث بحماس ومنطق قاطع.

الطبيب: لو اتيت لنا ببعض النماذج نكون لك من الشاكرين .

سعيد: اول شيء اردت بيانه هو التنبؤ بعجز البشر عن معارضة القرآن. حيث قال تعالى سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَـهِيراً﴾ [الاسراء: ٨٨] وقال أيضاً: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤].

فان في هذه الآيات التنبؤ الواثق بعجز الجن والأنس عن معارضة القرآن عجزاً ابدياً، وقد صدق هذا التنبؤ إلى يومنا هذا، حيث لم يستطع أي احد من البشر ان يأتي بمثل سورة واحدة من سوره المباركة.

الطبيب: هذا جيد ولكن هل ان القرآن قد اخبر بوقائع عالمية معلومة تأريخياً على المستوى العالمي أم لا؟

سعيد: بلى قد اخبر بذلك. وهو قوله تعالى: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِىٓ

أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ١ ـ ٤].

حيث ينقل التاريخ ان دولة الروم ـ وكانت دولة مسيحية ـ انهزمت امام دولة الفرس ـ وهي وثنية ـ بعد حروب طاحنة بينهما سنة ٦١٤ م فاغتم المسلمون لكونها هزيمة لدولة إلهية أمام دولة وثنية وفرح المشركون، وقالوا للمسلمين بشماتة: ان الروم يشهدون انهم اهل كتاب وقد غلبهم المجوس، وانتم تزعمون انكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أُنزل عليكم، فسنغلبكم كما غلبت الفرس الروم.

فعند ذلك نزلت هذه الآيات الكريمة تنبيء بان هزيمة الروم هذه سيعقبها انتصار لهم في بضع سنين، وهي مدة تتراوح بين ثلاث سنين وتسع، هذا التنبوء اتى في وقت كانت كل المؤشرات تدل على خلافه، لأن الحروب الطاحنة انهكت الدولة الرومانية، حتى غزيت في عقر دارها، ولأن دولة الفرس كانت دولة قوية منيعة، وزادها الانتصار الاخير قوة ومنعة، ولكنّ الله تعالى انجز وعده، وتحقق تنبؤ القرآن في بضع سنين فانتصر الروم سنة ٦٢٢ م .

الطبيب: ينظر إلى زوجته: ألا ترين ان ذلك مدهش حقاً ؟

الزوجة: بكل تأكيد فان ما اخبر به القرآن قد وقع فعلاً.

سعيد: ماذا تريد أيضاً يا دكتور .

امية النبي ﷺ دليل على صدق دعوته

الطبيب: ان بعض المستشرقين يقول: بان محمداً ﷺ كان قد تلقى تعليماً من بعض المسيحيين ايام سفره في التجارة.

سعيد: كذبوا وما انصفوا. فان صحائف تاريخ حامل الرسالة اوضح دليل على انه لم يدخل مدرسة، ولم يحضر على احد للدراسة وتعلم الكتابة، وقد صرح بذلك القرآن بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

كيف وقد عاش وتربى في بلد كان اهلها محرومين من فنون العلم والحضارة آنذاك، ولذلك وصفهم القرآن بـ«اميين»، فبالرغم من مغالطة قساوسة الغرب، والمستغربة وتشبثاتهم بمراسيل عن مجاهيل، وانتحالات الملاحدة في هذا الأمر، فان امية النبي وقومه تموج بالشواهد الواضحة من الكتاب والتأريخ والحديث .

نعم لما احسّ فصحاء العرب وبلغاؤهم بالعجز عن معارضة القرآن، وانه ليس من سنخ كلام البشر، اتهموه بانه اساطير الأولين تملى عليه بكرة واصيلاً، يمليهاعليه بشر. ولكن الله تعالى في كتابه المنزل يرد على هؤلاء بقوله: ﴿لِسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

فمن لاحظ ذلك المعهد البسيط الذي تربى النبي في احضانه، وتلقى فيه ثقافته يذعن بان من الممتنع، ان يخرج منه شخصية فذة كشخصية النبي ﷺ، وكتاب فيه من المعاجز وهو ما بيناه سابقاً، ونريد ان نسأل بعد ذلك من هذا الذي يمكن ان يعلم النبي ﷺ بهذه المعارف الدقيقة العظيمة، هل هم اليهود؟ وقد كانوا اشد اعدائه، ام هم النصارى وهم كذلك؟ وبالاضافة إلى كل ذلك نجد ان القرآن يخالف ما عند اليهود والنصارى في اكثر الأمور سواء على مستوى العقيدة، أو على مستوى التشريع، أو الاخبار عن قصص الأنبياء السابقين، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على ان هذا القرآن كتاب مستقل، انزله الله تعالى

على قلب الخاتم ﷺ.

الطبيب: بمناسبة ذكركم للخاتم أريد ان أسأل لماذا انكم تعتقدون باستحالة مجيء نبي بعد محمد ﷺ وان دينه هو الدين الخاتم.

خاتم النبيين وخاتمة الرسالات

سعيد: نعم فان رسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وان دينه هو خاتم الاديان، فلا نبي بعده ولا دين بعد الإسلام ، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الاحزاب: ٤٠].

فقد اخبر الله عزوجل في هذه الآية عن هذه الحقيقة، واكد ذلك رسول الله ﷺ في حديثه لعلي عليه السلام «انت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي» واكد ذلك الامام علي عليه السلام خليفته الشرعي بقوله: «أرسله على حين فترة من الرسل، وتنازع الالسن، فقفىٰ به الرسل وختم به الوحي».

وقد بينت السنة الشريفة ان الشرائع السابقة كانت إلى زمان نبينا الأكرمﷺ، وقد نسخت بشريعة الإسلام، واما شريعة محمد ﷺ فهي لا تنسخ إلى يوم القيامة كما ورد ذلك عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، الإمام الثامن للمسلمين بقوله: «إنما سمي ألو العزم لأنهم كانوا اصحاب العزائم والشرائع، وذلك ان كل نبي كان بعد نوح عليه السلام كان على شريعته ومنهاجه تابعاً لكتابه إلى زمن إبراهيم الخليل، وكل نبي كان في ايام ابراهيم وبعده كان على شريعة ابراهيم ومنهاجه وتابعاً لكتابه إلى زمن موسى، وكل نبي كان في زمن موسى وبعده كان على شريعة موسى ومنهاجه تابعاً لكتابه إلى ايام عيسى، وكل

نبي كان في ايام عيسى وبعده كان على منهاج عيسى وشريعته تابعاً لكتابه إلى زمن نبينا محمد ﷺ، فهؤلاء الخمسة اولو العزم، وهم افضل الأنبياء والرسل، وشريعة محمد لا تنسخ إلى يوم القيامة، ولا نبي بعده إلى يوم القيامة، فمن ادعى بعده نبوة، أو اتى بعد القرآن بكتاب، فدمه مباح لكل من سمع ذلك منه».

الطبيب: جيد ولكن ثمة سؤالا يجب عليكم الاجابة عنه، وهو ان توسع الحضارة يلزم المجتمع بتنظيم قوانين جديدة تفوق ما كان يحتاج اليها فيما مضى، وبما ان الحضارة والحاجات في حال تزايد وتكامل فكيف تعالجون القوانين المحدودة الواردة في الكتاب والسنة، في حين ان الحاجات المستحدثة غير محدودة ؟

سعيد: الجواب على ذلك: ان خلود التشريع الإسلامي، وغناه عن كل تشريع مبني على وجود امرين فيه :

الأول: انه ذو مادة حيوية، خلّاقة للتفاصيل مهما كثرت الحاجات واستجدت الموضوعات.

الثاني: انه ينظر إلى الكون والمجتمع بسعة ورحابة، مع مرونة خاصة تساير الحضارات الانسانية المتعاقبة.

الطبيب: وكيف يمكن ان نستدل على الأمر الأول، وما هي الآليات المتكفلة بتحققه ؟

سعيد: هناك أربعة اشياء اعتبرت كآليات محققة لما ذكرنا:

١ ـ اعترف القرآن والسنة بحجية العقل في مجالات خاصة، مما يرجع إليه القضاء فيها، وقد بين مواضع ذلك في كتب علم اصول الفقه.

٢ ـ يستفاد من القرآن الكريم بجلاء ان الاحكام الشرعية تابعة للمصالح

والمفاسد، وبما ان للمصالح والمفاسد درجات ومراتب، عقد الفقهاء باباً لتزاحم الأحكام وتصادمها، فيقدمون الاهم على المهم، والاكثر مصلحة على الاقل منه، وقد اعان فتح هذا الباب على حل كثير من المشاكل الاجتماعية التي ربما يتوهم الجاهل أنهاتعرقل خطى المسلمين في معترك الحياة.

٣ ـ من مواهب الله تعالى العظيمة على الأمة الاسلامية، تشريع الاجتهاد، وقدكان الاجتهاد مفتوحاً بصورته البسيطة بين الصحابة والتابعين، كما انه لم يزل مفتوحاً بين اصحاب الائمة الاثني عشر. ومن خلال الاجتهاد يمكن للفقهاء الرجوع إلى الأصول، لاستخراج الفروع منها، اي يستبطون الاحكام الشرعية للموضوعات المستجدة على ضوء ذلك. ومن هنا فلا تبقى أي مشكلة لدينا، حيث ما من واقعة الا ولله فيها حكم، اما ان ينصّ عليه بشكل مباشر من قبل الشريعة أو من خلال استنباطه من قبل الفقهاء من النصوص الشرعية المعتبرة والصحيحة.

فبهذه الطرق نستطيع تحقيق ذلك الامر ولا ضير ان المسلمين دأبواعليه ولايعانون من اي مشاكل من هذه الناحية.

الطبيب: وما هي آليات الأمر الثاني يا أخ سعيد ؟

سعيد: هناك ثلاث آليات يمكن بيانها في المقام.

احدها: ان الإسلام يهتم بالمعنى دون الظاهر، وهذه احدى العلل لبقاء احكامه وخلودها.

الطبيب: مثلا ماذا يا سعيد؟

سعيد: مثلاً: ان الإسلام دعا إلى بث العلم والتربية،ولكن الذي يهم الإسلام في جميع الازمنة هو الحقيقة والجوهر في ذينك الأمرين، واما الكيفية

والشكل فلا يهتم بها. فلو كانت هناك قداسة لاسباب معينة، كالكتابة بالحبر، أو الجص لما كان للاسلام بقاء .

وكذلك فان القرآن يدعو الامة الاسلامية إلى التأهب في مقابل الاعداء، واعداد ما استطاعوا من قوة، من دون ان يعين لذلك اسباباً خاصة.

وكذلك: فان القرآن يدعو المسلمين إلى العزة والاستقلال، ورفض التبعية للأعداء، ولكن نيل ذلك الهدف السامي لم يكن يتطلب في السابق ما يتطلبه اليوم من وجود الاخصائيين من المسلمين في المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

الطبيب: وما هي الآلية الثانية.

سعيد: والآلية الثانية الموجبة لانطباق التشريع القرآني على جميع الحضارات، تشريعه لقوانين خاصة، لها دور التحديد والرقابة بالنسبة إلى عامة تشريعاته، فهذه القوانين الحاكمة تعطي لهذا الدين مرونة يماشي بها كل الاجيال والقرون. يقول تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: ٧٨]. ويقول سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٣]. إلى غير ذلك من الآيات الكريمة، والنصوص عن النبي ﷺ واهل بيته، فما ورد حول النهي عن الضرر في الآيات والروايات، كلها تحدد التشريعات الإسلامية بحدود الحرج والعسر والضرر، فلولا هذه التحديدات الحاكمة لما كانت الشريعة الاسلايمة مماشية لجميع الحضارات البشرية.

واما الآلية الثالثة: يا صديقي العزيز فهي الاعتدال في التشريع. فان من الاسباب الموجبة لصلاحية الإسلام للبقاء والخلود كون تشريعاته مبنية على اساس الاعتدال، موافقة للفطرة الانسانية، فأخذت من الدنيا ما هو الصالح للعباد،

ومن الآخرة مثله، فكما ندب إلى العبادة، ندب إلى طلب الرزق أيضاً ، بل ندب إلى ترويح النفس، والتخلية بينها وبين لذاتها بوجه مشروع .

الطبيب: حدثني عن الإسلام بصورة عامة.

سعيد: الإسلام يا اخي ليس كباقي الاديان، فهو دين عظيم يحتوي على عقيدة وشريعة، اما العقيدة فهي النظام الفكري الذي يحمله الإنسان المسلم، ويتبنّى من خلاله نظرته إلى الكون والوجود والحياة، فالعقيدة تشكل النظرة الكونية للانسان، من خلال معرفة الخالق أو المبدأ الذي وجد منه، ومعرفة المنتهى أو المعاد، وكيفية الحياة بما ينسجم مع المبدأ والمعاد، وبكلمة اخرى ان اساس العقيدة مبني على التوحيد والنبوة والمعاد.

ان العقيدة ليست ترفاً ذهنياً، أو فكراً كمالياً، وانما هي ضرورة يقتضيها واقع الإنسان، لأنها تشكل الروية الكونية له، التي على ضوئها تتبلور نظرته إلى الحياة بشكلها الحقيقي، ومن خلالها تتحدد عنده معالم الترابط والانسجام بين الموجودات، ومن مفرداتها تترشح الشريعة التي تشكل المنظومة القانونية الالهية الكفيلة بسعادة الإنسان، من خلال تنظيم سلوكه وعلاقاته مع الله والطبيعة.

والإنسان، حيث يدرك بعقله ويطمئن قلبه بالهدف والغاية من وجوده في الحياة، فيتحول الايمان إلى سلوك انسيابي ديناميكي نحو الخير والصلاح، وتطبيق القانون الالهي، وحينئذ تتحقق السعادة والكمال له، وللمجتمع في الدنيا والآخرة.

اما التشريع الإسلامي فهو نظام كامل للحياة، حيث ينقسم إلى العبادات والمعاملات، اما العبادات فهي السلوك المعنوي والخارجي الذي يتقرب به العبد

إلى الله تعالى، امثال الصلاة التي هي معراج المؤمن إلى الله تعالى، والحج، والزكاة، والخمس، والجهاد في سبيل الله، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، والموالاة لأهل بيت النبي ﷺ والبراءة من أعدائهم، وغيرها من العبادات الكثيرة، وفي نظر الإسلام فان كل عمل يقوم به الإنسان المؤمن متقرباً به إلى الله فهو عبادة يؤجر عليها، وينال نصيبه من الثواب في الآخرة.

واما المعاملات فهي القوانين الالهية التي تنّظم حياة الإنسان في سلوكه مع اخيه الإنسان، أو مع الطبيعة، أو مع الحيوان وغيرها.

وهناك أيضاً الاخلاق الاسلامية التي هي دستور ومنهج يرتقي بالإنسان إلى اعلى القمم، ويحقق انسانيته بكلّ معنى الكلمة. حيث ان الإسلام يدعو إلى الصدق والبر والكرم والعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهي عن المنكر والكذب والفحش من القول وغيرها من الصفات الذميمة. وبكلمة جامعة فان الإسلام يدعو إلى كل ما هو حسن وطيّب، وينهىٰ عن كل ما هو قبيح وخبيث .

الإسلام هو دين الأنبياء جميعاً، حيث ان كل الأنبياء وكل الرسالات السماوية تدعو إلى المبادئ التي يدعو لها الإسلام، لاسيما في العقيدة اعني التوحيد والنبوة والمعاد يوم القيامة.

الطبيب: اذن لماذا نرى المسلمين اليوم متخلفين متناحرين ضعفاء ؟

سعيد: ليس ذلك بسبب الإسلام يا اخي، بل بسبب تخلّي المسلمين عنه، والا فقد رفع الإسلام العرب من الحضيض، وجعلهم اصحاب حضارة تفتخر الانسانية بها، ولكن عندما تخلّى المسلمون عن دينهم واتبعوا اهواءهم وعصبياتهم نالوا ما نالوا .

وكيف ينتظر من الدين ان ينتشل الامة من وهدتها، وهو عندها حبر على

ورق، لا يعمل بأقل القليل من تعاليمه. من الإيمان والامانة والصدق والاخلاق وحسن المعاملة والايثار، وان يحب المسلم لاخيه ما يحب لنفسه واشباهها.

الطبيب: ينظر إلى زوجته، ما تقولين يا زوجتي في حديث الاخ سعيد .

الزوجة: لا ادري والله، فأنا اعيش صراعاً مريراً في داخل نفسي، فان عقلي وكل كياني، يقول لي باحقيّة هذا الدين، وانه دين السعادة والبهجة والامل في الدنيا وما بعد الدنيا، في حين ان شيئاً لا اعلم مصدره يمنعني ويبعدني عنه؟

سعيد: ان الذي يمنعك يا ا ختاه هو الشيطان الذي يقف بالمرصاد امام كلّ شخص يبصر الحقيقة، ويريد اعتناقها، فما عليك الّا ان تكوني اقوى منه وتطرديه من نفسك، فالانسان اقوى من الشيطان وانّ كيد الشيطان لا يقف مطلقاً أمام ايمان وارادة الإنسان، المبنية على اساس اليقين، وحب الحقيقة.

الطبيب: هل تسمح لنا يا سعيد ان نختلي انا وزوجتي قليلاً.

سعيد: بكل تأكيد فهذا لكما.

ثم اخذ الطبيب بيد زوجته ودخلا إلى احدى الغرف وبقيا هناك لمدة ساعة تقريباً استغلها سعيد لتناول بعض الفواكه التي كانت امامه، والاسترخاء قليلاً .

خرج الطبيب وزوجته على سعيد وهما يبتسمان، فقال سعيد لهما؟

ما سر هذه الابتسامة منكما يا اخوتي الأعزاء؟

الطبيب: نود ان نفاجئك بخبر مهم يا سعيد .

سعيد: وما ذاك يا دكتور.

الطبيب: انه استعدادنا لاعتناق الإسلام على يديك .

سعيد: والفرحة بادية على وجهه بشكل لا تسعه الكلمات، ولا تحيط به

الأوصاف: أحقّاً ما تقولان؟!

الطبيب: نعم يا سعيد. لقد قررنا ذلك عن قناعة كاملة وايمان راسخ .

وما كان من سعيد بعد ان سمع الخبر الا وقد هوى إلى الأرض ساجداً لله تعالى وقد غمرت دموعه خديه، فقام واعتنق الطبيب وضمّه إلى صدره وهو يقول: ما أسعدني عند الله، وقد وفقت لهداية شابين مثلكما؟ انا فخور بكما من كل كياني.

الطبيب: المهم الآن ان تعلمنا كيف ندخل إلى الإسلام، وما هي الأمور التي لابد ان نعملها بعد ذلك.

سعيد: اما دخول الإسلام فليس هناك شيء سوى اقراركم بالشهادة لله وللنبي بالرسالة فقولوا معي: «اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمداً رسول الله».

فأخذ الطبيب وزوجته يرددان ما تلفظ به سعيد. ثم طلب سعيد منهما ان يذهبا إلى الحمّام ويغتسلا غسل الإسلام وعلمهما كيفيته .

وبعد ذلك خصّص سعيد جزءاً من وقته في كل يوم يأتي إلى منزل الطبيب لكي يعلمهما معالم الدين كاملة من الصلاة والوضوء والغسل وغيرها من العبادات. إلى انّ انتهت مدّة بقائه في لندن مع والده الذي أجرى العملية الجراحية بنجاح كامل، ثم عاد سعيد مع الحاج عبد الله إلى العراق، بعد انّ ترك ذكريات جميلة لا تنسى، وأثراً عظيماً وهو اسلام هذين الشخصين على يديه الكريمتين.



مباحث الإمامة الالهية

العودة إلى العراق ثانية

كان جمع من الاهل والاصدقاء قد اصطفوا في صالة المطار لاستقبال سعيد ووالده، وكان المستقبلون في اشد حالات الشوق واللهفة لهذين العزيزين، وما إن أطلّا من بعيد بطلعتيهما النورانيتين حتى اخذ المستقبلون يلوحون لهما بالأيدي، بقلوب تنبض بالحب، ودموع فرح صادقة انحدرت من عيون بعض النساء، بينما كان الأولاد ينادون بصوت عال.

وما ان وصل سعيد مع أبيه إلى صالة الاستقبال، حتى تجمّع حولهما المستقبلون بين مقبل ومعانق وعم الفرح الجميع، خصوصاً عندما رأوا الحاج عبد الله بصحة جيدة وهو يمشي على قدميه بشكل طبيعي. ثم انطلق الموكب من بغداد إلى البصرة حاملاً العزيزين على أجنحة الشوق شطر الجنوب.

اما في البصرة تلك المدينة التاريخية العظيمة، مدينة الفكر والعلم والأدب، مدينة الجهاد والتضحيات والدين والإيمان والولاء لأهل البيت عليهم السلام، مدينة الطيبة والكرم، مدينة دجلة والفرات وشط العرب والنخيل والبساتين الجميلة، حيث الأهل والأقارب والأصدقاء بانتظار وصول ذلك الموكب العزيز، وقد وضعوا الزينة أمام بيت الحاج عبد الله، وهيأوا الشياه لذبحها عند وصولهم، كل ذلك وهم في اشد حالات الأنتظار، وأعمق حالات اللهفة للقاء الاعزاء.

وما ان وصل الموكب حتى خرج الأهل والاحباب للاستقبال، والنساء تعلو

زغاريدهن، والجميع يحمد الله على سلامة عودة الحاج عبد الله في أتمّ الصحّة والسلامة. وأخذ بعض الرجال خمسة من الشياه فذبحوها قربة إلى الله تعالى، واستغلَّ الحاج ذلك التجمع ليدعو الجميع إلى وجـبة عشـاءٍ فـي ذلك المسـاء الجميل الذي تآلفت فيه القلوب ورفرفت أجنحة السعادة. دعا الحاج عـبد الله أهل المنطقة ومن حضر من الأقارب إلى العشاء جميعاً، ومن كثرة المستقبلين لم يسعهم البيت، فما كان مـنهم الا ان يـختاروا الحسـينية مكـاناً لاسـتقبال الضيوف والمهنئين. ودام الأمر على هذا الحال لمدة ثلاثة أيّام، كانوا في كل يوم يجلسون في الصباح والمساء في الحسينية لاستقبال المهنئين بالسّلامة.

خرّ الحاج عبد الله ساجداً لله تعالى شاكراً حامداً له على محبة الناس له ولأهل بيته، كيف لا وهم بيت عرف بين أهل البصرة بالكرم والجود والديـن والالتزام .

كانت أيادي الحاج وعائلته بيضاء دائماً، وكانت علاقاتهم ممتدة إلى كل أطراف المدينة، ولقد كانت لهم مساهمات واضحة في مساعدة الفقراء، واقامة العزاء على سيد الشهداء الإمـام الحسـين بـن عـلي عليه السلام، وبـناء مسـجد كـبير، بالاضافة إلى ان الحاج عبد الله كان قد زوّج العديد من الشبان الذين لم يتمكنوا من الزواج، وكذلك فهو يتكفل العديد من العوائل التي لا معيل لها. والذي اعانه على كل ذلك هو تجارته الواسعة، فقد كان من أكبر تجار التمور في البـصرة، بالاضافة إلى غيرها من السلع التجارية.

مكث سعيد لمدة اسبوعين تقريباً في البصرة وبعدها استأذن والده بـان يتوجه إلى العتبات المقدسة لزيارة الأئمة الاطهار، وسوف تكون محطته الاولى النجف الأشرف، مدينة الإمامة والولاية، حيث المرقد الطاهر لأمير المـؤمنين

علي بن أبي طالب عليه السلام، والحوزة العلمية العريقة بفقهائها العظام، وفضلائها الكرام، الذين استلهموا العلم من باب مدينة العلم، فكانوا حملة العلوم الربانية، والاخلاق الإلهية. ولسعيد ذكريات جميلة مع كل زقاق وشارع، ومع كل مسجد وحسينية، ومع كل عالم واستاذ فقد عاش في هذه البقعة سنين عديدة، فكانت مأنس نفسه، ولذة مجلسه، وراحة باله. فمكث اسبوعاً كاملاً بين احباب واصدقاء ما غابوا عن باله لحظة، ولا طوى ذكرهم طولُ السفر، والبعد عن الوطن، فقد كانوا حشاشة روحه وهل يغيب الشخص عن روحه؟

ثم توجه إلى كربلاء المقدسة، حيث مرقد الإمام الحسين واخيه أبي الفضل العباس عليهما السلام، تلك البقعة الطيبة الطاهرة، التي سالت عليها دماء أهل البيت وانصارهم، أرض تذكرك بالصمود والإباء وبالتضحية والفداء، وبالكرامة والعزة والشجاعة، وبالحرية وعدم الركون إلى الطغاة والظلمة، وكأن صوت الحسين عليه السلام لايزال يدوي في الافق الرحيب:

«لا اعطيكم بيدي اعطاء الذليل ولا اقر لكم اقرار العبيد» .

«ان لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد فكونوا أحراراً في دنياكم».

«هيهات منا الذلة يأبى الله لنا ذلك. ورسوله والمؤمنون». ولازال صوت زينب بنت أمير المؤمنين تردده سعفات النخيل، وذرّات الرمل، وخرير الفرات، وهي تحمل أشلاء أخيها نحو السّماء قائلة بقلب مكسور: «اللهم تقبّل منا هذا القربان» .

انها ذكريات يعيشها المتأمل ويعيش معها العاشق، بل يجد نفسه مضطراً لترديد سيمفونية الخلود، حيث عزف السيوف، ورقص الأشلاء، وأنغام التفجُّع الذي اختصر المسافة بين الأرض والسماء، يحكي قصّة الدم المهدور، والأُمّة

التي تُقاد قود القطيع، والقسوة التي ليس لها حدود .

ثم انطلق سعيد إلى بغداد، حيث مرقد الإماميين الهمامين موسى بن جعفر الكاظم، وحفيده محمد بن علي الجواد عليهما السلام، ليجّدد بهما عهداً، ويتزوّد من بركات زيارتهما.

ثم انطلق إلى مدينة سامراء، حيث مرقد الإمامين الهمامين علي بن محمد الهادي والحسن بن علي العسكري عليهما السلام .

أمضى سعيد في المراقد المقدسة شهراً كاملاً تزوّد بها روحاً معنوية عالية، وجدد الولاء لأهل بيت الرسالة، وكان معه في سفرته تلك أحد اخوته وابن عمه، فكانت سفرة جميلة انطبعت ذكرياتها في القلوب ، وصورها في الارواح ، ثم عاد إلى أهله في البصرة ليمضي هناك ثلاثة أشهر كاملة.

انشغل سعيد في اثناء تواجده في مدينته بأداء العديد من النشاطات الدينية والاجتماعية، فقد أمّ الجماعة في المسجد القريب من بيته، وكان في كل يوم يعطي بعض الدروس الدينية في الفقه والتفسير والعقائد، وكانت له في كلّ ليلة جمعة محاضرة عامّة في الحسينية، بالاضافة إلى زيارة الاقارب والاصدقاء والمساهمة في انجاز بعض المشاريع الخيرية.

كان سعيد قد عزم في هذه السنة على الذهاب إلى بيت الله الحرام، فهو وان كان قد أدّى فريضة الحج مع والده منذ أوّل تكليفه إلّا انّه لا ينسى تلك الاجواء الروحية العظيمة في موسم الحج بالاضافة إلى شوقه إلى زيارة قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة البقيع الحسن بن علي وزين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق عليهم السلام، بالاضافة إلى زيارة الصحابة وامهات المؤمنين وفاطمة الزهراء

سيدة نساء العالمين عليها السلام.

والذي شجعة بشكل أكثر هو طلب العديد من الحُجّاج من ابناء مدينته ان يكون معهم لكي يوضح لهم أحكام الحج، ويقودهم لأداء الأعمال بشكل صحيح. ويكون مرشداً لهم في ذلك.

أخذ سعيد يعد العدة للسفر إلى حج بيت الله الحرام، وبدأ بتوضيح المسائل الفقهية في المسجد كل يوم، إلى أن حان موعد السفر واقتربت أيّام الحج وتهيأت القوافل للانطلاق إلى الديار المقدسة، قاطعة الفيافي والسهول، والبراري والوديان.

الوصول إلى المدينة المنورة

حطّت القافلة رحالها في المدينة المنورة، تلك المدينة المهيبة الجميلة التي تأخذ بلبك ومجامع قلبك، حيث قبر النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة البقيع ومسجد الرسول، حيث الذكريات العطرة لأحداث كثيرة جرت في هذه البقعة الصغيرة من العالم، فغيرت وجه التاريخ البشري، هنا يعيش المرء احساساً عجيباً حيث انّه كلما وضع قدمه في شبر من الأرض يراوده شعور بأنه يدوس أثراً لقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو أثراً لأمير المؤمنين عليه السلام، أو لأحد الصحابة الكرام. فينجذب بكلّ شعوره نحو الإسلام ونبيّه وتعاليمه المُقدَّسة .

هاهنا المساجد السبعة المعروفة التي يشير كلُّ واحد منها إلى ذكريات وأحداث، وهنا الروضة التي وصفها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة». وعندما تصعد إلى الأعلى ترى مكان واقعة الأحزاب، حيث اثار الخندق الذي حفره المسلمون دفعاً لغائلة الاعداء المشركين الذين

تجمعوا عليهم من كل القبائل، ولكن الله نصر المسلمين نصراً عزيزاً، وعاد المشركون من حيث جاءوا بخفَّي حُنين تلحقهم اللعنات تلو اللعنات، ثم ترتفع إلى الأعلى أكثر فتأخذك الذكرى إلى أرض أحد، حيث المعركة التي وقعت بين المسلمين وبين كفار قريش، فتشهد الجبل الذي أمر رسول الله ﷺ بعض المسلمين بالمرابطة عليه ولكنّهم بعد ان رأوا جيش الإسلام قد حقق النصر وأنّ فلول الأعداء بدأت بالاندحار، نزلوا من مكانهم وتبعوا المقاتلين طمعاً بالغنائم، وحدث ما حدث من خسارة عسكرية للمسلمين وترىٰ هناك قبر حمزة عم النبي وأسد الله وأسد رسوله، ليذكرك بجرائم بني أمية وقسوة قلب هند، تلك القسوة التي ورثها الأبناء عن الآباء، تنصت لصوتها وهي تأمر عبدها وحشي صارخة به: مزِّقهُ يا وحشي، ويمتثل العبد لسيدته ليُسجِّل أبشع جريمة بحق الجسد الشريف لحمزة بن عبد المطلب عليه السلام. ويقدّم كبد البطل الصريع ثمناً لهند لقاء حُرّيته.

كل هذا وغيره يجعل لهذه المدينة طعماً خاصاً، كل شيء فيها متميز وخاص حتى ان المرء يعيش شعوراً بانه ليس في هذا الزمن، وكأن الزمن هناك منعدم ليس له وجود رغم مرور ألف وأربعمائة سنة على هذه الذكريات والأحداث .

ما ان استقر بسعيد المقام في المدينة حتى إسرع سعيد لزيارة قبر النبي ﷺ والأئمة الطاهرين، وكان مواظباً على اقامة جميع الصلوات في المسجد النبوي، والمكث عند قبر النبي ﷺ من الساعة العاشرة إلى ما بعد صلاة الظهر، وكذلك من العصر إلى الغروب وقد اتخذ له مكاناً قريباً من الروضة للصلاة فيه وتلاوة القرآن وذكر الله تعالى. وكيف لا وهو يشعر بأنّ الملائكة

تملأ ذلك المكان، فهي بلاشك تأتي بالألوف لزيارة هذه البقعة المباركة .

كان سعيد في يومه الخامس في المدينة محافظاً على برنامجه العبادي الذي قوامه المكث والعبادة في المسجد النبوي، وهنا اتفق أنّ أحد علماء السنة الذي كان مصرياً قد اتخذ له برنامجاً شبيها ببرنامج سعيد، ومن محاسن الصدف ان المكان الذي أتخذه قريب جداً من مكان سعيد، فيتفق في كثير من الاحيان أن يصطفَّ أحدهما بجنب الآخر للصلاة والدعاء وتلاوة القرآن، وسبب ذلك يعود إلى ان كثرةَ الحجاج والزائرين تحول دون ترك المكان خالياً عادة، والملفت للنظر حقاً ان ذلك العالم كان يراقب سعيداً، في افعاله بشكل لفت نظر سعيد إلى ذلك، فحاول سعيد ان يستفهم عن سبب تلك المراقبة، وهنا تشاء الصدف في ذلك الوقت ان يكون مصلى أحدهما بجنب مصلى الآخر فيبادر سعيد قائلاً له :

ـ يبدو أن الحاج عربيٌ فمن أي بلادٍ يا ترى ؟

ـ انا من أرض الكنانة والنيل مصر الحبيبة .

ـ أهلاً وسهلاً بمصر وأهلها، فأنكم أهل العلم والإيمان، أهل الحضارة والعمق التأريخي، أهل المواقف الطيبة، أهل الرجولة والفتوة، حياك الله يا أخي وبيَّاك.

ـ وانت من أي بلاد يا أخي العزيز .

ـ انا من بلاد دجلة والفرات، وسومر وبابل وآشور، وانا من بلاد علي والحسين عليهما السلام، انا من بلاد بغداد والكوفة والبصرة، انامن بلاد الخير والعلم والسؤدد، انا من بلاد الحكمة والأدب، انا من بلاد السواد والجمال .

ـ أنت عراقي اذن ؟

ـ نعم هو ذاك.

ـ انعم بكواكرم من اصل طيب وفرع كريم، فمصر والعراق شقيقان بكل ما لهذه الكلمة من معنى. لقد تشرفت بالتعرف عليك ولكن ما هو اسمك؟

سعيد: اسمي سعيد .

الشيخ بسيوني: وانا ادعى الشيخ بسيوني.

سعيد: ولماذا تسمى الشيخ هل انت من علماء مصر ؟

الشيخ: نعم فأنا اسكن الاسكندرية واقيم الجمعة والجماعة في أحد مساجدها الكبيرة ولي مؤلفات عديدة، بالاضافة إلى اني كنت استاذاً في الازهر الشريف لسنين عديدة، أُدرّس الفقه والحديث والتفسير والعقيدة.

سعيد: حسناً جداً، فانه يسعدني ان اتعرف على عالم من علماء الإسلام لاسيما وانت خريج تلك الجامعة العريقة وهي الازهر التي بناها الفاطميون ايام حكمهم لمصر من أجل بلورة الوعي الديني ونشر المعارف الإلهية، طبعاً على طريقتهم المذهبية.

الشيخ:كان هؤلاء اسماعيلة ولم يكونوا مسلمين، فمثلهم مثل بقية فرق الرافضة قد خرجوا عن الإسلام واتبعو افكاراً باطنية.

سعيد: لقد اخبرتني بانك عالم من علماء الإسلام، واستاذ في الأزهر، في التفسير والحديث والعقيدة، وما كنت اظن بأنك تحكم على طائفة كبيرة من المسلمين الذين سميتهم الرافضة بالخروج عن الإسلام، واتباع الباطن والافكار الغريبة .

الشيخ: هذا هو الواقع يا أخي وأنا أرجو إلّا تكون انت من هؤلاء الرافضة، لأنَّ العراق فيه نسبة كبيرة منهم.

سعيد: وكيف عرفت هذا الواقع، هل عن دليل أم عن تقليد لأعداء أهل

البيت عليهم السلام في رميهم من يتولى آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالرفض والخروج عن ربقة الإسلام؟!

الشيخ: لقد طالعت بعض الكتب وتوصلت إلى هذه النتيجة .

سعيد: وهل طالعت كتب الشيعة ؟

الشيخ: للاسف لم اطالع أي كتاب من كتبهم، ولكني قرأت ما ينقل عن كتبهم فهم يقولون بتحريف القرآن، ويحلون زواج المتعة، ويلعنون الصحابة لاسيما الشيخين، ويلعنون امهات المؤمنين لاسيما عائشة وحفصة ـ وغير ذلك من الأُمور البشعة.

سعيد: اتعرف بان الشيعة على طوائف عديدة امثال الإسماعيلية والزيدية والإمامية. فهل كلامك يعم الجميع أو انّه مختص بفرقة خاصة ؟

الشيخ: بل الجميع يا أخ سعيد، فانهم جميعاً يشتركون في هذه الأباطيل.

سعيد: أود أن أُخبرك بأنّي من الشيعة الإمامية الاثني عشرية.

الشيخ: لقد كنت اتوقع هذا فاني أرى صلاتك تختلف عن صلاتنا وأرى عندك اشياء من الأذكار والأوراد ما عهدناها نحن ابناء السنة والجماعة.

سعيد: هذا لأنكم ما اتبعتم أهل بيت النبوة والعصمة الذين زوَّدونا بكل ذلك ورسموا لنا الطريق الواضح، والصراط المستقيم الذي في سلوكه النجاة وفي التخلف عنه الهلاك.

الشيخ: وهل تظنون بأنكم على الصراط المستقيم وان الجنة تنتظركم مع هذا الانحراف الذي عندكم والاباطيل التي تعتقدونها؟!

سعيد: بل نحن على يقين من ذلك، واما الاباطيل التي تدعيها فنحن

منها براء، بل نحن أهل الحق والصدق واليقين، ونحن لم ننحرف عن الإسلام ولم نتبع غير القرآن وسنة خاتم الأنبياء، فنحن في الواقع أهل السنة والإسلام. واما انتم فللأسف الشديد قد تركتم كتاب الله خلف ظهوركم، ورميتم سنة رسول الله إلى جانبكم ولم تعملوا بها، بل اتبعتم سنة الشيخين، ومن لم يكن كلامه حجة بينة من الله ورسوله. اذن فمن الذين خرجوا عن ربقة الإيمان يا شيخ .

الشيخ: ان هذا كلام غريب وانا لأول مرة اسمع به، كيف تدعي ذلك وما هو دليلك عليه؟!

سعيد: الكلام في ذلك يطول ويطول، وان أصل الخلاف بيننا وبينكم هو موضوع الإمامة حيث انكم تعتقدون بأن أبا بكر هو خليفة رسول الله، واما نحن فنعتقد بان الإمام علياً عليه السلام هو الإمام والخليفة .

الشيخ: ان هذه مسألة تأريخية، وهي لا تصلح ان تكون أساساً لمذهبكم الفاسد.

سعيد: انت عالم من علماء السنة وانا كذلك عالم من علماء الشيعة فاذا كان غرضك هو الوصول إلى الحقيقة بما هى حقيقة، حتى تلقى الله وهو عنك راض فانا مستعد ان نخصص وقت العصر من كل يوم للمناقشة العلمية الهادئة بعيداً عن الذاتية والتعصب والتقليد الأعمى. فماذا تقول يا شيخ في هذا الاقتراح؟

الشيخ: بلا شك انا اطلب الحقيقة واسعى للوصول اليها، وانا موافق على هذا الاقتراح بشرط ان يكون معززاً بالأدلة المقنعة .

سعيد: على بركة الله اذن. ولكن اين سوف يكون محل النقاش ؟

الشيخ: ما رأيك ان يكون في زاوية من زوايا المسجد النبوي الكبير، فبعد

الانتهاء من صلاة العصر انا اكون في انتظارك هناك.

سعيد: إذاً توافقنا.

ثم ودع سعيد الشيخ بسيوني بعد صلاة المغرب متوجهاً إلى محل سكناه ليلقي على جماعته الحجاج بعض التوجيهات فيما يخص آداب المدينة وغيرها.

اللقاء الأوّل:

الإمامة العامة

بات سعيد في تلك الليلة متفكراً بما يبدأ به من موضوع الإمامة مع الشيخ بسيوني، وحاول ان يرتب معلوماته بشكل جيد، لأنّ هذا النقاش له طابع خاص باعتبار ان موضوعه مهم، بل في غاية الاهمية، لأن هذا الموضوع كان هو السيف الذي فرق الأُمّة الإسلامية فكانت شطرين كبيرين، وكذلك هو موضع خلاف وأخذ ورد منذ الف وأربعمائة سنة. ولأنَّ طرف النقاش عالم من علماء السنة ليس شخصاً عادياً يمكن أن يقنع بأدلة بسيطة.

وبحلول النهار اخذ سعيد يتجول في المدينة ليتعرف على معالمها وأماكنها عن قرب وتخلل ذلك زيارة قبر الرسول والصلاة في المسجد النبوي، وبعد صلاة العصر توجه سعيد إلى المسجد النبوي ليجد الشيخ بسيوني بانتظاره. وبعد السلام وتبادل كلمات المودة خاطب الشيخ بسيوني سعيداً قائلا .

الشيخ: تفضل يا شيخ سعيد فأنا في انتظار ما تطرحونه علينا.

سعيد: هل تتصور يا شيخ بسيوني ان الخلاف ما بيننا نحن الشيعة الإمامية الاثني عشرية وبينكم أبناء السنة والجماعة هو مجرد مسألة أحقية الإمام علي بن أبي طالب في الخلافة بعد النبي أو أبي بكر وباقي الخلفاء؟ وليست هناك أُمور جذرية جوهرية كبيرة هي أساس الخلاف حقيقة .

الشيخ: وما تلك الأُمور يا سعيد ؟

سعيد: إنّ الإمامة في منظوركم الكلامي تختلف عنها في منظورنا، ومن هنا فالاختلاف فيها اختلاف بأشياء كثيرة. فأنتم مثلاً تعتقدون بان الإمام هو رئيس المجتمع من الناحية الادارية والسياسية والعسكرية. اما نحن فنعتقد بأن الإمامة منصب الهي وهو امتداد للنبوة وهو الحجة الالهية على الخلق، وهو المرجعية الدينية الكبرى، وهو المبيّن لأحكام الدين والمفسّر لكتاب الله تفسيراً لا يستند إلى الظن والظاهر وانما هو الواقع الذي أراده الله تعالى .

الشيخ: أهكذا تنظرون إلى الإمام ؟

سعيد: نعم يا شيخ ومن هنا لابد أن نبحث في مقامين: الأوّل هو الإمامة العامة، والثاني هو الإمامة الخاصة .

الشيخ: وماذا تعني بالإمامة العامة.

سعيد: اقصد الخلافة الإلهية العظمى الرابطة بين الأرض والسماء، تلك التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ [البقرة: ١٢٤]. وهي لا تختص بزمن من الأزمان أو طائفة من الناس، بل هي منذ أوّل الخليقة آدم عليه السلام الذي كان خليفة الله في أرضه، ثم تلته الأئمة إلى زماننا هذا. حيث إنّ الإمام هو الحجة بن الحسن العسكري. فالإمامة العامة هو البحث عن الخلافة الإلهية والحجة على الخلق اعم من كون ذلك الإمام نبيّاً أو غير نبي، فان للنبي وظيفةً وللرسول وظيفة وللإمام وظيفة أُخرى، وقد تجتمع هذه الوظائف في شخص واحد كالنبي إبراهيم الخليل عليه السلام والنبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وقد تفترق كما في الإمام علي والأئمة من بعده عليهم السلام. وهذه هي الإمامة القرآنية التي لابد أن نستقصى البحث فيها أولاً

قبل الولوج في بحث الإمامة الخاصة التي تعني إمامة شخص معين .

الشيخ: تريد ان تقول بان بحث الإمامة تارة يكون على مستوى المفهوم وأُخرى على مستوى المصداق، وتسمى الأُولى العامة والثانية الخاصّة .

سعيد: تقريباً هكذا .

الشيخ: لو سألناك يا أخ سعيد ما هي الإمامة القرآنية؟ فماذا تجيب؟

سعيد: في البداية لابد ان نشير بان الإمام في اللغة هو الذي يؤتم به فهو المقتدى لهم يتبعونه في أقواله وأفعاله، وهو اعم من أن يكون إماماً صالحاً أو إماماً طالحاً ولذلك يقول تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسِ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الاسراء: ٧١] وكذلك قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا إِيْمَانَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢] إلى غيرها من الآيات. ولذلك نجد ان الله تعالى يقول: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. فهي تدل على ان الإمام هو الذي يقتدى به ويتبع في الأقوال والأفعال .

الشيخ: ان هذه تخص الأنبياء فلا معنى لكونها لغيرهم، بل هي نفس النبوة فان الناس يقتدون بالنبي ﷺ في دينهم لذلك يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الاحزاب: ٢١] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٣]. اضف إلى ذلك أنّك قد عرفت الإمامة بأنها رئاسة عامة في أُمور الدين والدنيا وقد كانت للرسول ﷺ تلك الرئاسة. أو هي خلافة رسول الله ﷺ في حراسة الدين وسياسة الدنيا. فكيف جعلتها بمعنى الاقتداء في الآية الكريمة .

سعيد: ان تصورك هذا فيه الكثير من الخلط والاشتباه لدليلين :

أوّلاً: إنّ قوله تعالى : ﴿إماماً﴾، مفعول ثانٍ لعامله الذي هو قوله: ﴿جاعلك﴾ واسم الفاعل لا يعمل إذا كان بمعنى الماضي، وانما يعمل إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال فقوله: ﴿جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ وعد له عليه السلام بالإمامة فيما سيأتي، مع انّه وحي لا يكون إلّا مع نبوة، فقد كان عليه السلام نبياً قبل تقلده الإمامة، فليست الإمامة في الآية بمعنى النبوة .

وثانياً: إن قصة الإمامة إنّما كانت في أواخر عهد إبراهيم عليه السلام بعد مجيء البشارة له بإسحاق وإسماعيل، وانما جاءت الملائكة بالبشارة في مسيرهم إلى قوم لوط وإهلاكهم، وقد كان إبراهيم حينئذ نبياً مرسلاً، قبل ان يكون إماماً فإمامته غير نبوته .

الشيخ: انت إلى الآن لم توضح ما هو المقصود من مقام الإمامة في القرآن الكريم .

سعيد: ان الذي نجده في كلامه تعالى انّه كلما تعرض لمعنى الإمامة تعرض معها للهداية تعرض تفسير، أي انّه دائماً يفسر الإمامة بالهداية وكأن هناك ملازمة بين الإمامة والهداية. تأمل في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] ففي هاتين الآيتين نرى الله تعالى يصف الإمامة بالهداية وصف تعريف .

الشيخ: وما هو لون الهداية التي يهدي بها الإمام وهل يوجد الّا الهداية التشريعية وهي من مختصات مقام النبوة دون مقام الإمامة.

سعيد: إنّ هذه الهداية ليست هداية تشريعية، وإنّما هي هداية

تكوينية بأمر تكويني.

الشيخ: لم افهم ما تعنيه من الأمر التكويني.

سعيد: سوف اضرب لك مثالاً يا شيخ وهو: إذا جاءك شخص يسألك عن مسجد المباهلة أين هو؟ فأنت أمام نوعين من التصرف :

أولهما: أن تصف الطريق المؤدي إلى ذلك المسجد فتقول له: تذهب من هذا الشارع ثم تجد شارعاً آخر اسمه كذا فتنعطف إلى جهة كذا ثم إلى جهة كذا. وأمّا النوع الثاني فهو أن تأخذ بيد ذلك السائل وتمشي معه حتى توصله إلى المسجد. واعتقد ان الفرق بين المنهجين واضح في تحقق النتائج من وصول هذا السائل إلى مقصده، فالأوّل غير مضمون واما الثاني فلا شك في ضمانة. ولكل من هذين المنهجين اصطلاح خاص حيث يسمى الأوّل بـ «اراءة الطريق» في حين يسمى الثاني بـ «الايصال إلى المطلوب» .

وإذا أردنا تطبيق ذلك على موضوعنا يتجلّى لنا الفرق بين هداية النبوة وهداية الإمامة، حيث إن هداية النبوة من النوع الأوّل أقصد إراءة الطريق في حين ان هداية الإمامة من النوع الثاني اقصد الايصال إلى المطلوب. وهذان سنخان مختلفان من الهداية تسمى الأولى بالهداية التشريعية وتسمى الثانية بالهداية التكوينية والدليل على ذلك من نفس الآيات القرآنية.

الشيخ: وما وجه دلالة الآيات على هذين النوعين من الهداية لاسيما الهداية التكوينية التى جعلتها وظيفة مقام الإمامة دون النبوة .

سعيد: هناك نكتتان تتضح للمتأمل في الآيات القرآنية على ما ذكرناه من التفرقة بين الهدايتين وان هداية النبوة «الهداية التشريعية» تختلف عن هداية الإمامة «الهداية التكوينية» .

الأُولى: ان الهداية المجعولة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ ليست هي بمعنى إراءة الطريق ؛ لأنَّ الله سبحانه جعل إبراهيم عليه السلام إماماً بعد ما جعله نبياً، ولا تنفك النبوة عن الهداية بمعنى إراءة الطريق لعدم وجود أي معنى للنبوة من دون ان يكون النبي يوضح للناس طريق الحق ومنهج الصدق وسبيل السعادة كما نصت على ذلك عشرات الآيات، فلا يبقى حينئذ للإمامة ألّا الهداية بمعنى الايصال إلى المطلوب، وهي نوع تصرف تكويني في النفوس بتسييرها في درب الكمال ونقلها من موقف معنوي إلى موقف آخر .

الثانية: حينما نتأمل في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة: ٢٤] نجد انّه تعالى وصف الإمامة بالهداية وصف تعريف ثم قيدها بالأمر، فبين ان الإمامة ليست هي مطلق الهداية، بل هي الهداية التي تقع بأمر الله.

وحينما نرجع إلى القرآن الكريم نراه قد بين هذا الأمر وفسّر معناه في آيات أُخرى فيقول سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[القمر: ٥٠]. وإذا أردت أن أُبيّن النتائج من هذه الآيات فربما تتعجب يا شيخ !

الشيخ: إنّي لأسمع كلاماً ما طرق سمعي قبل ذلك، وإنّي قد قرأت القرآن الكريم عشرات المرات واحفظ الكثير منه ولكن لم تخطر ببالي هذه النكات وهذا الربط بين آياته بهذا الشكل، وعليه فانا اطلب منك ان تبين لي النتائج المستخلصة من هذه الآيات .

سعيد: هناك نحوان من الإيجاد يذكرهما سبحانه في القرآن الكريم بقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف: ٥٤] .

فالايجاد الخلقي هو ذلك الايجاد التدريجي الذي يكون عن مثال سابق، في حين أن الإيجاد الأمري هو الايجاد الدفعي الذي لا يكون عن مثال سابق وهو قوله تعالى ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ .

وهذا المقام أعني مقام ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ هو الذي يُسمى بالملكوت حيث ان الآية السابقة كانت ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾. وهذا الملكوت هو وجود طاهر مطهر من الزمان والمكان، خال من التغير والتبدل، وهو المراد بكلمة ﴿كن﴾ التي تعني وجود الشيء العيني، وهو قبال الخلق الذي هو وجه آخر من وجهي الاشياء، فيه التغير والتدرج والانطباق على قوانين الحركة والزمان.

الشيخ: إلى الآن لم يتضح كلامك يا أخ سعيد .

سعيد: النتيجة التي يمكن بيانها فعلاً هي انّ المتدبر في كتاب الله تعالى سوف يجد أنَّ الإمام هاد يهدي بأمر ملكوتي يصاحبه، فالإمامة بحسب الباطن نحو ولاية للناس في أعمالهم، وهدايتها ايصالها إيّاهم إلى المطلوب بأمر الله دون مجرد إراءة الطريق الذي هو شأن النبي والرسول وكل مؤمن يهدي إلى الله سبحانه بالنصح والموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٤] وقال تعالى في مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[غافر: ٣٨] وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

الشيخ: ولكن ما سرُّ هذا التعظيم لشخص الإمام بحيث تصبح هدايته تكوينية بأمر تكويني، ولماذا اختار الله تعالى بعض الاشخاص إلى هذه المنزلة العظيمة دون غيرهم .

سعيد: القرآن هو الذي يجيب يا شيخ بسيوني، فقد بيَّن سبب هذا الاصطفاء الخاص وهذه الكرامة العظيمة بقوله: ﴿لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فبيَّن أن الملاك في ذلك صبرهم في جنب الله ـ وقد اطلق الصبر ـ فهو في كل ما يبتلى ويمتحن به عبد في عبوديته، وكونهم قبل ذلك موقنين، وقد ذكر في جملة قصص إبراهيم عليه السلام قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الانعام: ٧٥]. وهذه الآية توضح بان إراءة الملكوت لإبراهيم كانت مقدمة لأفاضة اليقين عليه، ويتبين به ان اليقين لا ينفك عن مشاهدة الملكوت كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦] وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ *... كَلَّا إِنَّ كِتَابَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٤ ـ ٢١] .

فهذه الآيات تدل على ان المقربين هم الذين لا يحجبون عن ربهم بحجاب قلبي وهو المعصية والجهل والريب والشك، فهم أهل اليقين بالله، وهم يشهدون عليين كما يشهدون الجحيم .

وبالجملة فالإمام يجب ان يكون إنساناً ذا يقين مكشوفاً له عالم الملكوت، متحققاً بكلمات من الله سبحانه، وقد تقدم الكلام عن عالم الملكوت

الذي هو الوجه الباطن من وجهي هذا العالم، فقوله تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يدل دلالة واضحة على ان كل ما يتعلق به أمر الهداية ـ وهي القلوب والأعمال ـ فللإمام باطنه وحقيقته، ووجهه الأمري حاضر عنده غير غائب عنه، ومن المعلوم أن القلوب والأعمال كسائر الاشياء في كونها ذات وجهين، فالإمام يحضر عنده ويلحق به أعمال العباد خيرها وشرها، وهو المهيمن على السبيلين جميعاً، سبيل السعادة وسبيل الشقاوة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسِ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الاسراء: ٧١]. فالإمام هو الذي يسوق الناس إلى الله سبحانه «يوم تبلى السرائر». كما انّه يسوقهم إليه في ظاهر هذه الحياة الدنيا وباطنها، والآية مع ذلك تفيد ان الإمام لا يخلو منه زمان من الأزمنة، وعصر من الاعصار لمكان قوله تعالى: ﴿كُلَّ أُنَاسِ﴾ ثم...

سكت سعيد هنيئة فبادره الشيخ بسيوني قائلاً:

الشيخ: ثم ماذا يا سعيد أرجوك تكلّم .

سعيد: ثم ان هذا المعنى أعني الإمامة، على شرافته وعظمته، لا يقوم إلّابمن كان سعيد الذات بنفسه، اذ الذي ربما تلبّس ذاته بالظلم والشقاء، فأنما سعادته بهداية من غيره، وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾ [يونس: ٣٥]. وقد قوبل في الآية بين الهادي إلى الحق وبين غير المهتدي إلّا بغيره، اعني المهتدي بغيره، وهذه المقابلة تقتضي ان يكون الهادي إلى الحق مهتدياً بنفسه، وان المهتدي بغيره لا يكون هادياً إلى الحق قطعاً.

ويُستنتج من هنا أمران:

أحدهما: ان الإمام يجب ان يكون معصوماً عن الضلال والمعصية، وإلّا

كان غير مهتد بنفسه ـ كما مر ـ ويدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣] فأفعال الإمام خيرات يهتدي اليها لا بهداية من غيره، بل باهتداء من نفسه بتأييد إلهي، وتسديد رباني، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ﴾ بناء على ان المصدر المضاف يدل على الوقوع، ففرق بين مثل قولنا: وأوحينا اليهم أن افعلوا الخيرات، فلا يدل على التحقق والوقوع، بخلاف قوله: «واوحينا اليهم فعل الخيرات» فهو يدل على ان ما فعلوه من الخيرات انما هو بوحي باطني وتأييد سماوي.

الثاني: عكس الأمر الأول، وهو ان من ليس بمعصوم لا يمكن أن يكون إماماً هادياً إلى الحق قطعاً .

وبهذا البيان يظهر أنَّ المراد بالظالمين في قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] مطلق من صدر عنه ظلم ما، من شرك أو معصية، وان كان منه في برهة من عمره، ثم تاب وصلح .

الشيخ: ولماذا تعتقد ذلك يا سعيد ؟ الا يمكن ان نفرض ان العصمة تأتي بعد ذلك وبها تتحقق الإمامة.

سعيد: لا يمكن أبداً، لأنّ الاحتمالات في الآية بحسب القسمة العقلية أربعة :

١ ـ من كان ظالماً في جميع عمره .

٢ ـ من لم يكن ظالماً في جميع عمره .

٣ ـ من هو ظالم في أول عمره دون آخره .

٤ ـ من هو غير ظالم في أول عمره دون آخره .

وحينئذ نأتي إلى النبي إبراهيم عليه السلام لنرى انه سأل الإمامة من الله تعالى

لأي قسم من هذه الاقسام الأربعة؟ والجواب: بانّه ﷺ أجل شأناً ان يسأل الإمامة للقسم الأول والرابع من ذريته فبقي قسمان وقد نفى الله أحدهما، وهو الذي يكون ظالماً في أول عمره دون آخره، فبقي الآخر، وهو الذي يكون غير ظالم في جميع عمره .

الشيخ: استطيع ان استخلص جملة من النتائج من مجموع ما ذكرته لي بحسب الترتيب التالي:

أوّلاً: إن الإمامة جعل من الله تعالى .

ثانياً: إن الإمام يجب ان يكون معصوماً بعصمة إلهية .

ثالثاً: إنّه لابد ان يكون في الأرض دائماً إمام، فما دام هناك ناس فلا بد أن يكون معهم إمام.

رابعاً: إن الإمام يجب ان يكون مؤيداً من عند الله تعالى .

خامساً: ان اعمال العباد غير محجوبة عن علم الإمام.

سادساً: يجب أن يكون الإمام عالماً بجميع ما يحتاج إليه الناس في أُمور معاشهم ومعادهم.

سابعاً: انّه يستحيل ان يوجد فيهم من يفوقه في فضائل النفس .

سعيد: أحسنت يا شيخ فهذه فعلاً هي النتائج التي تستخلص من البحث السابق .

سعيد: وحينئذ نصل وإيّاك إلى النتيجة النهائية من كل ما تقدم من البحث القرآني لموضوع الإمامة وهي: إن الإمامة في ولد إبراهيم بعده، وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّالِمِينَ﴾ اشارة إلى ذلك، فان إبراهيم ﷺ انما كان سأل الإمامة لبعض ذريته لا لجميعهم، فأجيب: بنفيها

عن الظالمين من ولده، وليس جميع ولده ظالمين بالضرورة حتى يكون نفيها عنهم نفياً لها عن الجميع، ففيه إجابة لما سأله مع بيان انها عهد، وعهد الله لا ينال الظالمين.

وانا أرجو من فضيلة الشيخ ان يحتفظ بهذه النتيجة التي استخلصناها من الآيات القرآنية إلى حين فإننا سوف نحتاجها بعد ذلك قطعاً .

الشيخ: أنا أُحيّي فيك الروح العلمية العالية، وأنا معجب كثيراً بشخص له دقة وعمق وقوة ملاحظة وربط بين الآيات القرآنية، وما كنت ادري ولا اتوقع ان اقابل شخصاً من الشيعة بهذا المستوى الجيّد.

سعيد: هذا الذي ذكرته لك هو خلاصة ما سطره فحول العلماء والمحققين من مذهب أهل البيت وما أنا من بينهم الا كذرَّة في صحراء كبيرة، وكقطرة من محيط متلاطم الأمواج، فكيف بك لو كان احد منهم معك الآن لرأيت العجب العجاب، ولقلت هاهنا العلم وإلّا فلا .

وان مشكلتكم انتم ابناء العامة انكم لا تقرأُون كتبنا ولا تزورون حواضرنا العلمية لتطّلعوا عن كثب على حقيقة هذه الطائفة التي ظلمها الظالمون بأقلامهم المأجورة أو الجاهلة والمتعصبة، والا فالواقع غير هذا وذاك.

الشيخ: على أي حال أنا أسأل الله ان تكون مناقشاتنا المقبلة بنفس المستوى العلمي والمنهجي حتى نستطيع ان نصل إلى النتائج النافعة.

سعيد: وانا بالمقابل أتمنى ما تتمناه، لاسيما ونحن في جوار النبي ﷺ وان روحه التي ترفرف في هذا المكان وأرواح الملائكة كذلك كلها شاهدة على ما نقول. والله حسبنا ونعم الوكيل .

ثم ودع سعيد الشيخ بسيوني على أن يلتقوا في اليوم التالي مع جولة جديدة من البحث حول مسألة الإمامة .

اللقاء الثاني:

الخلافة الإلهية هي الإمامة

قرر سعيد في هذا اليوم أن يقطع عشرات الكيلو مترات من أجل زيارة حصن خيبر، ذلك الحصن العظيم الذي كان يسكنه اليهود الذين نصبوا العداء للنبي ﷺ وللمسلمين وما أنفكوا يحوكون المكائد والمؤمرات من أجل القضاء على الإسلام. وحينما وصل إلى ذلك المكان الذي بني بشكل عجيب حيث بلغ من القوة والمنعة ما يتعذر على أحد اختراقه، لا سيما وأنّه قد شيد على تضاريس خاصة زادته منعة وحصانة.

أخذ سعيد ينظر إلى هذا البناء العظيم وقد جالت في ذهنه ذكريات هذا المكان وما جرى فيه في زمن رسول الله ﷺ وكأن المشهد يتجلّى أمام عينيه، هناك حينما كان اليهود يتآمرون على الإسلام وعلى رسول الله ﷺ ـ كما هو ديدنهم دائماً ـ ويكيدون المكائد ويتعاونون مع المشركين للقضاء على هذا الدين العظيم، حيث بادر رسول الله لقلع ذلك السرطان المميت والقضاء عليه فبدأ بحملة طالت جميع الحصون اليهودية التي من بينها هذا الحصن المنيع، وهنا انطلق الرسول ﷺ مع جيشه إلى هذا المكان حيث عسكر جيش

المسلمين في الوديان المحيطة بهذا الحصن، ولكن الإمام علياً عليه السلام كان قد تخلف عن المعركة لرمد في عينيه وانطلق الجيش الإسلامي في اليوم الأوّل بقيادة أبي بكروقد أعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله راية المسلمين ولكن أبا بكر عاد خائباً بخفّي حنين يجر أذيال الهزيمة خلفه ويُجبّن جيشه، فأوكل الرسول صلى الله عليه وآله في اليوم التالي الراية إلى عمر بن الخطاب الذي انطلق هو الآخر من أجل فتح هذا الحصن، ولكنّه لم يكن أحسن حظّاً من صاحبه حيث رجع في آخر الأمر خائباً منكسراً يجر أذيال الاندحار، وحينذاك قال رسول الله صلى الله عليه وآله قولته المعروفة «لأُعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه كرار ليس بفرار». قال مسلمة: فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله علياً وهو أرمد فتفل في عينيه فعادت سالمة من كل ألم. ثم قال له: خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك، قال مسلمة: فخرج والله بها يهرول هرولة وإنّا لخلفه نتبع اثره حتى ركز رايته في رجيم من حجارة تحت الحصن فاطلع إليه يهودي من رأس الحصن فقال: من انت؟ قال: علي بن أبي طالب، قال اليهودي: غلبتم ومن أنزل التوراة على موسى. قال: فما رجع حتى فتح الله على يديه .

نعم هنا حيث اقتلع الباب الذي عجز عن حمله أكثر من أربعين رجلاً وقتل مرحباً بطل اليهود الذي كان يعد بألف فارس .

كل هذه الذكريات جالت في مخيلة سعيد وهو يتجول بين أركان هذا الحصن. وحينئذ فاضت دموع عينيه منسكبة على لحيته وخديه وأخذ يتمتم بكلمات العشق لعلي عليه السلام الذي كان والله أسد الله وأسد رسوله وسيف الله وسيف رسوله الذي طالما عرفته سوح القتال وذلّت له رقاب الرجال.

عاد سعيد قريب الظهر فلم يتمكن ان يصلي في المسجد النبوي صلاة

الظهر ؛ ولذلك فقد أدّاها في مسكنه وما إنْ تناول الغداء وأخذ ساعة من النوم حتى انطلق إلى المسجد قبل صلاة العصر وبعد ان انتهت صلاة الجماعة وبدأ المصلُّون بالتفرق توجه إلى تلك الزاوية حيث كان الشيخ بسيوني في انتظاره، وما إن رآه حتى رحب به كثيراً وأخذا يتبادلان كلمات المحبة والود، وبعد أن استقر بهما المجلس بادر الشيخ بسيوني بالحديث قائلاً:

بعد ان ثبت لدينا أن هناك حقيقة اسمها الإمامة كانت لبعض الأنبياء دون البعض الآخر نريد ان ندخل في أصل الموضوع الذي كان النقاش بسببه وهو الإمامة عندكم معاشر الشيعة. فما هي الإمامة عندكم؟ ومن هو الإمام؟ وما هو الدليل عليه ؟

سعيد: لقد توصلنا فيما سبق إلى أنّ الأرض لا تخلو من إمام، إمّا ظاهراً مشهوراً أو غائباً مستوراً. والذي دلّ على ذلك من القرآن قوله تعالى ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِ بِإِمَامِهِمْ﴾ فلا بد حينئذ ان لاتنقطع الحجة الإلهية إلى يوم القيامة، وهذا إنَّما يدل على ضرورة وجود الإمام بعد النبي ﷺ بل في كل زمن. أضف إلى ذلك أنّ أدلّة خاتمية النبي ﷺ تؤكد ضرورة وجود الإمام وإلّا لما تحققت الحكمة الالهية من وجود الأنبياء باعتبار وجود المقتضي وارتفاع المانع.

الشيخ: وما دخل الخاتمية في ضرورة وجود الإمام فان الخاتمية تتعلق بالنبوة لا بالإمامة ؟

سعيد: كيف لا وقد اثبتنا سابقاً أنّ الأرض لا تخلو من الإمام أو الحجة على الخلق من خلال قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِ بِإِمَامِهِمْ﴾ وغيرها من النصوص الدالة على

ذلك، مع ملاحظة ضرورة ارتباط البشرية في كل زمن بعالم الغيب الذي لا يمكن تحققه إلّا من خلال الإمام الذي هو الحجة الالهية على خلقه. اذن مسألة ضرورة وجود الإمام بعد النبي ﷺ ليس ترفاً ذهنياً أو نزعة باطنية كما يحلو للبعض ان يسميها، ومن الملعوم أنّ الله تعالى حينما بعث الأنبياء الذين بلغ عددهم مائة وأربعة وعشرين ألف نبي وثلامائة وثلاثة عشر رسولاً إنما كان من أجل هداية البشرية إلى الصراط المستقيم والأخذ بأيديهم نحو الكمالات الوجودية الأمر الذي لا يتم الا عن طريق شخص أو أشخاص يقومون بهذا الدور بعد أن يزكيهم الله ويطهرهم ويزودهم بالعلم واليقين ويكشف لهم الواقع على ما هو عليه ليقوموا بدور قيادة البشرية في ركب التكامل الوجودي نحو الله تعالى .

الشيخ: هذا الذي تذكره هو الذي يسميه علماء الكلام بقاعدة اللطف وهو أحد أدلتكم على وجوب تنصيب الإمام .

سعيد: نعم هو أحد أدلتنا يا شيخ وأنت لو نظرت إلى آيات الله بعمق وتأمل لوجدت هذا صحيحاً لاشكّ فيه؛ لأن الإنسان حينما أوجده الله تعالى في الأرض إنما أوجده لحكمة بالغة وغاية عظيمة قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] فهذه الخلافة الالهية التي يكون مركزها الأرض انما هي لكل عالم الوجود الامكاني وليس للأرض فحسب وهذا الخليفة هو الذي يكون واسطة الله في إدارة شؤون هذا العالم الإمكاني .

الشيخ: هناك عدة اشكالات على كلامك منها: انّه لماذا تفترض بان الخليفة هو الإمام الحجة الذي يتمتع بمواصفات استثنائية في حين يمكن ان تفسر الآية بأن الخليفة هم جميع بني آدم حيث هم مستخلفون في الأرض لا خصوص آدم أو ثلة خاصة من ولده والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الاعراف: ٦٩] .

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٤] وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] فمن الواضح ان هذه الآيات عامة لجميع النوع الإنساني وليس فيها أيّة قرينة على التخصيص. مضافاً إلى ذلك فإنه سبحانه لم ينف عن خليفة الأرض الفساد وسفك الدماء، ولا كذّب الملائكة في دعواهم التسبيح والتقديس، وأقرهم على ما أدعوا، بل إنما أبدى شيئاً آخر وهو أن هناك أمراً لا يقدر الملائكة على حمله ولا تتحمّله، في حين انّه بمستطاع الخليفة في الأرض تحمله عن الله تعالى وهو تعليم الأسماء أو الامانة الالهية كما في آية آخرى .

سعيد: نحن لا ننفي ان هناك للنوع الإنساني خلافة أيضاً حيث ان القرآن الكريم يستخدم هذه اللّفطة أعني «خليفة» ويريد منها تارة كل النوع الإنساني وأخرى خصوص فئة خاصة وهو ما نسميه بالاصطفاء، ومن الواضح ان آدم كان من الذين اصطفاهم الله عزوجل، ونحن لو رجعنا إلى بقية الآيات الواردة بعد الآية التي ذكرناها لوجدنا أنّ الملائكة تصورت استخلاف آدم هو من سنخ استخلاف النوع الإنساني الذي غايته اعمار الأرض وكل العالم الكوني وهذا النوع من الاستخلاف سوف يصاحبه بلاشك التنازع والفساد وسفك الدماء ومن

هنا كان سؤال الملائكة بأنّ من الافضل ان نكون نحن الخلفاء لانا سوف لا نكفر بالله ولا نفسد في الأرض ولا نسفك الدماء. وحينئذ أراد الله تعالى ان يبين للملائكة بانه حينما قال بأنّي جاعل في الأرض خليفة ليس المقصود هو خلافة النوع الانساني أو الاستخلاف العام وانما هو استخلاف خاص. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَـٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١ـ٣٣] فبيّن سبحانه من خلال هذه القصة بأنه أراد أن يبين للملائكة أنّ الخليفة الذي أقصده ليس هو الذي قصدوه وانما هو ذلك الشخص الذي يحمل مواصفات خاصة من بينها أنّه يعلم الأسماء كلها، تلك الاسماء التي ليس لهم بها أي علم، فقد أراد الله تعالى من خلال هذه الواقعة اثبات مميزات الخلافة الإلهية والذي يدل على ذلك أنه سبحانه بعد ان بيّن للملائكة تلك الحقيقة أمرهم بان يسجدوا لآدم عليه السلام مباشرة فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] وإذا رجعنا إلى الواقع نجد بما لا يقبل الشك أن أغلبية النوع الإنساني ليس له أيُّ علم بالأسماء الإلهية التي اختلف المفسرون في تفسيرها على انحاء متعددة وكذلك ليس لهم اهلية ان يكونوا جديرين بسجود الملائكة ؛ لأن أكثرهم قد خرج من حد الإنسانية إلى حد البهيمية.

الشيخ: هل لديك من القرآن ما يعزز هذا التفسير ويدل على وجود هذين

النوعين من الاستخلاف الإلهي اللّذين سميت أحدهما بالخاص أو الاصطفاء والثاني بالعام أو عمارة الكون .

سعيد: نعم وهو قوله تعالى في حق داود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[ص: ٢٦] فان هذه الآية تؤكد ان خلافة داود ليست هي الخلافة النوعية والا لكانت تحصيلاً للحاصل فلا معنى لأن يقول: (يا خليفة جعلتك خليفة) فيستفاد من الآية أنّ سنخ الخلافة هنا غير سنخ الخلافة هناك. وبذلك نصل إلى أنَّ الخلافة التي جعلت الملائكة يسجدون لآدم غير الخلافة التي اعترضوا عليها، باعتبار ملازمتها لسفك الدماء والفساد في الأرض .

الشيخ: هل يعني هذا أنّ الله جعل العالم بيد هذا الخليفة يتصرف فيه بما شاء وأن الله بمعزلٍ عن ذلك؟ في حين ان هذه المقولة هي عين ما قالته اليهود في كون الله قد خلق العالم ولا شأن له به، أو قول الصابئة وعبدة الكواكب بأن هناك نفوساً هي التي تدبر العالم وان الله لا شأن له به قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

سعيد: حاشا لله أن نقول ذلك، وانما هذه الخلافة لا تكون عن فقد، بل بنحو الطولية، فالله مالك الملك في السموات والأرض فهو يملك ويُقدِر الملائكة على شيء، ولا هو فاقد للقدرة، بل في عين تملكهم واقدارهم يكون مالكاً قادراً، فهذا الاستخلاف ليس من التفويض الباطل، بل هو إقدار وتمكين من دون تجافٍ وفقد.

فالمستخلف هو الله عزوجل والخليفة يكون هو الرابطة التكوينية بين الذات الأزلية ومورد الاستخلاف، نظير الافعال الاختيارية التي يقوم بها الفاعل المختار فانها إقدار وتمكين من مالك الملوك واستخلاف فيها من دون عزلة ولا انحسار لقدرة واجب الوجود.

الشيخ: احسنت يا سعيد وماذا عندكم من الروايات التي تدل على موضوعنا .

سعيد: هناك العديد من الروايات الواردة من أهل البيتعليهم السلام التي تؤكد أنّ الحجة لم تنقطع من زمن آدم إلى قيام الساعة، وهو ما يعزز الفهم الذي استلهمناه من آيات الإمامة وآيات الخلافة. منها ما رواه الكليني في أُصول الكافي ج ١ ص ١٣٦ عن أبي عبد الله عليه السلام أي الإمام جعفر بن محمد الصادق انه قال: «ان الأرض لا تخلو إلّا وفيها إمام كيما إن زاد المؤمنون شيئاً ردَّهم وإنْ نقصوا شيئاً أتمّه لهم». وكذلكعن الإمام الباقر محمد بن علي عليه السلام: «والله ما ترك الله أرضاً منذ قبض آدمعليه السلام إلّا وفيها إمام يُهتدىٰ به إلى الله وهو حجَّته على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة لله على عباده». وكذلك عن الإمام الصادق عليه السلام: «لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت».

وكذلك نصت الروايات عن أهل البيت على أنّ وجود الإنسان مقارن لوجود الحجة فلا يمكن أن يوجد إنسان دون أن يوجد إمام كما ذكرنا ذلك في آية: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ .

فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «لو لم يبق في الأرض الا اثنان لكان أحدهما الحجة» وكذلك قوله عليه السلام: «لو كان الناس رجلين لكان أحدهما

الإمام. وقال: إن آخر من يموت الإمام لئلا يحتج أحد على الله عزوجل انه تركه بغير حجة لله عليه».

الشيخ: من الحوار الذي دار بيننا تبيّن أنَّ للإمامة معنى آخر تماماً في المفهوم الشيعي يختلف عما هو المتصور من أنّ المسألة هي قضية أولوية علي عليه السلام في أحقيته للخلافة والحكم على الآخرين. وصار واضحاً أن الإيمان بالإمامة يعني إيماناً بمبادئ جديدة واضافية في الإسلام.

سعيد: هو كذلك بالتأكيد.

الشيخ: ولكن ما شأن التصور المتعارف من ان الإمام هو القائد للمجتمع أو هو المرجعية الدينية للأمة كما تصوِّر ذلك كتب الكلام الشيعي؟ أليست هذه الأُمور هي وظيفة الإمام؟ اذن، كيف تدَّعون الشمولية لحقيقة الإمامة بحيث تُعد أكبر وأعظم من النبوة والرسالة .

سعيد: ان ما تفضلت به من الوظائف الاجتماعية والدينية انما هما من بين المهام والوظائف العديدة المرتبطة بالإمام، لا انه ليس له إلّا هذه. فهي من شؤونه وليست هي كل شأنه. ومن هنا فالإمام سواء تولىٰ زمام الأُمور وتصدى للمرجعية الدينية أو لا فان ذلك لا يغير من حقيقة الإمامة بأيِّ شكل من الأشكال وهذه نكتة مهمة تُحلّ من خلالها العديد من الاشكالات التي قد ترد على الفائدة من وجود إمام لا يقوم بمهامه أو يتمكن من أداء وظيفته. فباعتبار البعد الكوني لحركة الإمام وباعتبار الولاية الباطنية للأشياء وباعتبار كونه الواسطة التي لا تنقطع الأرض والسماء تكون مهمته أعظم مما نتصور. ومن هنا نعتقد بانها جعل من الله تعالى وليس للخلق أيُّ دور فيها لا اثباتاً ولا نفياً فهي

كالنبوة والرسالة تماماً.

الشيخ: جزاكم الله خيراً، ولكنَّ هذا الكلام كله حول الإمامة التي لبعض الأنبياء حيث ـ كانوا اضافة إلى نبوتهم ـ أئمة بنصِّ القرآن الكريم، ولكن هذا ليس هو حقيقة الخلاف بيننا وبينكم وإنما ادعاؤكم للإمام علي عليه السلام والأئمة من ولده هذا المنصب الالهي العظيم، ومن هنا فلابدَّ من البحث في الإمامة الخاصة لكي نعرف هل تنطبق الإمامة العامة على ما تدعونه أم لا وما هي الادلة التي تثبت ذلك.

سعيد: الظاهر ان الوقت لا يسعنا في هذا اليوم للحديث عن ما تطلب، ولذا أنا اقترح ان نؤجل الحديث إلى غد ان شاء الله حتى تنجلي الحقيقة بشكل أوضح .

الشيخ: لا بأس بهذا الاقتراح يا أخ سعيد.

ثم ودع سعيد الشيخ بسيوني واتخذ له مكاناً للصلاة في الروضة المطهرة التي هي بين قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين منبره فان الصلاة فيها مستحبة لما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة».

اللقاء الثالث:

النصوص القرآنية الدالة على إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام

قرر سعيد في هذا اليوم ان لا يخرج من المسكن لانشغاله بتوضيح مسائل الحج للحجاج، ومن أجل أن لا يقعوا في اشكالات عند الطواف والسعي؛ ولذا أخذ سعيد يمارس كيفية الطواف أمامهم بشكل عملي، فبعد أن صنع ما يشبه الكعبة ورسم لهم خط الابتداء اخذ يطوف مع ذكر النية وغيرها من هذه الأمور. ولكن ما إن حان وقت صلاة الظهر حتّى أسرع إلى المسجد النبوي ليؤدي هناك فريضته ولأنّ الصلاة في مسجد النبي فيها ما فيها من الأجر الكثير، فقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الصلاة في مسجدي تعدل عند الله عشرة آلاف صلاة في غيره من المساجد الا المسجد الحرام فإنّ الصلاة فيه تعدل مائة ألف صلاة».

وما إن حل عصر ذلك اليوم حتى توجه سعيد إلى صديقه الشيخ بسيوني الذي كان في انتظاره بشوق ولهفة، وعند اللقاء تبادلا أجمل كلمات الحب والأُخوة. وما اسرع ما بدأ البحث بينهما حول إمامة الإمام علي عليه السلام وأهل بيته الطاهرين.

الشيخ: ما هو دليلكم القرآني على ان الخليفة من بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو علي دون غيره من الصحابة ؟

آية إنَّما وليكم:

سعيد: إن الحكم كما ذكرت لك امس هو شأن من شؤون الإمام وليس هو كل شأنه. ورغم ذلك فقد وردت آيات عديدة تثبت إمامة وخلافة الإمام علي دون سواه. أولها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ ٱلَّـذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥ـ٥٦] .

فقد دلت النصوص الكثيرة على نزولها في علي عليه السلام حينما تصدق بالخاتم وإليك القصة كاملة فقد روي عن عباية بن ربيعي قال: «بينما عبد الله بن عباس جالس على شفير زمزم، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ أقبل رجل متعمم بعمامة، فجعل بن عباس لا يقول قال رسول الله، الا قال الرجل: قال رسول الله، فقال بن عباس: سألتك بالله من أنت؟ فكشف العمامة عن وجهه وقال: يا أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أُعرِّفه بنفسي، أنا جندب بن جنادة البدري، أبو ذر الغفاري، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهاتين والا فصمتا، ورأيته بهاتين وإلا عميتا، يقول: «علي قائد البررة، وقاتل الكفرة، منصور من نصره، مخذول من خذله، أما إني صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً من الأيام صلاة الظهر، فسأل سائل في المسجد، فلم يعطه أحد شيئاً، فرفع السائل يده إلى السماء، وقال: اللهم اشهد أني سألت في مسجد رسول الله، فلم يعطني احد شيئاً، وكان علي عليه السلام راكعاً، فأومأ بخنصره اليمنى إليه وكان يتختم بها،فأقبل السائل حتى اخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فلما فرغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم من صلاته، رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إن أخي موسى،

سألك فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُواْ قَوْلِي وَٱجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٥ ـ ٣٢] فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥]. اللهم محمد ﷺ نبيك وصفيك، اللهم فاشرح لي صدري، ويسر لي امري، واجعل لي وزيراً من اهلي، علياً أشدد به ظهري.

قال أبو ذر: يا محمد اقرأ. قال: وما اقرأ؟ قال: اقرأ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ...﴾ الآية.

وهناك رواية ثانية تقول: «بان النبي ﷺ خرج إلى المسجد والناس بين قائم وراكع فبصر بسائل، فقال النبي: هل أعطاك أحد شيئاً؟ فقال: نعم خاتم من فضة، فقال النبي ﷺ: على أي حال أعطاك؟ قال: اعطاني وهو راكع.

فكبر النبي ﷺ، ثم قرأ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللهِ هُمُ ٱلْغَالِبُونَ﴾ الآية. فأنشأ حسان بن ثابت يقول في ذلك:

ابا حسن تفديك نفسي ومهجتي ... وكل بطيء في الهدى ومسارع
أيذهب مدحي والمحبّر ضائع ... وما المدح في حب الإله بضائع
فأنت الذي اعطيت إذا كنت راكعاً ... فدتك نفوس القوم يا خير راكع
فأنزل فيك الله خير ولاية ... فبيّنها في محكمات الشرائع

الشيخ: وهل يوجد عندك دليل على ان هذه الآية نزلت في علي عليه السلام من كتبنا ومصادرنا الإسلامية ؟

سعيد: نعم يمكنك مراجعة الكتب التالية:

١ . تفسير الطبري: ج ٦، ص ١٨٦ ، الطبري .

٢ . شواهد التنزيل: ج ١، ص ٢٠٩، للحاكم الحسكاني.

٣ . فرائد السمطين: ج ١، ص ١٨٩، الإمام أبو المعالي عبد الملك بن يوسف الجويني .

٤ . تفسير الدر المنثور: ج ٢، ص ٢٩٣، جلال الدين السيوطي .

٥ . المناقب للموفق الخوارزمي: ص ٢٦٥، الموفق بن أحمد بن محمد المكّي الخوارزمي.

٦ . المعيار والموازنة: ص ٢٢٨، لأبي جعفر الاسكافي المعتزلي.

٧ . المعجم الأوسط للطبراني: ج ٦، ص ٢١٨، الطبراني.

٨ . معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري: ص ١٠٢، الحاكم النيسابوري .

٩ . شرح نهج البلاغة: ج ١٣، ص ٢٧٧، لابن أبي الحديد المعتزلي.

١٠ . نظم درر السمطين: ص ٢٣، ص ٨٥ ـ ٢٤٠، للرزندي الحنفي.

١١ . كنز العمال: ج ١٣، ص ١٠٨، للمتقي الهندي.

١٢ . تذكرة الموضوعات للفتني: ص ٨٤، محمد طاهر محمد بن الهند الفتني.

١٣ . جامع البيان: ج ٦، ص ٣٨٩، لابن جرير الطبري.

١٤ . معاني القرآن للنحاسي: ج ٢، ص ٣٢٥، أبي جعفر النحاسي.

١٥ . أحكام القرآن للجصاص: ج ٢، ص ٥٥٧، أبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص .

١٦ . أسباب النزول: ص ١٣٣ ـ ٢٤٠، للواحدي النيسابوري.

١٧ . تفسير القرطبي: ج ٦، ص ٢٢١، القرطبي.

١٨ . تفسير بن كثير: ج ٢، ص ٧٤، ابن كثير .

١٩ . تفسير الجلالين: ص ٣٣٧، للمحلي السيوطي.

٢٠ . فتح القدير للشوكاني: ج ٢، ص ٥٣، محمد بن علي بن محمد الشوكاني .

٢١ . تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ج ٤٢، ص ٣٥٧، بن عساكر .

٢٢ . البداية والنهاية لابن كثير: ج ٧، ص ٢٩٤ وج ٩، ص ٣٤٠ .

وبعد ذلك يا شيخ بسيوني هل يوجد شك في انها نزلت في علي بن أبي طالب؟!

الشيخ: يا عجباً كل هذه المصادر تدل على نزولها في علي عليه السلام؟

سعيد: نعم يا أخي ولكنّ التعصب هو الذي أعمىٰ العيون، وأصمّ الأفواه وإلّا فطالب الحقيقة حينما يقرأ كل هذه المصادر لا بد ان يستيقن بولاية علي بن أبي طالب .

الشيخ: لقد تيقنت بان هذه الآية قد نزلت في علي عليه السلام ولكن إلى الآن المشكلة لم تنته حيث بقيت مسألة دلالة الآية على كون علي هو الإمام فقد يقال: بأن هذه الآية مع الإيمان بنزولها في حق الإمام علي عليه السلام الا انها لا تفيد الخلافة والإمامة كما تريدون الاستفادة منها كذلك.

سعيد: وكيف ذاك يا جناب الشيخ ؟

الشيخ: ان كلمة الولي في اللغة واستعمال العرب تدل على عدة معاني

فهي تدل على المولى والمالك والعبد والمعتق - بالكسر - والمُعَتق - بالفتح - والصاحب، والقريب كابن العم ونحوه، والجار، والحليف، والابن، والعم، والنزيل، والشريك، وأبن الأُخت، والمولى، والرب، والناصر، والمنعم،والمنعم عليه، والمحب، والتابع والصهر والأولى بالشيء.

فاذا كان الأمر هكذا فلماذا ترجحون أحد المعاني وهو الأخير دون المعاني الأُخرى؟ وما هي القرينة على ذلك؟ بل قد تكون هناك قرينة على الخلاف حيث أنّ المحتمل بشكل كبير أن تكون هذه الآية ناظرة إلى ولاية النصرة باعتبار وحدة السياق مع الآيات التي قبلها حيث يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] فقد نهى الله المؤمنين أن يتخذوا اليهود والنصارى أولياء، وليس المراد منه إلّا النصرة أو المحبة فلو فسرت الآية بالمتصرف يلزم التفكيك.

سعيد: في الواقع ان الخلط الذي وقع فيه بعض الباحثين وكان هو الأساس في الاشكال هو أنّ المولى لفظ يدل على عدة معاني فكيف نميّز احدهما عن الآخر؟ وما ذلك إلّا نتيجة للخلط بين المتعلق والمفهوم، مع انه لو كان الولي في الآية بمعنى الناصر أو المحب أو غيرها للزم وحدة الولي والمولّى عليه في قوله: ﴿وٱلَّذِينَ آمَنُواْ﴾ لأنّ كل مؤمن ناصر لأخيه ومحب له مع ان ظاهر الآية ان هناك أولياء ثلاثة: الأوّل هو الله تعالى، والثاني هو رسوله ﷺ، والثالث هو المؤمنون، ولكن ليس كل المؤمنين وإنما بشروط ثلاثة ذكرتها الآية وهي: أوّلاً اقامة الصلاة وثانياً إيتاء الزكاة وثالثاً وهم راكعون. وعليه فان الآية بعد أن اشارت إلى الاولياء الثلاثة بهذا الشكل لا نجد تفسيراً منطقياً الا كون المولى

بمعنى المتصرف في شؤون المولّى عليه. وهو المطلوب.

الشيخ: ولكن السياق الذي ذكرته الآيات السابقة كيف تجيب عنه ؟

سعيد: أُجيب عنه بعدّة وجوه:

الأوّل: إن سورة المائدة التي ذكرت فيها آية الولاية وان كانت مسلّمة النزول في آخر عهد رسول الله ﷺ في حجة الوداع، لكنّ من المسلّم أيضاً أنّ جميع آياتها لم تنزل دفعة واحدة، ففي خلالها آيات لا شبهة في نزولها قبل ذلك، ومضامينها تشهد بذلك، وما ورد فيها من أسباب النزول يؤيده، فليس مجرد وقوع الآية بعد الآية يدل على وحدة السياق، ولا أنّ بعض المناسبة بين آية وآية يدل على نزولهما معاً دفعة واحدة أو اتحادها في السياق.

الثاني: إنّ الآيات السابقة أعني قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ... الخ﴾. تنهىٰ المؤمنين عن ولاية اليهود والنصارى، وتُعيِّر المنافقين والذين في قلوبهم مرض بالمسارعة اليهم ورعاية جانبهم، من غير ان يرتبط الكلام بمخاطبة اليهود والنصارى وأسمائهم بوجه من الوجوه ، بخلاف الآيات التالية أعني قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥٧] فانها تنهى عن ولايتهم، وتتعرض لحالهم بالأمر بمخاطبتهم، ثم يعيِّرهم بالنفاق والفسق، فالغرض في الطائفتين من الآيات السابقة واللاحقة مختلف، ومعه كيف يتحد السياق؟

الثالث: ان كون الولاية بمعنى النصرة في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَىٰ أَوْلِيَآءَ﴾ ليس تاماً فقد نوقش فيه، وأثبت البعض كونها بمعنى ولاية المحبة والمودة لا النصرة لعدم مساعدة السياق لذلك، ومع وجود هذا الاحتمال

وهو قوي كيف يمكن الاستدلال بها على ان الولاية في الآية التي نبحثها أيضاً من هذا القبيل ؟

الرابع: لو نظرنا إلى سبب نزول الآية كما ذكرنا سابقاً لوجدناه يتنافى تماماً مع السياق المزعوم حيث ان الآية واضحة في نزولها بشأن معنى آخر للولاية يتناسب مع سبب النزول، فأين هذا من ولاية النصرة أو أرتباط هذه الآية بآية اليهود والنصارى ؟

الشيخ: عندي اشكال آخر إذا استطعت دفعه فسوف اذعن بدلالة الآية على إمامة علي عليه السلام. وهو: إن لفظ الآية ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ جمع، فكيف يعبر بلفظ الجمع ويراد به الواحد وهو الإمام علي عليه السلام ؟

سعيد: إن اعتقاد عدم جواز استخدام لفظ الجمع وإرادة المفرد اشتباه، وإنما الذي لا يجوز في اللُّغة هو العكس أي استخدام اللفظ المفرد وإرادة الجمع.

الشيخ: وما الدليل على ذلك؟

سعيد: مثلاً عندما نقرأ قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَافِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللهِ وَٱللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَٱللهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَاذِبُونَ * ٱتَّخَذُوا۟ أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ ٱللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ...﴾ [المنافقون: ١ ـ ٨] .

فقد وردت نصوص كثيرة تؤكد بان هذه الآيات التي أستخدمت فيها ألفاظ الجمع قد نزلت في عبد الله بن أبي سلول. كما جاء في تفسير الطبري ج، ٢٨، ص ٢٧، وتفسير السيوطي ج ٦، ص ٢٢٣ وغيرهم.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١] فقد وردت نصوص كثيرة من كتبكم تؤكد بأنها نزلت في «نبتل بن الحرث». روى ذلك ابن جرير الطبري في جامع البيان ج ١٠، ص ٢١٥، وكذلك أسباب النزول للواحدي النيسابوري ص ١٦٨، وكذلك في زاد المسير لابن الجوزي ج ٣، ص ٣١١ .

أو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] فقد أراد بالجمع الذي هو الناس شخصاً واحداً وهو «نعيم بن مسعود الأشجعي». نصّ على ذلك ابن جرير الطبري في جامع البيان ج ٢ ص ٤٠٢، وكذلك في معاني القران للنحّاس ج ١، ص ٥١٠، وأحكام القرآن للجصّاص ج ٦ ص ٥٥ وغيرهم.

إذن، فاستخدام لفظ الجمع وإرادة الشخص الواحد أمر مستعمل في القرآن الكريم وفي الاستخدامات اللُّغوية، مضافاً إلى ان سبب النزول وغيره من القرائن التي تجدها في كتب التفسير الشيعية حينما تتعرض لهذه الآية تأتي بأدلة قوية جداً على ان المراد منها واحد وهو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

الشيخ: أحسنت يا أخ سعيد على هذا البيان المسهب في بيان هذه الآية الكريمة. ولكنّي أتساءل: هل هذه الآية الوحيدة التي تنص على ولاية الإمام علي عليه السلام ؟

آية اطيعوا الله :

سعيد: لا بالطبع يا شيخنا العزيز فان هناك العديد من الآيات الأُخرى كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩].

فقد نصَّت هذه الآية على وجوب الطاعة لله تعالى ولرسوله ولأُولي الأمر. ولكن حينما نزلت هذه الآية أخذ الأصحاب يسألون عن أُولي الأمر الذين اقترنت طاعتهم بطاعة الله ورسوله. وفعلاً تقدم الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ إلى النبي يسأله عن هذه الآية. قال جابر قلت: يا رسول الله عرفنا الله فاطعناه، وعرفناك فأَطعناك، فمن أُولو الأمر الذين أمرنا بطاعتهم؟

فقال ﷺ: هم خلفائي يا جابر، أولياء الأمر من بعدي، أولهم أخي علي عليه السلام ثم بعده ولده الحسن عليه السلام ثم الحسين عليه السلام ثم علي بن الحسين عليه السلام ثم محمد بن علي الباقر عليه السلام، وستدركه يا جابر فاذا أدركته فاقرأه مني السلام، ثم جعفر الصادق، ثم موسى الكاظم، ثم علي الرضا، ثم محمد الجواد، ثم علي الهادي، ثم الحسن العسكري، ثم الخلف الحجة القائم المنتظر المهدي، أئمة بعدي، ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين».

الشيخ: وهل يوجد من مصادرنا ـ نحن أهل السنة والجماعة ـ ما يؤكد نزولها في علي عليه السلام .

سعيد: نعم يا أخي فقد رواه الحسكاني في شواهد التنزيل ج ١ ص ١٨٩، وكذلك في نظم درر السمطين للزرندي الحنفي ص ١٣٩ وغيرهم.

الشيخ: ولكن أُولي الأمر الذين ذكرتهم الآية هم قادة الجيش أو الحكام الذين يحكمون الامصار الإسلامية، لا سيما وان هناك روايات عديدة تؤكد ذلك. ومن الواضح أن الغرض من هذا الحكم هو المحافظة على النظام الاجتماعي ودفع الخلاف بين المسلمين. فكيف تقولون بانها تدل على الإمامة؟ وما وجه دلالتها؟

سعيد: لان الآية ذكرت الطاعة المطلقة لله وللرسول وإلى أُولي الأمر فدلت على وجوب ان يكون ولي الأمر معصوماً حتى لا يمكن طاعته في المعصية أو الخطأ فالاطلاق في الطاعة دال على انحصارها بمن يكون معصوماً مثل رسول الله ﷺ.

الشيخ: هذا الاشكال غير وارد لأن افتراض طاعة اولي الأمر مقيد بنصوص أُخرى تؤكد انّه في حالة مخالفتهم للكتاب والسنة لا يجوز طاعتهم ولا يكون حكمهم نافذ، كقول رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» وهذه الرواية اشهر من نار على علم وبها ينحل ما أشكلتموه علينا.

سعيد: في الواقع يا شيخ بسيوني إنّ ما حاولتم الاجابة عنه في مسألة تخصيص طاعة ولي الأمر بما كان غير مخالف لله ولرسوله صحيح في نفسه لكنه لا يقيد الآية الكريمة، لأنَّ كون مسألة من المسائل صحيحة في نفسها شيء وكونها مدلولاً عليها بظاهر آية قرآنية شيء آخر.

فالآية تدل على افتراض طاعة اولي الأمر هؤلاء، ولم تقيده بقيد ولا شرط وليس في الآيات القرآنية ما يقيد الآية في مدلولها حتّى يعود معنى قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ إلى مثل قولنا: واطيعوا اولي الأمر منكم فيما لم يأمروا بمعصية، أو لم تعلموا بخطئهم.

فان أمروكم بمعصية فلا طاعة عليكم، وان علمتم خطأهم فقوّموهم بالرد إلى الكتاب والسنة فما هذا معنى قوله: وأطيعوا الله والرسول وأُولي الأمر منكم.

مع ان الله تعالى أبان ما هو أوضح من هذا القيد فيما هو دون هذه الطاعة المفترضة كقوله في الوالدين: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ...﴾ [العنكبوت: ٨] فلماذا لم يظهر شيءٌ من هذه القيود في آية تشتمل على أسماء أساس الدين وإليها تنتهي عامة أُصول السعادة الإنسانية.

على ان الآية جمع فيها بين الرسول وأُولي الأمر وذكر لهما معاً طاعة واحدة فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ ومن الواضح انه لا يجوز للرسول ان يأمر بمعصية، أو يغلط في حكم، فلو جاز شيء من ذلك على أولي الأمر لم يسعه إلّا أن يذكر القيد الوارد عليهم فلا مناص من اخذ الآية مطلقة من غير أي تقييد، ولازمه اعتبار العصمة في جانب أولي الأمر، كما اعتبر في جانب رسول الله ﷺ من غير فرق. وسوف نبين بعد ذلك ان شاء الله بأَن غير أئمة أهل البيت ليس معصوماً. فثبت بهذه الآية ان منصب الإمامة هو المقصود من هذه الآية .

الشيخ: جيد يا أخ سعيد، إن اجاباتك مقنعة حقاً.

سعيد: هل أزيدك يا شيخ ؟

الشيخ: ولم لا؟ فإنه كلما كانت هناك دلائل اكثر كلما كان اليقين اكبر.

سعيد: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الاحزاب: ٣٣].

فقد دلّت الرّوايات المستفيضة على أنَّها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام حيث جمعهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تحت غطاء واحد وإليك القصة كاملة:

روى جابر بن عبد الله الأَنصاري عن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انها قالت :

دخل عليَّ أبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الأيام فقال: السلام عليك يا فاطمة، فقلت: وعليك السلام. فقال: إني لأجد في بدني ضعفاً، فقلت له: أُعيذك بالله يا أَبتاه من الضعف، فقال: يا فاطمة، آتيني بالكساء اليماني فغطيني به. قالت فاطمة: فأتيته بالكساء اليماني فغطيته به، وصرت انظر إليه، وإذا وجهه يتلألأ كأنه البدر في ليلة تمامه وكماله، قالت فاطمة: فما كانت إلّا ساعة وإذا بولدي الحسن عليه السلام قد اقبل، وقال: السلام عليكِ يا أُمّاه، فقلت: وعليك السلام يا قرة عيني، وثمرة فؤادي، فقال لي: يا اماه اني اشم عندك رائحة طيبة كأنها رائحة جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت: نعم يا ولدي، ان جدك نائم تحت الكساء، قالت: فأقبل الحسن عليه السلام نحوالكساء وقال: السلام عليك يا جداه، السلام عليك يا رسول الله، أتأذن لي ان ادخل معك تحت الكساء. فقال: وعليك السلام يا ولدي وصاحب حوضي، قد أذنت لك، فدخل معه تحت الكساء قالت: فما كانت الا ساعة وإذا بولدي الحسين عليه السلام قد أقبل، فقال: يا اماه، اني اشم عندك رائحة طيبة كأنها رائحة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت: نعم يا بني، ان جدك وأخاك تحت الكساء، قالت: فدنا الحسين عليه السلام نحو الكساء فقال: السلام عليك يا جداه، السلام عليك يا من اختاره الله، أتأذن لي أن أكون معكما تحت هذا الكساء، فقال: وعليك السلام يا ولدي، وشافع امتي، قد أذنت لك، فدخل معهما تحت

الكساء، قالت فاطمة عليها السلام: فأقبل عند ذلك أبو الحسن علي بن أبي طالب عليه السلام وقال: السلام عليك يابنت رسول الله، فقلت: وعليك السلام يا أَبا الحسن، يا أمير المؤمنين، فقال: يا فاطمة إنّي أَشم عندك رائحة طيبة، كأنها رائحة أخي وابن عمي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت: نعمها هو مع ولديك تحت الكساء، فأقبل أمير المؤمنين عليه السلام نحو الكساء وقال: السلام عليك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتأذن لي أن أكون معكم تحت هذا الكساء؟ فقال: وعليك السلام يا أخي وخليفتي وصاحب لوائي، قد أذنت لك فدخل علي عليه السلام تحت الكساء. ثم أتت فاطمة عليها السلام وقالت: السلام عليك يا أبتاه، السلام عليك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أتأذن لي أن أَدخل معكم تحت هذا الكساء؟ قال لها: وعليكالسلام يا ابنتي. وبضعتي، قد أذنت لك، فدخلت فاطمة عليها السلام معهم. فلما اكتملوا واجتمعوا جميعاً تحت الكساء فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بطرفي الكساء، وأومأ بيدهِ اليُمنى إلى السَّماء، وقال: اللهم إن هؤلاء أهل بيتي وخاصتي وحامَّتي، لحمهم لحمي، ودمهم دمي، يؤلمني ما يؤلمهم، ويحرجني ما يحرجهم، أنا حرب لمن حاربهم، وسلم لمن سالمهم، وعدو لمن عاداهم، ومحب لمن أحبَّهم إنهم منِّي وأنا منهم، فاجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك وغفرانك ورضوانك عليَّ وعليهم، وأَذهب عنهم الرِّجس وطهرهم تطهيراً.

قال الله عزوجل: يا ملائكتي ويا سكان سمواتي، اني ما خلقت سماء مبنية، ولا أرضاً مدحية، ولا قمراً منيراً، ولا شمساً مضيئة، ولا فلكاً يدور ولا بحراً يجري ولا فلكاً تسري، إلّا في محبة هؤلاء الخمسة الذين تحت الكساء. فقال الأمين جبرائيل: يا رب، ومن تحت الكساء؟ فقال الله عزوجل: هم أهل

بيت النبوة ومعدن الرسالة، وهم فاطمة وأبوها وبعلها وبنوها.

فقال جبرائيل: يا رب، أتأذن لي أن أهبط إلى الأرض لأكون معهم سادساً؟

فقال الله عزوجل: قد أذنت لك، فهبط الأمين جبرائيل، فقال: السلام عليك يا رسول الله ﷺ، العلي الأعلى يقرؤك السلام، ويخصك بالتحية والإكرام، ويقول لك: وعزتي وجلالي، إنّي ما خلقت سماءً مبنية ولا أرضاً مدحية، ولا قمراً منيراً ولا شمساً مضيئة ولا فلكاً يدور ولا بحراً يجري ولا فلكاً يسري إلا لأجلكم، وقد أذن لي أن أدخل معكم تحت الكساء، فهل تأذن لي أنت أن أدخل يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: وعليك السلام يا أمين وحي الله، لقد أذنت لك، فدخل جبرائيل معهم تحت الكساء. فقال لهم: إنّ الله عزوجل قد أوحى إليكم ويقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ الآية... الخ .

وقد وردت روايات أُخرى بمضامين مختلفة تؤكد نفس الواقعة واجتماع هؤلاء الخمسة تحت الكساء ونزول آية التطهير هناك.

الشيخ: أنا لم أعهد هذا الكلام في كتبنا فالمعروف عندنا إنّها نازلة في نساء النبي ﷺ وليس كما تدّعي.

سعيد: ما رأيك لو أطلعتك على المصادر السنية التي تؤكد نزولها في أهل البيت، أعني هؤلاء الخمسة بالخصوص ويؤكدون على حديث الكساء الذي هو وحده كاف لأثبات عظمة هؤلاء الذين ما خلق الله العالم بأسره إلّا لمحبتهم.

الشيخ: هات هذه المصادر ان كانت عندك حاضرة.

سعيد: نعم يا شيخ فإنّي قد هيأتها لك حتى تقف بنفسك عليها وإليكها مفصلة.

١ . المصنف: ج ٧ ص ٥٠١، وما بعده ابن أبي شيبة الكوفي.
٢ . كتاب السنة: ص ٥٨٩، عمرو بن أبي عاصم.
٣ . السنن الكبرى: ج ٥ ص ١١٣، النسائي.
٤ . خصائص أمير المؤمنين عليه السلام: ص ٤٩، النسائي.
٥ . مسند أبي يعلي: ج ١٢ ص ٤٥١، أبو يعلى الموصلي.
٦ . المعجم الأوسط: ج ٤ ص ٢٣٦، الطبراني.
٧ . المعجم الكبير: ج ٣ ص ٥٣، الطبراني.
٨ . شرح نهج البلاغة: ج ٦ ص ٣٧٦، ابن أبي الحديد المعتزلي.
٩ . نظم درر السبطين: ص ١٣٣، الزرندي الحنفي.
١٠ . موارد الظمآن: ص ٥٥٥، علي بن أبي بكر الهيثمي.
١١ . جامع البيان: ج ٢٢ ص ١٠، ابن جرير الطبري.
١٢ . أسباب نزول الآيات: ص ٢٣٩، الواحدي النيسابوري.
١٣ . شواهد التنزيل: ج ٢ ص ٣٠ ـ ١٣٩، الحاكم الحسكاني.
١٤ . تفسير القرطبي: ج ١٤ ص ١٨٤، القرطبي.
١٥ . تفسير ابن كثير: ج ٣ ص ٤٩٢ ـ ٤٩٤، ابن كثير.
١٦ . الدر المنثور: ج ٥ ص ١٩٨، جلال الدين السيوطي.
١٧ . فتح القدير: ج ٤ ص ٢٧٩، محمد بن علي بن محمد الشوكاني.
١٨ . ذكر أخبار إصبهان: ج ٢ ص ٢٥٣، الحافظ الاصبهاني.

١٩ . البداية والنهاية: ج ٨ ص ٣٩، ابن كثير.

٢٠ . الذريَّة الطاهرة: ص ١٠٨، الدولابي.

٢١ . الصواعق المحرقة: ص ١٤٤، ابن حجر.

٢٢ . تاريخ بغداد: ج ١٠ ص ٢٧٨، الخطيب .

٢٣ . تفسير النجوي: ج ٣ ص ٥٢٨، النجوي.

٢٤ . تفسير الرازي: ج ٤ ص ٨٥ .

٢٥ . رشفة الصادي: ص ٣٥، الحضرمي.

٢٦ . مختصر تاريخ دمشق: ج ١٥ ص ٢٩ ـ ٢٣٤، ابن منظور.

٢٧ . مجمع الزوائد: ج ٧ ص ٩١، الهيثمي.

٢٨ . مسند بن حنبل: ج ١ ص ٣٣٠، ابن حنبل .

٢٩ . فضائل الصحابة: ج ٢ ص ٥٧٧ ـ ٥٨٣، ابن حنبل .

٣٠ . صحيح مسلم: ج ٧ ص ١٢٩ .

٣١ . سنن الترمذي: ج ٥ ص ٣٢١ .

٣٢ . مستدرك الحاكم: ج ٣ ص ١٤٦ .

وبعد كل هذه المصادر التي تؤكد نزول هذه الآية العظيمة في حق أهل البيت عليهم السلام هل يمكن أن يسري الشك إلى من «كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»؟!

الشيخ: لا والله لا يمكن ذلك، إلّا أن يكون متعصباً أعمى، قد ملأ الحقد قلبه فجعله لا يبصر طريق الهدى والصراط المستقيم، ولكن بقي شيء وهو دلالة الآية وبعض الإشكالات حولها.

سعيد: تفضل يا أخي العزيز فأنا مستعد لكلٍّ ما تريد .

الشيخ: إن الحديث القرآني كان منصباً على نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان هذا المقطع من ضمن هذه الآيات التي تخاطب أُولئك النساء فكيف كان هذا المقطع مخصصاً لعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام؟ وهذا ما نجده واضحاً حينما نقرأ الآيات حيث يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾... إلى أن يقول: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَاةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً * وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ [الاحزاب: ٢٨ ـ ٣٤]. فحينما ننظر إلى هذه الآيات نراها تتكلّم حول نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكيف تجيبون عن كيفية إفراد هذا المقطع الخاص من بين كل الكلام الذي هو كلام مترابط ومتناسق حول نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا سيما وانه قد روي عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس انها نازلة في نساء النبي؟ بل قد كان مصراً على ذلك حيث كان يمشي في الأسواق ويعلن هذا الرأي، ويخطِّئ الناس باعتقادهم باختصاص الآية المباركة بأهل البيت .

سعيد: أما بالنسبة لما ذكرته من أنّ عكرمة كان يفعل ذلك ويصر عليه فهذا دليل على أن الرأي السائد عند الناس في ذلك الوقت هو كونها نازلة في حق أهل البيت عليهم السلام بالخصوص لا نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؛ ولذا نجده يصر على تغيير هذا الاعتقاد من قبل عامة المسلمين. ومن الواضح عدم صحة التمسك بدعوة هذا الرجل وترك ما هو المتعارف والمتواتر عند الناس. ورغم ذلك يمكن ان نسجل عدة ملاحظات حول هذه الشبهة.

أ ـ إن القول الذي ذكره عكرمة قد تفرد به حيث لم ينقل أحد من أصحاب رسول ﷺ أنها نازلة في نساء النبي ﷺ .

ب ـ إن هذا القول تردُّه أحاديث صحيحة معتبرة وكثيرة ومتفق عليها بين المسلمين فقد وردت في سبعة عشر طريقاً معتبراً اضافة إلى المصادر الكثيرة التي ذكرتها لك مسبقاً.

جـ ـ إن هذا الرجل كان منحرفاً فكراً وعملاً، وكان معادياً لأهل البيت عليهم السلام ومن دعاة الخوارج. والدليل على ذلك ما روته كتب الرجال من أهل السنة أمثال الذهبي حيث قال: قد تكلّم الناس في عكرمة لأنّه كان يرىٰ رأي الخوارج، بل كان هذا الرجل مستهتراً بالدين، طاعناً في الإسلام، فقد نقلوا عنه قوله: إنّما أنزل الله متشابه القرآن ليضل به الناس، وقال في وقت الموسم، أي موسم الحج: وددت أني بالموسم وبيدي حربة فأعترض بها من شهد الموسم يميناً وشمالاً... إلى غير ذلك.

وحينئذ كيف يصح ان نتمسك بمقولة رجل مستهتر بالدين، طاعنٍ في الإسلام، فقد نقلوا عنه قوله: انما انزل الله متشابه القرآن ليضل به الناس، وقال في وقت الموسم أي موسم الحج: وددت أني بالموسم وبيدي حربة فأعترض بها من شهد الموسم يميناً وشمالاً... إلى غير ذلك.

وحينئذ كيف يصح ان نتمسك بمقولة من هذا الرجل المنحرف ونرفع اليد عن الثابت عند المسلمين وفي الكتب المعتبرة ؟

وأما مسألة السياق وانها في نساء النبي ﷺ فكيف نبتر هذا المقطع ونخصصه بهؤلاء الخمسة فنقول: انه من الثابت عند الأصوليين عدم حجية السياق واما قرينية السياق فهذا في حال عدم توفر دليل على ارادة الخلاف، وأمّا

معه فلا يكون السياق قرينة، ونحن وبحمد الله بين أيدينا الكثير من النصوص التي تؤكد اختصاصها بهؤلاء الخمسة، فكيف نرفع اليد عن جميع تلك الأحاديث المعتبرة والمعتمدة والمتفق عليها لأجل السياق وحده؟ ثمّ ندعي شيئاً لأُمِّ سلمة أو عائشة أو غيرهما من نساء النبي في حين أنّ أُمُ سلمة وعائشة بأنفسهن يروين ان هذه الآية نزلت في هؤلاء الخمسة .

مضافاً إلى وجود قرينة من نفس الآية تدل على ان المراد ليس نساء النبي وهي قوله «عنكم» في حين في الآيات والمقاطع الأُخرى كان الكلام بضمير الجمع المؤنث مثل «قرن» «أو بيوتكن» «وأقمن» إلى غير ذلك.

الشيخ: أحسنت يا أخ سعيد على هذا الجواب المقنع. ولكن يبقى هناك سؤال حول معنى الرجس الذي أذهبه الله عنهم حتى يتم الاستدلال بالآية ؟

سعيد: في الحقيقة عندما نتأمل في كلمة الرجس نجدها معرَّفة بالألف واللّام التي هي ألف ولام الجنس الذي يفيد العموم والاطلاق وحينئذ فيكون الرجس الذي اذهبه الله عنهم هو كل قذارة معنوية من الذنوب والمعاصي، لانّ كلَّ المعاصي رجس، ويتأكد ذلك حينما نرى أنَّ القرآن الكريم استخدم لفظة الرجس وأطلقها على جملة من القذارات أمثال الشرك والخمور والقمار واللّحوم المحرمة والنجسة وامثال ذلك كما هو واضح في الآيات: ٩٠ من سورة المائدة، ٣٠ الحج، ١٢٥: التوبة، ١٤٥: الأنعام.

إضافة إلى وجود كلمة (إنَّما) التي تفيد الحصر والتأكيد حيث حصر سبحانه إذهاب الرجس فيهم عليهم السلام لإفهام البشر أجمعين أنَّهم أشرف مخلوقاته من الأولين والآخرين، وليس لأَحد أَن يزاحمهم في مناصبهم ويشاركهم في مناقبهم التي اختصهم الله بها. فضلاً عن أَخذ حقوقهم وغصب مقامهم

ومرتبتهم التي اوجبها الله لهم من فوق سماواته السبع.

الشيخ: ولكن ما هذه الإرادة التي أرادها الله تعالى بإذهاب الرجس عنهم ؟

سعيد: لابد من التنبيه بان الارادة في القرآن تطلق على احد معنين: الأوّل: هو الإرادة التكوينية: كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٧٤] وهذه الإرادة من المستحيل أن تتخلّف عن المراد، بل هي حتمية. الوقوع. الثاني: الإرادة التشريعية: وهي المشتملة على الأوامر والأحكام الإلهية في مسائل الحلال والحرام وغيرها. والسؤال هنا: هل إنّ هذه الإرادة التي ذكرت في الآية هي إرادة تكوينية أو إنّها تشريعية؟ والجواب: إنّه لا معنى لكونها تشريعية، لأنّ من المعلوم أن الإرادة التشريعية تتعلّق بأفعالنا لا بأفعال الله عزوجل، في حين ان الآية المباركة تتعلق بإرادة أفعال الله سبحانه، فهي تقول: ان الله أراد أن يذهب عنكم الرجس، وبناءً على هذا فان مثل هذه الإرادة يجب أن تكون تكوينية، ومرتبطة بإرادة الله سبحانه في عالم التكوين، اضافة إلى ذلك، فان مسألة الإرادة التشريعية فيما يتعلّق بالتقوى والعفّة وغيرها لا تنحصر بأهل البيت عليهم السلام، لأنّ الله تعالى قد أمر الجميع بالتقوى والتطهر من الذنوب، وبذلك سوف لا تكون لهم مزية وخاصية، لأنّ كلّ المكلفين مشمولون بهذا الأمر. واضافة إلى الإرادة التشريعية لا تناسب الآية المباركة فكذلك هي لا تتناسب مع الاحاديث التي ذكرت سبب النزول بأي وجه من الوجوه، لأنّ كل تلك الأحاديث تتحدث عن فضيلة سامية وهي مهمة خاصة، تختص بأهل البيت عليهم السلام.

الشيخ: ولكنّ تفسير هذه الإرادة بالتكوينية يدخلنا في مشكلة أخرى

وهي الجبر ؛ لأنّه من الواضح ـ كما ذكرتم ـ أنّ الارادة التكوينية يستحيل تخلُّفها عن المراد، ومعه يكون التطهير وإذهاب الرجس قهرياً في حق هؤلاء وينتج عدم الميزة التي تميزهم على الآخرين ؛ لأنّهم مجبرون على فعل التقوى وعدم المعصية. ويتأكد الإشكال إذا رأينا أن مبناكم هو عدم الالتزام بالجبر خلافاً للأشاعرة الذين أثبتوا ذلك.

سعيد: الجواب على هذا الإشكال يتضح إذا تأملنا بدقة كون الارادة التكوينية التي تعني الخلقة والايجاد، تعني هنا المقتضي لا العلة التامة، لتكون موجبة للجبر وسلب الاختيار. وتوضيح ذلك في مقام العصمة يعني حالة تقوى الله التي توجد عند الأنبياء والأئمة بمعونة الله تعالى، لكن وجود هذه الحالة لا يعني أنّهم غير قادرين على ارتكاب المعصية، بل إنَّهم قادرون على إتيانها، غير أنّهم يعفُّون أنفسهم ويجلونها عن التلوث بها باختيارهم، ويغضون الطرف عنها طوعاً، تماماً كالطبيب الحاذق جداً، الذي لا يتناول مطلقاً مادة سامة قاتلة وهو يعلم الأخطار التي تنجم عن تناولها، مع أنّه قادر على تناولها، إلا أنّ علومه واطّلاعه ومبادئه الفكرية والروحية تدفعه إلى الامتناع إرادياً واختياراً عن هذا العمل. مع ملاحظة أنّ هذه المرتبة أعني العصمة هي موهبة خاصة منَّ الله بها على الأنبياء والأئمة بسبب المسؤوليات الثقيلة الملقاة على عاتقهم في قيادة الناس وإرشادهم.

الشيخ: لو كان الجواب الذي تطرحه أكثر علمية لكان أنسب بالنسبة لي فهذا الجواب وإن كان متيناً إلّا أنّي أرجو منك جواباً أمتن يتناسب مع متانة الإشكال الذي طرحته عليكم.

سعيد: انا في الخدمة يا جناب الشيخ، أقول: إنّ الجواب العلمي على هذا

الإشكال يجرنا قهراً إلى الحديث حول نظرية الجبر والاختيار عند الشيعة.

وملخص ما ذهبوا إليه أنّ جميع أفعال العبيد وإن كانت مخلوقة لله عزوجل، ومرادة له بالإرادة التكوينية لامتناع جعل شريك له في الخلق، إلّا أنّ خلقه لأفعالهم إنّما هو بتوسط إرادتهم الخاصة غالباً وفي طولها، وبذلك صحّحوا نسبة الأفعال للعبيد ونسبتها لله، فهي مخلوقة لله عزوجل حقيقة، وهي صادرة عن إرادة العبيد أيضاً، وبذلك صحّحوا الثواب والعقاب، وذهبوا إلى الحل الوسط الذي أخذوه من أقوال أئمتهم عليهم السلام «لا جبر ولا تفويض ،وانما هو أمر بين أمرين» كما في أصول الكافي ج ١ ص ١٦٠ وغيره.

وبهذا سلموا من مخالفة الوجدان في نفي الإرادة وسلبها عنهم، كما هو مفاد مذهب القائلين بالجبر، كما سلموا من شبهة المفوّضة في عزل الله عن خلقه وتفويض الخلق لعبيده، كما هو مذهب المفوّضة.

وبناء على هذه النظرية يكون مفاد الآية أنّ الله عزوجل لما علم أنّ إرادتهم تجري دائماً على وفق ما شرّعه لهم من أحكام، بحكم ما زوّدوا به من إمكانيات ذاتية ومواهب مكتسبة نتيجة تربيتهم على وفق مبادئ الإسلام، تربية حولتهم في سلوكهم إلى إسلام متجسّد، ثم بحكم ما كانت لديهم من القدرات على إعمال إرادتهم وفق أحكامه التي استوعبوها علماً وخبرة، فقد صح له الاخبار عن ذاته المقدسة بأنه لا يريد لهم بإرادته التكوينية إلا إذهاب الرجس عنهم؛ لأنه لا يفيض الوجود الا على هذا النوع من أفعالهم ما داموا هم لا يريدون لأنفسهم إلا إذهاب الرجس والتطهير عنهم.

وبهذا يتضح معنى الاصطفاء والاختيار من قبله تعالى لبعض عبيده في

ان يحملوا ثقل النهوض برسالته المقدسة، كما هو الشأن في الأنبياء وأوصيائهمعليهم السلام.

على أنّ الشبهة لو تمت فهي جارية في الأنبياء جميعاً، وثبوت العصمة لهم ـ ولو نسبياً ـ موضع اتفاق الجميع، فما يجاب به هناك يجاب به هنا من غير فرق، والشبهة لا يمكن ان تحل إلّا على مذهب أهل البيتعليهم السلام في نظرية الأمر بين الأمرين على جميع التقادير.

وانت بملاحظة الجواب السابق مع هذا الجواب يتضح لك دفع الشبهة من الأساس وبذلك تثبت العصمة لأهل البيت.

الشيخ: جزاك الله خير الجزاء على هذه الإجابات الشافية الوافية، ولكن هذه الآية إنما تثبت عصمة أهل البيت ونحن في الواقع في صدد اثبات امامتهم لا عصمتهم فاذن الآية لا تنفعنا في هذا المقام.

سعيد: على العكس تماماً فنحن لو أخذنا الآية مجردة من دون نظر إلى الأدلة الأُخرى، فقد يكون ما تقوله صحيحاً، ولكن مع الالتفات إلى الأدلة الأُخرى نفهم وجه فائدة الآية؛ لأنه لا يمكن ان نثبت للأئمة امتدادهم الرسالي ووساطتهم التكوينية بين الله والعباد، وقيامهم بدور النبوة ما عدا الوحي، وكونهم المرجعية الدينية المطلقة التي نأخذ كل الدين منهم الا بعد ان نثبت كونهم معصومين مسددين من الله تعالى. فاذن الآية تدل بالدلالة الالتزامية على المراد وان لم تدل بالدلالة المطابقية عليه .

الشيخ: لقد أتعبناك في هذا اليوم كثيراً يا أخ سعيد .

سعيد: المهم هو الوصول إلى الحقيقة وأمّا التعب فاذا كان في ذات الله فما

أحلاه لأن فيه رضا الله والقرب منه وهذا غاية ما يتمناه المؤمن فضلاًعن العالم به تبارك وتعالى .

الشيخ: أسأل الله أنْ يسدد خطاك ويهديك صراطه المستقيم وأن يأخـذ بيدك إلى العلم والعمل الصالح.

سعيد: آمين، وأنت كذلك وأنا في الحقيقة دعـوت لك بـأن يـوفقك الله لاتّباع مذهب أهل البيت ؛ لأنه الطريق إلى الله والسبيل إلى رضوانه، لما وجدته فيك من الاستعداد والروح العلمية وعدم التعصب الأعمى .

الشيخ: لا بدّ من إتمام البحث أوّلاً حتى تكون النتائج مبنية على أُسس علمية لا عاطفة سطحية، أليس كذلك ؟

سعيد: بالطبع فهذا ما ننشده دائماً.

ثم ودع سعيد الشيخ بعد أداء صلاة المغرب على أمل اللـقاء فـي اليـوم التالي.

اللقاء الرابع:

آية التبليغ

لازال سعيد يستمتع بوقته الجميل، في رحاب الذكريات التي تأخذه إلى أجواء الرسالة، وعبقات الوحي، فيتزود من تلك الديار المقدسة الروح الإيمانية، والصدق مع الله عزوجل. وهو حريص كل الحرص أن يزور كل يوم قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة البقيع عليهم السلام، حيث يقف على تلك القبور ويأخذ منها الدروس العظيمة. لأنها تضمّ الشمس الساطعة التي تضيء هذا العالم، وتخرج الناس من الظلمات الحالكة إلى أنوار الهداية والمعرفة.

ما ان حان الموعد مع الشيخ بسيوني حتى كان سعيد في مقربة من المكان الذي يجلسان عادة فيه وما إن وقع نظر الشيخ على سعيد حتى قام إليه مستقبلاً، وأخذ يصافحه بحرارة وحبٍّ صادق. تعجب سعيد من هذا الاستقبال الذي لم يعهده في اللقاءات السابقة وبعد أن جلس حاول ان يستعلم من صديقه الشيخ سر هذا الاستقبال الجميل .

سعيد: أراك اليوم قد استقبلتني بغير الطريقة المعهودة، فهل يمكنني معرفة السر في ذلك؟

الشيخ وهو يبتسم: لا، لا يوجد شيء أبداً.

سعيد: غير معقول يا صديقي فلكل معلولٍ علة وهذه القاعدة مطردة.

الشيخ: ما دمت تلح في معرفة السبب، فسوف أُخبرك به يا أخي: لقد رأيت البارحة رؤيا سعيدة جميلة، وكنت أنت بطل تلك الرؤيا.

سعيد: خيراً إن شاء الله.

الشيخ بسيوني:كان حديثنا في يوم امس حول آية التطهير وقد قلت لي: بأن ثمة آيات أُخر تثبت إمامة أهل البيتعليهم السلام. فأرجو أن تتحفني بها .

سعيد: نعم يا شيخ بسيوني إن الآية الأُخرى التي نزلت بشكل صريح في تأكيد الإمامة بما لا يقبل الشك هي آية التبليغ، أعني قوله تعالى: ﴿يَـا أَيُّـهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَـفْعَلْ فَـمَا بَـلَّغْتَ رِسَـالَتَهُ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فأريد أن أسألك يا شيخ هل قرأت هذه الآية أم لا ؟

الشيخ: بلا شك وأحفظها كذلك.

سعيد: عجباً لك يا شيخ، ألم تسأل نفسك يوماً عن محتوى هذه الآية؟ ألم تتفكر بها وتتأملها؟ إنّ الله عزوجل يخاطب رسوله بأمر هام وخطير، ويأمره بتبليغه ويقول له: إنّك إن لم تبلغ هذا الشيء الذي أنزلته عليك، فكأنك لم تبلّغ كُلَّ الدعوة الإلهية، فما ذلك الأمر الخطير الذي هو في كفة الدعوة الإسلامية بكل جزئياتها وتفاصيلها وجهادها ودمائها بكفة مقابلة؟ ولماذا كان النبي متردداً خائفاً من إعلانه؟ ما الشيء الذي يدعو للخوف إلى درجة ان الله عزوجل يتدخل ويستخدم مع النبي هذا الأسلوب القاسي ويهدده بعدم تبليغ كل الرسالة في حالة عدم تبليغ ذلك الأمر الذي أنزله الله من مدة طويلة والنبي يكتمه ويتردد في تبليغه، ولماذا نرى الله عزوجل يعطي ضمانات للنبي فيقول له: لا تخف فان الله سوف يكون مُدافعاً عنك، وهو يعصمك من قومك الذين تخاف منهم .

ألم تسأل نفسك يا شيخ طول حياتك وأنت تتلو هذه الآية عشرات المرات إذا لم نقل المئات عن هذا الأمر الخطير المنزل من الله؟ علماً بأن هذه الآية قد نزلت في آخر حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حجةِ الوداع؟؟!!

الشيخ: والله كأني كنت نائماً فأيقضتني يا سعيد. حقاً إنّ هذا شيء يستحق التساؤل والتأمل. لماذا يخفي النبي شيئاً أنزله الله تعالى؟ ولماذا يخاف؟ وكيف يكون ذلك الشيء المخفي يعادل كلّ الرسالة الإسلامية؟ انّه شيء غريب حقاً!!

سعيد: لا غرابة في ذلك أبداً لأنّك حينما تعرف سبب نزول الآية وفحوى الأمر الذي بلّغه الرسول بعد نزولها ثم أنزل آية أُخرى تؤكد على أنّ الرسالة الإسلامية والدين الإلهي لم يكمل إلّا الآن، وإن النعمة الإلهية بهذا الدين لم تتم إلا اليوم؛ فسوف تجد أنّ التردد والخوف الذي كان عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في محلِّه تماماً.

الشيخ: أرجوك يا أستاذ سعيد أخبرني فقد تفطر قلبي من هذا الكلام.

سعيد: هدأ روعك يا شيخ فلقد دلّت كتب أسباب النزول والمصادر الحديثية والتأريخية على أنّ هذا الأمر الذي كتمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويخشى تبليغه إنّما هو ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام. ذكر ذلك العشرات من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونصّت عليه روايات كثيرة من طرق متعددة، وبعدها قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإعلان ولاية أمير المؤمنين عليه السلام في غدير خم وقال: من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه وأنصر من نصره واخذل من خذله» .

وإذا أردت المصادر فخذ:

١ ـ المعيار والموازنة لأبي جعفر الإسكافي ص ٢١٣ ـ ٢١٥ .

٢ ـ شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني ج ١ ص ٢٤٩ وما بعدها.

٣ ـ الدر المنثور لجلال الدين السيوطي ج ٢ ص ٢٩٨ .

٤ ـ فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ٦٠ .

٥ ـ الصراط المستقيم للبيضاني ج ١ ص ٢٥٩ .

إلى غير ذلك من المصادر. وقد أيد نزول هذه الآية في الإمام علي عليه السلام كثير من علماء العامة أمثال: محمد بن جرير الطبري وأبو محمد الحنظلي الرازي وأبو عبد الله المحاملي وأبو بكر الفارسي الشيرازي، والحافظ ابن مردويه وأبو اسحاق النيسابوري وأبو نعيم الاصبهاني وأبو الحسن النيسابوري وأبو سعيد السجستاني وابن عساكر الشافعي وأبو الفتح النطنزي وفخر الدين الرازي وغيرهم كثير.

الشيخ: ولكني قرأت في كتب التفسير أيضاً أنّ الله عزوجل أمر الرسول بتبليغ الرسالة الإلهية كلِّها وقد تكفل سبحانه يعدم لحوق أيِّ أذى به، فلماذا تصرفونها في مسألة خاصة وهي ولاية الإمام علي عليه السلام ؟

سعيد: هذا كلام ليس بصحيح فان طبيعة الشرط والجزاء التي جاءت في الآية لاتسمح ابداً بما تقوله ؛ لانّه لا معنى لقولك: يا فلان بلغ رسائلي التي سوف أرسلها إليك، فانك إن لم تفعل لم تبلِّغ رسائلي ؛ لانّه من المعلوم انّه إن لم يفعل فلم يبلغ رسائلك ويكون كلامك من نوع قول الشاعر:

(وفسر الماء بعد الجهد بالماء). نعم يصح أن تقول له عن رسالة معينة :

ان هذه الرسالة مهمة وضرورية جداً وإن لم تبلغها فإنك لم تبلغ شيئاً من رسائلي. فكيف ننسب إلى الله الحكيم قوله: «يا أيها الرسول بلغ الرسالة فان لم تفعل فما بلغت الرسالة). خصوصاً إذا نظرنا إلى لحن الآية التي تعبر عن تهديد

إلهي لبيان أهمية هذا الموضوع، وانّه بحيث لو لم يبلغه النبي ﷺ إلى الناس ولم يراع حقه فكأنه لم يراع حقَّ شيء من أجزاء الدين وأحكامه. فقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ﴾ جملة شرطية سيقت لبيان أهمية الشرط وجوداً وعدماً، لترتب الجزاء الأهم عليه وجوداً وعدماً، وليست شرطية مسوقة على طبق الشرطيات الدائرة عندنا، فإننا نستعمل «إن» الشرطية طبعاً فيما نجهل تحقق الجزاء للجهل بتحقق الشرط، وحاشا ساحة النبي ﷺ من ان يقدّر القرآن في حقه احتمال ان يبلغ الحكم النازل عليه من ربه وأن لا يبلغ .

الشيخ: ولكن يا سيد سعيد الّا ترى أنّ الاعتقاد بعصمة النبي وأنّه كامل من جميع الجهات يتنافي مع الخوف والخشية والتردد لاسيما في تبليغ المسائل المهمة من العقيدة بل نجده على العكس من ذلك فقد صدع بالدعوة الإلهية عندما كان وحيداً ولم يعبأ بالكفار من قريش وغيرها، وتحداهم بشكل عظيم ووقف في وجوههم بكل بسالة ولم يخش الموت في يوم من الأيام فلماذا يخاف هذه المرة؟ وممن يخاف ؟

سعيد: حاشا للنبي ﷺ من الجبن أو الخوف على نفسه، كيف وان أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: «إذا اشتدت الحرب وحمي الوطيس كنا نلوذ برسول الله» والحقيقة هي ان الخوف الذي كان ينتاب النبي ﷺ إنّما هو على الرسالة وخوفاً من ارتداد الأمة وعدم قبولها إمامة عترته من بعده ولم يكن خائفاً على شخصه من القتل والأذى. فان الله عزوجل قد أخبرهُ بما سوف يجري من بعده من ارتدادات كثيرة لاسيما على الوصي الشرعي والإمام من بعده وفعلاً قد تحقق ذلك على أرض الواقع وترك الناس خط أهل البيت الذي هو خط الهداية

والنجاة واتبعوا السبل الأُخرى التى لا توصلهم إلّا إلى طريق مسدود.

الشيخ: معنى ذلك ان الرسول كان يخاف من فئة خاصة من الأمة الإسلامية أليس هذا ما تقصده ؟

سعيد: بالضبط هو ذاك.

الشيخ: ولكن الفخر الرازي في تفسيره في الجزء الثاني عشر يذهب إلى خلاف ما تتصور يا أستاذ سعيد، حيث يعتقد أنّ كلمة الناس التي وردت في الآية المقصود بها الكفار والدليل على ذلك أنّ الآية ذيلت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ بمعنى انّه سوف لا يمكّنهم ممّا يريدون من القضاء على الإسلام وحينذاك يكون المعنى بعيداً جداً عن نزول الآية في حق ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام.

سعيد: يمكننا ان نرد على الفخر الرازي بما يلي:

أوّلاً: ان لفظة «الكفر» في اللغة والقرآن تأتي بمعنى الانكار والمخالفة والترك، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] حيث عبرت الآية عن ترك الحج بالكفر، فلا غرابة بعد ذلك ان يصف القرآن من يخالف مسألة الولاية بالكفر.

ثانياً: ان الذين كانوا يعارضون أوامر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هم المنافقون، وإذا جئنا إلى تعريف المنافق فسوف نجده ذلك الشخص الذي يبطن الكفر ويظهر الإيمان، فالنفاق في واقعه هو الكفر، بل أشد من الكفر، لذلك كان عذاب المنافق أشدّ العذاب. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٤] .

ثالثاً: ولقد أخبر القرآن عن ارتداد بعض المسلمين حيث قال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ﴾[آل عمران: ١٤٤]. ولقد ربط النبي ﷺ بين موضوع الحكم وبين هذا الارتداد حيث قال: «لينتقضن الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تثبث الناس بـالتي تليها، فأولهن نقضاً الحكم، وآخرهن الصّلاة» راجع كنز العمال ج ١ ص ٢٣٨، فهذا الحديث يشير إلى أن أول انتقاض يحدث في الإسلام يحدث في موضوع الحكم، أي ان الناس سوف ترضى بحكم حاكم لم يعينه الله ولا يرضاه، وتترك الحاكم الذي عينه الله وهذا هو عين ما تخوف منه النبي ﷺ. وهناك روايات كثيرة تؤكد ارتداد الناس بعد رسول الله ﷺ، وان رسول الله يقوم قائلاً يـوم القيامة: «يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أًحدثوا بعدك» انظر البخاري ج ٤ ص ٩٦].

ومن هنا نصل إلى أنَّ إبقاء لفظة «الناس» على اطلاقها وشمولها للجميع الكافر والمنافق يتناسب مع مصدر الأذى والخطر على النبي ﷺ الذي هو غير محصور بالكفار، بل يشمل المنافقين من الأمة أيضاً. بل كاد يكون عند نزول الآية محصوراً فيهم كما سوف نبيِّن .

آيات أخرى تدل على امامة أمير المؤمنين عليه السلام:

اضافة إلى ما ذكرنا فثمة آيتان أُخريان تدلان على إمامة الإمام عليه السلام وهو قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣]وقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.

الشيخ: فليكن الحديث عن الآية الأولى أوّلاً.

سعيد: نعم يا شيخنا العزيز فقد أنزل الله عزوجل بعد أن أبلغ النبي ﷺ إمامة أمير المؤمنين قوله سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣] .

حيث نصت النصوص على أنَّها نزلت في حجَّةِ الوداع بعد أن بلَّغ النبيﷺ الولاية لأمير المؤمنين في غدير خم. ذكر ذلك جملة من علماء العامة ومحققيهم:

١ ـ المعيار والموازنة للإسكافي ص ٢١٣ .

٢ ـ خطط الشام لمحمد كرد علي ج ٥ ص ٢٦١ .

٣ ـ شواهد التنزيل للحسكاني ج ١ ص ٢٠١ ـ ٢٠٧ .

٤ ـ كفاية الطالب للكنجي الشافعي ص ٦٥ .

٥ ـ مسند ابن حنبل ج ١ ص ٨٤ ـ ٨٨، ١١٨ .

٦ ـ الإصابة لابن حجر ج ٧ ص ١٦١، ٣٣٠ .

٧ ـ تاريخ بغداد للخطيب ج ٥ ص ٣٧٣ .

٨ ـ الاستيعاب لابن عبد البر ج ٣ ص ١٠٩٩ .

فهذه النصوص الكثيرة تؤكد أن الدين قد أُكمل والنعمة قد تمت بإعلان الولاية لعلي عليه السلام .

الشيخ: تبقى عندي بعض الاشكاليات حول الآية ولا بدَّ لك من الإجابة عنها حتى يكتمل الاستدلال بها.

سعيد: تفضل يا شيخ .

الشيخ: هل معنى ذلك أن الدين كان ناقصاً؟ وكيف يتعبد المسلمون بدين ناقص؟ أرجو أن توضح لي المسألة لأنّ هناك إبهام فيها وفي النفس منها شيء.

سعيد: سوف يرتفع هذا الإبهام بعد تسليط الضوء على الفرق الأساسي بين الإكمال والإتمام كما بين ذلك بعض المحققين من المفسرين وغيرهم. فالسيد الطباطبائي في تفسيره القيم الميزان يقول مثلاً: الإكمال والإتمام متقاربا المعنى. قال الراغب: كمال الشيء حصول ما هو الغرض منه. وقال: تمام الشيء انتهاؤه إلى حد لا يحتاج إلى شيء خارج عنه، والناقص ما يحتاج إلى شيء خارج عنه.

ولك ان تحصل على تشخيص معنى اللفظين من طريق آخر، وهو ان آثار الأشياء التي لها آثار على ضربين: فضرب منها ما يترتب على الشيء عند وجود جميع أجزائه - إن كان له أجزاء - بحيث لو فقد شيئاً من أجزائه أو شرائطه لم يترتب عليه ذلك الأمر، كالصوم فانّه يفسد إذا اخل بالامساك في بعض النهار، ويسمى كون الشيء على هذا الوصف بالتمام، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وضرب آخر: الأثر الذي يترتب على الشيء من غير توقف على جميع أجزائه، بل أثر المجموع كمجموع آثار الأجزاء، فكلما وجد جزء ترتب عليه من الأثر ما هو بحسبه، ولو وجد الجميع ترتب عليه كل الأثر المطلوب منه، قال تعالى: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦] فان هذا العدد يترتب الأثر على بعضه كما يترتب عليه كله .

وينتج ممّا تقدم أنّ قوله تعالى: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ يفيد أنّ المراد بالدين هو مجموع المعارف والأحكام المشرَّعة، وقد

أضيف إلى عددها اليوم شيء، وان النعمة ـ كائنة ما كانت ـ أمر معنوي واحد، كأنه كان ناقصاً غير ذي أثر فتُمِّم وترتب عليه الأثر المتوقع منه .

الشيخ: أنا أرجو أن تبيّن لي المصادر من أهل السنة والجماعة التي تذكر دلالة نزول هذه الآية والتي قبلها في شأن بيعة الغدير، فلا زال الشك ينتابني والهواجس تطاردني والسبب واضح كما أتصور.

سعيد: نعم يا شيخ واضح جداً وأنا كنت أعلم مسبقاً بأنك سوف تطلب مني هذا الطلب لذلك حاولت أن أستعير الجزء الأول من كتاب الغدير للعلامة الأميني من أحد الشيعة هنا في المدينة لكي اقرأ عليك ما اثبته هذا المحقق المتتبع من كتب أهل السنة والجماعة.

الشيخ: جزاك الله خير الجزاء فهذا يجعلني اطمئن أكثر.

سعيد: يقول العلامة الأميني :

أصفقت الإمامية على بكرة أبيهم على نزول هذه الآية الكريمة ـ أي اليوم أكملت لكم دينكم ـ إلخ ـ حول نصّ الغدير، بعد إصحار النبي ﷺ بولاية مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، بألفاظ درّية صريحة، فتضمن نصّاً جلياً عرفته الصحابة وفهمته العرب فاحتج به من بلغه الخبر، وصافق الإمامية على ذلك كثيرون من علماء التفسير وأئمة الحديث وحفظة الآثار من أهل السنة، وهو الذي يساعده الاعتبار ويؤكده النقل الثابت في تفسير الرازي ج ٣ ص ٥٢٩ عن أصحاب الآثار: انّه لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ لم يعمر بعد نزولها الّا واحداً وثمانين يوماً. أو اثنين وثمانين، وعينه أبو السعود في تفسيره بهامش تفسير الرازي ج ٣ ص ٥٢٣، وذكر المؤرخون منهم ـ تاريخ الكامل ج ٢ ص ١٣٤، وامتاع المقريزي ص ٥٤٨، تاريخ ابن كثير ج ٦ ص ٣٣٢، السيرة الحلبية

ج ٣ ص ٣٨٢ ـ ان وفاته صلّى الله عليه وآله في الثاني عشر من ربيع الأوّل، وكأن فيه تسامحاً بزيادة يوم واحد على الاثنين وثمانين يوماً بعد اخراج يومي الغدير والوفاة، وعلى أيٍّ فهو أقرب إلى الحقيقة من كون نزولها يوم عرفة كما جاء في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما لزيادة الأيام حينئذٍ، على أن ذلك معتضدٌ بنصوص كثيرة لا محيص عن الخضوع لمفادها:

١ ـ الحافظ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفي ٣١٠، روى في كتاب الولاية بأسناده عن زيد بن أرقم نزول الآية الكريمة يوم غدير خمّ في امير المؤمنين عليه السلام في الحديث الذي مرّ .

٢ ـ الحافظ ابن مردويه الإصفهاني المتوفى ٤١٠، روى من طريق أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري: إنها نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم غدير خمّ حين قال لعليٍّ: من كنت مولاه فعليٌ مولاه، ثم رواه عن أبي هريرة وفيه: انّه اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة، يعني مرجعه عليه السلام من حجّة الوداع.

تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٤ .

وقال السيوطي في الدرّ المنثور ج ٢ ص ٢٥٩: أخرج ابن مردويه وابن عساكر بسند ضعيف عن أبي سعيد الخدري قال: لمّا نصّب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليّاً يوم غدير خمّ فنادى له بالولاية هبط جبرائيل عليه بهذا الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر بسند ضعيف، عن أبي هريرة قال: لمّا كان غدير خمّ وهو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: من كنت مولاه فعلي مولاه. فأنزل الله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وروى عنه في الإتقان ج ١ ص ٣١ «ط سنة ١٣٦٠» بطريقته .

وذكر البدخشي في «مفتاح النجا» عن عبد الرزاق الرسعني عن ابن عباس ما مرّ ص ٢٦٤ ثم قال: وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مثله، وفي آخره فنزلت: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. الآية. فقال النبي ﷺ: الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضا الربّ برسالتي والولاية لعليّ بن أبي طالب. ونقله بهذا اللّفظ عن تفسيره الإربلي في «كشف الغمّة» ص ٩٥.

وقال القطيفي في الفرقة الناجية: روى أبو بكر أبن مردويه الحافظ بإسناده إلى أبي سعيد الخدري: أنّ النبي ﷺ يوم دعا الناس إلى غدير خمّ أمر بما كان تحت الشجرة من شوك فقمّ وذلك يوم الخميس، ودعا الناس إلى عليّ فأخذ بضبعيه فرفعهما حتى نظر الناس إلى بياض إبط رسول الله ﷺ، فلم يفترقا حتى نزلت هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. الآية. فقال. إلى آخر ما يأتي عن أبي نعيم الإصبهاني حرفياً.

٣. الحافظ ابو نعيم الأصبهاني المتوفىٰ ٤٣٠، روى في كتابة «ما نزل من القرآن في عليٍّ» قال: حدّثنا محمد بن أحمد بن علي بن مخلّد (المحتسب المتوفىٰ ٣٥٧) قال :حدّثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة قال: حدثني يحيى الحماني قال: حدثني قيس بن الربيع عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ يوم دعا الناس إلى عليٍّ في غدير خمّ أمر بما كان تحت الشجرة من الشوك فقم وذلك يوم الخميس فدعا علياً فأخذ بضبعيه فرفعهما حتى نظر الناس إلى بياض إبطي رسول الله، ثم لم يتفرقوا حتى نزلت هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية. فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر على اكمال الدين، واتمام النعمة، ورضا الربّ برسالتي، وبالولاية لعليٍّ عليه السلام من

بعدي. ثم قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله. فقال حسّان: إئذن لي يا رسول الله أن أقول في عليٍّ أبياتاً تسمعهنَّ، فقال: قل على بركة الله. فقام حسّان فقال: يا معشر مشيخة قريش! أتبعها قولي بشهادة من رسول الله في الولاية ماضية. ثم قال:

يناديهُم يوم الغدير نبيُّهم ... بخمّ فأسمِعْ بالرسول مناديا

يقول: فمن مولاكُمُ ووليكُمْ ؟ ... فقالوا ولم يبدوا هناك التَّعاميا

إلهُك مولانا وأنت وليُّنا ... ولم ترَ منّا في الولاية عاصيا

فقال له: قم يا عليُّ! فإنَّني ... رضيتك من بعدي إماماً وهاديا

فمن كنت مولاه فهذا وليّهُ ... فكونوا له أنصار صدق مواليا

هناك دعا: أللهُمَّ! والِ وليّهُ ... وكن للّذي عادا عليّاً معاديا

وبهذا اللفظ رواه الشيخ التابعي سليم بن قيس الهلالي في كتابه عن أبي سعيد الخدري قال: إن رسول الله دعا الناس بغدير خم فأمر بما كان تحت الشجر من الشوك فقمّ، وكان ذلك يوم الخميس، ثم دعا الناس إليه وأخذ بضبع عليّ بن أبي طالب فرفعها حتى نظرت إلى بياض إبط رسول الله: الحديث بلفظه.

٤. الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي المتوفىٰ ٤٦٣، روى في تاريخه ج ٨ ص ٢٩٠ عن عبد الله بن عبد الله بن علي بن محمد بن بشران عن الحافظ عليّ بن عمر الدراقطني، عن حبشون الخلال، عن علي بن سعيد الرملي عن ضمرة عن ابن شوذب عن مطر الورّاق عن ابن حوشب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وعن أحمد بن عبد الله النيري عن علي بن سعيد عن ضمرة عن ابن

شوذب عن مطر عن ابن حوشب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ انّه قال: من صام يوم ثمان عشر من ذي الحجة كتب له صيام ستين شهراً. وهو يوم غدير خمّ لما أخذ النبي ﷺ بيد عليٍّ بن أبي طالب فقال: ألست أولى بالمؤمنين؟ قالوا بلى يا رسول الله! قال من كنت مولاه فعلي مولاه. فقال عمر بن الخطاب: بخ بخ يا بن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كلّ مسلم. فأنزل الله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. الآية.

٥. الحافظ أبو سعيد السجستاني المتوفى ٤٧٧، في كتاب الولاية بأسناده عن يحيى بن عبد الحميد الحماني الكوفي عن قيس بن الربيع عن أبي هارون عن أبي سعيد الخدري: ان رسول الله ﷺ لمّا دعا الناس بغدير خمّ أمر بما كان تحت الشجرة من الشوك فقمّ وذلك يوم الخميس. إلى آخر اللفظ المذكور بطريقة أبي نعيم الاصبهاني.

٦. ابو الحسن ابن المغازليّ الشافعي المتوفىٰ ٤٨٣، روى في مناقبه عن أبي بكر أحمد بن محمد بن طاوان قال: أخبرنا أبو الحسين أحمد بن الحسين بن السمّاك قال: حدثني أبو محمد جعفر بن نصير الخلدي، حدثني علي بن سعيد بن قتيبة الرملي قال: حدثني ضمرة بن ربيعة الفرشي عن ابن شوذب عن مطر الورّاق عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة. إلى آخر اللفظ المذكور بطريقة الخطيب البغدادي (العمدة ص ٥٢) وذكر جمع آخرون.

٧. الحافظ أبو القاسم الحاكم الحسكاني (المترجم ص ١٤٧) قال: اخبرنا أبو عبد الله الشيرازي، قال: أخبرنا أبو بكر الجرجاني، قال: حدثنا أبو احمد البصري، قال حدثنا أحمد بن عمار بن خالد، قال: حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحمّاني، قال: حدثنا قيس بن الربيع عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد

الخدري: ان رسول الله ﷺ لمّا نزلت هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. قال: الله أكبر عليّ إكمال الدين، وإتمام النعمة ورضا الرب برسالتي، وولاية علي بن أبي طالب من بعدي. وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه وانصر من نصره، واخذل من خذله.

٨ . الحافظ أبو القاسم بن عساكر الشافعي الدمشقي المتوفي ٥٧١، روى الحديث المذكور بطريقة ابن مردويه عن أبي سعيد وأبي هريرة كما في الدرّ المنثور ج ٢ ص ٢٥٩ .

٩. أخطب الخطباء الخوارزمي المتوفي ٥٦٨، قال في المناقب ص ٨٠: اخبرنا سيد الحفاظ ابو منصور شهردار بن شيرويه بن شهردار الديلمي فيما كتب إليّ من همدان: اخبرني أبو الفتح عبدوس بن عبد الله بن عبدوس الهمداني كتابه، حدثني عبد الله بن إسحاق البغوي، حدثني الحسن بن عليل الفنوي، حدّثني محمد بن عبد الرحمن الزرّاع، حدّثني قيس بن حفص، حدثني علي بن الحسن العبدي عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري انه قال: إن النبي ﷺ يوم دعا الناس إلى علي فأخذ بضبعه فرفعها حتى نظر الناس إلى إبطيه حتى نزلت هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. الآية إلى آخر الحديث بلفظ مرّ بطريق أبي نعيم الاصفهاني.

وروى في المناقب ص ٩٤ بالإسناد عن الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي ما عن الحافظ أبي عبد الله الحاكم، عن أبي يعلى الزبير بن عبد الله الثوري، عن أبي جعفر أحمد بن عبد الله البزّاز، عن علي بن سعيد الرملي، عن ضمرة عن ابن شوذب عن مطر الورّاق. إلى آخر ما مرّ عن الخطيب البغدادي سنداً ومتناً .

١٠ ـ أبو الفتح النطنزي، روى في كتابه «الخصائص العلوّية» عن أبي سعيد الخدري بلفظ مرّ ص ٦٧، وعن الخدري وجابر الأنصاري أنهما قالا: لمّا نزلت: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. الآية. قال النبي ﷺ. الله أكبر على اكمال الدين ما وإتمام النعمة، ورضى الربّ برسالتي، وولاية عليّ بن أبي طالب بعدي.

وفي الخصائص بأسناده عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام قالا: نزلت هذه الآية (يعني آية التبليغ) يوم الغدير. وفيه نزلت: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. قال: وقال الصادق عليه السلام: أي: بولايتنا، ورضيت لكم الإسلام ديناً أي: تسليم النفس لأمرنا. وبإسناده في خصائصه أيضاً عن أبي هريرة حديث صوم الغدير بلفظ مرّ بطريق الخطيب البغدادي وفيه نزول الآية في علي يوم الغدير.

١١. أبو حامد سعد الدين الصالحاني، قال شهاب الدين أحمد في ـ توضيح الدلائل على ترجيح الفضائل: وبالاسناد المذكور عن مجاهد رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، بغدير خمّ فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضى الرّب برسالتي، والولاية لعليّ. رواه الصالحاني .

١٢. أبو المظفر سبط ابن الجوزي الحنفي البغدادي المتوفي ٦٥٤، ذكر في تذكرته ص ١٨ ما أخرجه الخطيب البغدادي المذكور ص ٢٧٨ من طريق الحافظ الدارقطني.

١٣. شيخ الإسلام الحمويني الحنفي المتوفي ٧٢٢، روى في «فرائد السمطين» في الباب الثاني عشر قال: أنبأني الشيخ تاج الدين أبو طالب علي بن الحبّ بن عثمان بن عبد الله الخازن، قال: أنبأ الإمام برهان الدين ناصر بن أبي المكارم المطرزي إجازة قال: أنبأ الإمام اخطب خوارزم أبو المؤيد الموفق بن

أحمد المكي الخوارزمي قال: أخبرني سيّد الحفاظ فيما كتب إلي من همدان. إلى آخر ما مرّ عن أخطب الخطباء الخوارزمي سنداً ومتناً.

وروى عن سيّد الحفاظ أبي منصور شهردار بن شيرويه بن شهر دار الديلمي قال: أخبرنا الحسن بن أحمد بن الحسن الحداد المعرّي الحافظ قال: نبأ أحمد بن عبد الله بن أحمد قال: نبأ محمد بن أحمد قال: نبأ محمد بن عثمان بن أبي شيبه قال: نبأ يحيى الحماني قال: نبأ قيس بن الربيع عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري ان رسول الله ﷺ دعا الناس إلى عليٍّ. إلى آخر الحديث بلفظ مرّ بطريق أبي نعيم ص ٢٧٨ ثم قال: حديث له طرق كثيرة إلى أبي سعيد سعد بن مالك الخدري الأنصاري.

١٤. عماد الدين ابن كثير القرشي الدمشقي الشافعيّ المتوفي ٧٧٤، روى في تفسيره ج ٢ ص ١٤ من طريق ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة أنهما قالا: إن الآية نزلت يوم غدير خمّ في عليٍّ. وروى في تاريخه ج ٥ ص ٢١٠ حديث أبي هريرة المذكور بطريقة الخطيب البغدادي. وله هناك كلام يأتي بيانه في صوم الغدير.

١٥. جلال الدين السيوطي الشافعي المتوفي ٩١١، رواه في «الدرّ المنثور» ج ٢ ص ٢٥٩ من طريق ابن مردويه والخطيب وابن عساكر بلفظ مرّ في رواية ابن مردويه .

وقال في الاتقان ج ١ ص ٣١ في عدّ الآيات السفرية: منها اليوم اكملت لكم دينكم. وفي الصحيح عن عمر أنها نزلت عشية عرفة يوم الجمعة عام حجّة الوداع. له طرق كثيرة لكن أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري: انها نزلت يوم غدير خمّ، وأخرج مثله من حديث أبي هريرة وفيه: انّه اليوم الثامن

عشر من ذي الحجة مرجعه من حجة الوداع. وكلاهما لا يصحّ ١٠ هـ.

(قلنا) إن كان مراده من عدم الصحّة غميزة في الاسناد ففيه أن رواية أبي هريرة صحيحة الاسناد عند اساتذة الفن، منصوص على رجالها بالتوثيق، وسنفصل ذلك عند ذكر صوم الغدير، وحديث أبي سعيد له طرق كثيرة كما مرّ في كلام الحمويني في فرائده. على أن الرواية لم تختص بأبي سعيد وأبي هريرة فقد عرفت أنّها قد رواها جابر بن عبد الله، والمفسر التابعيّ مجاهد المكّي، والإمامان الباقر والصادق عليهما السلام، وأسند اليهم العلماء مخبتين إليها.

كما انها لم تختص روايتها من العلماء وحفّاظ الحديث بابن مردويه وقد سمعت عن السيوطي نفسه في دُرِّه المنثور رواية الخطيب وابن عساكر، وعرفت أنَّ هناك جمعاً آخرين أخرجوها بأسانيدهم وفيها مثل الحاكم النيسابوري، والحافظ البيهقي، والحافظ ابن أبي شيبة، والحافظ الدارقطني، والحافظ الديلمي، والحافظ الحداد وغيرهم كل ذلك من دون غمز فيها عن أي منهم.

وان كان يريد عدم الصحة من ناحية معارضتها لما روي من نزول الآية يوم عرفة فهو مجازف في الحكم البات بالبطلان على أحد الجانبين، وهب انّه ترجح في نظره الجانب الآخر لكنه لا يستدعي الحكم القطعي ببطلان هذا الجانب كما هو الشأن عند تعارض الحديثين، لاسيّما مع امكان الجمع بنزول الآية مرتين كما احتمله سبط ابن الجوزي في تذكرته ص ١٨ كغير واحدة من الآيات الكريمة النازلة غير مرّة واحدة، ومنها البسملة النازلة في مكّة مرّة وفي المدينة أخرى وغيرهما ممّا يأتي.

على أن حديث نزولها يوم الغدير معتضد بما قدّمناه عن الرازي وأبي السعود وغيرهما من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يعمر بعد نزولها إلا واحداً أو اثنين

وثمانين يوماً. فراجع ص ٢٧٥، والسيوطي في تحكُّمه هذا قلّد ابن كثير الذي قال في تفسيره ج ٢ ص ١٤ بعد ذكر الحديث بطريقيه: لا يصلح لا هذا ولا هذا. فالبادئ أظلم.

١٦. ميرزا محمد البدخشي، ذكر في «مفتاح النجا» ما أخرجه ابن مردويه.

الشيخ: أحسنت يا سعيد والله هذا شيء عجيب كل هؤلاء العلماء يروون هذا الحديث بهذا الشكل؟ فلماذا تطمس الحقيقة وتخدع الأمة؟ ولكن بقيت الآية الأخرى وهي ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ * مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلْمَعَارِجِ﴾. ورغم انك ذكرت لي المصادر فيما سبق الا انها اجمالية أريد ان أعرف التفصيلات .

سعيد: سوف أَذكُر لك التفاصيل يا شيخ وأيضاً من كتاب الغدير حتى تنجلي الحقيقة لذي عينين.

الشيخ: تفضَّل يا سعيد فما أشوقني لسماعها!

سعيد: لقد طفحت كتبُ أهل السنة والجماعة وعلمائهم يؤكِّدون نزول هذه الآية فيمن أنكر ولاية علي يوم الغدير وإليك المصادر كما ذكرها العلّامة الأَميني:

١. الحافظ أبو عبيد الهروي المتوفى بمكة في تفسيره غريب القرآن قال: لما بلَّغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غدير خم ما بلّغ، وشاع ذلك في البلاد، أتى جابر بن النضر بن الحارث بن كلدة العبدي، فقال: يا محمد! امرتنا من الله ان نشهد ان لا اله إلا الله وأنّك رسول الله والصوم والحج والزكاة فقبلنا منك، ثم لم ترض بذلك حتى رفعت بضبع ابن عمك وفضلته علينا وقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه، فهذا شيء منك أم من الله؟ فقال رسول الله: والذي لا إله الا هو إنَّ هذا من الله.

فولّى جابر يريد راحلته وهو يقول: اللهم ان كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو أئتنا بعذاب أليم. فما وصل اليها حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره وقتله وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾. الآية.

٢. أبو بكر النقّاش الموصلي البغدادي المتوفى سنة ٣٥١ روى في تفسيره «شفاء الصدور» حديث أبي عبيد المذكور الا ان فيه مكان جابر بن النضر: الحارث بن النعمان الفهري كما يأتي في رواية الثعلبي وأحسبه تصحيحاً منه.

٣. أبو إسحاق الثعلبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٧ قال في تفسيره «الكشف والبيان»: إنّ سفيان بن عينية سئل عن قوله عزوجل ﴿سَأَلَ سَآئِلُ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ فيمن نزلت؟ فقال للسائل: سألتني عن مسألة ما سألني عنها أحد قبلك. حدثني أبي عن جعفر بن محمد عن آبائه صلوات الله عليهم. قال: لما كان رسول الله بغدير خم نادى الناس فاجتمعوا فأخذ بيد علي فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه. فشاع ذلك وطار في البلاد فبلغ ذلك الحرث بن النعمان الفهري فاتى رسول الله على ناقة له حتى اتى الابطح فنزل عن ناقته فأناخها فقال: يا محمد! أمرتنا عن الله ان نشهد ان لا اله الا الله وانك رسول الله فقبلناه، وامرتنا ان نصلي خمساً فقبلناه منك وامرتنا بالزكاة فقبلنا، وامرتنا ان نصوم شهراً فقبلنا، وامرتنا بالحج فقبلنا، ثم لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عمك ففضلته علينا وقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه، فهذا شيء منك أم من الله عزوجل؟ فقال: والذي لا إله إلّا هو إن هذا من الله .

فولى الحرث بن النعمان يريد راحلته وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فما وصل اليها

حتَّى رماه الله تعالى بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره وقتله وأنزل الله عزوجل: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾. الآية.

٤. الحاكم أبو القاسم الحسكاني «المترجم ص ١٤٧» روى في كتاب ـ دعاة الهداة إلى اداء حقّ الموالاه ـ فقال: قرأت على أبي بكر محمد بن محمد الصيدلاني فأقرَّ به، حدثكم أبو محمد عبد الله بن أحمد بن جعفر الشيباني، حدثنا عبد الرحمن بن الحسين الأسدي، حدثنا إبراهيم بن الحسين الكسائي (ابن ديزيل)، حدثنا الفضل بن دكين، حدثنا سفيان بن سعيد (الثوري)، حدثنا منصور عن ربعي. عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعليٍّ عليه السلام: من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه. قال النعمان بن المنذر (فيه تصحيف) الفهري: هذا شيء قلته من عندك؟ أو شيء أمرك به ربك؟ قال: لا. بل أمرني به ربي. فقال: اللهم انزل (كذ في النسخ) علينا حجارة من السماء. فما بلغ رحله حتى جاءه حجر فأدماه فخرَّ ميتاً فأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ .

وقال حدثنا أبو عبد الله الشيرازي، قال: حدثنا أبو بكر الجرجاني، قال: حدثنا أبو أحمد البصري، قال: حدثنا محمد بن سهل، قال: حدثنا زيد بن اسماعيل مولى الأنصار قال: حدثنا محمد بن أيّوب الواسطي، قال: حدثنا سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد الصادق عن ابائه عليهم السلام: لمّا نصب رسول الله عليّاً يوم غدير خمّ وقال: من كنت مولاه، طار ذلك في البلاد فقدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم النعمان بن الحرث الفهري فقال: أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا اله الا الله وانك رسول الله وأمرتنا بالجهاد والحجِّ والصوم والصّلاة والزكاة فقبلناها ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام فقلت: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه. فهذا شيء منك؟ أو أمر من عند الله؟ فقال: والله الذي لا إله إلّا هو إن هذا من الله. فولّى النعمان بن

الحرث وهو يقول: اللهَّم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء. فرماه الله بحجر على رأسه فقتله وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾. الآيات.

٥. أبو بكر يحيى القرطبي المتوفي ٥٦٧ (التراجم ١٥٠) قال في تفسيره في سورة المعارج: لمّا قال النبي ﷺ: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه. قال النضر بن الحارث ـ لرسول الله ﷺ أمرتنا بالشهادين عن الله فقبلنا منك، وأمرتنا بالصّلاةَ والزكاة، ثم لم ترض حتى فضلت علينا ابن عمّك، الله أمرك؟ أم من عندك؟ فقال: والذي لا اله إلّا هو انّه من عند الله. فولّى وهو يقول: اللّهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء. فوقع عليه حجر من السماء فقتله .

٦. شمس الدين أبو المظفر سبط ابن الجوزي الحنفي المتوفى ٦٥٤، رواه في تذكرته ص ١٩ قال: ذكر أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره بإسناده أن النبيﷺ لمّا قال ذلك (يعني حديث الولاية) طار في الأقطار وشاع في البلاد والأمصار فبلغ ذلك الحرث بن النعمان الفهري فأتاه على ناقة له فأناخها على باب المسجد ثم عقلها وجاء فدخل في المسجد فجثا بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! إنك أمرتنا أن نشهد أن لا اله إلّا الله وأنك رسول الله فقبلنا منك ذلك، وإنك أمرتنا أن نصلي خمس صلوات في اليوم واللّيلة وأن نصوم رمضان ونحج البيت ونزكّي أموالنا فقبلنا منك ذلك، ثم لم ترض بهذا حتَّى رفعت بضبعي ابن عمّك وفضلته على الناس وقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه. فهذا شيء منك أو من الله؟ فقال رسول الله ﷺ وقد احمرَّت عيناه: والله الذي لا اله إلا هو انّه من الله وليس مني: قالها ثلاثاً. فقام الحرث وهو يقول: اللّهم إن

كان ما يقوله محمد حقاً فأرسل من السماء علينا حجارةً أو ائتنا بعذاب أليم. قال: فوالله ما بلغ ناقته حتى رماه الله من السماء بحجر فوقع على هامته فخرج من دبره ومات وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾. الآيات.

٧. الشيخ إبراهيم بن عبد الله اليمني الوصابي الشافعي، روى في كتابه ـ الاكتفاء في فضل الأربعة الخلفاء ـ حديث الثعلبي المذكور ص ٢٨٦ .

٨ . شيخ الإسلام الحمويني المتوفي ٧٢٢. روى في «فرائد السمطين» في الباب الثالث عشر قال: أخبرني الشيخ عماد الدين الحافظ بن بدارن بمدينة نابلس فيما أجاز لي أن أرويه عنه، اجازة عن القاضي جمال الدين عبد القاسم بن الصمد الانصارين اجازة عن عبد الجبار بن محمد الحواري البيهقي، اجازة عن الإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي قال: قرأت على شيخنا الأستاذ أبي إسحاق الثعلبي في تفسيره: إن سفيان بن عيينة سئل عن قوله عزّ وجل: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾. فيمن نزلت؟ فقال. الحديث إلى آخر لفظ الثعلبي المذكور ص ٢٨٦ .

٩. الشيخ محمد الزرندي الحنفي المترجم ص ١٦١، ذكره في كتابيه «معارج الوصول» و« نظم درر السمطين».

١٠. شهاب الدين أحمد دولت آبادي المتوفى ٨٤٩، روى في كتابه ـ هداية السعداء ـ في الجلوة الثانية من الهداية الثامنة: أنّ رسول الله ﷺ قال يوماً: من كنت مولاه فعلي مولاه. اللّهم والِ من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله. فسمع ذلك واحد من الكفرة من جملة الخوارج فجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! هذا من عندك أو من عند الله؟ فقال ﷺ: هذا من عند الله. فخرج الكافر من المسجد وقام على عتبة الباب وقال: ان كان

ما يقوله (محمد) حقاً فأنزل عليَّ حجراً من السماء. قال فنزل حجر ورضخ رأسه فنزلت: ﴿سَأَلَ سَآئِلُ﴾.

١١. نور الدين ابن الصباغ المالكي المتوفى ٨٥٥. رواه في كتابه الفصول المهمة ص ٢٦ .

١٢. السيد نور الدين الحسني السمهودي الشافعي المتوفى ٩١١ (المترجم ص ١٧) رواه في جواهر العقدين.

١٣. أبو السعود الحمادي (المتوفّى ٩٨٢، قال في تفسيره ج ٨ ص ٢٩٢: قيل: هو (أي سائل العذاب) الحرث بن النعمان الفهري، وذلك أنّه لمّا بلغه قول رسول الله ﷺ في عليّ ﷺ: من كنت مولاه فعليّ مولاه قال: اللهم إن كان ما يقوله محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء. فما لبث حتى رماه الله تعالى بحجر فوقع على دماغه فخرج من أسفله فهلك من ساعته .

١٤. شمس الدين الشربيني القاهري الشافعي المتوفي ٩٧٧ (المترجم ص ١٧٢) قال في تفسيره السراج المنير ج ٤ ص ٣٦٤: اختلف في هذا الداعي فقال ابن عباس: هو النضر بن الحارث. وقيل: هو الحارث بن النعمان. وذلك انه لمّا بلغه قول النبي ﷺ: من كنت مولاه فعلي مولاه. ركب ناقته فجاء حتى أناخ راحلته بالأبطح ثم قال: يا محمّد! أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا اله الا الله وأنّك رسول الله فقبلناه منك، وان نصلي خمساً ونزكّي أموالنا فقبلناه منك، وان نصوم شهر رمضان في كل عام فقبلناه منك، وان نحجّ فقبلناه منك، ثم لم ترض حتى فضلت أبنَ عمّك علينا، أفهذا شيء منك أم من الله تعالى؟! فقال النبي ﷺ: والذي لا إله إلا هو ما هو إلا من الله. فولّى الحرث وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمّدٌ حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. فوالله ما

وصل إلى ناقته حتى رماه الله تعالى بحجر فوقع على دماغه فخرج من دبره فقتله فنزلت: ﴿سَأَلَ سَآئِلُ﴾ الآيات.

١٥. السيد جمال الدين الشيرازي المتوفي ١٠٠٠ هـ ، قال في كتابه ـ الأربعين في مناقب أمير المؤمنين ـ : الحديث الثالث عشر عن جعفر بن محمد عن آبائه الكرام: ان رسول الله ﷺ لمّا كان بغدير خمّ نادى الناس فاجتمعوا فأخذ بيد عليّ وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث كان. وفي رواية: اللّهم أعنه وأعن به، وارحمه وارحم به، وانصره وانصر به. فشاع ذلك وطار في البلاد فبلغ ذلك الحرث بن النعمان الفهري فأتى رسول الله ﷺ على ناقة له. وذكر حديث الثعلبي إلى آخره.

١٦. الشيخ زين الدين المناويّ الشافعي المتوفى ١٠٣١ (التراجم ص ١٧٥) رواه في كتابه «فيض القدير في شرح الجامع الصغير» ج ٦ ص ٢١٨ في شرح حديث الولاية.

١٧. السيد ابن العيدروس الحسيني اليمني المتوفى ١٠٤١ (التراجم ص ١٧٥) ذكره في كتابه ـ العقد النبوي والسد المصطفوي ـ .

١٨. الشيخ أحمد بن باكثير المكّي الشافعي المتوفي ١٠٤٧ (التراجم ١٧٦) نقله في تأليفه ـ وسيلة المآل في عدّ مناقب الآل ـ .

١٩. الشيخ عبد الرحمن الصفوي، روى في نزهته ج ٢ ص ٢٤٢ حديث القرطبي.

٢٠. الشيخ برهان الدين على الحلبي الشافعي المتوفى ١٠٤٤، روى في السيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٠٢ وقال: لمّا شاع قوله ﷺ: من كنت مولاه فعلي

مولاه. في سائر الأمصار وطار في جميع الأقطار بلغ الحرث بن النعمان الفهري فقدم المدينة فأناخ راحلته عند باب المسجد فدخل والنبي جالس وحوله أصحابه فجاء حتى جثا بين يديه، ثم قال: يا محمد! إلى آخر لفظ سبط ابـن الجـوزي المذكور ص ٢٦٦ .

٢١. السيد محمود بن محمد القادري المدني، قال في تأليفه ـ الصراط السويّ في مناقب النبي ـ: قد مرّ مراراً قوله ﷺ: من كنت مولاه فعليّ مولاه. الحديث قالوا: وكان الحارث بن النعمان مسلماً فلما سمع حديث: من كنت مولاه فعلي مولاه. شك في نبوة النبي ثم قال: اللّهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. ثم ذهب ليركب راحلته فما مشى نحو ثلاث خطوات حتى رماه الله عزّوجل بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره فقتله فأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾. الآيات .

٢٢. شمس الدين الحقني الشافعي المتوفي ١١٨١ (المترجم ص ١٨٢) قال: في شرح الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٣٨٧ في شرح قوله ﷺ: من كنت مولاه فعلي مولاه. لمّا سمع ذلك بعض الصحابة قال: أما يكفي رسول الله أن نأتي بالشهادة واقام الصلاة وإيتاء الزكاة. الخ. حتى يرفع علينا ابن أبي طالب؟ فهل هذا من عندك أم من عند الله؟ فقال ﷺ: والله الذي لا اله الا هو انّه من عند الله. فهو دليل على عظم فضل عليّ عليه السلام .

٢٣. الشيخ محمد صدر العالم سبط الشيخ أبي الرضا، قال فـي كـتابه ـ معارج العلي في مناقب المرتضى ـ ان رسول الله ﷺ قال يوما: اللّهم من كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه. فسمع ذلك واحد من الكفرة من جملة الخوارج فجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! هذا من عندك أو

من عند الله؟ فقال النبي ﷺ هذا من عند الله، فخرج الكافر من المسجد وقام على عتبة الباب وقال: إن كان ما يقول حقاً فأنزل عليّ حجراً من السماء، قال: فنزل حجر فرضخ رأسه .

٢٤. الشيخ محمد محبوب العالم. رواه في تفسيره الشهير بتفسير شاهي.

٢٥. أبو عبد الله الزرقاني المالكي المتوفى ١١٢٢ حكاه في (شرح المواهب اللدنَّية) ج ٧ ص ١٣ .

٢٦. الشيخ أحمد بن عبد القادر الحفظي الشافعي. ذكره في كتابه ـ ذخيرة المال في شرح عقد جواهر اللّئال ـ .

٢٧. السيد محمد بن إسماعيل اليماني المتوفي ١١٨٢، ذكره في كتابه ـ الروضة النديّة في شرح التحفة العلويّة ـ .

٢٨. السيد مؤمن السبلنجي الشافعي المدني، ذكره في كتابه ـ نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار ـ ص ٧٨ .

٢٩. الاستاذ الشيخ محمد عبده المصري المتوفي ١٣٢٣، ذكره في تفسير المنار ج ٦ ص ٤٦٤ عن الثعلبي، ثم استشكل عليه بمختصر ما أورد عليه ابن تيميّة، وستقف على بطلانه وفساده.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة العنكبوت: ١٨].

الشيخ: ينظر إلى سعيد وهو مدهوش ممّا يسمع ويقف عليه من حقائق دامغة ويتعجب من علماء السنة الذين يروون هذه الروايات كيف لا يذعنون للحق ويتبعون سبيل الرشد؟ ولكنه ينتبه فجأة ويخاطب سعيداً قائلاً: أحسنت يا سعيد ولكن لماذا لا نجد الإمام علياً عليه السلام قد استشهد بهذا الحديث والآيات النازلة

فيه أمام الخلفاء الذين خالفوه. هل من المعقول ان يكون الإمام عالماً بانّه هو الخليفة الشرعي الذي نصَّبه الرسول في غدير خم وإذا كان المسلمون كـذلك يعلمون ذلك فكيف تم ما تم ؟

سعيد: اعتقد أنّ الوقت تأخر كثيراً ولم يكف ما تبقى للإجابة على هذه الأسئلة وسوف يكون حديث الغد ان شاء الله حول هذه القضية لنرى ماذا حدث من أمر الخلافة .

ثم انتظر سعيد مع الشيخ بسيوني صلاة المغرب وأديّاها فـي المسـجد النبوي الشريف وتفارقا على أن يلتقيا في اليوم القادم ليخوضا غمرة يحث جديد في موضوع الإمامة .

اللقاء الخامس:

دلالة حديث الغدير

كان هذا اليوم بالنسبة إلى سعيد يوماً عادياً جداً، حيث كان يؤدي برنامجه الروتيني من المحاضرة الفقهية والإجابة على أسئلة الحجّاج وغيرها واستغل فرصة ما بين صلاة الظهر والعصر لكي يشتري بعض الأغراض والهدايا للأهل والأصدقاء .

وما إن حل وقت اللّقاء بين سعيد والشيخ بسيوني حتى كان سعيد في المكان المقرر فاستقبله الشيخ وجلسا يتبادلان أطراف الحديث حول بعض الموضوعات العامة لاسيما مشكلة السلوك الهمجي الذي يقوم به السلفيون تجاه بقية المسلمين إذا أرادوا زيارة النبي ﷺ أو أئمة أهل البيت عليهم السلام في البقيع حيث يرمون الناس بالشرك ويعبترونهم من عُبّاد القبور. وكان الشيخ منصفاً وناقداً لهذا السلوك الذي لا ينم عن معرفة أو إدراك أو تدين أو تحضر. ولكن الشيخ لم يكن يريد تضييع الوقت في الحديث عن هؤلاء الوهابية؛ لأنهم لا يستحقون مثل ذلك، ومن هنا حاول أن يغيِّر مجرى الحديث من أجل العودة لما كانوا عليه. فقال لسعيد: يا أخي الكريم لقد كان مقرراً أن نكمل حديث الأمس وأنا أرجو أن نستغل الوقت لذلك .

سعيد: بلاشك يا شيخ تفضل .

الشيخ: في البداية أريد أن أسأل: هل فهم المسلمون دلالة الحديث على تنصيب علي خليفة بعد النبي ﷺ أو لا؟ وما هو الدليل على ذلك ؟

سعيد: أعتقد أن الحديث من حيث الدلالة واضح جداً لاسيما وقد ناقشنا معنى كلمة الولي في آية الولاية، بل ان معنى الكلمة في الدلالة على ما نقول من أمر الخلافة الالهية والإمامة الربانية هنا في حديث الغدير أكثر وأوضح، لاسيما بعد الذي قدمنا من الآيات النازلة في هذا الصدد وسلوك النبي ﷺ غير الطبيعي، حيث أجمّع الناس في ذلك المكان وذلك الظرف، فهل يعقل أنّه يريد بذلك كله أن يخبرهم بأنّه ابن عم علي أو ناصر علي أو ما شابه ذلك من المعاني الأخرى؟ وإنما يتعين بما لا يقبل الشك ان المراد هو كونه عليه السلام الأَولى بالأمر من بعد النبي ﷺ وإذا أنت نظرت إلى آية ﴿يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ التي تجعل تبليغ هذا الأمر يعدل كل الرسالة المحمدية لما شككت بأنّ المراد من الولي هنا هو الأولى بالأمر، وإلا لماذا يعترض الحرث بن النعمان الفهري على النبي ثم يدعو الله أن ينزل عليه عذاباً من السماء ان كان هذا من أمر الله وليس من أمر رسوله. وأيضاً لماذا نجد النبيّ خائفاً من تبليغ هذا الأمر كما أسلفنا. ومن ذلك كلِّه ندرك ونعلم أن العرب قد فهموا جيداً مفاد هذا الحديث، ولذلك نرى الشيخين أبي بكر وعمر يهنئان الإمام ويبايعانه قائلين: بخ بخ لك يا علي أمسيت مولانا ومولى كلِّ مسلمٍ ومسلمة. لأنَّ النبي ﷺ قد أمر جميع من حضر بتهنئة الإمام والخضوع له، وحذرهم من مغبة مخالفته أو إنكار بيعته. فقد ذكر الحافظ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ حيث أخرج بإسناده في كتاب الولاية في طرق حديث الغدير عن زيد بن أرقم: لمّا نزل النبي ﷺ بغدير خم في رجوعه من حجة

الوداع وكان في وقت الضحى والحر شديد، أمر بالدوحات فقمّت ونادى الصلاة جامعة فاجتمعنا فخطب خطبة بالغة ثم قال: إن الله تعالى أنزل إليَّ: « بلغ ما أُنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلَّغت رسالته والله يعصمك من الناس» وقد أمرني جبرائيل ان يستعفي لي ربي لعلمي بقلة المتقين وكثرة المؤذين لي واللائمين لكثرة ملازمتي لعلي وشدة اقبالي عليه حتى سموني أُذناً، فقال تعالى: «ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أُذن قل أُذنُ خير لكم» ولو شئت أن أُسمِّيهم وأُدلَّ عليهم لفعلت، ولكنِّي بسترهم قد تكرمت، فلم يرض الله إلّا بتبليغي فيه فاعلموا معاشر الناس ذلك: فان الله قد نصبه لكم ولياً وإماماً، وفرض طاعته على كل أحد، ماض حكمه، جائز قوله، ملعون من خالفه، مرحوم من صدّقه، اسمعوا وأطيعوا، فان الله مولاكم وعلي إمامُكم، ثم الإمامة في ولدي من صلبه إلى القيامة لا حلال إلّا ما أحله الله ورسوله، ولا حرام الا ما حرم الله ورسوله وهم، فما من علم الا وقد احصاه الله فيَّ ونقلته إليه فلا تضلوا عنه ولا تستنكفوا منه، فهو الذي يهدي إلى الحق ويعمل به، لن يتوب الله على احد أنكره ولن يغفر له، حتماً على الله ان يفعل ذلك ان يعذبه عذاباً نكراً أبد الآبدين، فهو أَفضل الناس بعدي ما نزل الرزق وبقي الخلق، ملعون من خالفه، قولي عن جبرائيل عن الله، فلتنظر نفس ما قدَّمت لغد.

افهموا محكم القرآن ولا تتّبعوا متشابهه، ولن يفسر ذلك لكم إلَّا من أنا آخذ بيده وشائل بعضده ومعلمكم: إن من كنت مولاه فهذا علي مولاه، وموالاته من الله عزوجل أنزلها علي. ألا وقد أدّيت، ألا وقد بلَّغت، ألا وقد أسمعتُ، ألا وقد أوضحتُ، لا تحل إمرة المؤمنين بعدي لغيره. ثم رفعه إلى السماء حتى صارت رجله مع ركبة النبي ﷺ وقال: معاشر الناس! هذا أخي ووصيي وواعي

علمي وخليفتي على من آمن بي وعلى تفسير كتاب ربِّي. وفي رواية. اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه، والعن من أنكره، وأغضب على من جحد حقه، اللهم إنك أنزلت عند تبيين ذلك في عليٍّ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بامامته فمن لم يأتم به وبمن كان من ولدي من صلبه إلى القيامة فأُولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون، إن ابليس أخرج آدم ﷺ من الجنة مع كونه صفوة الله بالحسد فلا تحسدوا فتحبط أعمالكم وتزل أقدامكم، في عليٍّ نزلت سورة ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ .

معاشر الناس آمنوا بالله ورسوله والنور الذي معه من قبل ان نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت.

النور من الله فيَّ ثم في عليٍّ ثم في النسل منه إلى القائم المهدي «معاشر الناس سيكون من بعدي أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون، وإن الله وأنا بريئان منهم، إنّهم وأنصارهم وأتباعهم في الدرك الأسفل من النار، وسيجعلونها ملكاً اغتصاباً فعندها يفرغ لكم أيُّها الثقلان ويُرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران.

الشيخ: يا إلهي ماذا أسمع وماذا أرى .

سعيد: لا تتعجَّب يا شيخ، فالعجب هو أنّكم اتبعتم من لا يزيدكم اتباعه الا بعداً عن الله ورسوله وعشتم في ظلماتٍ بعضها فوق بعض. فهذا ابن مردويه يخرج عن ابن مسعود انّه قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ إن علياً مولى المؤمنين وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس .

راجع هذا الحديث في كتاب «فتح القدير» ج ٢ ص ٦٠. فهل بعد هذا يا

شيخ عذر لذي عذر، وهناك العشرات بل المئات من الأحاديث والمصادر والطرق التي تؤكد الإمامة والولاية لعلي عليه السلام فيما ذكرنا الكفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

الشيخ: طيب يا سعيد إذا كان الأمر بهذا الوضوح لماذا لم يستشهد به الإمام علي عليه السلام على القوم حينما اغتصبوا حّقه وأخذوا الخلافة دونه.

سعيد: من قال لك بان الإمام لم يستشهد بهذا الحديث وغيره بل انّه فعل ذلك كثيراً هو وأهل بيته الذين كانوا يدافعون عن حقه، ولكن المؤامرة كانت قد أصبحت بشكل متقن وكان يخطط لها من وقت طويل فاستغل وقت تجهيز النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودُبّر كل شيء كما سوف أُوافيك. والآن سوف اطلعك على بعض المواضع التي احتج فيها أمير المؤمنين عليه السلام بحديث الغدير وكذلك أهل بيته. الا اني أريد ان اعطيك المصادر التي أرجو أن تثّبتها عندك وتذهب غداً إن شاء الله إلى المكتبة العامة وتستخرجها بنفسك .

الشيخ: «لابأس يا سعيد وان كنت أرغب في ذكر نفس المرويات .

سعيد: وإجابة لرغبتك سوف أقرأ عليك رواية واحدة وأترك لك استخراج الباقي من المصادر. وهذه الرواية تنص على ان الامام قد احتج بحديث الغدير على القوم يوم الشورى سنة ٢٣ هـ .

قال أخطب الخطباء الخوارزمي الحنفي في المناقب ص ٢١٧: أخبرني الشيخ الإمام شهاب الدين أفضل الحفاظ أبو النجيب سعد بن عبد الله بن الحسن الهمداني المعروف بالمروزي، فيما كتب إليّ من همدان... إلى أن قال: وأخبرنا بهذا الحديث عالياً الإمام الحافظ سليمان بن محمد بن أحمد، حدثني يعلى بن سعد الرازي، حدثني محمد بن حميد، حدثني زافر بن سليمان، حدثني

الحارث بن محمد عن أبي الطفيل عامر بن وائلة قال: كنت على الباب يوم الشورى مع علي عليه السلام في البيت وسمعته يقول لهم: لأحتجن عليكم بما لا يستطيع عربيُّكم ولا أعجميكم تغيير ذلك، ثم قال: أنشدكم الله أيّها النفر جميعاً أفيكم أحد وحّد الله قبلي؟ قالوا: لا. قال: فأنشدكم الله هل منكم أحد له أخ مثل جعفر الطيار في الجنة مع الملائكة؟ قالوا اللّهم لا. قال: فأنشدكم الله هل فيكم احد له عمّ كعمي حمزة أسد الله وأسد رسوله سيد الشهداء غيري؟ قالوا: اللّهم لا، قال فأنشدكم الله هل فيكم أحد له زوجة مثل زوجتي فاطمة بنت محمد سيدة نساء أهل الجنة غيري؟ قالوا: اللّهم لا. قال، أنشدكم الله هل فيكم أحد له سبطان مثل سبطيّ الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة غيري؟ قالوا: اللّهم لا، قال فأنشدكم بالله هل فيكم أحد: ناجى رسول الله مرّات قدّم بين يدي نجواه صدقة قبلي؟ قالوا: اللّهم لا، قال: فأنشدكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من كنت مولاه فعليٌ مولاه، اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، ليبلغ الشاهد الغائب غيري؟ قالوا: اللّهم لا. الحديث .

واخرجه الإمام الحمويني، في فرائد السمطين في الباب الثامن والخمسين قال: أخبرني الشيخ الإمام تاج الدين علي بن الحب بن عبد الله الخازن البغدادي المعروف بابن الساعي قال: أنبأ الإمام برهان الدين أبو المظفر ناصر بن أبي المكارم المطرزي الخوارزمي قال: انبأ اخطب خوارزم ضياء الدين أبو المؤيد الموفق بن أحمد المكّي، إلى آخر السند بطريقيه المذكورين .

ورواه ابن حاتم الشامي، في الدر النظيم من طريق الحافظ ابن مردويه بسند آخر له قال: حدث أبو المظفر عبد الواحد بن حمد بن محمد بن شيذه المقرئ قال: حدثنا عبد الرزّاق بن عمر الطهراني قال: حدثنا أبو بكر أحمد بن

موسى الحافظ (إبن مردويه) قال: حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن أبـي دام قال: حدثنا المنذر بن محمد قال: حدثني عمي قال: حدثني أبي عن أبان بن تغلب عن عامر بن ثلة قال: كنت على الباب يوم الشورى وعلي في البيت فسمعته يقول (باللفظ المذكور إلى أن قال): قال: انشدكم بالله أمنكم من نصبه رسول الله يوم غدير خم للولاية غيري؟ قالوا: اللهم لا .

وحديث الشورى هذا أخرجه الحافظ الكبير الدارقطني، وينقل عنه بعض فصوله ابن حجر في الصواعق قال ص ٧٥: أخرج الدارقطني إن علياً قال للستة الذين جعل عمر الأمر شورى بينهم كلاماً طويلاً من جملته: أنشدكم الله هل فيكم أَحد قال له رسول الله ﷺ: يا علي أنت قسيم الجنة والنار يوم القيامة غيري؟ قالوا: اللّهم لا، وقال ص ٩٣: أَخرج الدارقطني إن عليّاً يوم الشورى احتج على أهلها فقال لهم: أنشدكم بالله هل فيكم أحد أقرب إلى رسول الله في الرحم منِّي ؟

وأخرجه الحافظ الأكبر ابن عقدة، قال: حدثنا علي بن محمد بن حبيبة الكندي، قال: حدثنا حسن بن حسين، حدثنا أبو غيلان سعد بن طالب الشيباني، عن إسحاق، عن أبي الطفيل قال: كنت في البيت يوم الشورى وسمعت علياً يقول الحديث، ومنه المناشدة بحديث الغدير .

وقال الحافظ ابن عقدة أيضاً: حدثنا أحمد بن يحيى بن زكريا الأزدي الصوفي قال: حدثنا عمرو بن حمّاد بن طلحة القناد، قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الأزدي، عن معروف بن خوبرذ، وزياد بن المنذر، وسعيد بن محمد الأسلمي، عن أبي الطفيل قال: لمّا احتضر عمر بن الخطاب جعلها (الخلافة) شورى بين ستة بين علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وطلحة، والزبير،

وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، وعبد الله بـن عمر، فيمن يشاور ولا يولّي، قال أبو الطفيل: فلما اجتمعوا أجلسوني على الباب أرد عنهم الناس فقال علي: الحديث وفيه المناشدة بحديث الغدير.

وأخرجه الحافظ العقيلي قال: حدثنا محمد بن أحـمد الوراجـيتي، حـدثنا يحيى بن المغيرة الرازي، حدثنا زافر عن رجل عن الحارث بن محمد عن أبي الطفيل قال: كنت على الباب يوم الشورى، وذكر من الحديث جملةً ضافية .

وقال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ٦١: نحن نذكر في هذا الموضع ما استفاض في الروايات من مناشدة أصحاب الشـورى وتـعديده فضائله وخصائصه التي بان بها منهم ومن غيرهم قد روى الناس ذلك فأكثروا، والذي صح عندنا أنه لم يكن الأمر كما روى من تلك التعديدات الطويلة، ولكنه قال لهم بعد أن بايع عبد الرحمن والحاضرون عثمان وتلكأ هو عليه السلام عن البيعة: ان لنا حقاً إن نعطه نأخذه، وإن نمنعه نـركب أعـجاز الأبـل وان طـال السرى. في كلام قد ذكره أهل السيرة وقد أوردنا بعضه فيما تقدّم، ثم قال لهم: أنشدكم الله أفيكم أحد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين نفسه حيث آخى بين بعض المسلمين وبعض، غيري؟ فقالوا: لا، فقال: أفيكم أحد قال له رسول الله: من كنت مولاه فهذا مولاه، غيري؟ فقالوا: لا.

وذكر سطراً منه ابن عبد البر في الاستيعاب ج ٣ ص ٣٥ هامش الإصابة مسنداً قال: حدّثنا عبد الوارث، حدثنا قاسم، حدثنا أحمد بن زهير، قال: حدثنا عمرو بن حماد القتاد قال: حدثنا اسحق بن إبراهيم الأزدي، عن معروف بـن خربوز، عن زياد بن المنذر، عن سعيد بن محمد الأزدي عن أبي الطفيل.

وإذا أردت المزيد فقد احتج الإمام في حديث الغدير في أيام عثمان بن

عفان كما رويٍ، ذلك شيخ الإسلام أبو اسحاق إبراهيم بن سعد الدين بن الحمويه بإسناده في فرائد السمطين في السمط الأوّل في الباب الثامن والخمسين. وكذلك مناشدة الإمام الناس واستشهاده على حقه في حديث الغدير في يوم الرحبة سنة ٣٥، كما ذكر ذلك العديد من المؤرخين وعلماء السنة فقد روى ذلك أبو سليمان المؤذن كما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ٣٦٢. وأبو القاسم اصبغ بن نباته كما روى ذلك ابن الاثير في أُسد الغاية ج ٣ ص ٣٠٧ وج ٥ ص ٢٠٥ وكذلك راجع الاصابة ج ٢ ص ٤٠٨ في طريق آخر وكذلك رواه زاذان بن عمر كما أخرج ذلك أحمد إمام الحنابلة في مسنده ج ١ ص ٨٤ وأيضاً رواه الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٠٧ وأبو الفرج ابن الجوزي إلى غير ذلك من المصادر .

وقد استشهد الإمام عليه السلام بهذا الحديث في يوم الجمل سنة ٣٦ للهجرة كما ذكر ذلك الحافظ الكبير أبو عبد الله الحاكم في المستدرك ج ٣ ص ٣٧١، والمسعودي في مروج الذهب ج ٢ ص ١١، والخوارزمي الحنفي في المناقب ص ١١٢، وابن عساكر في تاريخ الشام ج ٧ ص ٨٣ وسبط ابن الجوزي في التذكرة ص ٤٢ والهيثمي في مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٠٧ وابن حجر في التهذيب ج ١ ص ٣٩١ والسيوطي في جمع الجوامع كما في كنز العمال ج ٦ ص ٨٣ والسنوسي في شرح مسلم ج ٦ ص ٢٣٦، والوشتاني المالكي في شرح مسلم ج ٦ ص ٢٣٦ وغيرهم .

وكذلك استشهد الإمام بهذا الحديث في الكوفة أمام جماعة كما ذكر ذلك جملة من العلماء والحفاظ كما في أُسد الغابة لابن الأثير ج ١ ص ٣٦٨، وابن حجر في الإصابة ج ١ ص ٣٠٥، ومحب الدين الطبري في الرياض النضرة ج ٢

ص ١٦٩ وابن كثير في تاريخه ج ٥ ص ٢١٢ ومجمع الزوائد ج ٩ ص ١٠٤ وغير ذلك .

وأيضاً مناشدة الإمام بهذا الحديث يوم صفين سنة ٣٧ هـ كما ذكر ذلك سليم بن قيس الهلالي.

ومنها مناشدة الصديقة فاطمة الزهراء القوم بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة حيث احتجت على القوم الذين اغتصبوا الخلافة وعموم الناس بقولها: أنسيتم قول رسول الله ﷺ يوم غدير خم، من كنت مولاه فعلي مولاه، انت مني بمنزلة هارون من موسى عليه السلام. ذكر ذلك شمس الدين أبو الخير الجزري الدمشقي المقري الشافعي في كتابه أسنى المطالب في مناقب علي بن أبي طالب ص ١٦٦.

ومنها احتجاج الإمام الحسن بن علي السبط سنة ٤١ عند الصلح مع معاوية كما روى ذلك القندوزي الحنفي في ينابيع المودة ص ٤٨٢ .

ومنها مناشدة الإمام الحسين كذلك سنة ٥٨ هـ كما ذكر ذلك سليم بن قيس الهلالي في كتابه .

إلى غير ذلك من الموارد التي لو تتبعناها بدقة لو جدنا العدد الكثير منها، وبعد هذا هل يصح ان يقال بأن الإمام علياً وأهل البيت عليهم السلام لم يحتجوا بحديث الغدير ليجعلوا من هذه الفرية دليلاً على عدم صحة مضمونه رغم الذي بينا سنداً ودلالة واستشهاداً .

الشيخ: نعم أحسنت يا شيخ سعيد على هذه الافادات الكثيرة وأود أن ننتقل إلى أحاديث أخرى عن النبي ﷺ في شأن تنصيب علي خليفة من بعده فهل لديكم ما تقدمونهُ لنا في هذا الصدد.

حديث المنزلة

سعيد: من الأحاديث المهمة الأُخرى التي تدل على خلافة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هو حديث المنزلة الذي روته كتب الصحاح والمسانيد المعتبرة عند أهل السنة والجماعة، فقد روى البخاري في صحيحه ج ٥ ص ٢٤ و ج ٦ ص ٣ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي عليه السلام: أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى؟ وفي المورد الآخر ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج إلى تبوك فاستخلف علياً فقال: أتكلفني بالصبيان والنساء؟ قال: ألا ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى إلّا انّه ليس بعدي نبي .

وكذلك روى مسلم هذا الحديث بهذا النص: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: انت مني بمنزلة هارون من موسى الا انّه لا نبي بعدي... راجع صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٧٠ في رقم ٢٤٠٤. فهذا الحديث يدل على ان منزلة الإمام من النبي هي نفس منزلة هارون من موسى باستثناء شيء واحد وهو النبوة، ومن المعلوم أنّ هارون كان خليفة موسى بنصّ القرآن فكذلك الإمام خليفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الشيخ: لو تكرمت علينا بتفصيل دلالة الحديث على خلافة الإمام بعد ان ثبت لدينا صحة سنده باعتبار أنّ كتب الصحاح ترويه .

سعيد: في الواقع ان هناك جملة من الدلالات لهذا الحديث وكل واحدة تصلح لوحدها للدلالة على خلافته عليه السلام. ولكن في البداية ينبغي لنا التأمل في معرفة منزلة هارون من موسى وليس لنا في ذلك الّا كتاب الله نرجع إليه لكي نعرف طبيعة هذه المنزلة. وهنا في القرآن آيات عديدة تبين لنا هذه المنازل.

١. هارون كان نبيّاً: قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴾ [مريم: ٥٣].

٢. كان هارون وزيراً لموسى: قال تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٩] وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً﴾ [الفرقان: ٣٥].

٣. كان هارون خليفة موسى. قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـارُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[الاعراف: ١٤٢].

٤. كان هارون أقرب الناس إلى موسى. قال تـعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٣١].

وإذا رجعنا إلى حديث المنزلة فسوف نجد فيه ان النـبي صلى الله عليه وآله وسلم يـريد ان يخبرنا بأن كل هذه المنازل التي كانت لهارون فهي ثابتة لعلي الّا المنزلة الأُولى أعني النبوة لأنّه لا نبي بعد النبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم .

فهارون خليفة موسى ووصيه على قومه وهذا المنصب من خلال مفاد الحديث يدل على خلافة الإمام عليه السلام .

الشيخ: لماذا لا تعتبر أنّ وجوب الطاعة على بني اسرائيل لهارون لم يكن نتيجة لخلافته لموسى، وإنّما بسبب كونه نبياً، خلافاً للإمام علي حيث لم يكن نبياً وبالتالي وجوب الطاعة والمتابعة التي كانت لهارون غير موجودة عند الإمام .

سعيد: هذا توهم خاطئ ؛ وذلك لأنَّ وجوب الطاعة المطلقة إذا كان من آثار مقام النبوة لا من آثار مقام الخلافة حينذاك لم يثبت وجوب الطاعة من قبل المسلمين للخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان لأنَّهم لم يكونوا أنبياء. وهذا خلاف الضرورة على مذهبكم من وجوب طاعة الخلفاء.

وحينما نرجع إلى الأحاديث الأُخرى الواردة عن النبي ﷺ في وجوب طاعة علي عليه السلام وحرمة مخالفته نراها كثيرة ومنها ما أخرجه الحاكم بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع علياً فقد أطاعني ومن عصى علياً فقد عصاني» يقول الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد. راجع المستدرك على الصحيحين ج ٣ ص ١٢١ وكنز العمال للمتّقي الهندي ج ١١ ص ٦١٤ .

الشيخ: إلّا أني أودّ مناقشتك في بعض الأُمور يا سعيد وأرجو منك الإجابة الوافية.

سعيد: تفضل يا أخي الكريم فكلّي آذان صاغية.

الشيخ: انا في نظري بان هذا الحديث لا يدل على عموم المنزلة، وحينئذ تتم المشابهة بين علي وهارون بوجه شبه واحد، ويكفي ذلك في صحة الحديث، اما ان يكون علي نازلاً من رسول الله منزلة هارون من موسى بجميع منازل هارون فلا نوافق على هذا .

سعيد: أقول في الجواب على هذا الإشكال: بان الحديث يشتمل على لفظ وهو اسم جنس مضاف إلى علم. قال: أنت مني بمنزلة هارون، فكلمة المنزلة اسم جنس مضاف إلى علم وهو هارون، ثم يشتمل الحديث على استثناء الّا انّه لا نبي بعدي، فالكلام مشتمل على اسم جنس مضاف إلى علم، ومشتمل على استثناء باللفظ الذي ذكرناه. ولو رجعنا إلى كتب علم أصول الفقه والبلاغة والأدب، لوجدناهم ينصون على ان الاستثناء معيار العموم، وينصون كذلك على أنّ اسم الجنس المضاف هو من ألفاظ العموم ، وحنيئذ لا يبقى أي مجال للإشكال .

الشيخ: طيب ولكن ثمة اشكالية أخرى وهي ان هذه الخلافة التي كانت لعلي عليه السلام هي خلافة مؤقتة في ظرف خاص، وزمان محدود، وفي حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما كانت خلافة هارون عن موسى في حياة موسى، ويؤيد ذلك موت هارون في حياة موسى، فأين الخلافة بالمعنى المتنازع فيه ؟

سعيد: اشكال جيد يا شيخ بسيوني ولكنّي أستطيع الإجابة عنه بما أفاده المرتضى علم الهدى في كتابه الشافي حيث يقول: ولا يطعن فيما بيناه ان هارون عليه السلام مات قبل موسى عليه السلام لأن المتسالم عليه انّه لو عاش بعده لخلفه في المنزلة، وإن لم يعش فيجب حصولها لأمير المؤمنين عليه السلام إذا عاش بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما لو قال الرئيس لصاحب له: منزلتك عندي في الإكرام والعطاء منزلة فلان من فلان وفلان فات فيه الإكرام والعطاء بموت أو غيبة ولم يفت في الثاني فالواجب ان ينزل منزلته، ولا يجوز ان يقال: لا يزاد على الأوّل في ذلك. وكذلك فان كثيراً من الروايات قد أتت بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «انت مني بمنزلة هارون من موسى» في أماكن مختلفة، وأحوال شتّى، فليس لنا ان نخصصه بغزوة تبوك دون غيرها» ومن هذه المواضع الكثيرة عند التخاصم في ابنة حمزة كما في الخصائص للنسائي ص ١٩، ومنها لما آخى بين الصحابة كما في كنز العمال ج ٥ ص ٤٠، ومنها كلامه لعلي عليه السلام، وهو متكئ عليه، اخرجه المتقي الهندي أيضاً في الكنز ج ٦ ص ٣٩٥، ومنها في حديث له صلى الله عليه وآله وسلم مع علي يوم ولد الحسن عليه السلام كما في ذخائر العقبى ص ١٢٠ وغير ذلك. وبعد هذا لا يمكن أن تكون هذه الإشكالية منطقية بأيّ وجه، فتكرر الحديث في كل هذه المواضع يدل على ان هذه المنزلة ليست خاصة في وقت محدد ومكان خاص.

الشيخ: احسنت يا سعيد فلقد أثلجت قلبي بهذه الإجابات الشّافية، ولكنّي أريد المزيد يا سعيد .

آية: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾

سعيد: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[الرعد: ٧]. فهذه الآية نزلت في علي عليه السلام حيث ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو المنذر وعلي هو الهادي كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: انا المنذر وعلي الهادي وبك يا علي يهتدي المهتدون» اخرج ذلك القندوزي في ينابيع المودة ص ٤٤٦ والسيوطي في الدر المنثور ج ٤ ص ٤٥ في ذيل الآية وأخرجه كذلك ابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة وابن عساكر وابن النجار. ورواه كذلك الحاكم في المستدرك ج ٣ ص ١٢٩، والكنجي الشافعي في كفاية الطالب ص ٢٣٢، وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة ص ١٢٣، والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ج ١ ص ٣٨١ ـ ٣٩٥ الأحاديث ٣٩٨ ـ ٤١٦ بأسانيد مختلفة عن ابن عباس، وأبي هريرة، وأبي برزة الاسلمي، وعمر بن عبد الله بن يعلى بن مرة، وعلي بن أبي طالب .

وذكر بن مردويه في المناقب ورواه الثعلبي عن علي عليه السلام أيضاً وعن جابر في مسنده وعن ابن المسيب في المناقب ورواه الثعلبي عن علي عليه السلام أيضاً وعن جابر في مسنده وعن ابن المسيب في مسنده وأسنده الحسين بن جبير في كتاب نخب المناقب إلى علي عليه السلام وإلى ابن عباس أيضاً وإلى الضحاك والزجاج وأبي بردة أيضاً أنّه قال: دعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالطهور وعنده علي عليه السلام فأخذ بيده بعدما تطهر وألصقها بصدره وقال: (إنّما انت منذر) ثم ردّها إلى صدر علي وقال: (ولكل قوم هاد).

ومن هنا نستدل على ان علياً عليه السلام هو الهادي واطلاق كونه هادياً باجمال الله وتفصيل رسول الله، يقتضي كونه هادياً في سائر أوقاته وذلك مستلزم

لعصمته لاسيما إذا قارنّا هذه الآية بآية أُخرى تدلنا على وجوب اتباع الشخص الذي هداه الله ويقوم بعملية هداية الناس أقصد قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥] ودلالة الآية لمن تأمل فيها واضحة حيث ان الله عزوجل يخاطب العقول السليمة والفطرة الإنسانية لأن من الواجب على الإنسان ان يتبع الحق على الاطلاق من غير قيد أو شرط، والهادي إلى الحق واجب اتباعه لما عنده من الحق، ومن الواجب ترجيحه على من لا يهدي إليه أو يهدي إلى غيره لأنَّ اتباع الهادي إلى الحق اتباع لنفس الحق الذي معه ووجوب اتباعه ضروري.

الشيخ: وهل ان الشخص الذي لا يكون مهتدياً بنفسه لا يكون هادياً إلى الحق؟ كيف وما هو الدليل ؟

سعيد: انظر يا شيخنا العزيز إلى الآية المباركة حيث قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾ حيث اننا نقرأ هكذا (لا يهِدِّي) بكسر الهاء وتشديد الدال وأصله يهدي، وظاهر قوله: ﴿لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾ وقد حذف متعلقات الفعل فيه أنه إنما يهتدي بغيره لا بنفسه .

والكلام قد قوبل فيه قوله: ﴿يهدي إلى الحق﴾ بقوله: ﴿من لا يهِدِّي﴾ مع ان الهداية إلى الحق بقابلها عدم الهداية إلى الحق، وعدم الاهتداء إلى الحق يقابله الاهتداء إلى الحق، فلازم هذه المقابلة الملازمة بين الاهتداءبالغير وعدم الهداية إلى الحق، وكذا الملازمة بين الهداية إلى الحق والاهتداء بالذات فالذي يهدي إلى الحق يجب ان يكون مهتدياً بنفسه لا بهداية غيره والذي يهتدي بغيره ليس يهدي إلى الحق أَبداً.

الشيخ: ولماذا لاترى ان هذا كلاماً مجازياً بعيداً عن المعنى الحقيقي للفظ الذي رتبت عليه كل هذه النتائج .

سعيد: ان ظاهر الآية هو الذي يدلنا على كون المعنى للحقيقة لا للمجاز وهذا الظاهر هو أعدل شاهد على ان الكلام موضوع فيها على الحقيقة دون التجوزات المبنية على المساهلة التي تبنى عليها ونتداولها فيما بيننا نحن معاشر أهل العرف، فننسب الهداية إلى الحق إلى كل من تكلّم بكلمة حق ودعا إليها وان لم يعتقد بها، أو اعتقدو لم يعمل بها أو عمل ولم يتحقق بمعناها، وسواء اهتدى إليها بنفسه أو هداه إليها غيره .

بل الهداية إلى الحق أعني الإيصال إلى صريح الحق ومتن الواقع ليس إلا لله سبحانه أو لمن اهتدى بنفسه، أي هداه الله سبحانه من غير واسطة تتخلل بينه وبينه فاهتدى بالله وهدى غيره بأمر الله سبحانه، ونحن سابقاً ذكرنا معنى الإمام وان الإمامة في القرآن تلازم الهداية وهذه الهداية من سنخ الإيصال إلى المطلوب لا مجرد إراءة الطريق .

الشيخ: وهل إنَّ علياً عليه السلام هو هكذا يا سعيد؟!

سعيد: كيف لا يا شيخ وهذا النبي يبيّن بأنّ علياً هو الهادي كما قدمت لك من الروايات والمصادر، وكذلك هو الذي يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «علي مع الحق والحق مع علي لا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض يوم القيامة» انظر المعيار والموازنة لأبي جعفر الإسكافي ص ١١٩. ومجمع الزوائد للهيثمي ج ٧ ص ٢٣٥ .

الشيخ: ولكن يا اخ سعيد ان ثبوت الهداية لعلي عليه السلام لا يستلزم نفيها عن غيره فهذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

سعيد: أوّلاً، اعتقد فيما ذكرنا قبل قليل من ان الذي لا يكـون مـهتدياً بنفسه لا يصلح لأن يهدي غيره إلى الحق الا بالمجاز فكيف تقارن من يهدي إلى الحق بنفسه لانّه مع الحق والحق معه بمن لا يهدي إلّا أن يُهدىٰ.

ثانياً: هلم معي لنرى هل يصح صدور مثل هذا الكلام من رسول الله ﷺ؟ وهل كان جميع الصحابة على خير من بعده؟ وهـل كانوا جميعاً مؤهلين لان يقتدى بهم؟ وهل كانوا جميعاً هادين حقاً ؟

إذا كان كذلك، فما معنى قوله تعالى: ﴿أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] .

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١] .

وغيرهما من الآيات الكريمة التي تنص على وجود المنافقين بين أصحاب الرسول ﷺ. ثم هل يمكن الاعتقاد بانّه ﷺ كان لا يعلم ما سيقع بعده بين الأمة الإسلامية ؟

كلا... ثم كلا... انّه ﷺ كان على علم بجميع ما سيحدث بين أصحابه وأُمته إلى يوم القيامة، لذا وردت الأحاديث الكثيرة التي لا تحصى يخبر فيها عليه وعلى آله الصلاة والسلام عن القضايا التي سيستقبلها المسلمون.

انّه ﷺ قال: «ستفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة» وهذا الحديث مشهور ومعروف عند الجميع. وهناك أحاديث كثيرة وردت في خصوص صحابته تفيد سوء حال جم غفير منهم، وانقلابهم من بعده على أعقابهم،

مرتدين عن الدّين من بعده كفاراً خاسرين.

منها: قوله ﷺ فيما اخرجه البخاري في باب الحوض ج ٤ ص ٨٧ ـ ٨٨ وغيره من كتب الصحاح. قوله: «أنا فرطكم على الحوض، وليُرفَعُنَّ رجال منكم، ثم ليُخْتَلَجُنَّ دوني، فأقول: يارب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» وفي حديث: فأقول سحقاً سحقاً لمن غير بعدي» وفي بعض الأحاديث: «انهم ارتدوا على ادبارهم القهقرى» .

ومنها: قوله ﷺ لأصحابه: «لا ترجعوا بعدي كفاراً» انظر مسند أحمد ج ٥ ص ٣٩ ـ ٧٣، صحيح البخاري ج ١ ص ٣٨، صحيح مسلم النيسابوري ج ١ ص ٥٨ وغيره ومنها قوله ﷺ لأصحابه: «الشرك أخفى فيكم من دبيب النّمل» راجع فيض القدير ج ٤ ص ١٧٣، مسند أبي يعلى الموصلي ج ١ ص ٦٢، تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥١٣ إلى غير ذلك من الأحاديث التي رواها القوم عن رسول الله ﷺ في ذم الصحابة آحاداً وجماعات، في موارد كثيرة ومناسبات مختلفة ومواطن عديدة. فكيف يحسن منه ﷺ ان يجعل كلاً من هؤلاء نجماً يُهتدىٰ به والحال هذه ؟

على ان كثيراً من الصحابة اعترفوا في مناسبات عديدة بالجهل وعدم الدراية والخطأ في الفتيا، حتى اشتهر عن بعض أكابرهم ذلك... ولذا كان باب التخطئة والرد مفتوحاً لدى أصحاب رسول الله ﷺ بل ربما تجاوزت التخطئة حدَّ الاعتدال وبلغت التكذيب والتجهيل والتكفير.

وهل اعجب من دعوى كون جميعهم نجوما يهتدى بهم والحال انّه لم تكن لهم هذه المنزلة عند انفسهم، كما هو واضح عند من راجع أخبارهم؟

واما سبُّ بعضهم بعضاً، وضرب بعضهم بعضاً، ونفى بعضهم بعضاً فقد كان فاشياً فيما بينهم، بل لقد استباح بعضهم قتل بعض.

واما إذا راجعنا أخبار كل واحد من الصحابة وتتبعنا أفعالهم وقضاياهم لعثرنا على أشياء غريبة عن الإسلام، بعيدة كل البعد عنه، من شرب للخمور وشهادة زور، ويمين كاذبة، وفعل للزنا، وبيع للخمر، والأصنام، وفتيا بغير علم، إلى غير ذلك من كبائر الذنوب والمحرمات بأصل الشرع واجماع المسلمين.

وبعد هذا هل يصح ان نعتقد بصدور هذا الحديث عن النبي ﷺ؟ طبعاً اضافة إلى ان هذا الحديث من الناحية السندية ساقط أيضاً وللأسف الشديد لا يسع المجال للتفصيل في ذلك .

نعم قد وردت أحاديث عن النبي ﷺ تشير إلى النجوم الحقيقين الذين بأتّباعهم يتبع الحق وبالاهتداء بهم يهتدى إلى الحق وهم أهل البيت عليهم السلام .

الشيخ: كيف يا سعيد ؟

سعيد: اسمع هذه الأحاديث الواردة في أهل البيت عليهم السلام من النبي ﷺ :

١. قوله ﷺ: «النجوم امان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لامتي». ذكر ذلك الحاكم في المستدرك ج ٢ ص ٤٤٨ بتفصيل أكثر. وكذلك نظم درر السمطين للحنفي ص ٢٣٤، الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٦٨، كنز العمال للهندي ج ١٢ ص ٩٦ .

٢. قوله ﷺ: «النجوم امان لأهل السماء، فإذا ذهبت ذهب أهل السماء وأهل بيتي امان لأهل الأرض، فإذا اذهب الله أهل بيتي اذهب أهل الأرض».

راجع في ذلك ذخائر العقبى ص ١٧، اسعاف الراغبين ص ١٣٠، المستدرك ج ٢ ص ٤٤٨ .

٣. قوله ﷺ: «النجوم امان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفها قبيلة اختلفوا فصاروا حزب ابليس». راجع في ذلك المستدرك ج ٢ ص ١٤٩، اسعاف الراغبين ص ١٣٠ .

وفي هذه الاثناء وبينما سعيد يتكلم وإذا بأذان المغرب قد رفع من المسجد النبوي لينهي حديثهما الشيق حيث توجها إلى الصلاة وسعيد يدعو بقلب ملؤه الإيمان ولسانٍ ينطق بالصدق أن يلهم هذا الشيخ وكُلَّ المسلمين النور والبصيرة التي من خلالها يرون الحق ويتبعونه ؛ لأنَّهم عاشوا في محيط وبيئة قد تلبس فيها الباطلُ بلباس الحق فلم يروا إلّا صورة مزيفة خدعتهم فساروا خلفها يمشون من دون أن يعلموا بأنَّ الحق شيء غير هذا. ولعن الله الحكام الخونة وأهل الدنيا من وعَّاظ السلاطين حيث كانواهم السبب وراء هذا الجهل المستحكم وهذه السبل المختلفة في حين ان سبيل الله واحد .

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي وَ سُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

اللقاء السادس:

حديث الثقلين

انتهز سعيد الفراغ الذي عنده ما بين صلاة الظهر وصلاة العصر ليتوجه إلى احدى المكتبات الكبرى في المدينة المنورة، حيث وجد الكثير من الكتب القيمة والتي يرجع بعضها إلى زمن بعيد، وأخذ يقلب الصفحات الصفراء ويطالع ما خلفته أنامل القدماء من مفسرين ومحدثين وفقهاء، واستمتع كثيراً وهو يتنقل بين هذه الكتب كأنه نحلة نشطة تجوب حقول الورد، كيف لا والكتب بساتين العلماء وخير جليس لمن أراد أن يستفيد من حياته ؛ لان قيمة الإنسان بعلمه وبما يحسن من المعرفة وهذا ما نطقت به الآيات والروايات. فهذا القرآن يؤكد فضل العلم والعلماء بقوله سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. فأهل العلم هم الخاشعون الذين يؤمنون بالله ورسوله ولا يستكبرون كما يقول عزوجل: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً * قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الاسراء: ١٠٦ـ١٠٧] وهذا القرآن الذي هو منهج الرب العظيم لإسعاد البشرية في دنياها وأخراها نجده عند أهل العلم فكراً وعقيدة وفقهاً وسلوكاً فهو في صدورهم وقلوبهم ويترشح إلى سلوكهم وعملهم. قال عزوجل: ﴿ومَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَ لاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا

الْعِلْمَ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨ ـ ٤٩] .

أهل العلم هم الذين يرون الحق ويتبعونه ويدعونَ إليه في آناء الليل وأطراف النهار، وأمّا غيرهم فهو في ظلمات لا يكاد يبصر شيئاً، بل كالأنعام أو أظل من الأنعام سبيلا، وما أَجمل تعبير القرآن الذي يعطي وصفاً دقيقاً وفارقاً أنيقاً بين العالم والجاهل فالعالم له رؤية تختلف جذرياً عن رؤية الجاهل فالعالم يرى النور والحق والحقيقة والجاهل يعيش في بوتقة الظلام كالخفافيش لا يبصر شيئاً، فتراه يتخبط ويعادي الحق وأهله. قال عزوجل: ﴿وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ * وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَ يَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٥ ـ ٦]. فكم ثمة فرق بين الجاهل الذي يقوده جهله إلى الكفر والضلال حيث يسعى معاجزاً في آيات الله يريد أن يبطلها ويصد الناس عنها فينال في آخر المطاف العذاب والرجز الاليم وبين الذين أُوتوا العلم الذين إذا استمعوا إلى القرآن وتدبّروا آياته أدركوا من فورهم أنّ هذا الكتاب هدى ونور وحق وحقيقة فيسارعون للإيمان به واتباعه .

وهذا الإمام الصادق عليه السلام يقول: إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين، وهذا والده الإمام الباقر عليه السلام يبين فضل العالم بقوله: عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد.

كل هذه الآيات والروايات يستحضرها سعيد وهو يجلس بين الكتب ليتزود العلم والمعرفة ويتحرك نحو الكمال والرقي وخدمة الدين والعقيدة.

وما إن حان الموعد مع الشيخ بسيوني حتى تحرك سعيد نحو المسجد النبوي وهو يحمل في جعبته في هذا اليوم موضوعاً آخر من موضوعات البحث

في إمامة أهل البيت عليهم السلام وهو ما تضمنه حديث الثقلين .

جلس سعيد مع الشيخ في هذا اليوم في مكان آخر غير الذي كانا يجلسان فيه بسبب الخوف من بعض الطفيليين الذين قد يتدخلون في الموضوع ويعكرون مناخ النقاش الموضوعي ؛ لأنّ كثيراً من هؤلاء الجهلة يتواجدون في ذلك المكان، وعلى كل حال استقر الحال بسعيد والشيخ بسيوني وبدأ جولة النقاش حيث وجه سعيد سؤالاً للشيخ :

سعيد: أريد أن أسألك يا شيخ وأرجو تجيبني بصراحة.

الشيخ: تفضل يا سعيد .

سعيد: ألك عين ؟

الشيخ: ما بك يا أخي سعيد وهل هذا سؤال تسأل عنه؟ ألاترى عيني أمامك؟

سعيد: أرجوك أجبني، وان كان السؤال غريباً، لأنّك بعد ذلك سوف تعرف أنّ هذا السؤال وما يليه ليس غريباً.

الشيخ: لا باس وان لم أكن مقتنعاً. نعم لي عين.

سعيد: فما تصنع بها.

الشيخ وهو يبتسم: من الطبيعي أن أرى بها الألوان والأشخاص .

سعيد: جيد. ألك أنف ؟

الشيخ: نعم يا سعيد .

سعيد: ماذا تصنع به ؟

الشيخ: أشم به الرائحة.

سعيد: ألك لسان ؟

الشيخ: نعم .

سعيد: ما تصنع به ؟

الشيخ: أتكلم به .

سعيد: ألك أُذن ؟

الشيخ: نعم .

سعيد: ماذا تصنع بها ؟

الشيخ: أسمع بها الأصوات ومن بينها أسئلتك الغريبة في هذا اليوم .

سعيد وهو يبتسم: تحمّل قليلاً وسوف توافيك النتيجة بعد قليل .

الشيخ: لا بأس أكمل .

سعيد: ألك يدان؟

الشيخ: نعم .

سعيد: ماذا تصنع بهما ؟

الشيخ: أستخدمهما في قضاء حوائجي وأُمسك بهما الأَشياء إلى غير ذلك.

سعيد: ألك رجلان؟

الشيخ: نعم .

سعيد: ماذا تصنع بهما؟

الشيخ: انتقل بهما من مكان إلى مكان .

سعيد: ألك فم .

الشيخ: نعم .

سعيد: ما تصنع به.

الشيخ: أتناول من خلاله الطعام وأعرف طعم الأشياء وغير ذلك من الفوائد.

سعيد: ألك عقل .

الشيخ: بالطبع يا سعيد .

سعيد: ما تصنع به ؟

الشيخ: أفكر به وأميز به المعلومات التي تأتيني من طريق الحواس عن غيرها.

سعيد: ألا تكفي هذه الحواس للمعرفة.

الشيخ: بالطبع لا؛ لأن هذه الحواس قد تخطئ فتحتاج إلى ما يميز الصحيح منها من الخطأ وهذا المرجع لمعرفة الصحيح من الخطأ هو العقل .

سعيد: إذن وجود العقل هو نتيجة لعجز الحواس عن الوصول إلى الحقيقة.

الشيخ: نعم يا سعيد ووجوده حينئذ ضروري لا محيص عنه.

سعيد: أُريد أن أسألك سؤالاً يا شيخ وهو: إن الله عزوجل لم يترك حواسك وجوارحك حتى جعل لها إماماً ترجع إليه يصحح لها الصحيح، وينفي ما شكت فيه، فهل من المعقول ان يترك هذا الخلق كله في حيرتهم، وشكهم واختلافهم، لا يقيم لهم إماماً يرجعون إليه في شكّهم وحيرتهم. اليس إن اقامة المرجع الذي يمتلك اليقين في الأمة أولى من وجود المرجع عندك لحواسك

وجوارحك. فكيف لم يفرّط في هذا ويفرط في ذاك على أهميته وعظمته وهل هذا يصح من الخالق الحكيم؟!.

الشيخ: انّه لم يتركنا هكذا يا سعيد بل ترك لنا المرجع وهو كتاب الله العزيز وسنة رسوله ﷺ فقال: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيء فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

سعيد: ذكرتني بمحاورة جرت بين أحد أصحاب الإمام جعفر الصادق عليه السلام الذي يسمى هشام بن الحكم وبين أحد علماء بلاد الشام في ذلك الحين يسعدني جداً أن أذكرها لك لعلها تنفع جواباً على ما ذكرته يا شيخ .

الشيخ: تفضل يا سعيد. أنا أُصغي إليك.

سعيد: كان هذا الشامي يعترض على قول الشيعة بوجوب تنصيب الإمام من الله، وأن الإمام موجود في كل زمان ولابد من الرجوع إليه عند الاختلاف وجاء إلى الإمام الصادق عليه السلام قاصداً محاججته في هذا الأمر ولكن الإمام قال له بأني سوف أندب لك أحد تلاميذي للرد عليك في هذه المسألة فدارت بين الشامي وبين هشام هذه المناظرة الممتعة.

قال الشامي لهشام الذي كان شاباً فتياً: يا غلام سلني في إمامة هذا يعني: ابا عبد الله عليه السلام؟ فغضب هشام حتى أرتعد ثم قال له :

أخبرني يا هذا أربك أَنظر لخلقه، أم خلقه لأَنفسهم ؟

فقال الشامي: بل ربي أنظر لخلقه.

قال: ففعل بنظره لهم في دينهم ماذا ؟

قال: كلفهم، واقام لهم حجّة ودليلاً على ما كلّفهم به، وأزاح في ذلك عللهم.

فقال له هشام: فما هذا الدليل الذي نصبه لهم ؟

قال الشامي: هو رسول الله ﷺ .

قال هشام: فبعد رسول الله ﷺ مَنْ ؟

قال: الكتاب والسنة .

فقال هشام: فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة فيما اختلفنا فيه، حتى رفع عنا الاختلاف، ومكّننا من الاتفاق ؟

فقال الشامي: نعم .

فقال هشام: فلم اختلفنا أنا وأنت، جئتنا من الشام تخالفنا، وتزعم ان الرأي طريق الدين، وأنت مقر بأنَّ الرأي لا يجمع على القول الواحد المختلفين؟

فسكت الشامي كالمفكِّر. فقال أبو عبد الله عليه السلام: ما لك لا تتكلَّم ؟

قال: إن قلت: إنا ما أختلفنا كابرت، وإن قلت: إن الكتاب والسنة يرفعان عنا الاختلاف، أبطلت، لأنهما يحتملان وجوه، ولكن لي عليه مثل ذلك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام سله تجده ملياً .

فقال الشامي لهشام: من أنظر للخلق ربهم أم أنفسهم ؟

فقال: بل ربهم أنظر لهم .

فقال الشامي: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم، ويرفع اختلافهم، ويبين لهم حقَّهم من باطلهم ؟

فقال هشام: نعم .

فقال الشامي: من هو ؟

قال هشام: اما في ابتداء الشريعة فرسول الله ﷺ وأمَّا بعد النبي فعترته .

فقال الشامي: من هو عترة النبي القائم مقامه في حجته ؟

فقال هشام: في وقتنا هذا أم قبله ؟

قال الشامي: بل في وقتنا هذا .

قال هشام: هذا الجالس يعني أبا عبد الله عليه السلام الذي تشد إليه الرحال ويخبرنا بأخبارالسماء وما ورثه عن جده.

قال الشامي: وكيف لي بعلم ذلك ؟

فقال هشام: سله عما بدا لك.

قال الشامي: قطعت عذري، فعلي السؤال .

فقال أبو عبد الله عليه السلام أنا أكفيك المسألة يا شامي: أُخبرك عن مسيرك وسفرك، خرجت يوم كذا، وكان طريقك كذا، ومررت على كذا، ومر بك كذا، فأقبل الشامي كلما وصف له شيئاً من أمره يقول: (صدقت والله).

فقال الشامي: أسلمت لله الساعة.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: بل آمنت بالله الساعة، إنّ الإسلام قبل الإيمان وعليه يتوارثون، ويتناكحون، والإيمان عليه يثابون.

قال: صدقت فأنا الساعة أشهد أن لا اله الا الله وأن محمَّداً رسول الله وأنك وصي الأنبياء.

الشيخ: ما هذه القصة الغريبة يا سعيد. حقاً إنها مناظرة ممتعة ولكن أريد أن اسألك وأنا اليوم لست عند الإمام الصادق عن الدليل على كون أهل البيت هم الحجة من الله على خلقه وان الله نصبهم مرجعاً عند الاختلاف فهم بمثابة العقل الذي ترجع إليه الحواس في تحديد الصحيح من الخطأ. فهل يوجد عندك

دليل يثبت ذلك؟ لأنّ مجرد قصة بهذا الشكل لا يكفي، أليس كذلك يا سعيد لا سيما ونحن نتبع المنهج العلمي في البحث عن الحقيقة؟

سعيد: لم تتعد الصواب يا شيخ وأنا سوف أُقدِّم لك الدليل على الرغم من أن ما قدمناه سابقاً كاف لما أردت، فقد برهنا من خلال العقل والنقل بأنَّ أهل البيت هم الأئمة حقاً وان من لم يستضئ بنورهم فسوف يعيش في أحلك الظلمات ويسير على غير هدى الله ورسوله .

الشيخ: تفضل يا سعيد وأعلم بأني أريد تعزيز الأدلة لا أنّي لم أركن إلى ما قدمته مسبقاً، فإنّ فيه الكفاية ولله الحمد. ولكن أقول كما قال إبراهيم الخليل حينما سأل الله ان يريه كيف يحيي الموتى: ﴿قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَ لَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

سعيد: حسناً يا شيخ لقد حدد لنا النبي ﷺ المرجع الذي ينبغي لكل مسلم الرجوع إليه والتمسك به والا فسوف يعيش في ضلال مبين وهو القرآن والعترة معاً لا القرآن وحده عاصم من الضلال ولا العترة وحدها وانما جميعاً متحدين وهما بهذه المعية موجودان إلى يوم القيامة لا يخلو زمان منهما. وأنا أريد أن أسوق لك الحديث بطرقه المختلفة ومناسباته المتعددة وصيغه كلها ثم أذكر لك المصادر التي روته من طرقكم أنتم أهل السنة والجماعة.

الشيخ: أي حديث تقصد يا سعيد؟!

سعيد: أقصد حديث الثقلين الذي سوف أتكلّم عن دلالته. فقد ورد عن رسول الله ﷺ في مناسبات عديدة وإليك الأحاديث كما هي موجودة عندكم:

١. ما روي عن جابر بن عبد الله: «قال: رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة، وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول: يا أيها الناس، إني

تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي».

٢. ما روي عن زيد بن أرقم وأبي سعيد قالا: «قال رسول الله ﷺ: إني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض. فانظروا كيف تخلّفوني فيهما».

٣. ما روي عن زيد بن أرقم قال: «نزل رسول الله ﷺ بين مكّة والمدينة عند شجرات خمس دوحات عظام، فكنس الناس ما تحت الشجرات، ثم راح رسول الله ﷺ عشية فصلى، ثم قام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ، فقال ما شاء الله أن يقول، ثم قال: أيها الناس، إني تارك فيكم أمرين لن تضلوا ان اتبعتموهما، وهما كتاب الله وأهل بيتي عترتي».

٤. ما روي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنّه قال: «إني أُوشك أن أُدعى فأجيب وإني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله عزوجل وعترتي. كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض. فانظروني بمَ تخلفوني فيهما».

٥. ما روي عن زيد بن ثابت قال: «قال رسول الله ﷺ: إني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض، أو ما بين السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

٦. ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: «قال رسول الله ﷺ: إنّي تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي، الثقلين أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي. ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

هذا ما يخص ألفاظ وألسن الحديث ومواطنه ومناسباته، وأما سند الحديث فهو متواتر قطعي وإليك قائمة بأسماء بعض المصادر التي روته وذكرته:

١. فضائل الصحابة، للإمام أحمد بن حنبل ص ١٥ .

٢. مسند أحمد، للإمام أحمد بن حنبل ج ٣، ص ١٤، ١٧، ٢٦، ٥٩، ج ٥ ص ١٨٢ .

٣. سنن الترمذي ج ٥، ص ٣٢٨، ٣٢٩ .

٤. مجمع الزوائد، للهيثمي: ج ٩ ص: ١٦٣، ١٦٥، ج ١٠ ص: ٣٦٣ .

٥. تحفة الأحوذي، المباركفوري: ج ١٠ ص: ١٩٦ .

٦. مسند أبن الجعد، لعلي بن الجعد بن عبيد ص ٣٩٧ .

٧. منتخب مسند عبد بن حميد، ص: ١٠٨ .

٨. ما روي في الحوض والكوثر، لأبن مخلَّد القرطبي، ص: ٨٨ .

٩. كتاب السنة، لعمرو بن عاصم، ص: ٣٣٧، ٦٢٩، ٦٣٠ .

١٠. السنن الكبرى، للنسائي، ج ٥، ص: ٤٥، ١٣٠ .

١١. خصائص أمير المؤمنين، للنسائي، ص: ٩٣.

١٢. مسند أبي يعلي، أبو يعلي الموصلي، ج ٢، ص: ٢٩٧، ٣٠٣، ٣٧٦ .

١٣. المعجم الصغير، للطبراني، ج ١، ص: ١٣١ .

١٤. المعجم الأوسط، للطبراني، ج ٣، ص: ٣٧٤، ج ٤، ص: ٣٣، ج ٥، ص: ٨٩ .

١٥. المعجم الكبير، للطبراني، ج ٣، ص: ٦٥ ـ ٦٧، ج ٥ ص: ١٥٤ ـ ١٧٠.

١٦. جزء بقي بن مخلد، ابن بشكوال، ص ١٣٧ .

١٧. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج ٩ ص: ١٣٣ .

١٨. نظم درر السمطين، الزرندي الحنفي، ص: ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

١٩. الجامع الصغير، للسيوطي، ج ١ ص: ٤٠٢ .

٢٠. العهود المحمدية، الشعراني ص: ٦٣٥ .

٢١. كنز العمال، المتقي الهندي ج١، ص: ١٧٢ ـ ١٨٩، ج ٥ ص: ٢٩٠، ج ١٣ ص: ١٠٤، ج ١٤ ص ٤٣٥ .

٢٢. نور العين في مشهد الحسين، أبو إسحاق الإسفرايني ص: ٣٥ .

٢٣. شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني ج ٢ ص: ٤٢ .

٢٤. تفسير ابن كثير ج ٤ ص: ١٢٣ .

٢٥. الدر المنثور، جلال الدين السيوطي ج٢ ص: ٦٠، ج ٦ ص: ٧ .

٢٦. تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص: ١١٢، ٢١٢ .

٢٧. البداية والنهاية لابن كثير ج ٥ ص ٢٢٨، ج ٧ ص: ٣٨٦ .

هذه هي مصادر الحديث الذي ذكرته لك ومن هنا تعلم بأنَّ هذا الحديث من ناحية السند متواتر وهو حجة في العقيدة لاشكَّ فيها. ولكن يبقى البحث في دلالة الحديث على ما ندعيه وهنا أريد منك يا شيخ أن تتأمل جيداً فيما أقول وتجرّد نفسك عن الموروث الثقافي وتتبع المنهج العلمي والموضوعية الكاملة من أجل أن نحاول الاستفادة من هذا الحديث القطعي الصدور بشكل يكون لنا هدى من الضلال ونوراً من العمى .

الشيخ: على بركة الله يا سعيد .

سعيد: في البداية لابد ان نسأل عن العترة الذين جعلهم هذا الحديث عدل القرآن الكريم وأمرنا بالتمسك بهما؟ وفي معرض الجواب نجد أنَّ آية التطهير تبيِّن لنا أنَّ العترة هم نفس أُولئك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. ونحن بينّا فيما سبق أنَّ الآية قد نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فالعترة هم هؤلاء والذين جاءوا من بعدهم من أئمة أهل اليت نعرف ذلك من النصوص الكثيرة التي اكدت عليهم وسمَّتهم بأسمائهم. فهذا الحديث يعطينا عدة دلالات لابد من الوقوف عليها والارتشاف من معانيها ودلالتها، وهي كما يلي:

١. العصمة المطلقة للعترة الطاهرة.

٢. وجوب الرجوع للعترة الطاهرة في كل شيء بمعنى الإمامة السياسية والإلهية .

٣. بقاء العترة ما بقي القرآن وعدم أنقطاعها في أي زمن .

٤. المقام العلمي لأهل البيت عليهم السلام .

الشيخ: فلنبدأ بأول الأُمور أعني العصمة المطلقة للعترة الطاهرة كيف نستدل من خلال حديث الثقلين على ذلك ؟

سعيد: نعم يا شيخ أنا أُجيبك بما يلي: إنّنا نعلم ولا نشكّ بأن القرآن الكريم معصوم من الخطأ والاشتباه والسهو والنسيان، فهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو حق لا ريب فيه، مصون من أيّ خلل.

هذا ما يخص القرآن وهو موضع اتفاق لا يشك فيه أحد. وحينما نأتي إلى الحديث الشريف نجده يصف طبيعة العلاقة بين القرآن الكريم بالأوصاف التي

ذكرناها وبين العترة الطاهرة بقوله: «وإنهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض». ومن هنا نريد ان نتساءل: لو فرضنا بأنَّ العترة يمكن ان تخطىء أو تشتبه أو تنسى أو ما شابه ذلك فهذا سوف يؤدي إلى اْفتراق العترة عن القرآن ؛ لأنَّ عدم الافتراق الذي ذكره الحديث مطلق غير مخصص بشيءٍ معين، ولذا لابد أن لا يتخلف شيء هو ثابت للقرآن عن العترة. ومن هنا نفهم أنَّ هذا الحديث يدلنا على العصمة المطلقة أي قبل التكليف وبعده في العمد والسهو من الكبائر والصغائر .

الشيخ: إذا كان ما تفضلتم به كافياً لأثبات عصمة العترة الطاهرة في حال البلوغ، فكيف لكم اثبات ذلك في وقت الصغر أي قبل البلوغ .

سعيد: في البداية أنا لا أعرف لماذا هناك خوف وتعجب من ثبوت العصمة أو الإمامة والحكم لأحد إلّا أن يبلغ أو أن يصبح رجلاً كاملاً، ألسنا نقرأ القرآن ونجد فيه آيات عديدة تؤكِّد خلاف ذلك.

الشيخ: أيُّ آيات يا سعيد ؟

سعيد: كقوله تعالى في شأن نبي الله يحيى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِياً﴾ [مريم: ١٢]. وأنت ترى بأنَّ هذا الصبي قد أعطاه الله الكتاب، يعني جعله رسولاً لله فضلاً عن كونه نبياً وأعطاه الحكم أي الإمامة الإلهية، فنرى أنّ يحيى عليه السلام قد اجتمعت فيه المناصب الالهية الثلاثة النبوة والرسالة والإمامة وهو لا زال صبياً في حين ان هذه الوظائف والمناصب تلازم العصمة كما هو واضح لانّه من غير الممكن ان يكون الشخص نبياً مرسلاً وإماماً هادياً الّا ان يكون معصوماً.

وكذلك نقرأ في كتاب الله قوله في شأن عيسى ﷺ حينما جاءت به مريم تحمله بعد المعجزة الإلهية بولادته واستنكر قومها عليها ذلك واتهموها بشرفها، نراها أشارت إليه ان أسألوه فقالوا كما يحكي القرآن: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِياً * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا * وَ جَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَوةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياً * وَ بَراً بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِياً﴾ [مريم: ٢٩ ـ ٣٢]. فان عيسى يخبرهم بانّه قد اتاه الله الكتاب وجعله نبياً وأمره بتكاليف الصلاة والزكاة والبر بالوالدة في حين ان عيسى كان عمره حينذاك ثلاثة أيّام. ومن هنا نعلم أنَّ قياسنا في عدم تكليف الإنسان الّا بعد بلوغه أو عدم إناطة وظيفة له خاص بالوضع السائد للبشر لا لكل البشر ؛ لأن الله عزوجل يسدد بعض البشر لأجل مهمات إلهية أوكلها إليهم يسددهم بروح القدس ويعتني بهم من أول حياتهم إلى آخرها. وحينذاك لا يفرق بين أول حياتهم وآخرها لأنَّهم معصومون ومكلَّفون على طول خط حياتهم الكريمة.

اضف إلى ذلك أنّ حديث الثقلين يقول «عترتي» وهذا اللَّفظ صادق عليهم سواء أكانوا صغاراً أم كباراً. بل إن إشكالكم هو كيف تصدق العصمة قبل التكليف في حين اتضح ممّا بيناه ان الأئمة مكلفون من أول يوم ولادتهم لا انهم كسائر الناس وبالتالي لا يبقى أي مجال ومعنى للاستغراب حينئذ.

الشيخ: طيب يا سعيد هذا أصبح واضحاً وكلامكم متين جداً، والآن في ودي ان تنتقل إلى الدلالة الثانية أعني وجوب الرجوع إلى العترة في كلِّ شيء، وكيف أنّها تعني الإمامة السياسية والإلهية .

سعيد: وهذا أمر آخر نستفيده أيضاً من هذا الحديث الشريف؛ لأن النبي ﷺ قد أمرنا بوجوب التمسك بالقرآن وبالعترة والرجوع إليهم في كل أمورنا فكما أن القرآن حاكم علينا ومرجع فينا كما هو واضح فكذلك العترة والّا فما معنى التمسّك بهما معاً.

الشيخ: ولماذا لا نفسر الحديث بمعنى محبة أهل البيت والعترة ووجوب احترامهم وتبجيلهم لا المعنى الذي ذكرتموه من الإمامة الالهية والحكومة السياسية.

سعيد: إذا تأملنا في كل المتون التي ذكرت الحديث وقرأنا كل تلك الصيغ فسوف يرتفع عنا هذا التوهم ونطمئن إلى أنّ المقصود هو الأمر بطاعتهم والأخذ عنهم واتباعهم. وذلك لما يلي:

١. ان الأمر بطاعتهم والأخذ عنهم هو المناسب للقرائن والألفاظ التي احيط بها الحديث الشريف، فالنبي مثلاً ذكر هذا الحديث في آخر حياته الشريفة وتوقعه الالتحاق بالرفيق الأَعلى في وقت سريع. وهنا نكتة مهمة لابدَّ من الالتفات لها وهي انّه لا مناسبة بين رحيله ﷺ والأمر بحب أهل البيت واحترامهم لوضوح أن حبّهم واحترامهم واجب في جميع الأوقات، فلا معنى لذلك أصلاً وإنَّما الصحيح هو أنَّ هذا الحديث بهذا الوقت الحرج يريد التأكيد على أنَّ رحيله ﷺ ـ وهو المرجع لأمته في أمور دينهم وادارة شؤون حياتهم السياسية والادارية ـ سوف يحدث فراغاً كبيراً من هذه الجهة، ومن هنا كان من المناسب جداً ان ينبه الناس إلى المرجع الذي لابد ان يكون بعده في تلك المهمة اعني المرجعية الدينية والسياسية. ومن هنا نجد أنّ لفظ «إنِّي تارك فيكم خليفتين» كما في الحديث الذي رواه زيد بن ثابت ظاهر في إرادة ما

يخلفه ويقوم مقامه ويؤدي وظيفته، ويجب اتباعه وطاعته كما كان ذلك لرسول الله من غير اختلاف.

٢. لو سألناك يا شيخ بسيوني: هل إنَّ الحديث عندما أمرنا بالتمسك بالقرآن يريد منا أن نحترم القرآن ونعظمه؟ أم أراد منا أن نتبعه في أوامره ونواهيه وأخلاقه وتعاليمه ؟

الشيخ: بالطبع أراد منا العمل على ضوء مقرراته وأوامره لا مجرد الاحترام والتكريم .

سعيد: أحسنت هو كذلك فلو لاحظنا أنَّ الحديث يجعل العترة قرينة القرآن وفي معيته فسوف نجد أيضاً ان المراد بالحديث هو اتباع العترة والأخذ عنهم لا مجرد احترامهم.

٣. لقد بيَّن الحديث أنّ التمسُّك بالكتاب والعترة يجعل الإنسان معصوماً من الضلال. فالحديث لم يقل بأنّ التمسك بالقرآن وحده عاصم من الضلالة، بل نص على أنّ التمسُّك بهما «الكتاب والعترة» عاصم من الضلالة.

ومن هنا نعلم بأنّنا لو فسرنا وجوب التمسُّك بالعترة بمعنى الحُبِّ والتعظيم لم يكن هناك ترابط بين العصمة من الضلالة وبين هذا الحبّ؛ لأن الحب لا يعصم من الضلال وانما الذي يعصم منه هو الاتباع والسير على منهجه وعدم الخروج عنه. نعم هذا الاتباع والسير على المنهج يلازم الحب والتعظيم والتقديس والا لما كان هناك معنى للاتباع حينئذ.

الشيخ: احسنتم يا اخي سعيد وكيف تستفيد من هذا الحديث ان العترة الطاهرة باقية ما بقي القرآن الكريم .

سعيد: هذه الدلالة واضحة بعد الذي قدمناه لا سيما إذا نظرنا إلى نص

الحديث الذي يقول «لن يفترقا» ولن في اللّغة تفيد التأبيد فمعنى ذلك ان عدم افتراقهما غير خاص بفترة زمنية معينة وانما ما بقي القرآن فهم باقون. وهناك قرينة أخرى وهي قوله ﷺ «حتى يردا عليّ الحوض» حيث جعل هذا التلازم وعدم الافتراق ممتداً في كلِّ الحياة الدنيا ويستمر أيضاً إلى حد يوم القيامة وهو اليوم الذي يرد القرآن والعترة على النبي ﷺ .

القرآن الكريم هو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كما قال عزوجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وهو موجود في كلِّ عصر وزمان. ومقتضى كون العترة عدل الكتاب هو حدوث الافتراق إذا لم تكن العترة موجودة في زمن من الأزمان وهذا خلاف نص الحديث.

وهناك مشكلة أخرى سوف تواجهنا على فرض وقوع الافتراق وهي لزوم انتفاء العصمة عن النبي ﷺ نفسه .

الشيخ: لم افهم كيف يكون ذلك؟

سعيد: بل كيف لا يكون ذلك؟ لأن النبي ﷺ قد أخبر في هذا الحديث عن عدم الافتراق، فاذا فرضنا ان الافتراق قد حصل فمعنى ذلك ان كلام النبي ﷺ غير مطابق للواقع. ونتيجة ذلك سوف نقع أمام محذورين لا ثالث لهما، الأول: أن يكون النبي ـ ﷺ كاذباً ـ والعياذ بالله من هذا الادعاء . والثاني: ان يكون ﷺ ـ معاذ الله ـ مشتبهاً. ومن الواضح أنّ كلا الاحتمالين غير ممكن على مقام الرسالة المعصومة التي اخبر عنها سبحانه بقوله: ﴿وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣ـ٤] .

الشيخ: أتذكر كلمة قرأتها لابن حجر العسقلاني في الصواعق المحرقة

على ما أتذكر في ص ١٤٩ حيث يقول: وفي أحاديث الحث على التمسك بأهل البيت اشارة إلى عدم انقطاع متأهل منهم للتمسك إلى يوم القيامة.

سعيد: اذن يا شيخ، ما دام القرآن موجوداً إلى قيام الساعة فكذلك العترة موجودة إلى قيام الساعة، وبذلك لا يمكن أن يخلو زمان من أئمة أهل البيت. وهذا ما تؤمن به الشيعة الإثني عشرية كما تدل على ذلك الوفرة من نصوصها، ومن ذلك ما عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «و الله ما ترك الله أرضاً منذ قبض آدم عليه السلام بغير إمام حجة لله على عبادة» وقول الإمام الصادق عليه السلام: «ما زالت الأرض الا ولله فيها حجة، يعرف الحلال والحرام ويدعو الناس إلى سبيل الله» وكذلك قوله عليه السلام: «لو لم يبق في الأرض إلا اثنان لكان أحدهما الحجة» [انظر أصول الكافي ج ١ ص ١٧٨ ـ ١٧٩].

الشيخ: ومن الإمام في زماننا يا سعيد ؟

سعيد: هو الإمام الحجة بن الحسن العسكري إمام الزمان والمهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف وجعلنا من جملة أتباعه وأنصاره .

الشيخ: لا أريد البحث الآن حول الإمام المهدي عليه السلام لأنّي أريد أن يكون البحث عنه مستقلاً.

سعيد: هذا هو الافضل بلا شك.

الشيخ: ما بقي الا أن تبينوا لنا كيفية الاستفادة من حديث الثقلين لمعرفة المقام العلمي لأهل البيت والعترة الطاهرة؟

سعيد: نعم يا شيخ، فإن من الثابت أن القرآنَ يضم بين دفتيه كل ما يحتاج إليه الإنسان بشأن هدايته إلى قيام الساعة. كما يقول عزوجل: ﴿وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. وقوله سبحانه: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي

﴿الْكِتَابِ مِنْ شَيءٍ﴾ [الانعام: ٣٨].

وغيرها من الآيات الدالة على أنَّ الكتاب الكريم فيه تبيان لكل شيء ولا يعدوه شيء، ثم نربط هذا بقوله تعالى: ﴿هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] حيث ان القرآن الكريم ـ الحامل لهذا النعت المادح لنفسه يكون معه من يضمن وصوله إلى الناس خاصة وأنّه مقتصر على الذين أُوتوا العلم الذين أحاطوا به إحاطة علمية تامّة.

فقد جعل الله لهذا القرآن عدلاً مطلعاً على أسراره وهؤلاء موجودون ما وجد القرآن، وذلك لانّه لو كان تبياناً ولا يوجد من يوصل التبيان لما كان هناك فائدة من هذا الوصف، واللّطيف أنّه لم يدع أحد من المسلمين علم ما في القرآن إلّا اهل البيت عليهم السلام.

وإذا رجعنا إلى الحديث الشريف وقارناه بما ذكرنا فسوف نجد ان الأمر في غاية الوضوح من خلال التأمل في مفاد «لن يفترقا» الذي يجعلنا ندرك أنّ القرآن الكريم الذي فيه تبيان كل شيء، والذي تتوازى معه العترة ولا تفترق عنه، يلزم منه كون العترة الطاهرة أيضاً فيها تبيان لكل شيء بمعنى انهم يعلمون كل ما في القرآن الكريم ولا يعزب عن علمهم به شيء. ومن هنا نجد أنّ تطابقاً بين هذه النتيجة التي توصلنا إليها وبين قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَ أُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].

حيث يذكر لنا القرآن الكريم بأنَّ هناك فئة خاصة هم وحدهم القادرون من بين كل الناس على الوصول إلى أعماق وأسرار القرآن الكريم ،ولا يمكن ان

تكون تلك الفئة الخاصة غير العترة الطاهرة وأهل البيت الذين هم عدل القرآن ولا يفترقون عنه، لاسيما بملاحظة قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨ ـ ٧٩]. فمعنى قوله ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ أي اللوح المحفوظ الذي أثبت الله تعالى فيه القرآن. والمكنون أي المصون الذي لا سبيل للوصول إليه لكل أحد إلّا المطهرون من الذنوب والجهل وما شاكل ذلك .

وحينئذ نقول: لا شبهة في ظهور الآيات في أن المطهرين من عباد الله هم الذين يمسون القرآن الكريم الذي في الكتاب المكنون والمحفوظ من التغيير وتصرف الأذهان بالورود عليه والصدور منه، وليس هذا المس إلّا نيل الفهم والعلم، ومن المعلوم أيضاً ان الكتاب المكنون هذا هو أم الكتاب المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩] وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِي حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤] وهؤلاء قوم نزلت الطهارة في قلوبهم وليس ينزلها إلّا الله سبحانه ؛ فانه تعالى لم يذكرها إلّا كذلك منسوبة إلى نفسه. ولا يوجد من المسلمين من تكون صفته هكذا بمعنى العصمة والطهارة من الله إلّا أهل البيت كما أسلفنا في قوله عزوجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الاحزاب: ٣٣].

وبهذا يتبين أنَّ ربط الحديث الشريف مع آيات القرآن الكريم يوصلنا إلى نتيجة مذهلة وهي أن أهل البيت والعترة الطاهرة هم أعلم الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مطلقاً، وهم الذين لابد من الرجوع إليهم في كل مسائلنا الدينية والدنيوية. وهذا ما تشير إليه احدى الصيغ في حديث الثقلين وكذلك قول

النبي ﷺ: «إني وأهل بيتي مطهرون فلا تسبقوهم فتضلّوا، ولا تتخلّفوا عنهم فتزلّوا، ولا تخالفوهم فتجهلوا، ولاتعلّموهم فإنهم أعلم منكم، هم أعلم الناس كباراً، وأحلم الناس صغاراً، فاتبعوا الحق وأهله حيث كان» [البحار: ج ٢٣ ص ١٣٠].

الشيخ: إن لك يا سعيد بياناً ساحراً ودليلاً ساطعاً وفكراً ثاقباً وأُسلوباً مقنعاً وحجة دامغة لله درّك وعلى الله أجرك، وإنّي لمؤمن بما ذكرت وقابل بما تفضلت فحديث الثقلين هو أساس الأسس المهمة التي ينبغي التأكيد عليها لمعرفة الحقيقة والانصياع لها ؛ لانّه ليس بيننا وبين أحد قرابة وإنّما غرضنا الأساس هو مرضاة الله والسير على المنهج الذي اختاره لنا، وهذا لعمري هدف جليل وسبيل ليس عنه محيص ولكن بالله عليك يا سعيد أخبرني لماذا نرى النبي ﷺ لم تكن له تأكيدات أكثر في هذا الشأن؟ ولماذا لم يوص صريحاً لعلي قُبيل وفاته؟ ألا ترى أنّه ﷺ لو كان قد فعل ذلك لكان أهدى للامة من الضلال وهو بذلك يقطع كل محاولات الالتفاف على الوصي الحقيقي ؟

سعيد: ومن قال لك بأنّ الرسول الأعظم والنبي الأكرم لم يفعل ذلك؟ وما حديث الغدير الذي سلف وحديث الثقلين، إلّا دليل على أنّه ﷺ لم يفتأ يصدع بالأمر ويوصي ويؤكد على الإمام أمير المؤمنين وأهل بيته قاطبة، ولكن المصيبة هي وجود جماعة قد بيّتت مؤامرة وقد أعدت لها العدة وأحكمت الخطة، ولذلك نرى النبي ﷺ في آخر لحظاته أراد أن يكتب لهذه الأمة كتاباً لن تضل بعده، إلّا أنّ المطامع الدنيوية هي التي حالت بينه وبين ما يريد .

الشيخ: وكيف ذاك يا سعيد؟ إن كلامك لغريب وخطير وأرجو أن توضح لي المقصود بالتفصيل .

رزية يوم الخميس:

سعيد: نعم يا شيخ فقد روى البخاري في كتاب العلم ج ١ رقم الحديث (١١١) عن أبن عباس قال: لما اشتد بالنبي ﷺ وجعه قال: إئتوني بدواةٍ أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده، قال عمر: ان النبي ﷺ غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا، فاختلفوا وكثر اللَّغط. قال ﷺ: قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع، فخرج ابن عباس يقول: إنّ الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين كتابه. وأنظر كذلك البخاري كتاب المغازي رقم الحديث (٤٠٧٩) وكتاب الاعتصام رقم الحديث (٦٨١٨) ومسند بني هاشم للإمام احمد بن حنبل رقم الحديث (٢٨٣٥). فسترى عمر قد حال بين رسول الله وبين كتابة هذا الكتاب ؛ لأنه كان يعلم علم اليقين ما سوف يكتب فيه ، وأنظر إلى ما رواه مسلم في صحيحه رقم الحديث (٣٠٩١) عن ابن عباس بأسانيد مختلفة قال: لما احتضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب فقال البني ﷺ: هلمّ أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده. فقال عمر: إن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا فمنهم من يقول قرّبوا يكتب لكم رسول الله ﷺ كتاباً لن تضلوا بعده. ومنهم من يقول ما قال عمر. فلما أكثروا اللّغط والاختلاف عند رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: قوموا. قال عبيد الله فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين ان يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم .

الشيخ: حسبنا الله ونعم الوكيل لماذا فعل الخليفة عمر ذلك؟

سعيد: السبب واضح جداً يا عزيزي لمن راجع التاريخ بدقة ودرسه دراسة

موضوعية، بل أكثر من ذلك ان الذي قاله عمر اكبر ممّا نقلته اليك سابقاً الا ان القوم حاولوا نقل العبارة التي قالها عمر بالمعنى لا بالنص.

الشيخ: وما قاله بالنص يا سعيد ؟

سعيد: هذا ما يخبرنا به البخاري الذي يروي في حديث عن سعيد بن جبيرعن ابن عباس انه قال: يوم الخميس وما يوم الخميس. ثم بكى حتى خضب دمعه الحصباء. فقال: اشتد برسول الله ﷺ وجعه يوم الخميس فقال ائتوني بكتاب اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً. فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع. فقالوا هجر رسول الله ﷺ. قال: دعوني فالذي أنا فيه خير ممّا تدعوني إليه... انظر البخاري حديث رقم (٢٨٢٥). وانت ترى يا شيخ ان هذا التصرف من عمر وجماعته مخالف للقرآن الذي يقول عن النبي ﷺ ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَ مَا غَوَى * وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٢ ـ ٥].

وانت إذا تأملت في قوله ﷺ: إئتوني اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده، وقوله في حديث الثقلين: اني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، تعلم بأنَّ المرمى في الحديثين واحد، وانه ﷺ أراد في مرضه ان يكتب لهم تفصيل ما أوجبه عليهم في حديث الثقلين.

الشيخ: ولكن لماذا نرى أنَّ النبي ﷺ غيّر رأيه وأمرهم بالخروج عنه؟ ولماذا لم يصر على كتابة ذلك الكتاب والأمر إليه لا إليهم؟!

سعيد: إنما عدل عن ذلك، لأن كلمتهم تلك التي فاجأوه بها اضطرته إلى العدول، إذ لم يبق معها أثر لكتابة الكتاب سوى الفتنة والاختلاف من بعده في انه هل هجر فيما كتبه ـ والعياذ بالله ـ أولم يهجر، كما اختلفوا في ذلك وأكثروا

اللغو واللغط نصب عينيه، فلم يتسن له يومئذ أكثر من قوله لهم: قوموا. ولو أصر فكتب الكتاب للجُّوا في قولهم: «هجر»، ولأوغل اشياعهم في اثبات هجره ـ والعياذ بالله ـ فسطروا به أساطيرهم، وملأوا طواميرهم رداً على ذلك الكتاب وعلى من يحتج به، لهذا اقتضت حكمته البالغة ﷺ عن ذلك الكتاب صفحاً لئلا يفتح هؤلاء المعارضون وأولياؤهم باباً إلى الطعن في النبوة ـ نعوذ بالله ـ وقد رأى ﷺ ان علياً وأولياءهُ خاضعون لمضمون ذلك الكتاب، سواء عليهم أكتب أم لم يكتب، وغيرهم لا يعمل به ولا يعتبره لو كتب، فالحكمة ـ والحال هذه ـ توجب تركه إذ لا اثر له بعد تلك المعارضة سوى الفتنة كما لا يخفى .

الشيخ: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والله أنها لطامة كبرى، كيف أن عمر بن الخطاب وجماعته حالوا بين رسول الله وبين ان يكتب وصيته وكيف انهم يرمونه بالهجر وعدم الصواب في ما يريد أليس هذا تعد على شخصية الرسول الأكرم ﷺ وانتهاكاً لحرمته وقداسته. والله ان قلبي يتمزق ألماً وأنا أسمع هذه الأحاديث وأطّلع على هذه الحقائق .

جريمة منع تدوين وتداول حديث رسول الله ﷺ:

سعيد: وما خفي أعظم يا شيخ؛ ولو كان هناك متسعٌ من الوقت لحدثتك بأشياء كثيرة مبثوثة في كتب التاريخ والحديث، وقد صرح بها العلماء الكبار من أهل السنة والجماعة ولكن وللأسف الشديد طمست الحقيقة وعميت على الناس وساد المنطق التبريري لكل ما جرى بعد النبي ﷺ، وحتي يزيد بن معاوية الذي لا تخفى على أيّ أحد جرائمه وفسقه وفجوره وظلمه وتجبُّره، ويكفيه انه قتل سيد شباب أهل الجنة وريحانة رسول الله الحسين بن علي عليه السلام

وسبى عياله ذرية الرسول من كربلاء إلى الشام، وجد من يبرر جريمته البشعة ويعتبره قد اجتهد فاخطأ في اجتهاده، بل حوّلوا الحسين عليه السلام إلى مجرم خارجي خرج على إمام زمانه يزيد. فهل تريد بعد كلّ هـذا الزيـف والتـبرير ان تـظهر الحقيقة لعوام الناس بل لعلمائهم غير المهتمين بسبر أغوار التاريخ والنظر في المجهر للحقائق الدينية كتاباً وسنة، وهذا عمر بن الخطاب وابو بكر بـن أبـي قحافة قد عملوا المستحيل لصرف أنظار الأُمة عن أهل البيت عليهم السلام من خـلال منع تداول حديث رسـول الله بـين النـاس وإحـراق كـل الأحـاديث المكـتوبة عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

الشيخ: هل لك شواهد من التاريخ لكلامك هذا يا سعيد ؟

سعيد: بلا شك يا أخي العزيز فهذا ابن جرير الطبري يروي أن الخليفة عمر بن الخطاب كانا كلما أرسل حاكماً أو والياً إلى قطر أو بلد، يوصيه في جمله ما يوصيه: «جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد وأنا شريككم» .

وكان عمر قد شيع قرظة بن كعب الانصاري ومن معه إلى «صرار» على ثلاثة اميال من المدينة واظهر لهم ان مشايعته لهم انما كانت لأجل الوصـية بهذا الأمر، وقال لهم ذلك القول .

قال قرظة بن كعب الأنصاري: أردنا الكوفة فشـيَّعنا عـمر إلى «صـرار» فتوضأ فغسل مرتين وقال: «تدرون لم شيعتكم؟ فقلنا: نـعم، نـحن أصـحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جردوا القرآن، وأقلّوا الرواية عن رسول الله، وأمضوا وأنا شريكُكُم» طبقات ابن سعد ج ٦ ص ٧ ومستدرك الحاكم ج ١ ص ١٠٢ انظر تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٧٣. وقد حفظ التاريخ ان الخليفة قال لأبي

ذر، وعبد الله بن مسعود، وأبي الدرداء: «ما هـذا الحـديث الذي تـفشون عـن محمد» انظر : تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٧٣ .

وذكر الخطيب البغدادي في «تقييد العلم» ص ٥٢ عن القاسم بن محمد: ان عمر بن الخطاب بلغه أن في أيدي الناس كتباً فاستنكرها وكـرهها وقـال: «ايها الناس انه قد بلغني انه قد ظهرت في أَيديكم كتب فأحبُّها إلى الله، أعدلها وأقومها، فلا يبقين أحد عنده كتاب إلّا أتاني به فأرى فيه رأيي. قال: فظنوا انه يريد ينظر فيها ويقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف فأتوه بكتبهم فأحرقها بالنار، ثم قال: أمنية كأمنية أهل الكتاب».

الشيخ: ولكن هناك أحاديث عديدة عن رسول الله تؤكد بـانّه ﷺ هـو الذي منع كتابة الحديث. فمثلاً روى مسلم في صحيحة وأحمد في مسنده ان رسول الله ﷺ قال: «لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه» [سنن الدارمي ج ١ ص ١١٩، مسند أحمد ج ٣ ص ١٢]. وفي رواية: «انهم استأذنوا النبي ﷺ ان يكتبوا عـنه فـلم يـؤذنهم» [سـنن الدرامـي ج ١ ص ١١٩]. إلى غـير ذلك مـن الأحاديث.

سعيد: أولاً على فرض صحة هذه الأحاديث فإنما توجه المنع عن كتابة الحديث لاعن تداوله بين الناس وإلّا فما الفائدة فـي الحـديث إذا لم يـتداول ويعرف بين الناس وكم مرة قام النبي ﷺ خطيباً أو متحدثاً وهو يقول «فليبلّغ الشاهد منكم الغائب». فلماذا منع تداول الحديث الذي هو مصدر التشريع الثاني بعد كتاب الله .

وكذلك فإن هذا الذي نسب إلى رسول الله ﷺ من المـنع عـن كـتابة الحديث يخالف منطق الوحي والحـديث والعـقل، ومـا هـو إلا وليـد الأوهـام

والسياسات التي أخذت تمنع نشر حديث الرسول ﷺ وتدوينه لغايات سياسية لا تخفى على ذي لب.

الشيخ: كيف يا سعيد توجه هذه الأحاديث المانعة عن كتابة الحديث ؟

سعيد: أقول لابد أن نعرض المسألة على العقل، فكيف يسمح العقل والمنطق أن نحكم بصحّة الأحاديث الناهية عن الكتابة، مع ان الرسول ﷺ امر في آخريات حياته ان يحضروا له قلماً ودواة ليكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده أبداً ـ كما ذكرنا ذلك قبل قليل ـ وما كان المكتوب ـ على فرض كتابته ـ الا حديثاً من الأحاديث، افهل يجتمع هذا الأمر مع النهي عن تدوينه ؟

ثم اننا نرى ان الرسول ﷺ قام ببعث كتب إلى الملوك والسادة والامراء وشيوخ القبائل ورؤسائها ناهز عددها ثلاثمائة كتاباً في طريق الدعوة والتبليغ أو حول العهود والمواثيق وقد حفظ التاريخ متن هذه الرسائل .

والتاريخ يصرح بأن الرسول ﷺ كان يملي والكاتب يكتب، فلما زادت الحاجة وكثرت العلاقات الاجتماعية اصبحت الحاجة إلى كتاب يمارسون عملهم، فأدى ذلك إلى كثرة الكتاب فجعل لكل عمل كاتباً ولكل كاتب راتباً معيناً، وقد كان أكثرهم كتابة علي بن أبي طالب عليه السلام فقد كان يكتب الوحي وغيره من العهود والمصالحات.

فهل يجوز ان يكتب الرسول الأكرم ﷺ هذه المكاتبات والعهود والمصالحات إلى بطون القبائل ورؤساء العشائر وهو يعلم بأنهم يحتفظون بها بحجة انها من أوثق الوثائق السياسية والدينية، ثم ينهى عن تسطير كلامه وحديثه؟ فما هذان الا نقيضان لا يجتمعان.

الشيخ: لا يزال السؤال قائماً يا أخ سعيد رغم ان الذي تتفضل به منطقي

بحد ذاته ولكن ماذا تفعل بهذه الأحاديث؟!

سعيد: سوف نعتبرها كاذبة بلا شك لأنّها تخالف العقل والحكمة ولا يمكن ان تصدر عن مقام الرسول الأعظم ﷺ، بل هي تناقض نفسها فكيف نستدل بالحديث على منع الحديث. ومع ذلك كله فالسبب غير هذا كما هو واضح .

الشيخ: ليس بواضح عندي تفضل يا سعيد تحدث فقد أعياني الهم والغم.

سعيد: إن المتأمل جيداً يا أخي العزيز يجد ان السبب وراء منع كتابة الحديث هو الغايات السياسية التي قامت بكل قوة أمام حديث النبي ﷺ ونشره وكتابته. حتى ان الخليفة أبا بكر أحرق في خلافته خمسمائة حديثاً كتبه هو عن رسول الله ﷺ كما يذكر ذلك المتقي الهندي في كنز العمال ج ١٠ ص ٢٣٧، فلماذا كتبوا الحديث بهذا الشكل الكبير إذا كان الرسول فعلاً ينهى عن كتابته؟ وهل من المعقول أن الخليفة أبا بكر يعصي النبي ﷺ في حياته، ويخالف امره ويكتب الحديث ثم بعد وفاته ﷺ يندم ويحرق الحديث من اجل ان يطيعه؟ ان هذه مغالطة مفضوحة جداً. وهكذا عمر بن الخطاب وهل من المعقول أن أكثر الصحابة لا يلتزمون بأوامر الرسول ولا يهتمون بنهيه عن تدوين الحديث؟! ان هذا شيء لا يصدق .

الواقع أن هناك خلف الكواليس أغراضاً سياسية وراء هذه الخطة الخبيثة، اتفق عليها أصحاب مؤامرة السقيفة فنفذّها أبو بكر أيام خلافته ولما قام عمر بعده بالخلافة أدّى نفس الدور على أفضل وجه. وادى ذلك إلى ان العديد من أصحابه تركوا الحديث عن رسول الله ﷺ ولم يكتب الحديث ولم يدون الا في عهد المنصور عام ١٤٣ هـ .

بل قد بلغت بهم الجرأة على ساحة النبي الأقدس ﷺ أن منعوا عبد الله بن عمر من الاهتمام بحديث النبي ﷺ وكتابته قائلين: إنه بشر يغضب .

الشيخ: كيف كان ذلك يا سعيد ؟

سعيد: جاء في مستدرك الحاكم ج ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٤ ما نصه: عن عبد الله بن عمر قال: قالت لي قريش تكتب عن رسول الله؟! وانما هو بشر يغضب كما يغضب البشر!!. فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، ان قريشاً تقول: تكتب عن رسول الله ﷺ وانما هو بشر يغضب كما يغضب البشر، قال: فأومأ إلى شفتيه فقال: والذي نفسي بيده ما يخرج ممّا بينهما إلّا حق فاكتب».

وقال الحاكم مُعلّقاً على الحديث: هذا حديث صحيح الإسناد في نسخ الحديث عن رسول الله ﷺ ولم يخرجاه. إلى ان قال: ولهذا الحديث شاهد قد اتفقنا على اخراجه على سبيل الاختصار عن همام بن منبه عن أبي هريرة انه قال: ليس أحد من أصحاب رسول الله أكثر حديثاً مني إلّا عبد الله بن عمر فإنه كان يكتب وكنت لا أكتب.

وروى الحاكم أيضاً عن عبد الله بن عمر حدّثهم أنه قال: يا رسول الله أكتب ما أسمع منك؟ قال: نعم. قلت: عند الغضب وعند الرضا؟ قال: نعم، انه لا ينبغي لي ان أقول إلّا حقاً. انظر الحاكم النيسابوري في مستدركه ج ١ ص ١٠٦ ـ ١٠٧. وهناك أحاديث كثيرة رواها الحاكم وغيره في تأكيد النبيٍ على تدوين الحديث على العكس تماماً ممّا ذكروه، انظر مكاتيب الرسول ج ١ ص ٣٦٠ وما بعدها.

إن العلة الحقيقية لمنع تدوين الحديث ومنعه هو إخفاء ما قاله الرسول ﷺ في فضائل أهل بيته عليهم السلام وولايتهم ووجوب مودتهم واتباعهم، وان

طاعتهم وحبهم حب الله تعالى، ومخالفتهم وبغضهم مخالفة لله وبغضه، وما قالهﷺ في مثالب أعدائهم. ويتأكد ذلك عند مراجعة العشرات من الأُحاديث التي تؤكد ولاية أمير المؤمنين وأهل بيته الأكرمين، فان نشر هذه الأحاديث وتداولها سوف يضع علامات استفهام وتعجب لا حد لها امام سلطة الخلفاء غير الشرعية ويثير التسؤالات عن مشروعية هذه السلطة، وقد يحدث ما لا تحمد عقباه بالنسبة للخلفاء ويؤدي بالنتيجة إلى فشل خطتهم وضياع جهودهم سدى.

وإلّا فهل من المعقول ان يمنع حديث رسول الله ﷺ من التداول والكتابة ويحل محلّه التحدث عن العهد القديم والجديد وعن الأَحاديث الإسرائيلية والمسيحية والمجوسية فتمتلئ الأذهان والصدور بالقصص الخرافية التي لا تمتُّ إلى الإسلام بصلة ولا يصدقها العقل والمنطق .

وإذا كانت احاديث المنع عن تدوين الحديث صحيحة لكان ينبغي علينا اليوم ان نجمع كل كتب الحديث المتداولة عندنا أمثال البخاري ومسلم والترمذي وغيرها ونحرقها ولا نتداول أي حديث عن رسول الله لأن الرسول قد منع ذلك. ومعناه أيضاً ان أئمة الحديث قد أرتكبوا ذنباً كبيراً بعملهم هذا حيث جمعوا أحاديث رسول الله ودونوها في أسفارهم الحديثة .

الشيخ: وهل من المعقول أن نفعل ذلك؟ وهل يبقى لنا دين أو فقه إذا أحرقنا كل الأحاديث ؛ والفقه والتفسير والأخلاق وغيرها كلها مستندة بدرجة ٩٠ ٪ على الأحاديث .

سعيد: الا يكفي كتاب الله ألم تسمع قول عمر حسبنا كتاب الله .

الشيخ: ان هذا مستحيل مطلقاً فسوف ينهار الدين من الأساس واول

شيء ينهار هو نفس كتاب الله الذي لا يمكن ان نستفيد منه إلّا بالاستناد إلى حديث رسول الله ﷺ .

سعيد: اذن كيف يسوغ لنا ان نصدق خرافة وأُكذوبة أنّ الرسول ﷺ قد منع تدوين حديثه .

الشيخ: بالطبع ليس لهذه الفكرة أيّ واقع.

سعيد: إذا كان الأمر هكذا، فلابد إذن ان نتساءل عن السبب الكامن خلف هذه الخطة الجهنمية للقضاء على الإسلام وطمس الحقائق الإلهية وإضلال الأُمة والتمويه عليها في شرعية الحكم الذي تسلط عليه الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان ومن جاء بعدهم من بني أمية.

الشيخ: إنا لله وإنا إليه راجعون، لا ادري ماذا اقول يا سعيد؟ فأنت تتكلم بالحكمة والبيّنة والدليل. ومن جهة أخرى لااستطيع ان اصدق ان هذه الرموز المقدسة عندنا يمكن أن ترتكب مثل هذه الأخطاء والتصرفات .

سعيد: بل قل الالتواء على الحقائق والمؤامرات واغتصاب الحق من أهله.

الشيخ: على العموم لقد تعبت كثيراً اليوم، وأُحس بأني مرهق جداً وأكاد انفجر من الغيظ والحسرة لما جرى بعد رسول الله ﷺ من نكبات ومصائب لاسيما التي وقعت على أهل بيته وعترته الطاهرة.

سعيد: أَجرك على الله يا شيخ، وسوف أُحدثك غداً وما بعده من الأيّام بالمزيد الذي يدهشك، وسوف ترسو سفينة قلبك وعقلك في آخر المطاف حتماً على ساحل النجاة وبر الأمان، ان شاء الله تعالى .

ثم انشغل الاثنان بالصلاة والدعاء إلى أن افترقا، وكل واحد منهما يحمل في فكره وقلبه الكثير من الآلام والآمال ومحاولة معرفة الحقيقة التي طمستها الايادي الخؤونة المتسلطة من وعّاظ السلاطين .

اللقاء السابع:

نصوص أُخرى على إمامة علي عليه السلام

بات الشيخ بسيوني الليلة البارحة مضطرباً جداً فقد تأرق مضجعه، وعجز فكره، وضاق صدره، لما سمع من سعيد من حقائق ووقائع، ولذا بقى مستيقظاً إلى الفجر يفكر في أمره وهو يعيش الحيرة والصراع الشديد بين الموروث وبين الذي يراه الآن، وبكلمة أُخرى هو صراع بين الصورة الوهمية للدين والتاريخ بعقائده ورجالاته، وبين الصورة الحقيقية التي أخذ يطلع عليها ويقف على مفاصلها، ولذا حاول ان يستجمع تفكيره لعله يجد شيئاً من التبرير يقنع به نفسه أو قل يخدع به نفسه، وظلّ على هذا الحال ليلته كلها وبمجرد حلول الضحى توجه بسرعة إلى إحدى المكتبات الكبيرة وأُخذ يفتش في بطون الكتب ويتأكد من صحة ما ينقله له سعيد ، ولكنّه فوجئ بأن كل الذي سمعه حقاً وواقعاً ممّا زاد في حيرته وإصراره على مواصلة البحث مع هذا الشاب الشيعي العراقي الذي ما رأى مثله قط.

أما سعيد فقد كان هو الآخر منهكاً ولذا قضى أغلب الصباح في نوم عميق إلى أن أيقضه الحجيج بأسئلتهم الكثيرة استعداداً لأداء المناسك حيث لم يبق عليها إلّا أيام قلائل وسوف تتوجه القوافل إلى مكّة المكرمة.

جاء سعيد إلى الشيخ بسيوني على الموعد المقرر فوجد الشيخ في حالة أُخرى غير التي كانت بالأمس، حيث بدت على محياه علامات الإرهاق والسهر

فاستفسر سعيد عن سبب ذلك، فأجابه الشيخ بأنّ ذلك بسبب الأرق وكثرة التفكير والحسرة نتيجة لحديث الأمس. فقدر سعيد وضع الشيخ وحاول التخفيف من معاناته والتلاطف معه، ولكنه اعتبر ان هذا الذي يمر به الشيخ مؤشراً ايجابياً نحو الصحوة بعد الغفلة والبصيرة بعد الضلال وسلوك النهج القويم والطريق اللاحب.

الشيخ: أرجو أن تحدثني عن المزيد من النصوص الدالة على إمامة الإمام أمير المؤنين علي عليه السلام.

سعيد: هناك الكثير من النصوص يا أخي الكريم سوف أورد لك بعضها:

١ ـ قوله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: «أنت ولي كل مؤمن بعدي» راجع في ذلك المصادر التالية: ـ المستدرك ج ٣ ص ١٣٤، مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٢٠، مسند أبي داود ص ٣٦٠، خصائص أمير المؤمنين للنسائي ص ٦٤، المعجم الكبير للطبراني ج ١٢ ص ٧٨، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج ٤٢ ص ١٩٩، البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٨١.

٢ ـ قوله صلى الله عليه وآله وسلم لبريدة: «لا تقع في علي، فأنّه مني وأنا منه، وهو وليُّكم بعدي» راجع في ذلك: مسند أحمد بن حنبل ج ٥ ص ٣٥٦، مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٢٨، فتح الباري ج ٨ ص ٥٣، تحفة الأحوذي ج ١٠ ص ١٤٦، خصائص أمير المؤمنين للنسائي ص ٩٩، كنز العمال ج ١١ ص ٦٠٨، فيض القدير ج ٤ ص ٤٧١، تاريخ مدينة دمشق ج ٤٢ ص ١٨٩ ـ ١٩٠، البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٨٠.

٣ ـ قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الحق مع علي وعلي مع الحق لن يفترقا حتى يردا علي الحوض» ذكر ذلك في مجمع الزوائد ج ٧ ص ٢٣٥، المعيار والموازنة للإسكافي

ص ٣٥، ٤٦، ٣٢١، تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٢٢، تاريخ دمشق ج ٤٢، تاريخ مدينة دمشق ج ٤٢ ص ٤٤٩، مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٣٤ .

٤ ـ قوله ﷺ: «علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» قال صاحب المستدرك في ج ٣ ص ١٢٤: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وانظر كذلك: مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٣٤، المعيار والموازنة ص ٤٦، المعجم الصغير للطبراني ج ١ ص ٢٥٥، المعجم الأوسط ج ٥ ص ١٣٥، كنز العمار ج ١١ ص ٦٠٣، فيض القدير ج ٤ ص ٤٧٠ .

٥ ـ قوله تعالى ﷺ: «من أحبَّ أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي عزوجل غرس قضبانها بيده فليتولَّ علي بن أبي طالب، فإنّه لن يخرجكم من هدى، ولن يدخلكم في ضلالة».

ذكر ذلك في: مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٠٨، تاريخ مدينة دمشق ج ٤٢ ص ٢٤٢ الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر ج ٢ ص ٤٨٥، المنتخب من ذيل المذيّل ص ٨٣. المستدرك ج ٣ ص ١٢٨، كنز العمال ج ١١ ص ٦٢٢ .

٦ ـ قوله ﷺ: «من أطاع علياً فقد أطاعني ومن عصى علياً فقد عصاني» انظر: الكامل لعبد الله بن عدي ج ٤ ص ٣٤٩، تاريخ مدينة دمشق ج ٤٢ ص ٢٧٠ ونقل الحاكم الحديث بهذا الشكل: «عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من أطاعني فقد اطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع علياً فقد أطاعني ومن عصى علياً فقد عصاني» ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». انظر ج ٣ ص ١٢١ .

٧ ـ قوله ﷺ لعلي عليه السلام: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد

عصى الله ومن أطاعك فقد أطاعني ومن عصاك فقد عصاني».

المستدرك ج ٣ ص ١٢٨، تاريخ مدينة دمشق ج ٤٢ ص ٣٠٧ .

٨ ـ عن جابر بن عبد الله ﷺ سمعت رسول الله ﷺ وهو آخذ بضبع علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يقول: «هذا أمير البررة قاتل الفجرة منصور من نصره مخذول من خذله. ثم مدَّ بها صوته».

انظر: المستدرك ج ٣ ص ١٢٩، فتح الملك العلي لأحمد بن الصديق المغربي ص ٥٧، تاريخ بغداد ج ٣ ص ١٨١، تاريخ دمشق ج ٤٢ ص ٢٢٦ .

٩ ـ عن أبي هريرة. قال: قالت فاطمة عليها السلام يا رسول الله زوجتني من علي بن أبي طالب وهو فقير لا مال له. فقال: يا فاطمة، أما ترضين أنّ الله عزوجل اطّلع إلى أهل الأرض فاختار رجلين أحدهما أبوك والآخر بعلك».

انظر: المستدرك ج ٣ ص ١٢٩، تاريخ بغداد ج ٣ ص ٤١٨، تاريخ مدينة دمشق ج ٤٢ ص ١٣٦ .

١٠ ـ قال ﷺ: «علي مني وأنا منه لن يؤدي عني إلّا أنا أو علي».

انظر: فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ص ١٤، مسند أحمد ج ٤ ص ١٦٤، سنن الترمذي ج ٥ ص ٣٠٠، تحفة الاحوذي ج ١٠ ص ١٥٢، كتاب السنة لعمرو بن أبي عاصم ص ٥٥٢ السنن الكبرى للنسائي ج ٥ ص ٤٥، ١٢٨، المعجم الكبير ج ١١ ص ٣١٦، نظم درر السمطين ص ٩٨، الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ١٧٧، كنز العمال ج ١١ ص ٦٠٣ فيض القدير ج ٤ ص ٤٧٠، كشف الخفاء للعجلوني ج ١ ص ٢٠٥، جامع البيان ج ١٠ ص ٨٤ شواهد التنزيل ج ١ ص ٣١٧ ـ ٣١٩، تاريخ مدينة دمشق ج ٤٢ ص ٣٤٥، سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٨ ص ٢١٢، المنتخب من ذيل المذيّل للطبري ص

٦٧، ذكر أخبار إصبهان للحافظ الإصبهاني ج ١ ص ٢٥٣، البداية والنهاية ج ٥ ص ٢٣٢ .

وبعد هذا هل يبقى مجال للشك يا شيخ في أن علياً عليه السلام هو الخليفة الشرعي للنبي الأُميّ؟ فهذه النصوص التي روتها كتبكم حاكية عن نفسها ولا تحتاج إلى بيان فهي كافية لمن أراد الهداية وهي هادية لمن أراد النجاة ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَ لاَ بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. وكيف يسوغ لمن يدّعي انّه مسلم يريد رضوان الله عزوجل ويخشى عذابه بعد كل هذه النصوص والدلائل أن يتولى غير علي وهذا النبي يقول كما مر: «من أراد أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي فليتول علي بن أبي طالب فإنه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة». فأين ولاية علي من ولاية غيره ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «هو وليُّكم بعدي» نص صريح في إمامته وولايته فعلي كما قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «أمير البررة» فإذا كان الإنسان مسلماً من الأبرار فلا بدَّ أن يتخذ علياً أميراً وأما الذي يتولى غيره فسوف يلاقي العذاب الأليم.

الشيخ: أُحسنت واجدت يا سعيد فقد بينت النصوص الدالة على إمامة الإمام بشكل علمي متين فجزاك الله عنّي خير الجزاء وحينئذ أريد ان اسألك عن الأدلة التي استندتم إليها معاشر الشيعة الإمامية لإثبات إمامة بقية الأئمة الأحد عشر.

إمامة بقية الأئمة عليهم السلام :

سعيد: نعم يا أخي العزيز ما سألت عنه في محله من دون شك وهنا

تقسم الأُدلة في إثبات إمامة بقية الأئمة على أقسام: منها الأُدلة العقلية ومنها الأُدلة النقلية العامة ومنها الأُدلة النقلية الخاصة.

الشيخ: وهل ثمة ادلة عقلية هنا أيضاً؟!

سعيد: بلاشك ياعزيزي، لأنّ الإمامة لطف من الله عزوجل مثل النبوة تماماً واللطف واجب عقلاً لأنّ معنى اللطف هو ما يكون المكلّفُ معه أقرب إلى طاعة الله سبحانه وأبعد عن معصيته، ومن هنا فإن العقلاء متى علموا إرادة شخص لفعل من آخر، وعلموا أن ذلك الآخر لا يفعله إلّا بفعل يفعله المريد من غير مشقة، فمتى لم يفعل حكموا بأنه قد نقض غرضه. وبما ان الله سبحانه حكيم فلا يمكن ان يصدر منه نقض الغرض. وأما كيف أن الإمامة كالنبوة فهو واضح بعدما بينّا ضرورة وجود الإمام في كل زمن من أجل ان يجمع الأمة على الأمر الواحد ويرجعون إليه في أُمور دينهم ويحكم بينهم بالعدل والإنصاف. وكل ذلك من اللطف الذي يقرب إلى الطاعة ويبعد عن المعصية فيجب في حكمة الله عزوجل ذلك.

الشيخ: طيب وما هي النصوص العمومية الدالة على إمامة البقية من أهل البيت .

سعيد: هناك جملة من النصوص لا بأس بالبحث عنها. وهي تفيد أنّ الإمامة باقية ودائمة في الأئمة الاطهار عليهم السلام :

١ ـ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾. [الاسراء: ٧١].

فقد تكلّمنا حول هذه الآية سابقاً وبينّا دلالتها على انّه من غير الممكن في منطق القرآن أن يكون هناك أناس ولا يوجد معهم إمام. وهذا يدل على استمرار الإمامة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٢ ـ حديث الثقلين الذي تقدم فيه دلالة واضحة على استمرار الإمـامة، لأنّ معنى «لن يفترقا» في منطوق الحديث دالة بما لا يقبل الشك على التلازم الدائم بين الإمامة وبين القرآن، فلا يكون القـرآن وحـده فـي أي زمـن مـن الأزمان.

٣ ـ قوله ﷺ «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية» روى ذلك الكثير من أهل الحديث كما في: مسند أحمد ج ٤ ص ٩٦، مجمع الزوائد ج ٥ ص ٢١٨، مسند أبي داود ص ٢٥٩، المعجم الكبير ج ١٩ ص ٣٨٨، مسند الشاميين ج ٢ ص ٤٣٨، كنز العمال ج ١ ص ١٠٣ .

وهنا نريد ان نسأل ان قول الرسول هذا هل هو مطلق وعـام أو مـقيد وخاص ؟

بمعنى هل انّه يشمل كلّ الأزمان والأحـوال أم جـاء فـي زمـن وحـال خاص؟

الشيخ: لا بل هو مطلق وعام كما هو ظاهر من قوله ﷺ: «من مات».

سعيد: أحسنت يا أخي كثيراً، وحينئذ أريد أن أسألك: من هو إمام زمانك ومن هو إمام وأئمة الأزمنة التي سبقت زمنك والمسلمين الذين عاشوا من بعد النبي والإمام علي؟

الشيخ: أليس الإمام هو الحاكم والخليفة أو السلطان؟

سعيد: ولكن اليوم هناك العشرات من الحكام في كُلّ البلدان الإسلامية فأيٌ واحد منهم هو إمامك؟

الشيخ: المفروض انّه رئيس الدولة التي أسكنُ فيها.

سعيد: وإذا كنت تعيش في دولة ليس الحاكم فيها شخص مسلم كما نرى

المسلمين اليوم يعيشون في دول الغرب المسيحية والشرق، بل والدول الملحدة والمشركة كالهند والصين واليابان وكوبا وروسيا وغيرها فمن إمامهم حينئذ؟! هل تقبل ان يموتوا ميتة جاهلية وهم مسلمون؟

الشيخ: والله لا ادري ماذا أُجيبك يا سعيد؟

سعيد: بل أكثر من هذا، هل من المنطقي أن الرسول يقول أنّ من مات بغير إمامة يزيد وحكّام بني أمية وحكّام بني العباس أو غيرهم في هذا الزمن من الذين يشربون الخمور ويزنون ويقتلون ويظلمون فإنّه سوف يموت ميتة جاهلية؟! بالله عليك هل يمكن أن يصدر من الرسول ذلك؟

الشيخ: انا حائر لا ادري ماذا أقول فعقلي يقول لا يمكن أن يكون ذلك في حين لقد ثبت هذا الحديث من طرق كثيرة ولا يشك فيه .

سعيد: اذن لابد ان نبحث عن الأئمة الذين يكونون من الارتباط بالله والعصمة والطهارة والعلم والمعرفة والدلالة على الله وسنة رسوله بحيث من مات وليس في عنقه بيعة لأحدهم وهو يعيش في زمنه فهو كمن مات في زمن الرسول ولم يؤمن به فيموت ميتة جاهلية. وليس هؤلاء إلّا من عصمهم الله وطهرّهم تطهيراً ومن كانوا عدل القرآن كما في حديث الثقلين ومن قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيهم: «إنّما مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطّة في بني إسرائيل من دخله غفر له». انظر: مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٦٨، المعجم الصغير للطبراني ج ١ ص ١٣٩، المعجم الاوسط ج ٥ ص ٣٥٥، فيض القدير ج ٢ ص ٦٥٨، الدر المنثور ج ٣ ص ٣٣٤، وهؤلاء هم أهل البيت عليهم السلام لم يخل منهم زمان كما سوف نبيّن إن شاء الله عزوجل .

٤ ـ قوله ﷺ في الحديث المستفيض بل المتواتر: «لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم إثنا عشر خليفة كلهم من قريش» وفي رواية أخرى عن جابر بن سمرة قال: دخلت مع أبي على النبيّ ﷺ فسمعته يقول: إن هذا الأمر لا ينقضي حتّى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة، ثم تكلّم بكلام خفي عليّ، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: قال: كلُّهم من قريش» انظر في ذلك صحيح البخاري ج ٩ ص ١٠١، صحيح مسلم ج ٦ ص ٣، مسند أحمد ج ٥ ص ٩٠ ـ ١٠٠، سنن أبي داود ج ٢ ص ٣٠٩، شرح مسلم للنووي ج ١٢ ص ٢٠١، فتح الباري ج ١٣ ص ١٨١، صحيح بن حبان ج ١٥ ص ٤٤ وغيرها من المصادر الكثيرة .

وحينئذ نريد ان نسأل عن هؤلاء الخلفاء الإثني عشر مَنْ هم؟ وهل ينطبق هذا العدد على الخلفاء الراشدين في حين أنّهم أربعة أم على على غيرهم وهم إما أقل أو أكثر؟ وما معنى قوله ﷺ: «لا يزال الدين عزيزاً» أو قوله ﷺ: «لا يزال الدين قائماً إلى قيام الساعة» فهل يمكن أن ينطبق هذا الامتداد في القيام والعزة والمنعة إلى يوم القيامة مع العدد المذكور إذا فرضنا أنّ هؤلاء الخلفاء الإثني عشر هم هم الراشدون الأربع وبنو أُمية أو ما شابه ذلك، وهل من المنطقي أن تناط عزّة الإسلام وقيامه بأي شخص مهما كانت مواصفاته حتى وان كان اظلم الناس وأفسقهم بل هو العدو اللّدود للإسلام وهو المنافق الذي أبطن الكفر والعصيان والتمرد وجانب الحق والصواب وأظهر الإسلام شكلاً لا مضموناً وظاهراً لا باطناً وخداعاً وتزويراً.

الشيخ: إذا كان الأمر هكذا، إذاً من هؤلاء الخلفاء الإثنا عشر يا سعيد؟ ولماذا لم يبيّن النبي ﷺ هؤلاء ويحددهم، بل اكتفى بقوله كلهم من قريش.

في حين أنّ مفهوم كلمة قريش ينطبق على جميع الراشدين وبني أمية وبني العباس فبقى الأمر مبهما وما زاد الحديث الناس والتاريخ والواقع إلّا حيرة وضلالاً؟!

سعيد: من قال لك بأن النبي ﷺ لم يعرفهم ويحددهم بالدقة وهل يعقل ان النبي الهادي يريد ان يوقع امته من بعده بالخلاف والحيرة؟! هذا غير ممكن في منطق العقل والشرع ، بل الذي نعتقده هو أنّ النبي ﷺ وضح بشكل كامل في نفس الواقعة هؤلاء الخلفاء الإثني عشر ولكن هناك مانع حال دون سماع هؤلاء الذين رووا الحديث ما قاله النبي ﷺ .

الشيخ: كيف ذاك يا سعيد؟ ولقد قرأنا بأنّ الحديث المتفق عليه يؤكد أن الكلمة التي كانت مخفية هي «كلهم من قريش» ولا يوجد شيء آخر غير هذا.

سعيد: أبداً يا صديقي العزيز فإن النبي ﷺ أراد ان يعرف الأئمة من بعده ويعين عددهم على وجه التحديد، وقد فعل هذا، لكنّ اللّغط والصياح والصيحة من حوله، كل ذلك منع من سماع الحاضرين صوته ونقلهم ما سمعوا من رسول الله، فكان السبب في خفاء صوته في الحقيقة هذه الضجة من حوله، لا أنّ صوته ضعف، أو حصل مثلاً انخفاض في صوته، ولذلك وردت في بعض ألفاظ الحديث أنّ النبي بدلاً من كلمة «كلهم من قريش» قال ﷺ: «كلهم من بني هاشم». ومن هنا نفهم بأنّ الخلفاء هم أهل البيت عليهم السلام لا سيما بملاحظة القرائن العديدة التي تحيط بالحديث.

الشيخ: اذكر لنا بعض هذه القرائن التي تقولها يا سعيد.

سعيد: على الرحب والسعة وبكل سرور:

أ ـ كون الدين يبقى عزيزاً ما وجد أحد هؤلاء الإثني عشر. وهذا لا ينطبق

الا على نظرية الشيعة الإمامية في الأئمة حيث مضى أحد عشر إماماً وغاب الإمام الثاني عشر وهوالمهدي المنتظر والذي سوف تملأ الأرض على يديه قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً.

ب ـ يكون لهذه الأمة اثنا عشر قيماً لا يضرّهم من خذلهم. وحينئذ وبالتدبر في هذه العبارة يظهر لنا أنّ هناك خذلاناً من الأمة لهؤلاء الخلفاء ولكن هذا الخذلان لا يضرهم بشيء. وحينئذ نريد أن نسأل: لو كان هؤلاء الخلفاء هم الخلفاء السياسيون الذين حكموا الأمة بالفعل أمثال بني أمية وغيرهم فهل ثمة مَنْ خذل معاوية؟ ومتى خُذِلَ يزيد؟ ومتى خَذِلَ مروان من قِبَلِ الأمة؟ بل العكس هو الصحيح حيث أن الأمة هي التي خُذلِت من هؤلاء حيث تسلطوا على رقاب العباد ونشروا في الأرض الظلم والجور والفساد. إذاً نعرف من هذا كله بأن هؤلاء لا ينطبق عليهم هذا الوصف. وإذا راجعنا التاريخ جيداً فسوف نجد أنّ هذا الوصف إنما ينطبق على أئمة أهل البيتعليهم السلام فهم الذين خذلتهم الأمة وخالفتهم ولكنّ هذا لم يضر بإمامتهم كما يظهر في النقطة التي تأتي.

جـ ـ يظهر من كلمة «القيم» أنّ المراد هو الإمامة بالمعنى الحقيقي، أي الإمامة الشرعية، وليس المراد هو الحكومة وبسط اليد ونفوذ الكلمة والسيطرة على السلطة الاجرائية.

الشيخ: أريد أن أسأل منك يا سعيد .

سعيد: تفضل يا شيخ .

الشيخ: هل إنّ كتبكم روت هذا الحديث ؟

سعيد: نعم وعن الصحابة أيضاً يا شيخ .

الشيخ: يا حبذا لوتبيّن لي متن هذه الروايات واكون لك من الشاكرين .

سعيد: لقد روي عن سلمان هكذا: الأئمة بعدي اثنا عشر، ثم قال: كلهم من قريش، ثم يخرج المهدي (عج) فيشفي صدور قوم مؤمنين، ألّا إنهم أعلم منكم فلا تعلموهم، ألّا إنهم عترتي ولحمي ودمي، ما بال قوم يؤذونني فيهم، لا أنالهم الله شفاعتي» وهناك حديث آخر روي عن أبي هريرة «أهل بيتي الأئمة بعدي إثنا عشر. أهل بيتي عترتي من لحمي ودمي، هم الأئمة بعدي، عدد نقباء بني اسرائيل». وعن حذيفة بن أسيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الأئمة بعدي عدد نقباء بني اسرائيل، تسعة من صلب الحسين ومنا مهدي هذه الأمّة، ألّا إنهم مع الحق والحق معهم فانظروا كيف تخلّفوني فيهم» «انظر كفاية الأثر في النصّ على الأئمة الإثني عشر ص ٤٤».

الشيخ: الواقع أن حديث الثقلين هو خير قرينة على أنّ المراد بالخلفاء الإثني عشرهم أئمة أهل البيت عليهم السلام حيث انهم لن يفترقوا عن القرآن الكريم .

سعيد: انصفتنا يا شيخ جزاك الله خير الجزاء.

الشيخ: أريد الآن ان نتحدث عن النصوص الخاصة التي تؤكّد امامتهم عليهم السلام فما أشوقني إلى ذلك !

سعيد: ان شاء الله يا أخي الكريم، مثلاً الحديث الذي ذكره المتقي الهندي وهو قوله ﷺ: «من أحب ان يحيا حياتي ويموت ميتتي ويدخل الجنة التي وعدني ربي قضباناً من قضبانها غرسها بيده وهي جنة الخلد فليتولّ علياً وذريته من بعده فإنّهم لن يخرجوكم من باب هُدى ولن يدخلوكم في باب ضلالة» كنزل العمال ج ١١ ص ٦١١، المنتخب من ذيل المذيّل للطبري ص ٨٣ .

وهناك الروايات الكثيرة من قبل الشيعة متواترة جداً لانشك فيها أبداً لاسيما بعد أن ثبت لدينا بالنصوص الكثيرة إمامة أمير المؤمنين والحسن

والحسين عليهما السلام، وأنت إذا راجعت حياة الأئمة الإثني عشر لما شككت في أن هذه الأوصاف التي ذكرها حديث النبي في أن من بعده إثني عشر خليفة تنطبق على أئمتنا اضافة إلى حديث الثقلين وغيرها من الأحاديث والآيات التي تدل بعمومها على أن وجود إمام في كل زمان يكون حافظاً للشريعة والدين أمر لابد منه، وهو المتيقن من غير شك. وبهذا ندرك أن سلسلة الإمامة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد بدأت بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ثم تلاه الإمام الحسن بن علي ثم الحسين بن علي ثم علي بن الحسين زين العابدين ثم محمد بن علي الباقر ثم جعفر بن محمد الصادق ثم موسى بن جعفر الكاظم ثم علي بن موسى الرضا ثم محمد بن علي الجواد ثم علي بن محمد الهادي ثم الحسن بن علي العسكري ثم الإمام المهدي المنتظر صاحب الزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف الذي بشربه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأحاديث متواترة عند الفريقين .

الإمام المهدي الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام

الشيخ: اعتقد أنّ وقت البحث حول الإمام المهدي عليه السلام قد حان. فأقول: لاشك ولا ريب في ثبوت فكرة المهدي في الدين الإسلامي لما ورد من أحاديث كثيرة جداً من النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ظهوره في آخر الزمان ولذلك فقد ألّف الكثير من العلماء في هذا الموضوع كتباً كثيرة، ولكن الاختلاف الأساسي الذي بيننا نحن أهل السنة وبينكم أنتم الشيعة الإمامية في تحديد المصداق لهذه الشخصية العظيمة التي قال عنها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «ولو لم يبق من الدهر إلّا يوم واحد، لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً، كما ملئت جوراً» [مسند أحمد ج ١ ص ٩٩] وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تذهب ـ أو لاتنقضي ـ الدنيا حتى يملك العرب

رجل من أهل بيتي اسمه اسمي» [جامع الأصول ج ١١ ص ٤٨] إلى غير ذلك من عشرات الأحاديث حول المهدي المنتظر. فأنتم تعتقدون بأنّه ولد في سنة ٢٥٥ هـ وغاب بأمر الله سنة وفاة والده الإمام الحسن العسكري سنة ٢٦٠ هـ أي وعمره خمس سنين فقط، وهو لازال حياً يعيش غائباً عن الناس وسوف يظهر في آخر الزمان كما بشر بذلك النبي ﷺ.. في حين نحن لا نقول بذلك وانما نقول: بأنّه سوف يولد في آخر الزمان وسوف يحقق ما بشّر به النبي ﷺ. فاذن يكون جوهر الخلاف بيننا وبينكم هو المصداق لا المفهوم.

سعيد: نعم هذا صحيح فإن الاختلاف فيما بيننا يرتكز على هذه النقطة بالذات، وهذا طبيعي بسبب الاختلاف القائم أصلاً بين الشيعة والسنة حول موضوع الإمامة كما أسلفنا سابقاً. ومن هنا فان تحقيق المراد من المصداق هل هو ابن الحسن العسكري أو غيره منوط بأصل فكرة الإمامة على كلا الاتجاهين السني والشيعي. ولذا فاني مضطر مرة أخرى لأنّ أتمسك بالآيات والأحاديث السابقة لإثبات صحّة ما تعتقد به الشيعة لا ما تعتقد به السنة.

الشيخ: كيف ذاك يا سعيد ؟

سعيد: عندما نعود إلى قوله تعالى ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ الذي يفيد الشمول لكل عصر وكلّ أناس كما أسلفنا. فعندئذ ندرك بضرورة وجود الإمام في كل زمن. فاذا ربطنا هذه الآية مع قول النبي ﷺ في الحديث المتواتر الذي تحدثنا عنه أيضاً أعني حديث الخلفاء والأئمة الإثني عشر. فعندئذ يتبين بأنّ الاثني عشر هم أئمة الناس من لدن رسول الله ﷺ وإلى قيام الساعة. وبما أنّ الأحد عشر إماماً أعني من الإمام علي عليه السلام إلى الحسن العسكري معلوم انهم توفوا إلى سنة ٢٦٠ هـ ولم يبق الّا إمام واحد نعلم بأنّ هذا

الإمام هو إمام كل الناس من ذلك التاريخ إلى آخر الزمان. ونستيقن من ذلك أيضاً إذا لاحظنا حديث الثقلين الذي يؤكّد بأنّ العترة الطاهرة المعصومة لا تنفك عن الكتاب المجيد إلى يوم القيامة، وحينئذ نأتي إلى نفس الاستدلال السابق وهو أن الأحد عشر إماماً قد فارقوا الدنيا إلى سنة ٢٦٠ هـ، فلابد من وجود الثقل الثاني وعدل القرآن، وهذا يدلنا على أنّه موجود لم يخل منه زمان من ذلك التاريخ إلى قيام الساعة. ويتأكد ذلك بملاحظة الحديث الذي ذكرناه سابقاً من قول النبي ﷺ: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» فهو يدل أيضاً مع الآية والأحاديث السابقة على وجود الإمام وإمامته.

الشيخ: كلام موجز ومتين يا سعيد والحقيقة أنّ ما تفضلتم به مبني بشكل كامل على ما سبق من البحوث وإلّا فبمجرده قد يكون محلّاً للنقاش. ولكن ثمة جملة اشكالات تكتنف هذه الفكرة، لابد من الإجابة عنها حتى تكتمل الصورة وتتضح بشكل يتحقق معه اليقين ويزول الإبهام والشك.

سعيد: تفضل يا شيخ .

الشيخ: أريد أن أسأل في البداية عن إمكان بقاء الإمام هذه المدة الطويلة أي من سنة ٢٥٥ هـ إلى آخر الزمان ؟

سعيد: ولم لا يكون ممكناً يا أخي العزيز بل هو كذلك؟

الشيخ: وكيف يكون ممكناً وهو خلاف المتعارف جداً؟

سعيد: في البداية لابد أن نعرف أنّ الإمكان له ثلاثة معاني ـ في خصوص موضوعنا، وإلا فالإمكان له معاني أخرى أيضاً ـ هي: الإمكان العملي، والإمكان العلمي والإمكان المنطقي أو الفلسفي .

فاما الامكان العملي: فالمقصود منه ان يكون الشيء ممكناً على نحو

يتاح للإنسان ان يحققه بالفعل، فالسفر عبر المحيط والوصول إلى قاع البحر، أو الصعود إلى القمر، أشياء أصبح لها إمكان عملي فعلاً.

واما الامكان العلمي: فالمقصود منه الاشياء التي لا نستطيع ممارستها فعلاً إلّا أنّه لا يوجد ما يبرر رفض إمكانها ووقوعها علمياً، فصعود الإنسان إلى كوكب بلوتو لا يوجد في العلم ما يرفض وقوعه، وعلى العكس من ذلك الصعود إلى قرص الشمس فانّه غير ممكن علمياً، بمعنى ان العلم لا أمل له في وقوع ذلك، ولا يتصور علمياً وتجريبياً إمكانية وقوع ذلك.

وأمّا الإمكان الفلسفي: فالمقصود منه انّه لا يوجد لدى العقل وفق ما يدركه من قوانين قبلية ـ أي سابقة على التجربة ـ ما يبرّر رفض الشيء والحكم باستحالته. فوجود ثلاث برتقالات تنقسم بالتساوي وبدون كسر إلى نصفين ليس له إمكان منطقي؛ لأنّ العقل يدرك ـ قبل ان يمارس أي تجربة ـ ان الثلاثة عدد فردي وليس زوجاً، فلا يمكن أن تنقسم بالتساوي، لأنّ انقسامها بالتساوي يعني كونها زوجاً، فتكون فرداً وزوجاً في وقت واحد، وهذا تناقض، والتناقض مستحيل منطقياً. ولكن دخول الإنسان في النار دون أن يحترق، وصعوده للشمس دون أن تحرقه بحرارتها ليس مستحيلاً من الناحية المنطقية، إذ لا تناقض في افتراض ان الحرارة لا تتسرب من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة، وانما هو مخالف للتجربة التي أثبتت تسرب الحرارة من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة إلى ان يتساوى الجسمان بالحرارة.

وهكذا نعرف أنّ الإمكان المنطقي أوسع من دائرة الامكان العلمي، وهذا أوسع دائرة من الامكان العملي.

الشيخ: جيد يا سعيد ولكن ما دخل كل ذلك في موضوعنا؟!

سعيد: أنا أُخبرك فلا تعجل، فاذا اتضح ما ذكرته لك نأتي إلى أنّ مسألتنا هي شك في أن امتداد عمر الإنسان آلاف السنين ممكن منطقياً، لأنّ ذلك ليس مستحيلاً من وجهة نظر عقلية تجريدية، ولا يوجد في افتراض من هذا القبيل أي تناقض، لأنّ الحياة كمفهوم لا تستبطن الموت السريع، ولا نقاش في ذلك.

كما لاشك أيضاً ولا نقاش في ان هذا العمر الطويل ليس ممكناً امكاناً عملياً، على نحو الإمكانات العملية للنزول إلى قاع البحر أو الصعود إلى القمر، ذلك لأنّ العلم بوسائله وأُداواته الحاضرة فعلاً، والمتاحة من خلال التجربة البشرية المعاصرة، لا يستطيع أن يمدد عمر الإنسان مئات السنين، ولهذا نجد ان اكثر الناس حرصاً على الحياة وقدرة على تسخير إمكانات العلم، لا يتاح لهم من العمر إلّا بقدر ما هو مألوف .

وأمّا الإمكان العلمي فلا يوجد علمياً اليوم ما يبرر رفض ذلك من الناحية النظرية. وهذا بحث يتصل في الحقيقة بنوعية التفسير الفسلجي لظاهرة الشيخوخة والهرم لدى الإنسان فهل تعبر هذه الظاهرة عن قانون طبيعي يفرض على أنسجة جسم الإنسان وخلاياه ـ بعد ان تبلغ قمة نموها ـ أن تتصلب بالتدريج وتصبح أقل كفاءة للاستمرار في العمل، إلى أن تتعطل في لحظة معينة، حتى لو عزلناها عن تأثير أي عامل خارجي؟ أو أنّ هذا التصلب وهذا التناقص في كفاءة الأنسجة والخلايا الجسمية للقيام بأدوارها الفسيولوجية، نتيجة صراع مع عوامل خارجية كالميكروبات أو التسمم الذي يتسرب إلى الجسم من خلال ما يتناوله من غذاء مكثف؟ أو ما يقوم به من عمل مكثف أو أي عامل آخر ؟

وهذا سؤال يطرحه العلم اليوم على نفسه، وهو جاد في الإجابة عنه،ولا يزال للسؤال أكثر من جواب على الصعيد العلمي.

فاذا أُخذنا بوجهة النظر العلمية التي تتجه إلى تفسير الشيخوخة والضعف الهرمي بوصفه نتيجة صراع واحتكاك مع مؤثرات خارجية معينة، فهذا يعني أنّ بالإمكان نظرياً إذا عزلت الأنسجة التي يتكون منها جسم الإنسان عن تلك المؤثرات المعينة، أن تمتد بها الحياة وتتجاوز ظاهر الشيخوخة وتتغلب عليها نهائياً .

وإذا أُخذنا بوجهة النظر الأُخرى، التي تميل إلى افتراض الشيخوخة قانوناً طبيعياً للخلايا والأنسجة الحيّة نفسها، بمعنى أنّها تحمل في احشائها بذرة فنائها المحتوم، مروراً بمرحلة الهرم والشيخوخة وانتهاءاً بالموت.

الشيخ: نعم صحيح. وبعد ذلك ماذا ؟

سعيد: هنا نقول: إذا أُخذنا بوجهة النظر هذه، فليس معنى هذا عدم افتراض أية مرونة في هذا القانون الطبيعي، بل هو ـ على افتراض وجوده ـ قانون مرن، لأنّنا نجد في حياتنا الاعتيادية، ولأنّ العلماء يشاهدون في مختبراتهم العلمية أنّ الشيخوخة كظاهرة فسيولوجية لازمنية، قد تأتي مبكرة، وقد تتأخر، ولا تظهر إلّا في فترة متأخرة. فالرجل قد يكون طاعناً في السن ولكنه يملك أُعضاء لينة، ولا تبدو عليه أعراض الشيخوخة كما نص على ذلك الأطباء، بل إن العلماء استطاعوا عملياً ان يستفيدوا من مرونة ذلك القانون الطبيعي المفترض، فأطالوا عمر بعض الحيوانات مئات المرات بالنسبة إلى أعمارها الطبيعية، وذلك بخلق ظروف وعوامل تؤجل فاعلية قانون الشيخوخة.

وبهذا يثبت علمياً أنّ تأجيل هذا القانون بخلق ظروف وعوامل معينة أمر

ممكن علمياً، ولئن لم يتح للعلم أن يمارس فعلاً هذا التأجيل بالنسبة إلى كائن معقد معين كالإنسان، فليس ذلك إلّا لفارق درجة بين صعوبة هذه الممارسة بالنسبة إلى الإنسان وصعوبتها بالنسبة إلى أحياء أُخرى. وهذا يعني أنّ العلم من الناحية النظرية وبقدر ما تشير إليه اتجاهاته المتحركة لا يوجد فيه أبداً ما يرفض إمكانية إطالة عمر الإنسان ، سواء فسّرنا الشيخوخة بوصفها نتاج صراع واحتكاك مع مؤثرات خارجية أو نتاج قانون طبيعي للخليّة الحيّة نفسها يسير بها نحو الفناء.

ويتلخص من ذلك: أن طول عمر الإنسان وبقاءه قروناً متعددة أمر ممكن منطقياً وممكن علمياً، ولكن لا يزال غير ممكن عملياً، إلا أنّ اتجاه العلم سائر في طريق تحقيق هذا الإمكان عبر طريق طويل .

وعلى هذا الضوء نتناول عمر المهدي عليه الصلاة والسلام وما أحيط به من استفهام أو استغراب، وهنا نقول :

إنه بعد أن ثبت إمكان هذا العمر الطويل منطقياً وعلمياً، وثبت أنّ العلم سائر في طريق تحويل الإمكان النظري إلى إمكان عملي تدرجياً، لا يبقى للاستغراب محتوى الا استبعاد أن يسبق المهدي العلم نفسه، فيتحول الإمكان النظري إلى إمكان عملي في شخصه قبل أن يصل العلم في تطوره إلى مستوى القدرة الفعلية على هذا التحويل، فهو نظير من يسبق العلم في اكتشاف دواء ذات السحايا أو دواء السرطان.

إذاً، على هذا الأساس لا تبقى أيّة مشكلة من الناحية العلمية أو المنطقية تقف حائلاً بيننا وبين الإيمان بوجود الإمام المهدي رغم عمره الطويل، بل هناك من الشواهد الوقوعية ما تؤكد هذه الحقيقة بشكل لا ريب فيه والوقوع كما

يقال خير دليل على الإمكان، فهذا نبي الله نوح عليه السلام وقد عاش قروناً من الزمان كما يبين القرآن الكريم فهو قد عاش «٩٥٠» عاماً يدعو قومه إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى فضلاً عن الحياة التي عاشها قبل ذلك وبعد الطوفان قال سبحانه وتعالى: ﴿وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً﴾ [العنكبوت: ١٤] وكذلك نجد ذلك واضحاً في قصّة أهل الكهف الذين مكثوا في الكهف عدّة قرون كما يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه المجيد : ﴿وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً﴾ [الكهف: ٢٥] كما وأنّ عيسى ابن مريم عليه السلام كما هو ثابت عندنا جميعاً لازال حيّاً منذ أكثر من ألفي سنة وسوف يظهر في آخر الزمان مع المهدي كما تؤكد ذلك روايات كثيرة عند الفريقين وكذلك الخضر عليه السلام لازال حياً أيضاً كما نصت على ذلك الروايات الكثيرة عند أهل السنة.

نسأل: إذا كان هناك العديد من الأشخاص الذين عاشوا أعماراً غير متعارفة فلماذا نستنكر ذلك على الإمام المهدي عليه السلام ولماذا نتعجب من طول عمره وكيفية بقائه حياً كل هذه المدة فاذا كان الأمر غير ممكن فلماذا أمكن في هؤلاء دون هذا؟ ونحن قد بيّنا قبل قليل بأنه لا يوجد مانع عقلي أو علمي من طول عمر الإنسان إذا توفرت الأسباب الكفيلة بتحقق ذلك. أضف إلى ذلك أنّ مسألة بقاء الامام كل هذه المدة هو نوع من الإعجاز الإلهي الذي خص به أولياءه فما المانع منه حينئذ.

الشيخ: أحسنت كثيراً يا سعيد وقد تناولت الموضوع من جميع أبعاده ولم يبق هناك أيّ اشكال من هذه الناحية. إلّا أنّ ثمة أسئلة أخرى في المقام.

سعيد: تفضل يا شيخ اسأل عمّا بدا لك.

الشيخ: لقد عرفنا من الأبحاث السابقة أن الغاية من تنصيب الإمام، هي هداية الناس من الضلال من خلال رجوع الأمة إليه يبيّن لهم الأحكام ويفسر لهم القرآن ويقوم لهم الأخطاء في العقيدة والشريعة، وهذا الأمر يتوقف على كونه ظاهراً بين أبناء الأُمّة، مشاهداً لهم، فكيف يكون إماماً قائداً، وهو غائب عنهم؟! ألا تنتفي الحكمة من وجوده وإمامته حينئذ ؟

سعيد: يمكن لي الاجابة على سؤالك بل اشكالك بوجهين نقضي وحلّي.

اما الجواب النقضي فهو: ان التركيز على هذا السؤال يعرب عن عدم التعرف على أولياء الله، وإنهم بين ظاهر قائم بالأمور ومختف قائم بها من دون ان يعرفه الناس.

ان كتاب الله العزيز يعرفنا على وجود نوعين من الأئمة والأولياء والقادة للأُمّة، وليٌ غائب مستور، لا يعرفه حتى أبناء زمانه، كما يخبر سبحانه عن صاحب موسى عليه السلام بقوله: ﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما * قال له موسى هل اتبعك على ان تعلمن ممّا علمت رشداً﴾ [الكهف: ٦٥ ـ ٦٦]. وهناك أيضاً وليٌ ظاهر باسط اليد تعرفه الأُمة وتقتدي به. ويتصرف في مصالحها ويرعى شوونها .

وإلى ذلك يشير الامام أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه لكميل بن زياد النخعي. يقول كميل: «أُخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فأخرجني إلى الجبان، فلما أُصحر تنفس الصعداء، وكان ممّا قاله: «اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته» [نهج البلاغة ج ٤ ص ٣٧] .

وليست غيبة الإمام المهدي بدعاً من تاريخ الأولياء، فهذا موسى بن عمران عليه السلام قد غاب عن قومه قرابة أربعين يوماً، وكان نبيّاً ولياً، يقول سبحانه: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الاعراف: ١٤٢] .

وهذا يونس عليه السلام كان من أنبياء الله سبحانه، ومع ذلك فقد غاب في الظلمات كما أخبر عن ذلك القرآن الكريم بقوله: ﴿وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ـ٨٨] .

أو لم يكن موسى ويونس عليهما السلام نبيَّيْنِ من أنبياء الله سبحانه؟ وما فائدة نبي يغيب عن الابصار، ويعيش بعيداً عن قومه؟!

فاذا كنت تستنكر ذلك على الأنبياء فهو عين الكفر بالله، ولا اظن أنّ هناك مؤمناً يقول بذلك، وإن أجبت بايّ جواب فإن هذا الجواب سوف ينطبق على مسألة الإمام المهدي (عج) بلا فرق ؛ لأنّ حكم الأمثال فيما يجوز أو لا يجوز واحد.

الشيخ: وما هو الجواب الحلّي؟

سعيد: الجواب الحلّي هو أن دور الإمام غير مقتصر على البعد الظاهري المتمثل بالهداية الخاصة للأمة، وإنّما له دور أكبر من ذلك ألمحنا إليه سابقاً، وهو البعد التكويني له. حيث يمارس عملية الهداية للبشرية، بل لغيرها أيضاً تكوينياً، فهو أحد الوسائط في نظام الأسباب والمسببات الوجودية التي ما من شيء الّا

ويخضع لها في عالم التكوين ؛ لأنّ الله عزوجل نظّم هذا العالم على هذا الأساس فجعل النار سبباً للحرارة والماء سبباً لرفع العطش والشمس سبباً للنهار وغيابها سبباً لوجود اللّيل والنجوم لتزيين السماء والاهتداء في الصحاري والبحار إلى غير ذلك. وكذلك جعل جبرائيل عليه السلام سبباً واسطة في الوحي وعزائيل سبباً واسطة لقبض الأرواح، وهكذا جعل الأولياء أسباباً وعللاً لأشياء كثيرة في عالم الوجود، واعتقد بأننا تكلّمنا عن هذه المسألة عند قوله تعالى: ﴿وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ وفي ذلك ما يكفي. وإليك الآن هذه الرواية الجامعة لصفة الإمام ودوره الذي يغيب عن أذهان عموم الناس ؛ لانهم يتصورون دور الإمام منحصراً في وظيفة معيّنة.

الشيخ: وما تلك الرواية.

سعيد: انها رواية في غاية الروعة، يُظهر فيها الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام حقيقة الإمامة وحقيقة الإمام والدور الذي يضطلع به وغفلة الناس عن كل ذلك. فقد روى الكليني رحمه الله في كتاب الحجة تحت عنوان «باب نادر جامع في فضل الإمام وصفته» عن عبد العزيز بن مسلم أنه قال: كنا مع الرضا عليه السلام بمروٍ فاجتمعنا في الجامع يوم الجمعة في بدء مقدمنا، فأداروا أمر الإمامة وذكروا كثرة اختلاف الناس فيها، فدخلت على سيدي عليه السلام فأعلمته خوض الناس فيه، فتبسم عليه السلام، ثم قال: يا عبد العزيز بن مسلم، جهل القوم وخدعوا عن آرائهم، إنّ الله عزوجل لم يقبض نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم حتى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كل شيء، بيّن فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام وجميع ما يحتاج إليه الناس كاملاً، فقال عزّوجل: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الانعام: ٣٨] وأنزل في حجّة الوداع وهي آخر عمره صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ

أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣] وأمر الإمامة من تمام الدين، ولم يمض رسول الله ﷺ حتى بين لأُمّته معالم دينهم، وأوضح لهم سبيلهم، وتركهم على قصد سبيل الحق، وأقام لهم علياً عليه السلام علماً وإماماً، وما ترك لهم شيئاً تحتاج إليه الأمة إلّا بيّنه، فمن زعم أنّ الله عزوجل لم يكمل دينه فقد رد كتاب الله، ومن رد كتاب الله فهو كافر به.

هل يعرفون قدر الإمامة ومحلّها من الأمّة، فيجوز فيها اختيارهم؟! ان الإمامة أجل شأناً وأعلى مكاناً، وأمنع جانباً، وأبعد غوراً من ان يبلغها الناس بعقولهم، أو ينالوها بآرائهم، أو يقيموا إماماً باختيارهم، إن الإمامة خص الله عزوجل بها إبراهيم الخليل بعد النبوة والخلّة مرتبة ثالثة، وفضيلة شرفه بها وأشاد بها ذكره، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ فقال الخليل سروراً بها: ﴿وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾؟. قال تبارك وتعالى: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة وصارت في الصفوة، ثم أكرمه بأن جعلها في ذريته أهل الصفوة والطهارة، فقال: ﴿وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَوةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣] فلم تزل في ذريته يرثها بعض عن بعض، قرناً فقرناً، حتى ورّثها الله تعالى النبي ﷺ، فقال جلّ وتعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]. فكانت له خاصة، فقلّدها ﷺ علياً عليه السلام بأمره تعالى على رسم ما فرض الله، فصارت في ذريته الأصفياء، الذين آتاهم الله العلم والإيمان، بقوله تعالى: ﴿وَ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]. فهي في ولد علي عليه السلام خاصة إلى يوم

القيامة، إذ لا نبي بعد محمدﷺ، فمن أين يختار هؤلاء الجهال؟! إن الإمامة هي:

١ ـ منزلة الأنبياء .

٢ ـ وإرث الاوصياء .

٣ ـ إنّ الإمامة خلافة الله .

٤ ـ وخلافة الرسول ﷺ .

٥ ـ ومقام أمير المؤمنين .

٦ ـ وميراث الحسن والحسين عليهما السلام .

٧ ـ ونظام المسلمين .

٨ ـ وصلاح الدنيا .

٩ ـ وعز المؤمنين .

١٠ ـ ان الإمامة أُسُّ الإسلام النامي وفرعه السامي.

بالإمام: تمام الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، وتوفير الفيء، وإمضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف .

١ ـ الإمام :

يحل حلال الله، ويحرم حرام الله، ويقيم حدود الله، ويذب عن دين الله، ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة.

٢ ـ الإمام :

كالشمس الطالعة المجلّلة بنورها للعالم، وهي في الافق بحيث لا تنالها الأيدي والأبصار.

٣ ـ الإمام:

البدر المنير، والسراج الزاهر، والنور الساطع، والنجم الهادي في غياهب الدجى واجواز البلدان والقفار، ولجج البحار.

٤ ـ الإمام :

الماء العذب على الظمأ، والدال على الهدى، والمنجي من الردى .

٥ ـ الإمام :

النار على اليفاع، الحار لمن اصطلى به، والدليل في المهالك من فارقه فهالك.

٦ ـ السحاب الماطر، والغيث الهاطل، والشمس المضيئة، والسماء الظليلة، والأرض البسيطة، والعين الغزيرة، والغدير والروضة.

٧ ـ الإمام :

الأنيس الرفيق، والوالد الشفيق، والأخ الشقيق، والأُمّ البرة بالولد الصغير، ومفزع العباد في الداهية النآد.

٨ ـ الإمام :

أمين الله في خلقه، وحجته على عباده، وخليفته في بلاده، والداعي إلى الله، والذاب عن حرم الله.

٩ ـ المُطَّهر من الذنوب، المبرأ من العيوب، المخصوص بالعلم، الموسوم بالحلم، نظام الدين، وعز المسلمين، وغيض المنافقين وبوار الكافرين.

١٠ ـ الإمام :

واحد دهره، لا يدانيه أحد ولا يعادله عالم ولا يوجد منه بدل ولاله مثل

أو نظير، مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه له ولا اكتساب، بل اختصاص من المفضّل الوهّاب.

فمن الذي يبلغ معرفة الإمام أو يمكنه اختياره؟!! هيهات هيهات، ضلّت العقول، وتاهت الحلوم، وحارت الألباب، وخسئت العيون، وتصاغرت العظماء، وتحيَّرت الحكماء، وتقاصرت الحلماء، وحصرت الخطباء، وجهلت الألبّاء، وكلّت الشعراء، وعجزت الأُدباء، وعيتت البلغاء عن وصف شأن من شأنه، أو فضيلة من فضائله، وأقّرت بالعجز والتقصير.

وكيف يوصف بكلّه، أو ينعت بكنهه، أو يفهم شيء من أمره، أو يوجد من يقوم مقامه، ويغني غناه، كيف وأنَّى؟! وهو بحيث النجم من يد المتناولين، ووصف الواصفين!!

فأين الاختيار من هذا؟ وأين العقول عن هذا؟ وأين يوجد مثل هذا؟!

اتظنون أن ذلك يوجد في غير آل الرسول محمد ﷺ؟! كذبتهم والله أنفسهم، ومنّتهم الأباطيل، فارتقوا مرتقىً صعباً دحضاً تزل عنه إلى الحضيض أقدامهم، راموا إقامة الإمام بعقول حائرة بائرة ناقصة وآراء مضلة، فلم يزدادوا منه إلّا بعداً، (قاتلهم الله أنّى يؤفكون) ولقد راموا صعباً، وقالوا إفكاً، وضلوا ضلالاً بعيداً، ووقعوا في الحيرة إذ تركوا الإمام عن بصيرة «وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدّهم عن السبيل وكانوا مستبصرين».

رغبوا عن اختيار الله، واختيار رسول الله ﷺ وأهل بيته، والقرآن يناديهم: ﴿وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَ رَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الاحزاب: ٣٦]. وقال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى

يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [القلم: ٣٧ - ٤٢]. وقال عزوجل: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. أم ﴿طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧] أم ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَ هُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ * وَ لَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الانفال: ٢١ - ٢٣] ام ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] بل هو ﴿فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤] فكيف لهم باختيار الإمام؟!

والإمام :

عالم لا يجهل، وراع لا ينكل، معدن القدس والطهارة، والنسك والزهادة، والعلم والعبادة، مخصوص بدعوة الرسول ﷺ ونسل المطهرة البتول، لا مغمز فيه في نسب، ولا يدانيه ذو حسب، في البيت من قريش، والذروة من هاشم، والعترة من الرسول ﷺ والرّضا من الله عزوجل، شرف الأشراف والفرع من عبد مناف، نامي العلم، كامل الحلم، مضطلع بالإمامة، عالم بالسياسة، مفروض الطاعة، قائم بأمر الله عزوجل، ناصح لعباد الله حافظ لدين الله.

ان الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم يوفقهم الله ويؤتيهم من مخزون علمه وحكمه ما لا يؤتيه غيرهم، فيكون علمهم فوق علم أهل الزمان، في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وقوله في طالوت: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَ زَادَهُ

بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ وَ اللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَ اللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧] وقال لنبيه ﷺ: ﴿أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٣]. وقال في الأئمة من أهل بيت نبيّه وعترته وذريته صلوات الله عليهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً ۞ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَ كَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾ [النساء: ٥٣ ـ ٥٥] وان العبد إذا اختاره الله عزوجل لأمور عباده شرح صدره لذلك، وأودع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاماً، فلم يعي بعده بجواب ولا يحير فيه الصواب، فهو معصوم مُؤيّد موفق مسدد، قد آمن من الخطايا والزّلل والعثار، يخصه الله بذلك ليكون حُجّته البالغة على عباده، وشاهده على خلقه، وذلك ﴿فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ .

فهل يقدرون على مثل هذا فيختارونه؟! أو يكون مختارهم بهذه الصفة فيقدمونه؟

تعدوا ـ وبيت الله ـ الحق ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، وفي كتاب الله الهدى والشفاء، فنبذوه واتبعوا أهواءهم، فذمّهم الله ومقتهم وأتعسهم، فقال جلّ وتعالى: ﴿وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠] وقال: ﴿فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٨] وقال: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] وصلى الله على النبي محمد وآله وسلّم تسليماً كثيراً». انتهت الرواية.

فهل رأيت يا شيخ بسيوتي استدلالاً على الإمامة أبلغ وأمتن وأقوم من

هذا الاستدلال؟ فقد أماط الإمام على الرغم من ايجاز كلامة اللثام عن حقائق باهرة تلجم الأفواه وتبطل الحجج، وتتم بها الحُجَّة البالغة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهل رأيت يا شيخ ما هو دور الإمام وما يضطلع به في عالم التكوين والتشريع؟ وما أعظم ما أفاده الإمام المهدي المنتظر حينما سئل عن الفائدة منه وهو غائب فأخرج حديثاً منه من خلال أحد سفرائه يقول فيه: «وأما وجه الانتفاع بي في غيبتي، فكالانتفاع بالشمس إذا غيبّها عن الأبصار السحاب» [كمال الدين للصدوق ص ٩٣] .

الشيخ: وهو مطرق إلى الأرض، صامت لا يدري ماذا يقول وهو يسمع هذا الكلام الصادر من الدوحة المحمدية، والحكمة العلوية، والأسرار الفاطمية، فهو يسمع كلاماً ما طرق سمعه قط، ولا خطر على باله، وكيف لا والمتكلم من عرف كنز المعارف والحقائق، ومعادن العلوم والدقائق؟ من أبواب مدينة العلم، ووارث الوحي والسنة، كتاب الله الناطق، وقرآنه الساطع، هم وجدُّهم فوق كل مخلوق، ودون الخالق، كلامهم أبلغ الكلام بعد كلام الله تعالى ورسوله ﷺ.

ثم التفت إلى سعيد قائلاً:

يا سعيد، والله إنّي لمؤمن إيماناً لاشك فيه بإمامة الأئمة عليهم السلام من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى المهدي الموعود، عجّل الله فرجه. وأنا من اليوم فصاعداً أدين لله بهذا الإيمان، وأعتقد بأنّ الأئمة هم خلفاء رسول الله ﷺ، وهم حجج الله على خلقه، وأصفياؤه من بين عبادة، بهم فتح الله وبهم يختم، لهم أتولى ومن أعدائهم أتبرأ.

ففاضت دموع سعيد وهو يسمع هذه الكلمات من الشيخ بسيوني، وقد أعلن إيمانه، وركب سفينة النجاة، واستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها

والله سميع عليم. ولم تسع سعيداً الفرحة وهو يرى أنّ جهوده وأتعابه التي بذلها مع هذا الشيخ المصري لم تضع سدى، وإنما أثمرت هذا الإيمان الراسخ والعقيدة التي أبتنيت على أساس المعرفة والدليل، بحيث يكون صاحبها مؤمنا راسخ الإيمان.

الشيخ: أراك تبكي يا سعيد؟

سعيد: وكيف لا يا شيخ، وأنا أراك قد خرجت من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى المعرفة، ومن الضياع إلى الحق . ما أعظم فرحي بذلك! ولا يسعني إلّا أن أسجد لله عزوجل شكراً وامتناناً، إذ جعلني سبباً لهذا التحول العظيم في عقيدتك.

الشيخ: وأنا احمد الله وأشكره ملْ الأرض والسّماء وعدد قطرات الماء، وذرات الهواء الذي هداني لولاية علي عليه السلام وأولاده الأوصياء وما كنت لأهتدي لولا أن هداني الله، وأسأل الله بحق محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يجعلني من شيعتهم المقبولين عندهم، وأن يرزقني شفاعتهم، وأن يحشرني معهم، وأن يُسكنني جنّتهم ويرزقني مرافقتهم.

سعيد: آمين رب العالمين، وأنا أرجو منك أن تدعو لي وأنت في هذا المقام ؛ لأنّك الآن موضع نظر الله ورحمته، ونظر النبي الأكرم الذي لا يبعد عنا إلا بضعة امتار، ونظر أهل البيت عليهم السلام فلله درك، وعلى الله أجرك يا شيخ بسيوني.

الشيخ: لي طلب أخير يا أخي سعيد أرجو أن لا تردّه.

سعيد: تفضل يا أخي فأنا بخدمتك.

الشيخ: أريدك أن تعلمني معالم العقيدة والفقه على مذهب أهل البيت عليهم السلام بشكل كامل.

سعيد: حُبّاً وكرامة يا شيخ وسوف نبدأ من هذه الليلة وسوف نحجُّ معاً ان شاء الله تعالى، وأنا أدعوك لزيارة العراق بعد إكمال شعائر الحج لتتعرف بنفسك على الحوزة العلمية التي هي المؤسسة الدينية الأساسية عند الشيعة، وسوف تشاهد حياة علماء الشيعة الذين يسيرون على نهج أهل البيت عليهم السلام علماً وعبادة وزهداً وورعاً .

وسوف تكون ضيفي في هذه الرحلة نحو العراق إن شاء الله.

الشيخ: جزاك الله خير الجزاء وهذا فضل وخدمة جديدة تبديها لي يا أخ سعيد، وأنا لا انسى فضلك عليّ ما حييت .

سعيد: بل الفضل لله عزوجل وكل هذا ببركة محمّد وآل محمد الذين شملتنا رعايتهم وبركاتهم في كل حياتنا.

ثم أخذ سعيد بتعليم الشيخ بسيوني المعالم الأساسية للعقيدة والفقه لمذهب أهل البيت على طول إقامتهم في الديار المقدسة. وبعد انقضاء موسم الحج اصطحب سعيد الشيخ معه إلى العراق حيث تفاجأ الشيخ بما رآه هناك وأزداد يقيناً إلى يقينه، وإيماناً إلى إيمانه.

وهكذا طوى سعيد صفحة من صفحات حياته التبليغية لله ولرسوله ولأهل البيت عليهم السلام ولسانه لهج في كل ذلك بشكر الله وحمده والثناء عليه الذي جعله من الداعين إليه وإلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو يشعر بأنّه مصداق لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ وَ كَفَى بِاللهِ حَسِيباً﴾ [الاحزاب: ٣٩].



مباحث المعاد يوم القيامة

لازالت آثار البهجة الروحية في لقاء الله تهيمن على كـل وجـود سـعيد، حيث أن الحج إلى بيت الله يخلق عند الإنسان شعوراً بطيّ صفحات الماضي المظلمة وفتح صفحة جديدة مع الله عزوجل أُساسها الإيمان والمعرفة والحركة والسعي نحو الاتصال بالمطلق، ونبذ الدنيا بزخارفها وزبارجها.

سعيد الذي استقبله الأهل والأحباب وهو عائد من الديار المقدسة، كان سعيداً جداً لعودته إلى الوطن العزيز، إلى الأهـل والأصـدقاء، إلى تـلك الربـوع الحبيبة التي تضمّ بين نخيلاتها أعذب الذكريات وأعزّ الأيّام .

ما أُسرع ان مرت الأيام والليالي! فها هو شهر قد مضى على مجيئ سعيد، الجميع في سعادة وسرور ولكن قدر الحياة ان السـعادة لا تـدوم والبـهجة لا تستمر فمنغصات الحياة كثيرة ومعكراتها بلا إحصاء، لاسيما المصائب التي تحل على الإنسان وتداهمه من حيث لا يشعر وكلُّ ذلك ابتلاء من الله للبشر لكي يتميز المؤمن من الكافر. وفي البلايا عبر ودروس يستلهم الواعي منها الكثير، وسعيد وعائلته كبقية الناس لا يخلون عن مثل هذه الأُمور التي هي سنة الله في عبادة فقد حدث ما يعكر صفو السعادة وبهجة الحياة حيث فقد سعيد عمّه الكبير الذي كان شخصية متميزة ومحترمة في العائلة وعند النـاس. فـقد رن جرس الهاتف في الصباح الباكر فرفع سعيد السماعة وإذا بابن عمه ينتحب في وجهه قائلاً: بأن أباه قد مات.

استقبل سعيد هذا النبأ بإيمان ورباطة جأش وحاول ان يصبّر ابن الفقيد

ويسليه وقال له: سوف نكون عندكم خلال دقائق معدودة ؛ لأنّ بيت عمّه لا يبعد كثيراً عن بيتهم.

اخبر سعيد والده وبقية افراد العائلة بهذا الخبر الحزين، وتحركوا باتجاه بيت الفقيد الذي كان مسجى على فراشه، والناس من كل مكان قد تجمهروا امام البيت، ينتظرون وصول الاقارب ليتم اجراء مراسيم الدفن على الفقيد، وما ان حل الظهر، حتى كان الفقيد قد غسل وكفن وصلي عليه، وشيع بعد صلاة الظهر من قبل أهل المحلة والاقارب والاصدقاء بابهى تشييع، وحملته السيارة متوجهة به إلى أرض الغري، حيث مرقد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، من أجل ان يدفن في وادي السلام على عادة العراقيين في دفن موتاهم، وقد أوكل الاقارب مهمة مرافقة الجنازة إلى سعيد ومجموعة من الاصدقاء، فانطلقت القافلة المكونة من ثلاثة سيارات نحو النجف الأشرف لدفن الفقيد هناك.

أقامت العائلة مراسيم العزاء، لمدة سبعة أيّام على حسب العادة المتبعة، يقدمون فيها الغذاء للفقراء والمحتاجين ويهدون ثواب ذلك إلى فقيدهم العزيز. وفي هذه الاثناء أخذ الاقارب البعيدون يتوافدون إلى بيت الفقيد من كلّ أنحاء العراق . وكان من بينهم الابن الأكبر للمرحوم ويسمى حمزة الذي كان يسكن في بغداد العاصمة، ويعمل استاذاً في الجامعة لقسم الفلسفة، ولم يكن متديناً خلافاً لجميع العائلة، ولم يكن له تواصل اجتماعي وثيق مع أفراد عائلته وأقاربه.

رجع سعيد بعد يومين من النجف الأشرف هو ومن معه، وكان العزاء لايزال مستمراً، وقد اجتمع هو وحمزة عدة مرات، لم يكن سعيد خلالها مرتاحاً لأفكار حمزة حيث كان يعلق على بعض الكلمات الصادرة من الناس أمثال «ان

شاء الله سيكون المرحوم في جنة الله وهو الآن في سعادة وراحة لانّه إنسان مؤمن صالح» هذه الكلمات وامثالها يستقبلها حمزة بالسخرية وعدم الإيمان واخذ يشكك الناس في الحياة الأُخرى، ويدّعي بان الإنسان إذا مات انقطعت صلته مع الحياة إلى الأبد، وسوف ينعدم ويصبح خبراً بعد عين، وكان يقول: انّه من السخافة أن يعتقد الإنسان بوجود جنة ونار وثواب وعقاب أو عذاب أو نعيم في القبر، فكل ذلك لا معنى له وما هي إلّا خرافات جاءت بها الأديان وهي غير مستندة إلى دليل.

كان سعيد يسمع هذه الكلمات من ابن عمه حمزة ولكنّه لم يحاول فتح النقاش معه؛ لأن الوقت غير مناسب حيث الكل مشغول في العزاء، والحزن يخيم على الجميع. ولكنه قال لابن عمّه يوماً :

عزيزي حمزة هل بالإمكان ان تبقى لعدة أيّام في البصرة بعد الانتهاء من مراسيم العزاء؟

حمزة: وماذا تريد منّي يا سعيد ؟

سعيد: أريد أن أبيّن لك بالبرهان الساطع بأنك على خطأ في تفكيرك ومنهجك وعقيدتك في الحياة الأُخرى للإنسان بعد موته.

حمزة: اعتقد بأنّي أكبر من أن أكون تلميذاً لشاب صغير مثلك، لاسيما وأنا استاذ الفلسفة في جامعة بغداد فكيف تريدني أن أُصغي إليك في حين من المفروض بك ان تكون أنت كذلك، لكي أُخرجك من الخرافات التي تعيش فيها أنت وهؤلاء الناس.

سعيد: لا بأس ما رأيك بالنقاش في هذا الموضوع، فإذا استطعت أن أُقنعك وأُلزمك بالدليل على ما تسمّيه خرافات، فلا بد ان تسلم لي وتغير

قناعاتك. وأما إذا استطعت أن تقنعني فسوف أُسلم معك واتبنى كل افكارك.

حمزة: فكرة جيدة وأنا من أجلك سوف أبقى هنا إلى أن ينتهي النقاش فيما بيننا.

سعيد: جيد على بركة الله، وما هي الا يومان وينتهي العزاء لنبدأ بعدها بالنقاش، وليكن في بيتنا ما رأيك؟

حمزة: لا مانع عندي أبداً.

وسرعان ما انصرم اليومان حتى دعا سعيد حمزة إلى بيته للبدء في المحاورة حول المعاد.

جلس حمزة يحرك سبحته الصفراء، وهو ينظر إلى المكتبة الكبيرة التي تملأ حجرة سعيد التي تحوي مصنفات من جميع العلوم ولا تقتصر على الكتب الدينية، وبعد ان استقبل سعيد ابن عمه بادره بالسؤال قائلاً:

سعيد: إيه يا أخي يا أُستاذ حمزة، لماذا تنكر المعاد الذي دل عليه العقل وأكدته كل الديانات السماوية؟

حمزة: وأين دليل العقل الذي تدعيه يا سعيد.

الأدلة العقلية على المعاد

سعيد: في البداية أُريد أن أسألك هل أنت مؤمن بالله سبحانه خالق العالم أم لا ؟

حمزة: نعم انا أُؤمن بأنّ لهذا العالم خالقاً حكيماً عليماً.

سعيد: هذا عظيم للانطلاق في البحث. وأريد أن اوجه لك سؤالاً آخر

وهو: هل إنك تؤمن بالأنبياء الذين هم سفراء الله إلى خلقه أم لا ؟

حمزة: نعم أُؤمن بهم.

سعيد: فكيف تنكر المعاد اذن؟ في حين ان الأنبياء صرحوا بذلك وأكدوا عليه، بل إنّ كلّ الأديان السماوية لا تشك في هذه العقيدة.

حمزة: انا أرى ان الأنبياء أرادوا ان يصلحوا الحياة الدنيوية للإنسان، والجنة والنار ليس لهما مكان سوى الدنيا، حيث ان الإنسان إذا تمكن من تحقيق الرقي والسعادة من خلال الحفاظ على الحقوق والواجبات ؛ فانّه يعيش الجنة الحقيقية، وهذا هو الهدف من وجود الدين، وأمّا لو لم يراعِ كلّ ذلك، فإن المجتمع البشري سوف يعيش القلق والتفكّك والحروب والمجاعات والأمراض والجرائم، وهذه هي النار حقيقة. فانا أُؤمن بأن السعادة والشقاوة في الحياة الدنيا هي حقيقة الجنة والنار، ولا وجود لعالم آخر فيه ما تدّعون.

سعيد: ولكن هل تتصور بأنّه من الممكن أن يتحقق ذلك في كل الأزمنة أو أغلبها، فمن الواضح أنّ البشرية على طول التاريخ قاست الويلات من الحروب والدمار فأين الجنة؟ ان هذا الذي تقوله مخالف لصريح القرآن وساطع البرهان.

حمزة: أود ان تذكر لي البرهان الذي تذكرني به في كلّ ساعة.

سعيد: لا بأس، فهناك عدة أدلة عقلية وليس دليلاً واحداً.

الدليل الأوّل:

المعاد والعدل الإلهي

المقدمة الأُولى: كل عاقل يدرك أنّ المحسن والمسيئ ليسا سواء، فالعالم والجاهل ليسا سواء، والمتخلق بالأخلاق الفاضلة كـالجود والكـرم، والمـتخلق بالأخلاق الرذيلة كالبخل والحسد، ليسا سواء.

والمقدمة الثانية: ان العقل يحكم بقبح عدم مجازاة كلّ واحد من المحسن والمسيئ بما يتناسب وعمله.

المقدمة الثالثة: إنا نرى المحسنين والمسيئين لاينالون جزاء أعمالهم كما ينبغي في هذه الدنيا.

إذن إذا لم تـوجد دار أُخـرى يـتحقق فـيها الحسـاب والجـزاء والعـقاب المتناسب مع عقائد الناس، وأعمالهم لكان ذلك ظلماً. في حين ثبت بالدليل ان الله تعالى ليس بظالم ؛ لأنّ الظلم قبيح، وواجب الوجود يتنزه عن ذلك.

ومن هنا نصل إلى أنّ عدل الله تعالى يستوجب وجود البعث والحساب والثواب والعقاب. وهذا ما نصّ عليه الذكر الحكيم بقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـالِحَاتِ كَـالْمُفْسِدِينَ فِـي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَـجْعَلُ ٱلْـمُتَّقِينَ كَـالْفُجَّارِ﴾ [سورة ص: ٢٨] .

أو قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَـالَّذِينَ آمَـنُواْ وَعَـمِلُواْ ٱلصَّـالِحَاتِ سَـوَآءً مَّـحْيَاهُمْ وَمَـمَاتُهُمْ سَآءَ مَـا يَـحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١].

حمزة: جيد يا سعيد وماذا عندك أيضاً ؟

الدليل الثاني:

المعاد وصيانة الخلقة عن العبث:

سعيد: هناك دليل ثانٍ، وهو عبارة عن كون المعاد يصون الخلقة عن العبث.

حمزة: وكيف ذاك ؟

سعيد: نحن نعلم من خلال أدلة التوحيد ومعرفة الله بأنّه سبحانه عندما خلق هذا العالم لم يخلقه إلّا لسبب وداع وهدف عظيم، وفرضية الخلق العبثي أو اللاهادف فرضية باطلة لا تقوم على أساس علمي، بل العكس هو الصحيح. وعندما خلق الله الإنسان وميزه عن باقي الموجودات بالعقل، والإرادة والاختيار وجعله نتيجة لذلك خليفة له في أرضه ومحطاً للتكاليف الإلهية وأرسل له الأنبياء والمرسلين، وأنزل له الكتب الإلهية التي تشتمل على الأوامر والنواهي والقوانين التي تنظم حياته، إنّما جعل كل ذلك من أجل هدف عظيم وكبير، وهذا ما يشير إليه الذكر العظيم بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. فهنا يتبين بأنّ الآخرة هي الغاية من وجود الإنسان، بل وكل هذا العالم كما يقول سبحانه في آية أُخرى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٤٠].

حمزة: ولكن لماذا تفرضون ان الآخرة هي الغاية؟ لماذا لا تكون غـاية الخلق هي الدنيا؟ وبالتالي نحافظ على عدم عبثية الخلق من جهة من دون أن نقول بوجود عالم آخر نسميه المعاد.

سعيد: لي على سؤالك جوابان نقضي وحلّي: أما الجواب النقضي فان كون المعاد هو الغاية وليس الدنيا هو الذي نطق به القرآن الكريم الذي ثبت بالدليل كونه كتاباً منزلاً من الله عزوجل، ولابد أن نؤمن بكلّ ما جاء به.

وأمّا الجواب الحلي، فإن الدنيا لا يمكن أن تكون غاية الخلق لما نرى فيها من زوال وأضمحلال. فالإنسان فـيها لا يسـتطيع أن يـتمّ دورة الحـياة بشكل إيجابي أو يستطيع استثمار الطاقات الهائلة التي أو دعت فيه. فلو افترضنا أنّ إنساناً عاقلاً ذا شعور وإدراك مهّد بـمقدمات لعـمل يـنطوي عـلى أهـداف محددة، ثم نقض تلك المقدمات قبل أن تثمر، فعندئذ فقط نطلق على مثل هذه العملية وصف العبث وانها شبيهة باللعب.

حمزة: لم أفهم ما تقصد بالضبط.

سعيد: سوف أُوضح لك ذلك من خلال مثالين: ـ لنفرض أنّ رجلاً بـدأ بحرث قطعة من الأرض وأعدّها للزراعة، مع انّه يعرف انه سيقوم بعد شهرين ببناء عمارة على هذه القطعة، أو يطرأ عليها تغيير لا يسمح باستغلالها زراعياً، ومع ذلك تراه قد يحرث الأرض، ويزرع الزرع، مع انّه يعلم ان هذه البـذور لا تعطي حاصلها في دورة حياتها الطبيعية قبل ستة أشهر. وبعد مضي شهرين جاء بمكائن الحفر، وبدأ بتخريب ما زرعه لكي يشيد العمارة مكانها. مثل هذا العمل يقال له لغو وعبث ؛ لأنّ صاحبه يعرف أن تغييرات سوف تطرأ عـلى الأرض

تسبق إثمار البذور، لذلك كان عليه أن يستثمر الأرض بعمل يعطي نتائجه بمدة أقل تسبق التغييرات.

وأمّا المثال الثاني الذي ربما يكون أدق من المثال الأوّل فهو مثال الجنين، فنحن نعرف أن الجنين وهو في الرحم مزوّد بأعضاء وجوارح من قبيل العين والأذن وجهاز التنفس واليد والرجل وغيرها. مع انّه لا يستفيد منها في دنياه داخل الرحم؛ لانّه يعيش حياة نباتية هناك.

وتمضي الأجنة دورة حياتها الجنينية في الرحم لمدّة تسعة أشهر، وبذلك يكون من حقّنا ان نسأل عن بواعث تزويدها بهذه الجوارح والأعضاء التي لا تتفتح استعداداتها في ذلك العالم، لو أنّ دورة هذا الموجود الطبيعية اقتصرت على الأشهر التسعة التي يمضيها في حياة نباتية داخل الرحم، فهو مثلاً لا يستخدم رئته في التنفس حتى مرة واحدة، وكذلك بقية الجوارح والأعضاء .

فلو أنّ دورة الحياة الطبيعية لهذا الكائن اقتصرت على هذه المدة بحيث يموت وينتهي كل شيء بعد تسعة أشهر، لكان تزويده بهذه الأعضاء والجوارح عبثاً ولغواً وباطلاً.

ومن هنا ينجلي عندنا المعنى الدقيق للآية الكريمة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾. حيث يريد القرآن ان يعبر لنا عن هذه الحقيقة. فلو تصورنا أنّ الإنسان ينتهي وتنعدم دورة حياته في هذه الدنيا، مع تزويده بهذا البدن والأعضاء والجوارح، فعندئذ يكون كمن افترض خلقه عبثاً. فوجود الإنسان ينطوي على أجهزة واستعدادات لا تتناسب مع هذه الدنيا، بل هي تتناسب مع حياة أُخرى بعد هذه الحياة وتلك هي استعدادات ووسائل الحياة

الأبدية التي جهز بها.

حمزة: كلام جميل يا سعيد، ولكن ما هي تلك الوسائل التي تتناسب مع الحياة الآخرة ولا تتناسب مع الحياة الدنيا ؟

سعيد: لقد ثبت بالأدلة الفلسفية يا استاذ حمزة وانت تعلم بذلك ان للإنسان حقيقة بسيطة مجردة وراء هذا البدن المادي، وهذه الحقيقة لا تقبل التجزئة، وهي الروح التي من المفترض أن العدم لا يطرأ عليها. والعدم بالأساس ليس جزءاً من التجزئة، بل ليس هناك وجود لعدم واقعي في العالم، فجميع العوادم في الدنيا هي تعبير عن تجزئة المركبات وتغيير في الحالات، فالمركبات تزول بتغيير الحالة، أي تزول صورة المركب من باب ما يطرأ على أجزائه من تغيير في الحالة.

والخطاب القرآني موجهاً للإنسان، ولو كان الأمر مقتصراً على هذه الحياة الدنيا كما يُظن، لما خلق الله الإنسان، بل لكان وجود هذه النباتات والأحجار كافياً.

فالصخور مثلاً لا تحشر ، بل كل ما جهزت به يخلق بها الاستعداد لهذه الدنيا وحدها ليس أكثر. وهذه النباتات لا تُحشر أيضاً؛ لأن كل ما جهزت به يؤهلها لهذه الدنيا، وهي غير مستعدة لما هو أكثر، وبالتالي فإن مصيرها ينتهي في هذه الدّنيا أيضاً .

أمّا الإنسان فلو لم تكن له قيامة ومعاد، لكان معنى ذلك انّه ينتهي في الخطوة الأولى من خط الخلق، مع أنّ كماله لم يظهر في هذه الدنيا. ويلزم من هذا الفرض أن تكون الأجهزة التي ينطوي عليها الإنسان عبثاً لا طائل من ورائه. فكما أنّ الحياة الدنيا هي التعليل لخلق الأعضاء في الجنين، فكذلك

الآخرة تعليل للإنسان بما هو إنسان.

لقد خلق في الإنسان «المثال» والعقل كما خلقت فيه عواطف سامية رفيعة للتوجه إلى الله، واستعداد الاتصال بالله سبحانه، وهذه الاستعدادات جميعاً هي لمحل آخر. ولو أُسدل الستار على الإنسان وانتهى كل شيء في هذه الدنيا، فكأن جميع هذه الاستعدادات في حكم اللغو والعبث.

حمزة: أحسنت يا سعيد على هذا البيان الرائع والتمثيل الجذاب. وإذا ثمة دليل آخر فعليّ به .

سعيد: نعم يا أخي العزيز .

الدليل الثالث:

المعاد خاتمة المطاف في تكامل الإنسان

أنت تعلم يا أخ حمزة بأنّ الحركة تتقوم بأمور ستة أرجو أن تذكرها لي باعتبارك استاذا في الفلسة.

حمزة: إنّ الحركة فلسفياً تتقوم وتتوقف في وجودها على أُمور ستة كما ذكرت وهي: المبدأ الذي منه الحركة، والمنتهى الذي إليه الحركة، والموضوع الذي له الحركة، وهو المتحرك، والفاعل الذي يوجد الحركة، وهو المحرّك، والمسافة التي فيها الحركة، والزمان الذي تنطبق عليه الحركة نوعاً من الانطباق.

سعيد: أحسنت يا أُستاذ حمزة. ولو سألتك مرة أُخرى لماذا نشترط الغاية في الحركة؟

حمزة: إنّ اعتبار الغاية في حقيقة الحركة ينشأ من تصور مفهومها، فإنّ الحركة جهد وسعي، يتطلّب صاحبها غاية يقصدها، من غير فرق من أن تكون تلك الغاية عقلائية، كحركة الطالب لتحصيل العلم، أو غير عقلائية، كاللّعب بالسبحة لترويح النفس .

سعيد: أحسنت مرة أُخرى يا أُستاذ حمزة، وعلى ضوء جوابكم اللّطيف سوف ننطلق في حديثنا لإثبات المعاد.

حمزة: كيف ؟

سعيد: حينما نتأمل في الإنسان نجده منذ تكونه نطفة فعلقة فمضغة، إلى أن يفتح عينه على الوجود، في حال حركة دائمة وسعي متواصل ليس له ثبات ولا قرار، وهو يطلب بحركته وسعيه شيئاً يفقده، فعلى ذلك لابدّ من وجود يوم يزول فيه وصف اللاقرار، ويدخل منزلاً فيه القرار والثبات، يكون غاية المطاف.

حمزة: ولماذا تفترض أنّ القرار هو في المعاد، ولماذا لا يكون الموت هو القرار ونهاية السعي والحركة.

سعيد: الخطأ في تفسير الموت بالقرار والجمود والنهاية وبطلان الإنسان وشخصيته الساعية؛ لأن مثل هذا التفسير هو إبطال للغاية التي كان يتوخاها من حركته، فلابد أن يكون الموت وروداً إلى منزل آخر، يصل فيه إلى الغاية المتوخاة من سعيه وجهاده، وذلك المنزل هو النشأة الأُخروية.

حمزة: لِمَ لا تفترض أنّ الغاية من الحركة والسعي والكدح في الإنسان

هو نيل اللّذائذ المادية والتجملات الظاهرية.

سعيد: لا يمكن أن تكون هذه اللّذائذ هي غاية حركة الإنسان الوجودية لوضوح أن الإنسان مهما نال منها، لا يخمد عطشه، بل يستمر في سعيه وطلبه، وهذا يدلُّ على أنّ له ضالة أُخرى يتوجه نحوها، وان لم يعرف حقيقتها، فهو يطلب الكمال اللائق بحاله، ويتصور أنّ ملاذُّ الحياة غايته، ومنتهى سعيه ولكنه سوف يرجع عن كل غاية يصل إليها ويعطف توجهه إلى شيء آخر .

حمزة: هل في القرآن آيات تدل على هذا الموضوع.

سعيد: بلا شك هو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٤ ـ ١٦]. فإنك إذا لاحظت هذه الآيات، وما تقدمها ممّا يتكفل بيان خلقة الإنسان،ترى لها انسجاماً وترابطاً خاصاً، فالله سبحانه يصف الإنسان بأنّه كان نطفة فعلقة فمضغة، إلى أن أنشأه خلقاً آخر ثم يوافيه الموت، ثم يبعث يوم القيامة، فكأن الآية تبين تطور الإنسان تدريجاً من النقص إلى الكمال، ومن القوة إلى الفعل، وانّه منذ تكوّن يسير في مدارج الكمال، إلى نهاية المطاف وهو البعث يوم القيامة، فهذه غاية الغايات ومنتهى الكمال.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٥ ـ ٤٧].

شبهات حول المعاد

الشبهة الأُولى: عدم تجرّد النفس الإنسانية

حمزة: أحسنت يا سعيد، ولكنّ هناك مشاكل عديدة تواجه أدلتكم التي أُقمتموها على المعاد، منها أنكم بنيتم هذه الأدلة على أساس وجود البعد الآخر للإنسان، وهو ما سميتموه بالروح المجردة أو النفس المجردة في حين أنّ هذا غير ثابت فلسفياً، والواقع أنّنا ندعي بأنّ الإنسان ليس فيه هذا الذي تذكرونه، وانما هو مجموعة من الخلايا والأعصاب التي يعيش فيها الإنسان بجسده هذا، وان حياته كحياة سائر الكائنات الحية الأُخرى من نبات وحيوان، وبالتالي فإنّ الإنسان يموت كما تموت الأشجار وتجفّ، وكما تموت القطط والكلاب، وان جثة الإنسان الميت وجسمه كجثث سائر الحيوانات تتهرأ وتتفتت تحت الأرض، حيث تعود العناصر والمواد المعدنية التي يتكون منها الجسم إلى دورة الطبيعة، وبذلك ينتهي الإنسان بكل أبعاده الوجودية ولا يبقى منه شيء باسم الروح في عالم ما وراء الطبيعة.

سعيد: أنت إذن تتبع المنهج المادي في مسألة الروح ولابد حينئذ من إثبات تجرد النفس الانسانية من أجل ان يزول هذا الإبهام عنك.

براهين تجرد النفس الانسانية:

البرهان الأوّل: ثبات الشخصية الإنسانية في دوامة التغيرات الجسدية .

وهذا البرهان يتوقف على مقدمتين :

الأُولى: أنّ هناك موجوداً تنسب إليه جميع الأَفعال الصادرة عن الإنسان ذهينته كانت أو بدنية. ولهذا الموجود حقيقة، وواقعية يشار اليها بكلمة «أنا».

الثانية: إنَّ هذه الحقيقة التي تُعدُّ مصدراً لأفعال الإنسان، ثابتة باقية ومستمرة في مهب التغيرات. وهذا آية التجرد.

حمزة: كلامك ادعاء يحتاج إلى دليل فكيف استطعت من خلال المقدمتين ان تثبت التجرد المزعوم.

سعيد: اما المقدمة الأُولى يا عزيزي حمزة فلا تحتاج إلى بحث كثير؛ لأنّ كل واحد ينسب أعضاءه إلى نفسه ويقول: يدي، رجلي، عيني أُذني، قلبي... كما ينسب أفعاله إليها ويقول: قرأت، كتبت، أردت، أَحببت... وهذا ممّا يتساوى فيه الإلهي والمادي ولا ينكره أحد، وهو بقوله «أنا» و «نفسي» يحكي عن حقيقة من الحقائق الكونية، غير أن اشتغاله بالأعمال الجسمية يصرفه عن التعمق في أمر هذا المصدر والمبدأ، وربما يتخيل أنّه البدن، ولكنه سرعان ما يرجع عنه إذا أمعن قليلاً حتى انّه ينسب مجموع بدنه إلى تلك النفس المعبر عنها بـ «أنا».

وأمّا المقدمة الثانية، فكل واحد منّا يُحسُّ بأنَّ نفسه باقية ثابتة في دوامة التغييرات والتحولات التي تطرأ على جسمه، فمع انّه يتصف تارةً بالطفولة، وأُخرى بالصبا، وثالثة بالشباب، وأخيراً بالكهولة.

مع ذلك كلّه يبقى هناك شيء واحد تستند إليه جميع الحالات، فيقول: أنا الذي كنت طفلاً ثم صرت صبياً، فشاباً، فكهلاً، وكلُّ إنسان يحس أنّ في ذاته حقيقة باقية وثابتة رغم تغير الأحوال وتصرم الأزمنة، فلو كانت تلك الحقيقة التي يحمل عليها تلك الصفات أمراً مادياً مشمولاً لسنة التغير والتبدل، لم يصح حمل تلك الصفات على شيء واحد، حتى يقول: أنا الذي كتبت هذا الخط يوم كنت صبياً أو شاباً، فلولا وجود شيء ثابت ومستمر إلى زمان النطق، للزم كذب القضية، وعدم صحّتها، لأنّ الشخصية التي كانت في أيّام الصبا قد زالت ـ على هذا الفرض ـ وحدثت بعدها شخصية أُخرى .

أنت تعلم يا أخ حمزة بأنّ العلم قد أثبت أنّ التغير والتحول من الآثار اللازمة للموجودات المادية، فلا تنفك الخلايا التي يتكون منها الجسم البشري، عن التغير والتبدل، فهي كالنهر الجاري تخضع لعملية تغير مستمر، ولا يمضي على الجسم زمن إلّا وقد احتلت الخلايا الجديدة مكان القديمة. وقد رصد العلماء معدل هذا التجدد فظهر لهم أنّ التبدل يحدث بصورةشاملة في البدن مرة كل عشر سنين .

وعلى هذا، فعملية فناء الجسم المادي الظاهري مستمرة، ولكنّ الإنسان الذي هو في الداخل «أنا» لا يتغير. ولو كانت حقيقة الإنسان هي نفس هذه الخلايا كما تدعي أنت ذلك لوجب أن يكون الإحساس. بحضور «أنا» في جميع الحالات أمراً باطلاً، وإحساساً خاطئاً.

وحاصل هذا الدليل هو: وحدة الموضوع لجميع المحمولات، وثباته في دوامة التحولات، وهذا على طرف نقيض من كونه مادياً.

حمزة: الاتجاه المادي يقول بأن الأساس في الأشياء كونها محسوسة

تقام عليها التجربة وتدرك بواسطة المختبرات أو المشاهدات ولذلك يقول «بروسه»: طالما اني لم اشعر بردة فعل الروح بواسطة الأدوات الجراحية، ولم أشاهدها بعيني فإنّي لا أُصدق وجود الروح.

سعيد: هذا الكلام يقودنا إلى بيان الدليل الثاني على تجرد النفس :

الدليل الثاني: عدم الانقسام دليل على تجرد النفس الإنسانية .

أُريد أن أسأل هذا الاتجاه المادي الذي يريد أن ينفي وجود الروح لأنّه لم يشاهدها بالأدوات الجراحية أو بالمشاهدة الحسية، هل إننا ندّعي بأنّ الروح مادية حتى يسوغ له أن يقول بأني ما دمت لم اشاهد الروح اذن ليس لها وجود؟ ان هذا الكلام ليس منطقياً لاننا ندعي بان الروح مجرّدة وليست مادية.

حمزة: وهذا هو محل الإشكال يا سعيد فان الاتجاه المادي ينفي وجود شيء خارج إطار المادة وليس فقط الروح.

سعيد: لقد ثبت فلسفياً في نظرية المعرفة خطأ هذا الاتجاه ولا نريد ان يتحول بحثنا إلى نظرية المعرفة، ولكن أريد فعلاً أن أُثبت لك خطأ هذا الاتجاه في هذه المسألة بالخصوص وهي أيضاً دليل من أدلة نظرية المعرفة في شمول الحقائق إلى ما وراء الطبيعة المحسوسة فبحثنا يكتسب ميزتين الأُولى عامة ومنهجية، والثانية خاصة تتعلق بتجرد النفس الإنسانية .

حمزة: تفضل يا سعيد فكلي آذان صاغية.

سعيد: حسناً يا أُستاذ حمزة أُريد أن أسألك: أليس الانقسام والتجزؤ من آثار المادة التي لا تنفك عنها ؛ لأنّ كلّ موجود مادي خاضع لهما بالقوة، وإذا عجز الإنسان عن تقسيم ذلكالموجود فلأجل فقدانه أدواته اللازمة؟

حمزة: نعم يا سعيد بكل تأكيد، ولأجل ذلك ذكر الفلاسفة في هذا الصدد بطلان الجزء الذي لا يتجزأ. وما تسميه الفيزياء «الجزء الذي لا يتجزأ»، فانما هو غير متجزيً بالحس لعدم الأدوات اللازمة. وأمّا عقلاً فـهو مـنقسم مـهما تناهى الانقسام؛ لانّه إذا لم يمكن الانقسام، وعجز الوهم عن استحضار ما يريد أن يقسمه ـ حتى بالمكبرات ـ بسبب صغره، يفرض العقل فيه شيئاً غير شيء فيحكم بان كل جزء منه يتجزأ إلى غير النهاية، ومعنى عـدم الوقـوف انّـه لا ينتهي انقسامه إلى حد إلّا ويتجاوز عنه .

سعيد: احسنت يا أُستاذ حمزة، إن ما ذكرته صحيح تماماً بخصوص كل الاشياء المادية، ولكن تعالَ معي إلى جانب آخر، وهو ان كل واحد منا إذا رجع إلى ما يشاهده في صميم ذاته، ويعبر عنه بـ «انا» لوجده معنىً بسيطاً غير قابل للانقسام والتجزؤ، فارتفاع أحكام المادة دليل على أنّه ليس بمادي.

بل أكثر من ذلك فان عدم الإنقسام لا يختص بما يجده الإنسان في صميم ذاته ويعبر عنه بـ «أنا» بل هو سائد على وجدانياته أيضاً من حب وبغض وإرادة وكراهة وتصديق وإذعان. وهذه الحالات النفسانية، تظهر فينا في ظروف خاصة، ولا يتطرق إليها الانقسام الذي هو من أُظهر خواص المادة.

اعطف نظرك إلى حبّك لولدك، وبغضك لعدوك، فهل تجد فيهما تركيباً .

وهل ينقسمان إلى جزء وجزء ؟

حمزة: طبعاً لا، وهذا شيء نحس به بالوجدان.

سعيد: وهو كذلك، فإذا كانت الذات والوجدانيات غير قابلة للانقسام، فلا تكون منتسبة إلى المادة التي يُعَدّ الانقسام من أُظهر خواصها.

فظهر ممّا ذكرنا أنّ الروح وآثارها، والنفس والنفسانيات، كلها موجودات

واقعية خارجة عن إطار المادة، ومن المضحك قول المادي ان التفحص والتفتيش العلمي في المختبرات لم يصل إلى موجود غير مادي حتى نذعن بوجوده، فقد عزب عنه أن القضاء عن طريق المختبرات يختص بالأمور المادية، واما ما يكون سنخ وجوده على طرف النقيض منها، فليست المختبرات محلاً وملاكاً للقضاء بوجوده وعدمه.

حمزة: لقد استفدت اليوم الكثير منك يا سعيد وما كنت أظنُّك بهذا المستوى العلمي والمعرفي، وانا اتشرف بأن لي أبن عم مثلك بهذا المستوى، وأرجو منك ان نكمل البحث في الأيّام المقبلة ؛ لأنَّ عندي الكثير من الاشكالات والمسائل التي لابد أن تجيبني عنها وتوضّحها لي.

سعيد: أنا بخدمتك يا أخي العزيز وليكن موعدناً غداً إن شاء الله مثل وقت اليوم.

ثم ودّع حمزة وعائلته ورجع إلى بيت والده وهو يفكر بكل كلمة قالها سعيد، وهو مندهش أشد الاندهاش على المستوى الذي وصل إليه سعيد في الفترة التي لم يلتق به فيها .

شبهات أخرى حول المعاد:

قضىٰ حمزة يوم أمس مسروراً جداً للحوار الذي دار بينه وبين سعيد، وانشغل بمطالعة بعض الكتب التي تحويها المكتبة العائلية الصغيرة، وكان في أحر الشوق لمجيئ موعد لقائه مع سعيد. وأمّا سعيد فكان عنده اعمالُ كثيرة لا بد من القيام بها ولذلك فان وقته كله مشغول.

جاء حمزة إلى بيت سعيد ولكنه لم يجده، حيث إن سعيداً كان خارج المنزل ولم يكن قد أتى بعد .

استقبل الحاج عبد الله ابن اخيه، وأخذا يتبادلان أطراف الحديث، وقد ركّز الحاج عبد الله في حديثه مع حمزة على توصيته برعاية أهله وإخوته بعد فقد أبيه، لاسيما وهو الولد الأكبر الذي تشخص إليه الأبصار، وقد وعد حمزة عمّه بأنّه سوف يغيّر منهجه السابق في عدم التواصل لأنّه بدأ يشعر بالمسؤوليةبعد وفاة أبيه .

لم يطل جلوس حمزة كثيراً مع عمّه، حتى قدم سعيد مشرق الوجه والابتسامة تغطّي محياه فرحّب بحمزة أشد الترحيب معتذراً منه بسبب التأخير الذي لم يكن بأرادته، بل لظروف قاهرة. وبعد ان استراح سعيد قليلاً جاء بالشاي والكعك إلى حمزة وأخذا يحتسيان الشاي وهم في فرح وسرور.

حمزة: هل أنت مستعد لإكمال البحث يا سعيد.

سعيد: بكلّ سرور تفضل أفرغ جعبتك يا حمزة.

حمزة: لقد اقتنعت بأن المعاد لابد من تحقّقه كأصل ثابت، ولكن السؤال الذي أريد طرحه لاسيما بعد الحديث الذي كان بيننا يوم أمس هو: هل إن المعاد يكون للروح فقط أم للجسد فقط أم لكل من الروح والجسد معاً؟ ولا تنسى بأننا في اليوم السابق اتفقنا بأنّه لولا الإيمان بتجرّد النفس لا معنى للمعاد أصلاً وان الموت هو انتقال النفس المجردة من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ.

سعيد: سؤالك منطقي جداً ويحتاج إلى تفصيل، وأنا في البداية أريد أن أنقل لك قول الفيلسوف الكبير صدر المتألهين. ونهض سعيد وأخذ الجزء التاسع من كتاب الأسفار، وأخذ يقلب صفحاته ثم قال: اسمع يا حمزة: يقول صدر

المتألهين رضوان الله عليه: «اتفق المحققون من الفلاسفة والمليين على حقية المعاد وثبوت النشأة الباقية، لكنهم اختلفوا في كيفيته، فذهب جمهور الإسلاميين وعامة الفقهاء وأصحاب الحديث إلى أنّه جسماني فقط، بناءً على أنّ الروح عندهم جسم سار في البدن سريان النار في الفحم، والماء في الورد، والزيت في الزيتونة. وذهب جمهور الفلاسفة وأتباع المشائين إلى انّه روحاني أي عقلي فقط؛ لأنّ البدن ينعدم بصوره وأعراضه لقطع تعلق النفس بها، فلا يعاد بشخصه تارة أُخرى، إذ المعدوم لا يعاد، والنفس جوهر باق لا سبيل للفناء إليه، فتعود إلى عالم المفارقات لقطع التعلّقات بالموت الطبيعي.

وذهب كثير من أكابر الحكماء ومشايخ العرفاء وجماعة من المتكلمين كالغزالي والكعبي والحليمي والراغب الإصفهاني وكثير من أصحابنا الإمامية كالشيخ المفيد، وأبي جعفر الطوسي والسيد المرتضى، والمحقق والعلّامة الحلي إلى القول بالمعادين، ذهاباً إلى أن النفس مجردة تعود إلى البدن.

حمزة: أُفهم من كلام صدر المتألهين بأنّ الملاك من توصيف المعاد بالجسماني والروحاني هو الاعتقاد بتجسم الروح أو تجرده، فمن يعتقد بأنّه جسماني فلا مناص له من القول بالمعاد الجسماني فقط، وأمّا من يعتقد بتجرده، فإن قال باستحالة تعلقه بالبدن ثانيا فلا مناص له من القول بالمعاد الروحانى فقط، ومن لا يقول باستحالته يلتزم بالمعادين معاً.

سعيد: ما قلته صحيح يا حمزة، ولكن من الناحية الفلسفية هناك ملاك آخر غير الذي ذكره صدر المتألهين نطالعه عند ابن سينا في إلهيات الشفاء حيث يجعل الملاك في اتصاف المعاد بالجسماني والروحاني هو حقيقة اللذائذ والآلام، فإن قلنا بأنّ اللذات والآلام الآخروية منحصرة في الجزئية

والمحسوسة منها كان المعاد جسمانياً فقط، وإن قلنا بأنها كلية وعقلية فقط كان المعاد روحانياً فقط، وان قلنا بكلتيهما كان المعاد جسمانياً وروحانياً معاً.

حمزة: وأمام هذا الاختلاف في كيفية المعاد أين يكمن الحق وما الدليل عليه .

سعيد: بلا شك ان الصحيح هو الجمع بين القولين أي المعاد الجسماني والروحاني معاً. ونحن في الحقيقة لا بد لنا ان نرجع إلى القرآن الكريم الذي يكون هو الحكم في مثل هذه الأُمور. وحينما نمعن النظر في الآيات الواردة حول المعاد نقف على ان المعاد الذي يصر عليه القرآن هو عود البدن الذي كان الإنسان يعيش به في الدنيا ولا يصدق عود الروح وحدها فقط، كما انّه لا يخص الثواب والعقاب بالجسمانية عنهما، بل يثبت أيضاً ثواباً وعقاباً روحانيين غير حسيين .

قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [الروم: ٢٥].

وقال عزوجل: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُواْ يَاوَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَانُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢] .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تدل على ثبوت عقاب وثواب على الجسد، وأما الآيات التي تدل على وجود لذائذ وآلام عقلية روحية فمنها قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]. فنراه سبحانه يذكر رضوان الله في مقابل سائر

اللّذات الجسمانية ويصفه بكونه من الأُولى وإنّه هو الفوز العظيم، ومن المعلوم ان هذا النوع من اللذة لا يرجع إلى الجسم والبدن، بل هي لذة تدرك بالعقل والروح في درجتها القصوى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

ويظهر عظم هذا الألم بوقوع هذه الآية قبل آية الرضوان فكأن الآيتين تعربان عن اللّذات والآلام العقلية التي تدركها الروح بلا حاجة إلى الجسم والبدن.

ويقول سبحانه في وصف أصحاب الجحيم: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧]. ان عذاب الحسرة اشد على النفس ممّا يحل من عذاب البدن، ولأجل ذلك يسمى يوم القيامة بيوم الحسرة.

شبهة الآكل والمأكول:

حمزة: أحسنت يا شيخ سعيد، ولكن ثمة مشكلة أُخرى تواجهنا في مسألة المعاد الجسماني، وهي مشكلة الآكل والمأكول.

سعيد: هذه الشبهة يا عزيزي حمزة من أقدم الشبهات التي ذكرت في كتب العقائد حول المعاد الجسماني، وقد استطاع علماء الإسلام ردها بعد أن حللوها بشكل دقيق .

حمزة: طبعاً هناك صورتان لهذه المشكلة، وليست صورة واحدة. فالصورة الأُولى لهذه الإشكالية تقول: لو أكل إنسان كافر إنساناً مؤمناً صار بدنه أو جزء منه جزءً من بدن الكافر، والكافر يعذب بالنار فيلزم تعذيب المؤمن، وهو ظلم له.

سعيد: إن المدرك للآلام واللذائذ يا عزيزي ليس هـو البـدن وإنـما هـو الروح، وما البدن الّا وسيلة لإدراك ما هو محسوس منهما، ومن هنا نفهم بأن صيرورة بدن المؤمن جزءً من بدن الكافر لا يلزم تعذيب المؤمن، لأنّ المعذب في الحقيقة هو روح الكافر ونفسه، لا روح المؤمن، وهذا في الواقع نظير اخذ كلية الإنسان الحي ووصلها بإنسان آخر، فلو عذب هذا الأخير ونعّم فالمعذب والمنعَّم هو هو، ولا صلة بينه وبين من وهب كليته إليه .

حمزة: جيد يا سعيد، ولكن الاشكالية الثانية أقوى وهي: إذا أكل إنسان إنساناً فسوف يصير بدنه المأكول أو جزء منه، جزء من بدن الآكل، وتلك الأجزاء إما تعاد مع بدن الآكل، وأما أن تعاد مع بدن المأكول، أو لا تعاد أصلاً ولازم الجميع عدم عود البدن بتمامه وبعينه، اما في أحدهما كما في الفرضين الأولين، أو في كليهما كما في الفرض الأخير، فالمعاد الجسماني بمعنى حشر الأبـدان بعينها باطل.

سعيد: ان هذه الاشكالية غير واردة أيضاً يا عزيزي لأنّ المعاد الجسماني لا يتوقف على كون البدن المحشور نفس البدن الدنيوي حتى في المادة الترابية، بل لو تكون بدن الإنسان المعاد من أية مادة ترابية كانت وتـعلّقت بـه الروح، وكان من حيث الصورة متحداً مع البدن الدنيوي، يصدق على المعاد إنّـه هـو المنشأ في الدنيا. ومن هنا نجد أنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: «فاذا قبضه الله إليه صيّر تلك الروح إلى الجنة في صورة كصورته فيأكلون ويشربون فاذا قدم عليهم قادم عرفهم بتلك الصورة التي كانت في الدُنيا» [بحار الأنوار: ج ٦ باب أحوال البرزخ حديث ٣٢]. فترى أن الإمام عليه السلام يذكر كلمة صورة، ولعل فيه تذكير بأنّه يكفي في المعاد الجسماني كون المعاد متحداً مع المبتدأ في الصورة من غير

حاجة لان يكون هناك وحدة في المادة الترابية بحيث إذا طرأ مانع من خلق الإنسان منه، فشل المعاد الجسماني، ولم يتحقق. وقد يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١].

ولذلك يقول السيد الطباطبائي في تفسيره الميزان: «البدن اللاحق من الإنسان إذا اعتبر بالقياس إلى البدن السابق منه كان مثله لا عينه، لكن الإنسان ذا البدن اللاحق إذا قيس إلى الإنسان ذي البدن السابق، كان عينه لا مثله؛ لأنّ الشخصية بالنفس وهي واحدة بعينها».

حمزة: أحسنت يا سعيد على هذه الإجابات الشافية وأود ان ننتقل إلى موضوع آخر هو الحياة البرزخية أو حياة ما بعد الموت.

الحياة البرزخية للإنسان:

سعيد: نعم يا اخي حمزة فان الإنسان بعد الموت ينتقل إلى حياة أُخرى تسمى بحياة البرزخ. فعندما تنتهي حياة الشخص في هذه الدنيا ويموت، فإن روحه تنفصل عن جسمه وتنقل إلى عالم البرزخ حيث تواصل حياتها في ذلك العالم. وذلك استناداً إلى ما أُبلغ به الأنبياء المبعوثون من قبل الله، وإذا كان الميت شخصاً صالحاً فسيحصل في ذلك العالم على أجر ما قام به من أُعمال صالحة في الدنيا، وإذا كان شخصاً فاسقاً مرتكباً للذنوب والمعاصي فسوف يتعذب بعقاب ما قام به من أعمال سيئة. ويبقى هذا الوضع مستمراً حتى تقوم الساعة ويبعث الناس من قبورهم بأمر الله حيث يحضرون محكمة العدل الإلهي للتدقيق في حسابهم وقائمة أعمالهم.

حمزة: طيب يا سعيد ولكن ما هو الدليل على وجود هذا العالم.

سعيد: هناك جملة من الآيات والروايات التي تدل على وجود هذا العالم منها قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]. أو قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

حمزة: لم افهم مضمون هذه الآية .

سعيد: ان هذه الآية تحكي عن تحقّق إحياءين وإماتتين إلى يوم البعث. فمراد الآية أن هناك إماتتين الأُولى هي الإماتة عن الحياة الدنيا ثم يليها احياء وهو أحد الإحيائين ثم تليها إماتةٌ ثانية، وهي عند نفخ الصور كما يقول سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨].

ثم يليه إحياء ثان وهو الذي يكون في يوم القيامة. كما يقول تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

وهناك آيات أُخرى تدل على وجود عالم البرزخ كقوله سبحانه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَاراً﴾ [نوح: ٢٥].

فهذه الآية تدل على أنهم دخلوا النار بعد الغرق بلا فصل وهذا ما تشير إليه «الفاء» في قوله: ﴿فَأُدْخِلُواْ﴾ ولو كان المراد هو نار يوم القيامة لكان اللازم الاتيان بـ «ثم» أوّلاً .

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

فهذه الآية تحكي عرض آل فرعون على النار صباحاً ومساءً قبل يوم القيامة، بشهادة قوله بعد العرض ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ولأجل ذلك، عبر عن العذاب الأوّل بالعرض على النار، وعن عذاب الآخرة أخف وطئاً من عذاب يوم الساعة.

حمزة: أحسنت يا سعيد وماذا جاء في السنة غير ذلك؟

سعيد: هناك الكثير من الروايات في هذا الباب، تعج بها كتب الحديث، أنقل لك بعضها للتبرك.

منها: ما في أمالي الصدوق بإسناده عن ابن سنان عن الصادق عليه السلام قال: أُتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقيل له: إن سعد بن معاذ قد مات، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقام أصحابه معه، فأمر بغسل سعد وهو قائم على عضادة الباب، فلما أن حنط وكفن وحمل على سريره تبعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلا حذاء ولا رداء، ثم كان يأخذ يمنة السرير مرة ويسرة السرير مرة أُخرى حتى انتهى به إلى القبر، فنزل رسول صلى الله عليه وآله وسلم حتى لحده وسوى اللّبن عليه وجعل يقول: ناولوني حجراً، ناولوني تراباً رطباً، يسد به ما بين اللّبن، فلما أن فرغ وحثا التراب عليه وسوى قبره، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

إنّي لأعلم أنّه سيبلى ويصل البلى إليه، ولكن الله يحب عبداً إذا عمل عملاً أحكمه، فلما أن سوى التربة عليه قالت أم سعد: يا سعد هنيئاً لك الجنة. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا أم سعد مه، لا تجزمي على ربّك. فان سعداً قد أصابته ضمّة. قال: فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورجع الناس. فقالوا له: يا رسول الله لقد رأيناك صنعت على سعد مالم تصنعه على أحد، انك تبعته بلا رداء ولا حذاء. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ان الملائكة كانت بلا رداء ولا حذاء فتأسيت بها. قالوا: وكنت تأخذ

بيمنة السرير مرة ويسرة السرير مرة. قال: كانت يدي في يد جبرائيل آخذ حيث يأخذ. قالوا: أُمرت بغسله وصليت على جنازته ولحدته في قبره ثم قلت: ان سعداً قد أُصابته ضمّة قال ﷺ: نعم انّه كان في خلقه مع أهله سوء.

ومنها: ما عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ: مر عيسى بن مريم بقبر يعذب صاحبه، ثم مرت من قابل فإذا هو ليس يعذب، فقال: يا رب مررت بهذا القبر عام أوّل فكان صاحبه يعذب، ثم مررت به العام فإذا هو ليس يعذب. فأوحىٰ الله عزوجل إليه: يا روح الله إنّه أُدرك له ولد صالح فأصلح طريقاً وآوى يتيماً فغفرت له بما عمل ابنه.

ومنها: ما عن الصّادق عليه السلام عندما سئل عن أرواح المؤمنين فقال :

«في حجرات في الجنة، يأكلون من طعامها، ويشربون من شرابها، ويقولون ربنا أتمم لنا الساعة وأنجز ما وعدتنا». وسئل عن أرواح المشركين فقال: «في النار يعذبون يقولون لا تقم لنا الساعة، ولا تنجز لنا ما وعدتنا».

حمزة: ان الحديث عن عذاب القبر شيء يخيف يا سعيد واحس اني أرتجف من هذا الذي تذكره .

سعيد: لا بد للمؤمن ان يخاف من الموت والقبر والحساب والعقاب، ولا بد أن يكون هذا الخوف باعثاً له للعمل الصالح حتى يكون من السعداء ويلاقي ربه وهو عنه راض.

حمزة: حدثني يا سعيد عن تفاصيل يوم القيامة.

سعيد: إنّ الحديث عن تفاصيل يوم القيامة ذو شجون يا حمزة .

تفاصيل يوم القيامة

هناك أكثر من مشهد لذلك اليوم الرهيب وأوّل مشهد هو نفخ الصور من قبل أحد ملائكة الله الذي يُسّمى بأسرافيل فيقوم الناس جميعهم من لدن آدم إلى آخر إنسان من الأجداث إلى ربهم شاخصةً أبصارُهم والقلوب في حالة اضطراب وخوف وذعر وإلى ذلك يشير سبحانه في كتابه المجيد:

﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج :١ ـ ٢].

ويقول تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجّاً * وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثّاً وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْئَمَةِ مَآ أَصْحَابُ ٱلْمَشْئَمَةِ وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ * أُوْلَـٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١ ـ ١١].

حمزة: يا إلهي ما هذا؟!

سعيد: هناك خطبة للإمام أمير المؤمنين فيها وصفٌ كاملٌ لهذا المشهد العظيم يقول عليه السلام: «اسمع يا ذا الغفلة والتصريف من ذي الوعظ والتعريف، جعل يوم الحشر يوم العرض والسؤال والحباء والنكال، يوم تقلب إليه أعمال الأنام وتحصى فيه جميع الآثام، يوم تذوب من النفوس أحداق عيونها، وتضع الحوامل

ما في بطونها، وتفوق من كل نفس وجيبها، ويحار في تلك الأهوال عقل لبيبها، إذ نكرت الأرض بعد حسن عمارتها، وتبدلت بالخلق بعد أنيق زهرتها، أُخرجت من معادن الغيث أثقالها، ونفضت إلى الله أحمالها، يوم لا ينفع الحذر إذ عاينوا طول أنطبافها، واستلمت النفوس إلى الله بأسبابها، كشف عن الآخرة غطاوّها، فظهر للخلق أنباوّها، فدكت الأرض دكا دكاً، ومدت لأمر يراد بها مداً، واشتد المثارون إلى الله شداً شداً، وتراجفت الخلائق إلى المحشر زحفاً زحفاً، ورد المجرمون على الأعقاب رداً رداً، وجد الأمر ويحك يا إنسان جداً جداً، وقربوا للحساب فرداً فرداً، وجاء ربك والملك صفاً صفاً، يسألهم عما عملوا صرفاً صرفاً، وجيء بهم عراة الأبدان خشعاً أبصارهم أمامهم الحساب، ومن ورائهم جهنم يسمعون زفيرها ويرون سعيرها، فلم يجدوا ناصراً ولا ولياً يجيرهم من الذل، فهم يعدون سراعاً إلى موقف الحشر، يساقون سوقاً، فالسموات مطويات بيمينه كطي السجل للكتب، والعباد على الصراط وجلت قلوبهم، يظنون انهم لا يسلمون ولا يؤذن لهم فيتكلمون ولا يقبل منهم فيعتذون، قد ختم على افواهم، واستنطقت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، يالها من ساعة ما أشجى مواقعها من القلوب حين ميز بين الفريقين فريق في الجنة وفريق في السعير، من مثل هذا فليهرب الهاربون، إذا كانت الدار الآخرة لها فليعمل العاملون».

حمزة: وهو ينظر إلى وجه سعيد الذي بدا عليه الخوف وسالت دموعه من عينيه وهو ينقل هذه الخطبة من كتاب أمالي الشيخ المفيد إلى حمزة، فتسمّر حمزة في مكانه مضطرباً لا يدري ماذا يقول أو يفعل، وبعد طول صمت خيم على الغرفة. قال حمزة: يا سعيد لقد هلكنا والله إلى أين المفر والمهرب وكيف ننجو من كل هذا الهول العظيم وقد ملأت الذنوب أيّام حياتنا؟

سعيد: ولكن هناك أمل يا حمزة.

حمزة: ما هو وكيف ؟

سعيد: إنّها شفاعة محمد وآل محمد.

حمزة: وكيف تكون هناك شفاعة في حين ان القرآن ينفيها عن كل احد وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓاْ أَنْفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَٱلْكَافِرُونَ هُمُ ٱلْظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] .

أو قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] .

سعيد: نعم هذا بالنسبة إلى الكفار وأمّا المؤمنون فهم ينالون شفاعة النبي ﷺ وأهل بيته والدليل على ذلك من القرآن قوله تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ [طه: ١٠٩].

أو قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

أو قوله تبارك وتقدس: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦].

ومن هذه الآيات نعرف أنّ هناك بعض الناس من الذين يرضى الله قولهم ويأذن لهم بالشفاعة، ـ وهم طبعاً ـ لا يشفعون إلا لمن توفرت فيه شرائط خاصة.

وهنا تأتي الأحاديث الشريفة التي تؤكد ثبوت الشفاعة للنبي ﷺ كقوله ﷺ «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، واني اختبأت

دعوتي شفاعة لأُمتي، وهي نائلة منهم من لا يشرك بالله شيئاً» [البخاري: ٨ / ٣٣].

أو قوله ﷺ: «إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» [من لا يحضره الفقيه: ٣ / ٣٧٦] إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة النبي تثبت شفاعة النبي ﷺ .

حمزة: اذن للشفاعة شروط أليس كذلك؟

سعيد: نعم يا حمزة: وهي كما يلي بما هو مستفاد من الآيات والروايات :

١ ـ عدم الإشراك بالله تعالى .

٢ ـ الإخلاص في الشهادة في التوحيد .

٣ ـ عدم كونه ناصبياً. لقول الإمام الصادق عليه السلام: «ان المؤمن ليشفع لحميمه إلّا أن يكون ناصبياً، ولو أنّ ناصبياً شفع له كلُّ نبي مرسل وملك مقرب ما شُفّعوا» [ثواب الأعمال للصدوق: ٢٥١] .

٤ ـ عدم الاستخفاف بالصلاة. لقول الإمام الكاظم عليه السلام: «لا تنال شفاعتنا من استخف بالصّلاة» [الكافي: ٣ / ٢٧٠].

٥ ـ عدم التكذيب بشفاعة النبي ﷺ لقول الرضا عليه السلام: «من كذب بشفاعة رسول الله لم تنله» [عيون اخبار الرضا: ٢ / ٦٦] .

حمزة: أحسنت يا سعيد أنا شاكر لك كثيراً .

سعيد: أحسن الله اليك يا أخي العزيز .

حمزة: لقد قلبت أفكاري رأساً على عقب وجعلتني أصحو من الغفلة التي كنت أعيش فيها لسنين، متكبراً على ربي معجباً بنفسي، وأنا الآن أريد أن اتوب

إلى الله وأكون انساناً صالحاً فهل ترى لي من توبة.

سعيد: نعم ان الله تعالى يفرح بتوبة السعيد ويغير سيئاته حسنات ويدخله الجنة بغير حساب. قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] .

حمزة: الحمد لله رب العالمين وأريدك يا سعيد ان تُفقّهني في الدين وتعلمني الحلال والحرام بشكل جيّد.

سعيد: أنا اليوم مسرور جدّاً وأُحس بأنّي قد أنجزت شيئاً عظيماً.

ثم ودع حمزة سعيداً على ان يأتي إليه في اليوم التالي من أجل ان يبدأ معه دروساً في الفقه والعقيدة من أجل ان يكون إنساناً متديناً قلباً وقالباً، فكراً وسلوكاً، وأما سعيد فقد كانت الفرحة لا تسعه وهو يرى ابن عمه قد عاد إلى حضيرة الإيمان وتغيّر نحو الصلاح .

مصادر الكتاب

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ آية التطهير . . . . السيد علي الميلاني.

٣ ـ آية الولاية . . . . السيد علي الميلاني.

٤ ـ الاحتجاج . . . . الطبرسي .

٥ ـ إحقاق الحق . . . . للتستري.

٦ ـ إحكام القرآن . . . . الجصّاص.

٧ ـ إرشاد الساري . . . . للقسطلاني.

٨ ـ إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين . . . . المقداد السيوري.

٩ ـ أسباب النزول . . . . للسيوطي.

١٠ ـ أسباب نزول الآيات. . . . . الواحدي النيسابوري.

١١ ـ الاستيعاب. . . . . لابن عبد البر.

١٢ ـ أسرار الكون في القرآن . . . . داود سلمان السعدي.

١٣ ـ الإسلام في قفص الاتهام .... شوقي أبو خليل.
١٤ ـ الإصابة.............. ابن حجر
١٥ ـ أصل الشيعة وأُصولها.......... كاشف الغطاء
١٦ ـ الاعتقادات .... للصدوق.
١٧ ـ اعلام الورى .... للطبرسي.
١٨ ـ أعيان الشيعة .... للسيد محسن الأمين
١٩ ـ الاقتصاد .... للطوسي.
٢٠ ـ أقسام المولى .... للمفيد.
٢١ ـ الله خالق الكون............. جعفر الهادي.
٢٢ ـ الله والعقل والكون............ بوادي بن
٢٣ ـ الإلهيات............... السبحاني
٢٤ ـ الأمالي .... للمفيد
٢٥ ـ الإمام المهدي من المهد إلى الظهور......... محمد كاظم القزويني
٢٦ ـ الإمامة .... المطهري
٢٧ ـ الإمامة.............. كمال الحيدري
٢٨ ـ الإمامة .... علي الميلاني
٢٩ ـ الامامة الالهية.............. محمد سند
٣٠ ـ إمامة بقية الأئمة .... السيد علي الميلاني
٣١ ـ الإمامة والتبصرة........... لابن بابويه
٣٢ ـ الإمامة والسياسة .... ابن قتية الدينوري
٣٣ ـ الإمامة والقيادة والمجتمع .... كاظم الحائري

٣٤ ـ أنساب الأشراف .... البلاذري
٣٥ ـ أهل البيت في الكتاب المقدس .... أحمد الواسطي
٣٦ ـ أين سنة رسول الله وماذا فعلوا بها .... المحامي أحمد حسين يعقوب
٣٧ ـ أسد الغابة .... ابن الأثير
٣٨ ـ بحار الأنوار .... المجلسي
٣٩ ـ بحث حول المهدي .... السيد محمد باقر الصدر
٤٠ ـ بداية الحكمة .... العلامة الطباطبائي
٤١ ـ بداية المعارف الإلهية.......... محسن الخرازي
٤٢ ـ البداية والنهاية .... ابن كثير
٤٣ ـ البرهان.......... الزركشي
٤٤ ـ بشارة المصطفى.......... للطبري
٤٥ ـ البلاغة الواضحة .... علي الجارم ومصطفى أمين
٤٦ ـ البيان في تفسير القرآن.......... السيد الخوئي
٤٧ ـ البيان في تفسير القرآن .... الطوسي
٤٨ ـ تاريخ ابن خلدون.......... ابن خلدون
٤٩ ـ تاريخ الإسلام الثقافي والسياسي .... صائب عبد الحميد
٥٠ ـ تاريخ بغداد.......... الخطيب البغدادي
٥١ ـ تاريخ الطبري .... الطبري
٥٢ ـ تاريخ مدينة دمشق.......... ابن عساكر
٥٣ ـ تاريخ اليعقوبي .... اليعقوبي
٥٤ ـ تأويل الآيات.......... لشرف الدين الحسيني

٥٥ ـ التبيان في تفسير القرآن .... الطوسي
٥٦ ـ تحفة الاحوذي......... المباركفوري
٥٧ ـ تذكرة الموضوعات .... الفتني
٥٨ ـ تسلية الفواد .... عبد الله شبر
٥٩ ـ تفسير ابن كثير .... ابن كثير
٦٠ ـ تفسير البغوي .... البغوي
٦١ ـ تفسير الجلالين .... السيوطي
٦٢ ـ تفسير القرآن .... عبد الرزاق الصنعاني
٦٣ ـ تفسير القرطبي .... القرطبي
٦٤ ـ التفسير الكبير .... الفخر الرازي
٦٥ ـ تفسير مجمع البيان .... الطبرسي
٦٦ ـ تفسير المراغي .... للمراغي
٦٧ ـ تفسير مواهب الرحمن .... عبد الأعلى السبزواري
٦٨ ـ تفسير الميزان .... الطباطبائي
٦٩ ـ تفسير نور الثعلبي .... للحويزي
٧٠ ـ تلخيص الإلهيات........ السبحاني
٧١ ـ التمهيد في علوم القرآن .... محمد هادي معرفة
٧٢ ـ التوحيد .... كمال الحيدري
٧٣ ـ التوحيد .... للصدوق
٧٤ ـ التوحيد في القرآن .... جوادي آملي
٧٥ ـ توضيح المراد .... هاشم الطهراني

٧٦ ـ جامع البيان .... أبي جرير الطبري
٧٧ ـ الجامع الصغير .... جلال الدين السيوطي
٧٨ ـ حديث الثقلين .... السيد علي الميلاني
٧٩ ـ حديث الغدير .... السيد علي الميلاني
٨٠ ـ حديث المنزلة .... السيد علي الميلاني
٨١ ـ الحق اليقين في أُصول الدين .... السيد عبد الله شبر
٨٢ ـ الحكمة المتعالية .... صدر الدين الشيرازي
٨٣ ـ حلية الأولياء .... لابن نعيم
٨٤ ـ خبر غدير خم .... للبحراني
٨٥ ـ الخرائج .... للراوندي
٨٦ ـ خصائص أمير المؤمنين .... النسائي
٨٧ ـ خطط الشام .... محمد كرد علي
٨٨ ـ خلاصة عبقات الأنوار .... السيد حامد النقوي
٨٩ ـ الدر المنثور .... جلال الدين السيوطي
٩٠ ـ دروس في العقيدة الإسلامية .... اليزدي
٩١ ـ دلائل الإمامة .... محمد بن جرير الطبري الشيعي
٩٢ ـ دلائل النبوة .... للبيهقي
٩٣ ـ دليل النص بخبر الغدير .... الكراجكي
٩٤ ـ الرحلة المدرسية .... البلاغي
٩٥ ـ رسالات إسلامية .... عادل العلوي
٩٦ ـ السقيفة .... محمد رضا المظفر

٩٧ ـ سلسلة دروس في العقائد الإسلامية .... مكارم الشيرازي
٩٨ ـ سنن ابن داود .... بن الاشعث السجستاني
٩٩ ـ سنن ابن ماجة............... محمد بن يزيد القزويني
١٠٠ ـ سنن الترمذي .... الترمذي
١٠١ ـ سنن الدارمي............... عبد الله بن بهرام الدارمي
١٠٢ ـ السنن الكبرى .... البيهقي
١٠٣ ـ سنن النسائي...................... النسائي
١٠٤ ـ سير أعلام النبلاء..................... الذهبي
١٠٥ ـ السيرة الحلبية .... للحلبي
١٠٦ ـ الشافي في الإمامة............... الشريف المرتضى
١٠٧ ـ شرح إحقاق الحق .... السيد المرعشي
١٠٨ ـ شرح أُصول الكافي .... المازندراني
١٠٩ ـ شرح الباب الحادي عشر .... العلامة الحلي
١١٠ ـ شرح تجريد الاعتقاد............... العلّامة الحلي
١١١ ـ شرح سنن النسائي .... جلال الدين السيوطي
١١٢ ـ شرح مسلم....................... النووي
١١٣ ـ شرح نهج البلاغة .... لابن أبي الحديد
١١٤ ـ شعب الإيمان .... للبيهقي
١١٥ ـ شواهد التنزيل .... الواحدي الحسكاني
١١٦ ـ الصحاح .... الجوهري
١١٧ ـ صحيح ابن حبان .... لابن حبان

١١٨ ـ صحيح ابن خزيمة .... لابن خزيمة
١١٩ ـ صحيح البخاري .... البخاري
١٢٠ ـ صحيح مسلم .... مسلم النيسابوري
١٢١ ـ الصحيح من السيرة النبوية .... السيد مرتضى العاملي
١٢٢ ـ الصراد المستقيم .... علي بن يونس العاملي
١٢٣ ـ الصراط المستقيم .... النباطي العاملي
١٢٤ ـ الصراط المستقيم .... للبيضاني
١٢٥ ـ الصواعق المحرقة .... ابن حجر
١٢٦ ـ الطبقات الكبرى .... لابن سعد
١٢٧ ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام .... فاضل الموسوي
١٢٨ ـ العدل الإلهي .... المطهري
١٢٩ ـ العصمة .... كمال الحيدري
١٣٠ ـ عصمة الأنبياء .... السيد المرتضى
١٣١ ـ عقائد الإسلام .... مرتضى العسكري
١٣٢ ـ العقائد الإسلامية .... مركز المصطفى
١٣٣ ـ عقائد الإمامية .... المظفر
١٣٤ ـ العقائد الحقة .... علي الحسيني الصدر
١٣٥ ـ عقائدنا .... محمد الصادقي الطهراني
١٣٦ ـ كتاب السنة .... عمرو ابن أبي عاصم
١٣٧ ـ العهود المحمدية .... الشطراني
١٣٨ ـ عيون أخبار الرضا .... الصدوق

١٣٩ ـ الغارات .... إبراهيم بن محمد الثقفي

١٤٠ ـ غاية المرام .... السيد هاشم البحراني

١٤١ ـ الغدير .... الأميني

١٤٢ ـ الغيبة .... الطوسي

١٤٣ ـ فتح الباري .... ابن حجر

١٤٤ ـ فتح القدير .... الشوكاني

١٤٥ ـ الفصول المختارة .... المفيد

١٤٦ ـ الفصول المهمة في أُصول الأئمة .... الحر العاملي

١٤٧ ـ فضائل الصحابة .... الإمام أحمد بن حنبل

١٤٨ ـ فضل آل البيت .... المقريزي

١٤٩ ـ الفكر الإسلامي مواجهة حضارية .... المُدّرسي

١٥٠ ـ فلسفتنا .... محمد باقر الصدر

١٥١ ـ في رحاب العقيدة .... السيد محمد سعيد الحكيم

١٥٢ ـ فيض الغدير شرح الجامع الصغير .... المناوي

١٥٣ ـ قاموس الكتاب المقدس .... مجمع الكنائس الشرقية

١٥٤ ـ القرآن نهج وحضارة .... الستراوي

١٥٥ ـ قصص الأنبياء .... علي دخيل

١٥٦ ـ قضية الخلق بين الماديين والمثاليين ... عبد الرسول مهدي عيرة

١٥٧ ـ الكافي .... الكليني

١٥٨ ـ كتاب الجمل .... للمفيد

١٥٩ ـ كتاب العلم .... أبو خثيمة النسائي

١٦٠ ـ كتاب الغيبة .... محمد بن إبراهيم النعماني
١٦١ ـ كتاب المسند .... الإمام الشافعي
١٦٢ ـ الكتاب المقدس .... مجمع الكنائس الشرقية
١٦٣ ـ كشف الخفاء .... العجلوني
١٦٤ ـ كشف الغمة .... للاربلي
١٦٥ ـ كفاية الأثر .... خزار القمي
١٦٦ ـ كفاية الطالب .... للكنجي الشافعي
١٦٧ ـ كمال الدين .... للصدوق
١٦٨ ـ كمال الدين واتمام النعمة .... الشيخ الصدوق
١٦٩ ـ كنز العمال .... المتقي الهندي
١٧٠ ـ لسان العرب .... ابن منظور
١٧١ ـ الألفين في إمامة أمير المؤمنين .... العلامة الحلي
١٧٢ ـ ليالي بيشاور .... محمد الموسوي الشيرازي
١٧٣ ـ مجمع الزوائد .... الهيثمي
١٧٤ ـ محاضرات في الاعتقادات .... السيد علي الميلاني
١٧٥ ـ مدخل إلى الإمامة .... كمال الحيدري
١٧٦ ـ المراجعات .... شرف الدين العاملي
١٧٧ ـ المستدرك .... الحاكم النيسابوري
١٧٨ ـ مستدرك الوسائل .... للنوري
١٧٩ ـ مسند أبي داود الطيالسي .... سليمان بن داود الطيالسي
١٨٠ ـ مسند أحمد .... الإمام أحمد بن حنبل

١٨١ ـ مسند أبي يعلي .... أبو يعلي الموصلي
١٨٢ ـ مسند الشاميين .... الطبراني
١٨٣ ـ المصنف .... عبد الرزاق الصنايعي
١٨٤ ـ المعاد .... المطهري
١٨٥ ـ المعاد والقيامة في القرآن .... جوادي آملي
١٨٦ ـ المعادين الروح والجسد .... تقي فلسفي
١٨٧ ـ معارف القرآن .... مصباح يزدي
١٨٨ ـ معالم المدرستين .... مرتضى العسكري
١٨٩ ـ معاني القرآن .... للنحاس
١٩٠ ـ المعجم الأوسط .... الطبراني
١٩١ ـ معجم ألفاظ القرآن الكريم .... محمد فؤاد عبد الباقي
١٩٢ ـ معجم البلدان .... الحموي
١٩٣ ـ المعجم الصغير .... الطبراني
١٩٤ ـ المعجم الكبير .... الطبراني
١٩٥ ـ المعيار والموازنة .... أبو جعفر الإسكافي
١٩٦ ـ المغني .... للقاضي عبد الجبار
١٩٧ ـ مفردات غريب القرآن .... الراغب الإصفهاني
١٩٨ ـ مكاتيب الرسول .... الأحمدي الميانجي
١٩٩ ـ الملل والنحل .... السبحاني
٢٠٠ ـ منازل الآخرة .... عباس القمي
٢٠١ ـ المناقب .... الموفق الخوارزمي

٢٠٢ ـ مناقب آل الرسول .... للنجفي الآبادي
٢٠٣ ـ مناقب علي .... للكوفي
٢٠٤ ـ مناهج اليقين........ العلّامة الحلي
٢٠٥ ـ المنتخب من الذيل المذيل .... الطبري
٢٠٦ ـ المنهج الجديد في تعليم الفلسفة........ مصباح يزدي
٢٠٧ ـ المواجهة مع رسول الله وآله...... المحامي أحمد حسين يعقوب
٢٠٨ ـ موسوعة التاريخ الإسلامي........ محمد هادي الغروي
٢٠٩ ـ نشأة التشيع .... السيد محمد باقر الصدر
٢١٠ ـ النص والاجتهاد........ شرف الدين العاملي
٢١١ ـ نظم درر السمطين .... الرزدتي الحنفي
٢١٢ ـ نفحات الأزهار .... السيد علي الميلاني
٢١٣ ـ نفحات اللاهوت........ للكركي
٢١٤ ـ نفحات القرآن........ مكارم الشيرازي
٢١٥ ـ النقض .... لأبي الرشيد الرازي
٢١٦ ـ النكت الإعتقادية .... المفيد
٢١٧ ـ نهاية الحكمة .... العلامة الطباطبائي
٢١٨ ـ نهج البلاغة........ الشريف الرضي
٢١٩ ـ الوجيز في عقائد الإمامية .... وحيد الخراساني
٢٢٠ ـ الوحي والنبوة في القرآن .... جوادي املي
٢٢١ ـ وسائل الشيعة........ للعاملي
٢٢٢ ـ ولاية الإنسان في القرآن........ جوادي آملي
٢٢٣ ـ ينابيع المودة لذوي القربى .... القندوزي

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

